المقدمة

ويكتب لمجلة الكلية ان تسير متوافقة مع مسيرة الكلية نفسها من حيث الزمن ، ويكتب لها ان تكون معبرة عن المواكبة العلمية الناضجة التي تجددت في خضم هذه السنين ، فاقترنت بالاحداث الكبيرة التي شهدها قطرنا ، وعكست المطامح المشروعة التي ظلت تعيش في اذهان الاساتذة وصولا الى المنهجية العلمية ، والتناول الموضوعي لمعطيات التراث الحي • وبذلك تكون المجلة قد ادت مهمتها في هذا المجال وهي تغني البحث بالعطاء المتواصل •

لقد اقترن عطاء المجلة بعطاء الحركة العلمية التي عاشتها الكلية ، متمثلا بالاعداد الكبيرة التي كانت وجها متميزا ، وحالة فريدة ، وصوتا من اصوات الجهد الواضح وبالمتابعة الجادة لهيئة التحرير وهي تواصل اداءها في تقديم كل ما يحقق للحركة العلمية وضوحها ويمنحها فرصة الاقتدار على حمل رسالتها ، واغناء تجربتها وفي هذه الظروف التي يجابه قطرنا تحديات القوى الشريرة ويتعرض لاقسى الهجمات الظالمة يقف شعبنا بكل قواه الخيرة وتقف أمتنا بكل ابنائها البررة ويقف العالم بكل الخيرين ليدينوا العدوان ، ويرفعوا أصواتهم عاليا لنصرة الحق العراقي في السيادة على ارضه ومياهه ، وليقطعوا الطريق على الذين يحاولون تحجيم ارادة الامة ، ووضع قدرتها في القوالب التي يريدونها للاجهاز عليها في أي وقت ••

ان الامة التي عاشت حية في عصور التاريخ ستبقى قادرة على حمل الامانة باقتدار لتظل متفاعلة مع أحداث التاريخ وان الامة التي اغنت العالم بحضارتها عبر مراحل السنين الطويلة ستكون داعية لدورها الحاضر لتعيد الدور الانساني الذي قدمته من خلال مؤسساتها العلمية ورجالها المؤمنين ومفكريها المبدعين •

تقويم جديد لظاهرة الهجاء في الشعر العربي قبل الاسـلام

الدكتور نوري حمودي علي القيسي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

تظل محاولات الدفاع عن النفس ، والسيطرة الذاتية التي تثير في نفوس الافراد نزعات الاستحواذ ، وقدرات الاعتزاز التي تفرض عليه ان يدافـــع عن وجهة النظر الذاتية شكلا متميزاً من أشكال حياة الانسان ، ولونا واضحا من الوان حياته العريقة التي طبعت صورتها فوق كل حالة من حالات حرصه على الاستمرار ، وفي كل حركة من حركات تحسسه بالوجود ، لان حب الحياة والحرص على اكتشاف مجاهيلها ومتابعة اسـتكمال بداياتها التي شـدت الانسان اليها لا تنتهي عند حدود اللحظات السريعة ، ولا تقف ازاء التراجعات الحادة التي تعتري الانسان فيستحيل بعدها صوتا خافتا ، او رمزا اسطوريا متناهيا أو قطعة هامدة تستحق الرحمة أو تدعو الى الشفقة او الاستعطاف • وهذا هو السر في اندفاع الانسان لتجديد طاقته ، او تحقيق مطامحه والسير وراء الخوافق الأصيلة التي تملك عليه قدرة التحرك ، وتتوجه الوجهة التي تراها قادرة على هذا التحقيق ، وتمكنه من تطمين تلك الرغبات •

والمجتمع الانساني بكل أطواره ، ومختلف مراحله حقق في ظل هـذه النوازع تطـورات هامـة مكنته من تغيير واقعه بما يتناسب مع تلك النوازع ووضعته في المواضع التي تتلاءم مع قدراته وامكاناته التي حققها افراد تلك المجتمعات • ولما كانت قدرات الافراد متفاوتة من حيث الاداء والاستيعاب ، ومحددة في اطار الظرف الزماني والمكاني • فقد جاءت أقدار تلك الاطـــوار متآلفة مع تلك القدرات وهذا ما اعطى المجتمعات صفة التميز ، وحـدد لها مجال التحرك ، وقدر لها موضوعات التسلسل الحضاري في سلم الامم •

والانسان الذي سار في الموكب الحياتي لمسيرة الامم انسان له قدراته التي اخذها عن أبناء مجتمعه ، وتأثر بها في ظل تقاليد وقيم ذلك المجتمع ، وله وسائله التي يستخدمها لتحقيق ذاته ، وتأكيد شخصيته ، وتطمين رغباته التي يدافع عنها بكل الطرق الكفلية . فكانت الحركة السريعة واستخدام السلاح البسيط ، والتناول الممكن ، واللجوء الى التوسل والتضرع . والاستعانة بالاشارة والعبارة والكلمة . كل هذه الوسائل كانت تنمو نموا منطقيا مع طبيعة الحاجات التي تفرضها الظروف الانية والمرحلية لمسيرته هذه . وقد وهب الانسان عقلا يستطيع بواسطته ان يدرك حقيقة الاشياء ادراكا متفاوتا ويتلمس وسائل الاستخدام تلمسا مناسبا ، ووهب حكمة في الاستعانة بكل وسيلة بما يناسبها . ولعل الدراسات العلمية التي صاحبت تطور الانسان تقدم لنا النماذج الكفيلة بهذا السلم التطوري ، وبالوسائل المرحلية التي قدمها في كل مناسبة ، ولما كانت الكلمة جزء من هذا السلاح فلا بد ان تظل لصيقة بالاهداف الحقيقية التي نشأت في ظلها ، والتزمت بأدائها ، وعبرت عن مضامينها . ومفهوم الكلمة في هذا التحديد لايعني الكلمة السائبة او الكلمة التي تنتهي عند حدود استخدامها ، وانما المقصود بها الكلمة المتطورة التي اخذت حجمها في التعبير سجعا او نثرا او شعرا . والكلمة التي دخلت في تحديد الاهداف التي تحرك دواعي استخدامها ، لانها مرتبطة باسباب ، ومتصلة باعتبارات ، ومعبرة عن اغراض . وهذه كلها لايمكن ان تكون منفصلة عن حياتها وحركتها ولونها واسلوبها . ولا يمكن ان تضل غير فاعلة في تأثيرها وانفعالها واستجابتها ، وهذا يضع الشعر في مقام الوسائل الاخرى المستخدمة في الدفاع عن الانسان او التعبير عن رغباته الذاتية ، او الاحساس بما يعانيه من مشاعر التأثر او الانفعال وهذا ما تؤكده كل المضامين التي حملت مشاعر هذا الانسان خلال حياته الطويلة التي عانى في ظلها الوانا من القهر ، واصنافا من العذاب والتسلط ، وضروبا من التعسف ، الى جانب اناشيده الانسانية التي سجلت لحظات حبه او حزنه ، دفاعه عن نفسه او ارضه ، نزوعه

الى انسانيته او فرديته • وتتجلّى حقيقة هـذا التصور في ابيات قيس بـن خفاف الذي اعد للنائبات سيفا قاطعا ، ووقع لسان كحد السنان[1] •

فأصبـحت أعـددتُ للنائبـا
ت عِرضـاً بريئـاً وعَضباءً صقيلا
ووقـعَ لسـانٌ كحـدّ السـنا
ن ورمحـاً طويل القناة عَسُـولا
وسـابغةً مـن جيـاد الـدرو
عِ تسمع للسـيف فيهـا صـليلا

فالشعر والسلاح يصدران عن سبب واحد ، ويؤديان مهمة واحدة ، ويحملان هدفاً واحداً ، ويؤثران في الخصم تأثيراً متقارباً من حيث الاداء • ولابد ان ترتبط عناصرهما الاساسية ، وتتفق خائصهما في حدود تلك الاهداف • واذا حاولنا تخصيص ضرب واحد من الشعر وهو الهجاء ، استطعنا ان نحـدد وسيلة من وسائل التعبير ، وطريقة من طرق الحس ، ونموذجا من نماذج التفكير التي تختلف عن طرق الاخرين التي تثير في النفس المعارضة او السـخط او الغضب •

ان السياق الزمني الذي مرت به اللفظة هو السياق الذي حـدد لنـا الاصطلاح الذي شاعت فيه واستخدمت في حدوده ، فعندما كانت لفظـة الهجاء تضيق في حدود المعايب الشخصية كانت تنحسر كل معانيها في هـذه الدائرة ، لانها اقتصرت على ما تحققه هذه الدائرة ، والتزمت بالاسـاليب التي كانت تؤديها ، والاغراض التي تستخدم فيها • وهي دائرة تقف عنـد اعتبارات السخط والغضب الناتجة عن الفخر القبلي بتجريد الخصوم من القيم

---

(١) المفضل الضبي : المفضليات ٢/١٨٦ .

المحمودة التي تمثل اعرافا اجتماعية متفقا عليها ، وملتزما بمقاييسها ، ووضعهم في المكانة التي تجعلهم اهدافا للنقد ، ومواضع للاستخفاف ، وصورا للسخرية وقد اخذت هذه المعاني احجاما في شعر الشعراء ، ولكنها تشكل الصورة الواضحة التي ظلت معانيها تستخدم في المحيط الاجتماعي والقبلي ، وبقيت تأثيراتها تؤلف النبع الذي يستمد منه الشعراء هجاءهم لاسكات الاصوات ، وتوجيه المجموعة القبلية الى الحرص على الالتزام بكل ما يدعو الى الحفاظ على هذه المكانة ، والدعوة الى ابقاء الانسان في المكانة المرموقة ، لان الرقابة الشعرية ، والرصد الاجتماعي ، والتقصي وراء السلوك المناهض لتلك القيم كان قادرا على ادراك كل جوانب السقوط التي ينحدر اليها الناس ، ومتابعاً لكل الاخفاقات التي تلحق بهولاء الناس في حالة تنازلهم عن تلك القيم ، ووقوعهم في دائرة التهاون الذي يحمل عليهم هجاء الشعراء ، وهذا ما حقق للهجاء الدور البارز في تقويم الحركة الاجتماعية لانه يمثل السوط المرفوع لرد كل النزعات الشريرة ، وكبح كل النفوس التي تحاول التجاوز او الخروج على الاعراف السائدة والتقاليد التي اصبحت دستورا للقبيلة ، وايقاف جموحها ، والحد من استمراريتها في المعاصي •

ان مهمة الهجاء في ظل الواقع الاجتماعي القبلي كانت مهمة اصلاح وتقويم لانه وسيلة العلاج ، وطريق الدفاع عن الحقيقة التي ترسخت اصولها في الاذهان ، وقبل بها الناس اعرافا متداولة ، وقيما مشاعة ، ومثلا يحسن الخضوع لها بسبب قدرتها على شد التماسك بين الافراد • وتوثيق الاواصر ، وتنمية العلاقات ، وان هذه المهمة لم تنحصر في قدرتها على اقتناص الاسباب وحدها ، او الترصد الذي يفقد الهدف غايته ، وانما كان اقتناصا واعيا ، وترصدا مدركا • تتحسس الفرق بين واقع الاشياء وبين ما يجب ان تكون عليه ، بين حقيقة القيم وما يمكن ان يطبق منها ، بين انسانية العادات وما يمكن ان يعود بسببها على المجموعة بالسعادة والرفاه • وهنا تتجلى قدرة الشعراء التي

تحدد هذه المهام ، وتفرز النتائج التي تخرج على المألوف لتكون شريحة للنقد ، وصورة للهجاء ، ورمزا من رموز التقريع والتأنيب . وعندها تستجيب لهذا الصوت كل النوازع الكامنة التي استثارتها قدرة الشعراء لتردد معهم هذا الصوت ، وترفع نبراته الحادة لتملأ الارض ، وتنتشر فوق ربوع الجزيرة فتطوي فيافيها المقفرة على لسان مرتحل ازجى مطيته ، او شاعر حمل همومه فلم تستقر به ارض .

لقد ظل المجتمع العربي أمينا على قيمة التي رسختها مسيرة الامة الطويلة ، وبقي يعتز بولائه لكل المثل التي نادت بها الامة ، وقدمت من أجلها اعظم التضحيات ، لان هذا المجتمع كان يشعر بمهمته الاجتماعية والاخلاقية التي كان يحققها في هذا الاتجاه ، وهذا ما كان يدفعه الى ان يكشف عن خوافي النفوس التي تتظاهر بغير ما هي عليه ، وتعبر عما ليس تعتقد به ، وتجاهر بما ليس في داخلها . وكثيرا ما كانت تتضح هذه المهام في تقريع الخصال الذميمة وفضح الاساليب غير الانسانية التي تمارس في حدود القبيلة ، ونزع الثقة من بعض الاشخاص الذين منحتهم مجتمعاتهم الولاء ، ودواعي التقدير ، وهي ظاهرة تعكس غريزة الاحتجاج الدفينة التي تتولد في نفوس الشعراء لوضع الامور في مواضعها المناسبة ، وتقدير الاشياء تقديرا يتلاءم والمراحل التي يمكن ان تكون فيه .. وهي بالتالي مسألة اجتماعية تتناول الموضوعات تناولا موضوعيا يحدد فيها زاوية النقد ، ويعالج في اطارها المسائل معالجة صائبة - في كثير من الاحيان - لان بعض الموضوعات قد تصاحبها قدرة العواطف ، او تتداخل فيها الاسباب الذاتية . وقد قدم الشعر العربي قبل الاسلام صورا رائدة في هذا المجال يمكن الاستشهاد بها والوقوف عليها[1] .

---

(١) تنظر قصائد الاعشي في ديوانه : ٢٦ و ٣٤ و ٢٠ و ١٩ و ٧٣ و ٦٢ و١٨ و١٥ وقصائد بشر بن ابي خازم . ١٤٤،١٧،٣٤ . والاصمعيات ٥و١٣ و ٤٥ و ٨٩ وديوان لبيد / ٢٣ ، ٣٤ ، ٣٧٠ ، ٢٣١ .

لقد حددت طبيعة الهجاء المسلك الذي سار فيه هذا الغرض الشعري ، ووضعت مضامينه في القنوات الحياتية التي وجدت فيها الجريان السهل ، والوصول السريع والتأثير المباشر ، وهي طبيعة متداخلة من حيث التأثير ومتواصلة من حيث الاستمرار والتوجه ، وقد وجدت هذه الاهداف صور المعاني المستخدمة لانها تدخل في حالة الدفاع عن النفس ، واضعاف شوكة الخصم ، واستلاب الصفات الحميدة ، وانتزاع المعاني الخيرة ، وتجريده من القيم التي يعتز بها الانسان . وكان الشعراء يتوسلون الى ذلك باساليب التهكم والسخرية للنيل من هؤلاء الخصوم ، ويلجأون الى أساليب المفاضلة التي يتخذون منها مجالا لعقد المقارنة ، وابراز النقائص ، وتمييز الصور المتباعدة :

يا عجب الدهر متى سويّا

كم ضاحك من ذا ومن ساخر

وهي حالة انسانية متحركة ، استقطبت عناصر الشد والتأزم ، واستوعبت قدرة التعبير والتمثل فكانت اسلوبا من اساليب المقاومة ، وصوتا من اصوات الانتقاص التي يظل صداها متجاوبا في كثير من النفوس ، ومترددا في اوساط كثيرة من المحافل ، ولعل الشاعر بشر بن ابي خازم الاسدي يعد نموذجا من نماذج الشعراء الذين عرفوا باستخدام هذه القدرة ، وهو يجعل اوس ابن حارثة هدفا كبيرا من اهداف هجائه لاسباب قد تختلف مع كثير من الاسباب التي حددها النقاد القدامى ، فهي لم تكن رغبة في الطمع ، او حبا في المال الذي أغري به ، او انتقاصا لغرض الانتقاص ، وانما كان محاولة لتجريده مما كان يفخر به ، فهو من قوم لايوفون اذا وعدوا ، قاصرون عن غاية

الجود والكرم اذا اشتدت الازمات ، ضعفاء اذا اشتعلت الحرب ، وخرجت النسوة الى الخلاء من الفزع[٢] :

فيـاعجبـــاً عجـــبت لآل لأم
أمَا لـهمُ اذا عَقــدوا وفـــاءُ

وأنكاس اذا اسـتعرَت ضـروس"
تخلّـــى مـــن مخافتهـا النســاءُ

ثم يعود الى الاحتماء بقبيلة بني أسد عندما علم بوعيد أوس فيقول[٣] :

فياعجبـاً ايوعــدني ابن سُعْدى
وقــد أبدى مَســاوئه الهجـــاء

وحــولي مــن بني اســد حُـلول"
كمثل الليــل ضـاقَ به الفضـــاء

ويظل هذا الصوت يرتفع في قصيدته الثانية التي هجا فيها آوس بن حارثة ، وتظل المعاني التي حاول التركيز عليها تتردد في مضامينها ، لانتزاع الثقة مـن نفسه ، واسقاط مركزه الذي عرف به بين ابناء قبيلته ، وبين القبائل الأخرى وتأكيد خروجه على العرف الذي اصبح قانونا يلتزم به ، وتراثا يعتز بفضائله.. وهي صورة كانت تمتد أواصرها في كثير من شعر الهجاء ، وتأخذ حجمها في قصائد تناثرت في دواوين الشعراء ، لانها كانت تمثل الملتقى الفكري ، والتوجه الاجتماعي الذي أخذ به الشعراء انفسهم لتثبيت هذه المفاهيـم ، وترسيـخ أقدارها التي كانت تجد صداها في النفوس ، والاستجابة لهـا في المشاعـر ، والتاكيد عليها في أحاديث المجالس والاندية ..[٤]

---

(٢) بشر بن ابي خازم . الديوان / ٣ .

(٣) بشر : الديوان / ٤ .

(٤) بشر : الديوان / ٨ .

ألا أبلــغ بنــي لأمٍ رســولا فبئس محـل راحلـة الغــريب
اذا عقــدوا لجــار اخفــروه كمــا غــر الــرشاء من الــذنوب
آتوعدني بقومك يابن ســعدى وذلــك مــن ملمــات الخــطوب
وحــولي من بنــي أســد حلــول مبن بــين شبــان وشــيب

والشاعر هنا يدافع عن القيم التي نشأ عليها المجتمع ، ودافع عنها ، والتزم بادائها ، ويحرص على استمرارها والحفاظ عليها وانتقالها من جيل الى جيل ، ويؤكد موقفه من الذين لايحفظون أصولها ، وهي حقيقة تؤكدها الحقائق التي ترتبت عليها وظلت قصائد بشر بن ابي خازم الخمس صوتا يرتفع ليسلب كل أشكال السيادة التي تمتع بها هذا الرجل ، وصحيفة تجوب الجزيرة العربية لتعلن على كل الرؤوس اعمال آوس ، وتنشر خصاله التي وصفه بها بشر ، وتسقطه من المكانة الرفيعة التي عرف بها ، لأنه ـ وفي مفهوم الشاعر ، وقد يكون الشاعر مبالغا ـ خرج عليها ، وخرج على كل ماألفته الطبيعة العربية وتعوده المجتمع ، من وفاء بالعهد ، ومناصرة للضعيف ، ودفاع عن المرأة واطعام للضيف ، وانجاز الوعد . وان حرص الشاعر الذي حمله على أن يتحمل خصومة أوس كان عاملا حاسما ، ووظيفة لازمة ، ومهمة اجتماعية دفعته الى ان يخوض غمار هذا الموقف ، ويحدد وظيفته القومية التي تفرض عليه الدفاع عن المضامين الأجتماعية ، والقيم الأنسانية التي عاشت مع كل فرد ، وتحققت في كل نموذج ، وتوثقت في كل عمل حرص عليه الأبناء وان الواجب الأنساني والقيادي الذي وضعته القبيلة في اعناق شعرائها والمسؤولية التربوية التي فرضتها تقاليد المجتمع ، واساليب بنائه المتكاملة ، وحققها الحريصون على ترسيخ اصولها ، كانت تلزم الشاعر بهذا الموقف ، وتفرض عليه أن يسلك هذا المسلك ، كما حاول بشر أن يباشر الهجاء في قصيدته الثالثة ، وهو يهجو أوس بن حارثة ، ويتجاوز التقليد الفني الذي درج عليه في القصيدة الاولى والثانية ، وكأنه أراد أن يكون أكثر ايغالا في الايذاء ،

واعنف هجوما في التقويم واشد تنكيلا في المبادرة • وفي تحليل مضامين هذه القصيدة وجدنا الشاعر يستهزيء بقوم أوس من البيت الأول بعد أن باشر الغرض دون مقدمات وحاول أن يصل اليهم بلا تمهيد ، ثم يصب عليهم غضبه في الأبيات الاخرى وهو يجردهم من الخصائص التي عرف بها كرام الناس واشداؤهم ، وحاول أن يضعهم في صفوف الضعاف الذين لا يثبتون في الحرب ولا يصدقون القتال ويتهمهم بالتبعية وعدم الوفاء بعهد الجار وتنصلهم عن معاونة الفقراء ، ويصل الهجاء ذروته عندما يفرده لأوس بعد أن اشتفى من قبيلته حين يقول : [٥] ••

اذا ما المكرمات رُفعن يوما مددت لنيلها باعا قصيرا

غدرت بجار بيتك يا ابن لأم وكنت بمثل فعلتها جديرا

ان المعاني التي حاول الشاعر أن يستخدمها في الهجاء هي المعاني التي حرص المجتمع على احترامها ، ووضع كل طاقاته من اجل الحفاظ عليها ، والاهتداء بقيمها التي تغني المجتمع بعطائها ، وتصلح اخطاءه التي لم يستطع علاجها في ظل اوضاعه القائمة ، وأحواله السائدة • وان دعوات الشعراء واصواتهم التي كانت توجه الى الاشخاص الذين لايلتزمون بها تمثل الريادة الاصيلة التي امتلكها هؤلاء الشعراء وهم ينشرون قصائدهم ، ويذيعون اراءهم ، ويمررون افكارهم ، وعلى الرغم من المبالغات او عدم الدقة التي تتخلل هذه الاصوات او الدوافع الشخصية او الذاتية او القبلية التي تستثيرهم فانها كانت تحمل الشعار الذي كان المجتمع يقبل به والصورة التي يميز بها حياته المستمرة ، وقيمه التي تأصلت في كل سلوك من سلوك ابنائه ، وقد تركت هذه القصائد الهجائية أثرها في نفس أوس ، بعد ان سلخته من كثير من الخصائص التي عرف بها ، وشهر بالاتصاف بها « حتى نذر لو ظفر به

---

(٥) بشر بن ابي خازم . الديوان ٩٠ ـ ٩١ .

ليحرقه »[٦] ولم يحل هذا النذر ، والنتائج المترتبة عليـه دون استمرار بشر بهجائه لايمانه بان القيم التي تحدث عنها هي القيم التي أوكل بالدفاع عنها ، وبأن الصفات النبيلة التي دافع عنها ، واتهم أوس بالتنازل عنها ، هي الصفات التي حددتها القيم العربية الاصيلة ، وارتضاها السلوك الاجتماعي ، وامـن بها الجمهور لانها جزء من حياته ، واستكمال لبناء شخصيته ، وتمكن أوس من بشر فأسره • واراد ان يفي بنذره ، واوقد نارا ليحرقه ولكنه يعدل عن ذلك وتقول بعض الروايات ، أدخله في جلد بعير بعد ان سلخه ، ويقال جلد كبش ثم تركه حتى جف عليه ، زيادة في ايذائه ، وايغالا في تحقير شأنه ، وعندما بلغ ذلك (سعدى) أم أوس ، وكانت سيدة من سادات طي ، ذات رأي وحكمة ، خرجت اليه وقالت له : قبح الله قوما يسودونك أو يقتبسون من رأيك ، لقد مات ابوك فرجوتك لقومك عامة فأصبحت والله لا ارجوك لنفسك خاصة ، والله لكأنك أخذت (رَهْدناً)[٧] ، أما تعلم ما منزلته في قومه ، او ما تعلم أنه هجاك في بني بدر ، أزعمت أنك تحرق رجلا هجاك ، اذا من يمحو ما قال فيك • وأيم الله لو فعلت ماأستقلتها أنت ولا قومك أبدا • فقال لها أوس ، فما أصنع بـه • قالت أرى ان ترد عليـه ماله ، وتعفو عنه ، وتحبوه وتكرمـه • فانه لايغسل عنك ما صنع غيره •

لقد كانت كلمات (سعدى) ذات دلالة اجتماعية كبيرة لانها تعلـم قيمة الهجاء ، وتدرك أثاره العميقة التي ستتركها في كل نفس ، وما تتحمله القبيلة وهي تستمع الى أهاجي هذا الشاعر التي طبقت كل أفق ، واصـبحت على كل لسان ، وتبودلت في كل مجلس ، وانها تعلم ان الصورة التي رسمها لاوس هي صورة الضعف والتجريد من كل الخصال ، وان الاحاديث التـي

---

(٦) تنظر القصة كاملة في كامل المبرد / ١٩٩ وثمـار القلوب ٩١ ــ ٩٢ وكامل ابن الاثير ١/٢٦٦ والخـزانة ٢ /٢٦٣ ، ٤ / ١١١ ومقدمة ديوان بشر / ٢٥ ــ ٣١ .

(٧) الرهدن . طائر صغير كالعصفور ، تريد المراة ان تعظم من شأن بشر وتبين انه ليس شيئا هينا لهذا الطائر .

طوتها أهاجيه كانت تمثل الاحاديث التي تتبرأ منها كل القبائل ، ويأنف منها كل الاشخاص • وهذا يعني انها ستظل ملاصقة لكل الاجيال التي تتوارث أوسا أو ابناء قبيلته ، وستلاحقهم على الرغم من كل الاعمال الكبيرة التي سيقومون بها ، أو الايام الجليلة التي سيبلون فيها ، او البطولات الخالدة التي يسجلونها في كل معركة من المعارك •

و (سعدى) المرأة الذكية كانت تعرف أبعاد العمل الذي أقدم عليه أوس ، وحاول تنفيذه ، وان العرب وقوم بشر سيذكرون فعلته بكل مرارة ، وسيقولون فيها ما يقولون ، وان اللعنة الانسانية التي يتحملها من جراء حرقه لهذا الشاعر بسبب هجائه سوف لن تمحوها كل الحسنات الكبيرة التي يحاولها والاعمال الانسانية التي يقدمها ، كانت الام الكريمة تعرف كل هذا ، وتدرك اطراف المسألة الاجتماعية واثار الضغط القبلي الذي سيتعرضون اليه ، وهذا ما دفعها الى ان تعلن رأيها بصراحة • وهذا يؤكد قوة الصوت الشعري،وشموخ الدفاع عن القيم ، والتمسك بمضامين الشعر الهجائي الذي كان يمثل التوجيه الحقيقي لكل محاولة تبتعد عن الطريق السليم ، والريادة الاصيلة التي يمتلكها الشعراء،وهم يقفون لصدتلك المحاولات بجرأة،لانهم يعلمون انالمجتمع يحميهم، وان العرف الاجتماعي كان يمنحهم الحصانة التي تميزهم عن غيرهم ، وان الصوت الذي يرتفع لحجب اصواتهم ينتهي عند أبعاد محددة ، ويقف في حصار دائرة مغلقة وان الكلمات التي تنطلق من افواههم ستظل قوية وعنيفة ، وان اية كلمة لاتستطيع اسكاتها الا الكلمات التي تصدر عن نفس الاصل الذي صدرت عنه • وان المجتمع الكبير الذي ترسخت فيه هذه المفاهيم لايتساهل مع المحاولات التي تنطلق لتشويه تلك المفاهيم او الحاق الاذى بمن حاول الدفاع عنها ، او ايقاف تلك الاصوات التي لم تعرف حدودا ، ولم تقف عند قناة اعلامية واحدة ، او رقابة تفرضها جهة يضيرها ارتفاع هذا الصوت •

وصنع أوس ما طلبته منه امه ، واستجاب لدعوتها ، وعفا عن بشر وكرمه واحسن اليه ، ولم يكن بشر بعيدا عن هذه المكرمة التي سجلت مكرمة اخرى في مكارم العرف العربي ، ومحمدة جديدة من محامد المجد الذي أغنته اعمال هؤلاء الرجال فكان جوابه لاوس بمستوى عمل أوس له ، وقد تحقق قول بشر له : لا جرم والله لا مدحت احدا حتى أموت غيرك ، وصدق بشر ، فمدح أوساً مكان كل قصيدة هجاه بها قصيدة ، اكراما له ، وتحقيقا لانسانيته ، وكان شعره في مديحه أبلغ وأجمل منه في هجائه ، فدلل بشر على أمانته ووفائه ، بعد ان التزم بهذا السلوك الاجتماعي الذي اعطى الناس حقوقهم اذا حرصوا عليها ، والتزموا بأدائها ، وحفظوا استمرارها .

وبقي الشعراء يحملون عن أقوامهم مسؤولية الدفاع ، ويتولون مهمة استرداد كل الحقوق التي أوشكت ان تضيع أو حاول البعض الاستيلاء عليها ، باسباب غير مشروعة ، وحجج غير مقنعة ، وهو هجاء يتخذ طابع المناقشة الهادئة ، والحجة البينة ، والدليل الواضح ، وهنا يلتقى شعر زهير بن ابي سلمى بشعر بشر بن ابي خازم وبشعر الشعراء الاخرين الذين وضعوا انفسهم في المواقع نفسها ، فعندما أغار الحارث بن ورقاء الاسدي واصاب سببا ومالا انصرف راجعا ، فوجد غلاما لزهير بن ابي سلمى فاستاقه وهو يحرم عليه لحلف اسد وغطفان ، فبلغ زهيرا فأرسل اليه أن يرده فأبى ، فقال في ذلك زهير(٨) .

يا حارِ لا أُرْمَيَنْ منكم بداهية
لم يَلْقَها سُوقَةٌ قبلي ولا ملِك

فارْدُدْ يَساراً ولا تَعْنُفْ عليّ ولا
تَمْعَكْ بِعِرضِكِ إنّ الغادر المَعَكُ

(٨) زهير . الديوان / ١٨٠ ــ ١٨٣ .

ولا تكـونَنْ كأقـوامٍ علمتُهـمُ
يلوون مـا عندهم حتى إذا نُهكـوا

طابت نفوسُهـم عـن حـقٍّ خصـمهم
مخـافةَ الشرّ فارتدّوا لِمـا تركـوا

لئـن حللتَ بجـوٍّ في بني أسـدٍ
في دين عمروٍ وحـالت بيننـا فـدكُ

ليأتينّـكَ منيّ منطِـقٌ قـذَعٌ
بـاقٍ كمـا دنّس القبطيّـة الـودَكُ

وقيل لما أتت الحارث بن ورقاء لم يلتفت اليها فقال زهيرهذه القصيدة[٩].

تَعلّـم أن شـرَّ النـاسِ حـيٌ
يُنـادي فـي شِـعارهم يَسـار

وفي الديوان قصيدة أخرى تشير الى عودة يسار غير مغلول ولا مهان ولكنه كان عند ذي كرم ، يعرف الوفاء ويفي بالعهود[١٠].

وتقول بعض الروايات ان قوم الحارث بن ورقاء طلبوا منه بعد ان سمعوا قصيدة زهير الاولى ان يقتل يسارا الا انه ابى ذلك ورده الى اهله كريما بعد ان كساه ، واكرم مثواه ، وهي اشارة تذكرنا بصنيع اوس بن حارثة مع بشر بن ابي خازم ، وكلا الرجلين كانا يعلمان النتائج التي تترتب على القتل ، وان الشعر سينال منهما ، وستبقى اللعنة تلاحقهما اجيالا بعيدة ، فمديح زهير بعد رد غلامه هو الذي مسح هجاءه لانه صدر عن نفس المنبع ، والشاعر هو الوحيد الذي يستطيع ان يرد اعتبار المهجو ..

---

(٩) زهير . الديوان / ٣٠٠ .

(١٠) زهير . الديوان / ٣٠٨ .

وكان الشعراء يندفعون في بعض الاحيان وراء بعض الاقوال غير الصحيحة ، تمسكا بمبدأ الدفاع عن القبيلة ، وحرصا على السمعة التي تتمتع بها ، وتأكيدا لموقع الشعراء الذين يحفظون لها مكانتها بين القبائل ، ولكنهم عندما يشعرون بالحقيقة ، وتتكشف لهم الدوافع يندمون على فعلتهم ، وهذا دليل صدقهم ، لانهم يظلون يعانون من مواقفهم هذه فعندما أتى رجل من بني عبدالله بن غطفان بني عليم ونزل بهم اكرموه واحسنوا جواره وواسوه . وكان رجلا مولعا بالقمار فنهوه عنه فأبى الا المقامرة ، فقمر مرة فردوا عليه ، ثم قمر أخرى فردوا عليه ، ثم قمر الثالثة فلم يردوا عليه ، فرحل من عندهم وشكا ما صنع به الى زهير ، والعرب اذ ذاك — كما ذكر في مقدمة القصيدة يتقون الشعراء اتقاء شديدا ، فقال يهجو عليما وقال « ما خرجت في ليلة ظلماء الا خشيت ان يصيبني الله بعقوبة لهجائي قوما ظلمتهم فقال القصيدة(١١)

ومقولة زهير تؤكد الهدف الذي كان الشاعر يسعى اليه ، والرسالة التي يحملها ، والانصاف الذي يعد الغاية التي كان يرجوها من شعره ، لان المثل الكبيرة التي كانت تتحقق في البناء الاجتماعي والقبلي والتي كان يعبر عنها من خلال شعره كانت تمثل الرافد العظيم الذي ينظم حياة الجماعة ، ويدعوها الى التمسك بكل المعاني الاصيلة التي عاشت عليها الامة ، ودافعت عنها . وبذلت من اجل الحفاظ عليها كل الجهود الممكنة ، واستخدمت من اجل استمرارها كل الوسائل الكفيلة بالاستمرار او القادرة على النقل ،

اما اتجاه الهجاء الثاني فهو الاتجاه الذي يدخل في الاطار السياسي في حدوده العامة والتي تؤكد ارتكازه على القيم القومية التي كانت ترفض كل اشكال السيطرة الاجنبية التي تحاول فرض سلطانها على القبائل ، لان معاني هذا الضرب من الهجاء كان يدخل في تمجيد الحرية ، ومقارعة الطغيان ، وايقاف تجاوزات الظلم مستمدا معانيه من الثقة الكبيرة التي كان يتمتع بها الشعراء ، والحس القومي الذي يشد كل الابناء ، والحق الصريح الذي يدفع اصحابه

---

(١١) زهير . الديوان / ٥٦ .

الى المطالبة به • وهو هجاء كان ينطلق من احساس شعراء القبائل العربية التي كانت تتاخم في سكناها المناذرة • ومن الطبيعي ان يتسم شعر هؤلاء بهذه السمة لانهم كانوا يعيشون التحدي ، ويدركون صورة التسلط الذي تمارسه هذه الدولة ، ومن يقف وراءها من الفرس ، وقد تضمن شعر هؤلاء الشعراء المعاني التي كانت تتداخل في أشكال المقاومة ، والمضامين القومية التي كانت تجاهر بالمجابهة ، الى جانب الاعتزاز الحاد ، والتحسس الاصيل ، لانهم كانوا يواجهون الامر ، ويتلمسون مواقع الاضطهاد العنصري التي كانت تمارسه العناصر الاجنبية ، وهذا ما دفع معظم الشعراء الى ان يتخذوا الهجاء وسيلة الذب عن وجودهم ، والدفاع عن احسابهم ، والدعوة الى المطالبة بالارض التي استباحتها دولةالفرس او دولة الروم• وفي نماذج يزيد بن الخذّاق الشنيّ الذي هدد النعمان واتهمه بالخيانة والخداع ، واضمار الشر ، بعد ان استخف به ، وقد بدا قصيدته بنعت فرسه وسلاحه ثم وجه القول الى النعمان مهدّداً ، وفخر بقومه ، واستعصائهم على من يبغيهم الذل والخسف[١٢] والمتلمس الضبعي الذي افتتح قصيدته بحتمية الموت والنهاية المقدرة اشار الى ان قبول الضيم مخافة الموت عجز ، ثم سخر من النعمان ، وطلب منه ان يغزو ارضهم بعد ان اينع الزرع واخصبت الارض وساد طنين الذباب والزنابير ، تحديا للنعمان واستخفافا به ولم ينس في نهاية القصيدة الاشارة الى اباء قومه[١٣] ، وهجا عمرو بن هند واستخف باحلامهوفخر بقومه[١٤] وصنع طرفةبن العبد والحارث ابن ظالم هذا الصنع •• وقد تميزت معظم هذه القصائد بهجائها اللاذع الذي اعتمد الجانب النفسي باستلاب الفضائل من نفس المهجو والسخرية منه ، والاستخفاف بوعيده ، وتهديده ، والاشارة الى اقوام الشعراء وبلائهم في المعارك ، والوقوف عند بعض ايامهم الى جانب الايمان بالموت حقيقة قائمة ، ولابد للانسان ان يموت ميتة كريمة •

---

(١٢) المفضل الضبي • المفضليات ٢/٩٥ — ٩٦ •

(١٣) المتلمس • الديوان • ١١٠١ •

(١٤) المتلمس • الديوان • ٤٢١ •

ومن الواضح ان هؤلاء الشعراء يمثلون القبائل العربية التي كانت تعيش على الحدود الشرقية لجزيرة العرب ، وان الصور البيانية والمعاني التي كانوا يستخدمونها في هجائهم كانت تمثل التيار الرافض الذي ظلت القبائل العربية تتحسس به • وان اشكال هذا الهجاء تحدد السلوك العام الذي كان يطوي خوافق الحس ، ويجسد صدق المشاعر ويجاهر باساليب المقاومة التي تنادي بها القبائل العربية وهي تتوحد صورة في التحدي ، وقدرة في التهديد ، ولونا متميزا من الوان النضال القومي ، ووحدة المعاني التي طواها الشعر • فالدعوة الى جمع الشمل ، ونبذ الفرقة ، وتسجيل ظواهر الاضطهاد ، وتهديد الملوك ، والاستخفاف بهم ، والتحدث بضمير الجماعة ، والتهيء ليوم الروع ، واستقبال الموت بشجاعة ، والايمان بالنهاية التي ينتهي اليها كل انسان • كل هذه المعاني كانت تدور في قصائدهم وهي تتسرب في معاني الهجاء الموجه الى اولئك الملوك الذين حاولوا بشتى الطرق السيطرة على الارض العربية ، وارتضوا لنفوسهم ان يكونوا صنائع تحركهم المطامع ، وادوات تستخدمهم الاغراض •

وسأحاول الوقوف في حديثي على هذا الجانب عند شاعر واحد هو الاعشى فالاعشى شاعر له قدرته الشعرية التي وضعته في الطبقة الاولى ومع ثلاثة شعراء اخرين من شعراء العرب قبل الاسلام هم امرؤ القيس وزهير ابن ابي سلمى والنابغة الذبياني ، وقد عرف هذا الشاعر بحسه القومي الذي توزع بين استثارة تهز النفوس ، واشادة تمجد المحامد ، وتمجيد يخلد المآثر ، وموقف يحدد هوية المتخاذلين • ويشخص نزعات الضالعين في ركاب التبعية ، والسائرين في دروب الضياع ، وللاعشى صوته الشامخ الذى ارتفع مع بقية الاصوات ليقف ضمن مجموعة الشعراء السبعة او التسعة او العشرة عند بعض شرّاح الشعر ، وله امتداده الزمني المفتوح الذي تحرك في اوسع دائرة في الجزيرة العربية ، وحظي باكبر قسط من المخاطبات المباشرة لاعداد غفيرة من البشر كانت لها مواقفها المحسودة ، ومراكزها المرموقة ، وهو بعد كل هذا شاعر قيس بلا منازع وصنّاجة العرب ، ورائد الرحلة الطويلة التي زخرت بكل وصفه ، ووقفت عند كل طلل ، وحملت كثيرا من المشاعر الرقيقة لتجوب

مفاوز الجزيرة ، وتنقل الاصوات الحرة ان تجربة هذا الشاعر كانت غنية ، وحركته سريعة ، واحساسه بلوازم الحياة اكثر تجاوبا ، واشد تأثرا ، • ومن يطلع على ديوانه يجد فيه تزاحم الاحاسيس ، وتشابك الصور ، وتداخل الانغام البشرية التي تستقبل القاري في كل قصيدة ، وتتناثر امامه بأوعية زاهية تكاد ألوانها البراقة تخطف كل نظرة ، وتستقطب كل التفاتة •

هذا الشاعر الاصيل حمل في بعض قصائده اصالة التوجيه ، وحاول ان يتخذ من الهجاء سلاحا لبناء المجتمع ،وتوجيه ابنائه الوجهة التي تخدم وحدة البناء ، وتدعو الى توثيق عرى التواصل ، وترفع شأن الامة عن طريق اللوم المباشر ، والتقريع الحاد ، والمحاورة الهادفة ، وهو في كل واحدة من تلك القصائد كان يحسن اختيار الموقف ، ويوفق في تحديد الجهة ، ويبدع في انتقاء المبررات والحجج ، ولهذا كانت مواقفه في يوم (ذي قار) مشهورة ، وقصائده في تسجيل بطولة الامة معروفة يتناقلها الرواة ، ويذكرها الابناء في كل محفل ، وقد تركت هذه القصائد بصماتها فوق كثير من النصوص ، وعند سلاسل من الرواة وفي ثنايا مجموعة من الاخبار ، وهي تؤكد قدرة الشاعر الخالد على استلهام طبيعة الاحداث ، واستيعاب معالم الواقع ، واستيحاء ابعاد الصور التي تلازم الظروف في المرحلة التي مرت بها الامة • لقد كانت مواقفه هذه لازمة من لوازم الشاعر ، لانها استثارت عواطفه ، وبعثت في كثير من قصائده امارات الشجاعة ، وعلامات النزوع القومي الاصيل ، فبنى عليه كل مواقفه التي استحق عليها التخليد ، لان (ذي قار) هيأت له من الابعاد القومية والانسانية ما دفعه الى ان يقرر المسلك الحقيقي لمسيرته الواضحة ، ولخطه الشعري الملتزم الذي تداعت اليه كل الاصوات الخيرة من الابناء ليكونوا مع الامة في يوم من اشد ايامها تأزما ، ومن اكثرها حسما في تقرير مصيرها ، ووجد الشاعر في شخصية قيس بن مسعود النموذج الخياني الواضح الذي عبر و في اطار الحدث القائم عن كل الصور التي كانت تدور في نفسه او تتحرك في نفوس الاخرين من ابناء قومه ، وهم ينظرون الى هذه الخيانة

المجسدة ، والتخاذل المشين والتورط الذليل الذي وقع فيه وهو يسقط كل الاقنعة الهزيلة التي حاول ان يضعها على وجهه المشوه •

كانت هذه الصورة تتألق في عيني وانا أقرأ له القطعة التي وجهها الى قيس بن مسعود هذا حين وفد على كسرى بعد ذي قار ، وقيس هذا كان واليا لكسرى على (الابلة) ، ولاه عليها شراء لذمته ، وثمنا لخيانته ، وقد سار مع جيش كسرى لمحاربة بكر في يوم (ذي قار) ثم رحل بعد هزيمة كسرى ليعتذر اليه عن انتصار قومه ، وما صنعوه بكسرى وجيشه •

والاعشى في هذا الموقف يلومه على مسيره ، ويسفه رأيه ، ويذكره بأن قومه كانوا كفيلين بحمايته لو اراد ، لانهم يملكون القوة والقدرة والسلاح والعتاد ، فلو استعان بهم لكفوه مؤونه الخصم ، ولو اعتمد عليهم لاصبح عزيز الجانب ، فطوائفهم كثيرة ، وجماعاتهم متعددة واموالهم لاحصر لها ، وكتائبهم ضخمة تموج بما ازدحم بها من فرسان وسلاح يرد بريقه عين الناظر وافراس جياد تحيط بها كرائم الابل ونجائب الجمال ، وهذا يغنيه عن كسرى ومذلته وهوانه • وهو يأخذ عليه قيامه بهذه الرحلة التي يطلب فيها الصفح والاعتذار بعد الذي سفك من دماء قومه في هذا اليوم الخالد • فقيس في عرف الاعشى ، وفي اعراف الواقع الاجتماعي انذاك صورة مقيتة ، ومسلك مرفوض وتنازل بائس ، وملمح بشري غريب ، لم يؤمن به المجتمع ولم يقبل بتعامله ولن يرتضي سلوكه الذي خالف به كل التقاليد وناهض كل القيم التي اتفقت على الوقوف بوجه المعتدي ، والتصدي لمحاولاته الرامية للاجهاز على وجود الامة ، واستهداف انسانها الذي وقف بصلابة يتحدى التدخل ، ويجابه الاستغلال ، ويقاوم الوجه الغريب الذي حاول ان يمد تطلعه الى الارض العربية ويبسط سلطانه على الانسان الذي عاش فوق ارضها •

لقد حاول الاعشى ان يوظف الهجاء توظيفا اجتماعيا ، ويبدع في تقديم الصور التي تستهجن الخيانة ، وتستبشع التعاون مع كل معتد ، وتناهض الوقوف في صفوف الخصم لمقاومة المطامح المشروعة ، والاجهاز على امال الامة التي اندفعت بكل قواها لرد عادية الغدر ، وقتل نوازع الاندفاع ، وانهاء اسباب الاستثارة ، وقد اتخذ من الصفات مايعينه على تكبير الصورة البشعة ومن الوقائع ما يساعده على وضع المهجو موضع الازدراء ، ومن الاحداث ما يجعله موفقا في عزله بعد ان حاول قطع المبررات التي يمكن ان يعتمدها المهجو . ومع هذا فقد اكد الشاعر ان المهجو قد ترك قومه سفها ، وابتعد عن دائرتهم جهلا ،وهذا ما دعا الشاعر الى ان يبتعد عنه فلا يسمع منه خيرا ولا يبلغ عنه بنبأ .

والاعشى لم يقف بعد هذا مكتوفاامامخيانة قيس بن مسعود الذي تمنىان يموت ساعة ولادته ، وليت القوابل غرقنه بمائه حتى لا يكون وصمة عار في تاريخ هذه الامة ، فانبرى وقد تجلّت عناصر قوميته ، واستثيرت دوافع نزوعه الاصيل وتجسدت في اعماقه روح التحدي والمجابهة فاعلنها صرخة قوية في كل طرف من اطراف الجزيرة العربية ، ويرددها كل رواية وشاعر . ويستمع اليها كل انسان . وهي اليوم تستعاد لأنها سَجّلت للشاعر مأثرة ، وسَجلت لقيس بن مسعود صفحة تاريخ بائسة . بعد أن كانت الأمة ترجو منه الخير ، وتعقد عليه الآمال ، ولكنها شعرت بخيبة الأمل مرتين في عام واحد فقد صحب كسرى (الجزار) والتقى به ، ورحل اليه ، واتفق معه . ولم يجد الأعشى ــ والجزيرة تغلي ، وشعبها ينتظر الخلاص ــ دعاء يقوله سوى انه تمنى لو (مات) ساعة ولد ، وليت (القوابل) غرقنه بمائة لتدفن معه الى الأبد كل الأثام الكبيرة ، وتقتل معه كل نزعات الشرور ، وتسقط صورة التخاذل ، وتنهي معالم التواطؤ والهزيمة وتختفي آثار العار الذيلازمه وبقيت لعنةالأعشى خمسة عشر قرنا ملازمة لهذا الرجل الخائن الذي استهان بحرمة الأمة ، وغرق باثام الخيانة حتى رأسه ..[١٥]

---

(١٥) الاعشى . الديوان / ١٨٣ .

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد ... وانت امرؤ ترجو شبابك وائل
أطورين في عام غزاة ورحلة ... ألا ليت قيسا غرقته القوابل
وليتك حال البحر دونك كله ... وكنت لقى تجري عليه السوائل
كأنك لم تشهد قرابين جمة ... تعبث ضياع فيهم وعواسل
تركتهم صرعى لدى كل منهل ... وأقبلت تبغي الصلح أمّك هابل
لقد كان في شيبان لو كنت راضيا ... قباب" وحيء حِلّة" وقنابل

وتظل أهاجي الاعشى السياسية التي يرى فيها صوت الحقيقة أداة من الادوات التي يستخدمها تجاه كل الخصوم الذين يقفون مواقف معادية لمطامح الامة ، ويواصل من خلالها اضعاف شوكتهم وفي الطرف الثاني من المعادلة كان يثير في نفوس الابناء حوافز الاستماته ، ودوافع الاستثارة ليجعلهم أقوى في الثبات واكثر رسوخا في المقاومة وليحقق لهم الموقع المناسب ، ويؤكد في نفوسهم الثقة الكبيرة ، وهذا ماجعله قريبا من القادة السياسيين الذين وضعوا مصلحة قومهم فوق كل مصلحة ، فتحركوا في شعاب الجزيرة ومفازاتها ، وطافوا حواضرها وبواديها ، يحملون رسالة الايمان بوحدتها ، ويستخدمون الشعر في تأكيد القيم التي كانت صورة المجتمع العربي • وقد تجلت هذه الاتجاهات والمضامين في هجائياته الى كسرى[١٦] ، ولكل الاطراف التي شاركت في ذي قار متنكرة للعرب ، ولكل المعاني الانسانية التي تفرضها عليهم طبيعة الانتماء •

والهجاء في كثير من ضروب المعاني التي تناولها ، والاهداف التي كان يرمي اليها لايكتفي بالمضمون المحدد الذي تحمله المعاني ، وانما تشارك فيه امور كثيرة تتعلق بشكله العام وتفصيلات اسلوب عرضه . وتناول اساليب الألفاظ ، وبناء الجملة والاوزان العروضية التي تتداخل فيها الايقاعات ، وتتحرك الموسيقى بشكل يوحي بالصور التي يستخدمها الشعراء ، والايحاءات

(١٦) تنظر في ديوانه القصائد رقم (٣٤) و (٦٢) •

التي تتخلل تلك الصور ، ويوسع مجال القدرة التعبيرية ليضيف الى المضمون القائم موجات متدفقة من الاحاسيس ، والوان متراكمة من الالوان تترك الصورة واضحة الابعاد ، موحية التأثير . وشاعر الهجاء يسعى الى ان تكون معانيه محددة ومركزة ، حتى يستطيع ان يكون تأثيرها واضحا ومحددا ، وتتعاون في تحديد شمولية الشكل ووضوح الترتيب الموسيقي القدرة الذاتية والابداع الفني الذي يعطي هذا الغرض أهميته الاجتماعية .

والهجاء يسعى دائما من اجل صيغة التوازن بين الأدب والحياة ، وتجديد القيمة الايجابيةالتي يستطيع منخلالها هذا الفن ان يحفظ تلكالصيغة ، ويترك للناس الرؤية الواضحة في مجال المعالجة الذاتية . والشاعر في قصيدة الهجاء يحاول ان يستخدم أسلوب الانتقال من الشكل العام الى الانماط التفصيلية في بعض الاحيان لان حقيقة الهجاء تكمن في الانسان وان الشكل والصورة يتدرجان في هذه المسألة لتأخذ الاجزاء التي ترتبط بهذا الانسان . النسق المتكامل .

وقد تعرض القصيدة في بعض اشكالها الى استلال الاجزاء المعنوية باعتبارها قيما أخلاقية ليصبح بعدها هذا الانسان غير قادر على امتلاك مايحمله على الوقوف مع الآخرين الذين ما يزالون محتفظين بهذه الاشكال . وصورة الهجاء في معظم اشكالها تعتمد المفردة،وترتكز الى الدقائق الجزئية التي تترابط في اطار اللوحة الحادة ، والاشارات التي تحاول الوصول الى النقد اللاذع والتجريح الساخر .

وكما يختلف الهجاء في موضوعاته وانماطه كذلك يختلف في اشكاله فالأوزان الطويلة والقصيرة واوزان المقطوعات تكون خاضعة للشاعر ، وكفيلة بالبيت الأول الذي يحدد بداية القصيدة بعد ان يستقر الشاعر على الصورة التي يراها قادرة على الأداء ، موفية بالغرض ، وكثيرا ماكان الشاعر يحرص على الا تضيع جملة واحدة وان تحمل كل كلمة وزنها الكامل في المعنى وهي تنزع — وهذا ما يوجبه الغرض — الى التشويه ، وتميل الى استلاب الخصائص وهنا تتميز قدرة الشاعر وبراعته في معالجة العمل الفني ..

ان هذا التوجه في الهجاء ، وفي اطار المدلول الايجابي الذي حمله بدفعنا الى نعيد النظر في المقولات التي وقفت عند التعريف التقليدي لهذا الغرض وحاولت ان تدور في المعاني التي ذكرت أو التعليلات التي تحركت في دائرتها كل التفسيرات ، فالهجاء في هذا التناول يمثل محاولة اصلاح الواقع الأجتماعي بقدر مايمكن ، وتحريك الجمهور لتوجيه النقد والادانة عن طريق استلاب المعاني أو السخرية أو الغضب أو استثارة المشاعر ، لتحديد الموقف المناهض لعزل المهجو وافراده واخراجه عن دائرة القبول ، لأن الشعر العربي عالج موضوعات الحياة معالجة دقيقة وشاملة ، وتعامل معها تعاملا انسانيا ينسجم والمفهوم الطبيعي ، ويتناسب مع الواقع الاجتماعي الذي حددت مساره قيم الواقع ورسخت ابعاده اشكال التجربة الحياتية ، ولهذا كانت وقفات الشعراء تمتاز بالمسؤولية ، وتتحدد من خلال المواقف التي وقفوها عند كل غرض ، والتزموا بها عند كل حدث ، وعبروا عنها في كل حديث • فالشعر صورة الحياة التي ملات كل درب ، واتسعت لكل معنى ، وتلونت بكل لون ، وانطلقت مع احاسيس الناس لتروي ظمأ المتلهفين لمتابعة الأحداث ، والراغبين ، ملاحقة الأيام التي حملت في بطونها اروع الاعمال ، واحتجنت احداثها افضل القيم ، وتمثلت في اعمال ابطالها الأنماط السلوكية والاجتماعية للبنية التكوينية لمجتمع الجزيرة في تلك المرحلة •

والشعراء وسيلة التعبير الهادفة ، وقدرة الابداع الفذة ، ونموذج التحرك الانساني الرائد الذي منح الحياة سلامة الطريق ، ووهب الانسان نشوة الحرص على الوجود ، وجسد المطامح البشرية التي كانت تعتمل في النفوس فرائد خالدة ، وروائع ناصعة ، وحمل همومهم ومعاناتهم وهي تنطلق في زفرات حادة ، واحاديث صادقة ، وتجارب اصيلة ، وقدموا الينا من الوان الواقع ودقائقه مايشهد لهم بالريادة ، ومن ضروب المشاعر مايؤكد قدرتهم الصائبة في التقاط الاحداث ، واختيار المواقف ، وادراك النوازع ، فجاءت تجاربهم وهي زاخرة بالحياة ، ودلالات معانيهم ، وهي موحية بالالتصاق المباشر ، وربطهم المحكم وهو لوحة لما تعارفوا عليه من تقاليد •

واذا قدر لهذه الابعاد ان تظل بعيدة عن التناول ، وقدر لهذه الضوابط ان تضيع في زحمة الاحكام السريعة أو الاراء التقليدية التي طغت على كل حكم ، واذا قدر لهؤلاء الشعراء أن يعيشوا تحت مظلة المقولات القسرية التي حشروا فيها أو في دائرة النتائج التي انتهت اليها بعض الدراسات غير الدقيقة فلا بد ان تكون النظرة الجديدة محاولة لمراجعة تلك الضوابط ، وعدولا عن الاخذ بتلك الاحكام ، لتعطي الفرصة ثانية لأولئك الأشخاص الذين حملوا راية البناء ، واكدوا حقيقة الوجود ودافعوا عن معالم الالتزام التي بقيت مثلها قائمة في كل عمل خالد ، واستمرت حقيقتها رائدة في كل محال ، وعاشت قيمها أصيلة في كل موقف انساني متميز ، وليكونوا قادرين على التعبير عن أنفسهم بما يعيد اليهم بعض ما امنوا به ، ويحقق لهم جزء مما وقفوا عليه .

ان الحقائق التاريخية الثابته قد وضعت الانسان العربي قبل الاسلام موضعا يوحي بكل ما يجعله انسانا اعد لتحمل الرسالة الجديدة ، وهيأ وجوده لبداية التحرك ، واوقف طاقاته من اجل تحرير الانسان من كل ما علق به من نوازع الاثم ورواسب التطرف ، وبقايا التقاليد ، ويؤكد تلك الحقائق ايضا ان حياته التي كان يمارسها كانت حياة مليئة بمكارم الاخلاق ، وفضائل الصفات ، وروائع المثل ، وهذا ما جعله مؤمنا بالقيم الخيرة ، ومهيئاً لتسلّم الامانة ، ومعدا لامتلاك ناحية الموقف الحاسم الذي ينسجم مع طبيعة تكوينه ويتفق مع اتجاه مسيرته ، وقد تحقق ذلك في الاندفاع العظيم الذي تعالت دفقاته بهذه الدعوة الاسلامية مباشرة والتي حمل الرسول الكريم لواءها ، وسار في ظلها الرواد الاوائل من الصحابة الاخيار .

ومن الطبيعي ان تكون المعالجة الانسانية لكل مايرتبط بحياة الانسان ، متصلة بالاهداف الكبيرة التي كان يسعى اليها هذا الانسان في كل خطوة من خطواته ، وفي كل اشارة من اشاراته ، ولكي تكون المسألة واضحة في الذهن قريبة من الحقيقة اثرت ان اقف عند معالجة واحدة من تلك المعالجات لانني سبق ان قلت كلمتي في المديح الذي جاء على لسان الشعراء العرب قبل الاسلام ، وقد اعتبرت هذا الغرض صورة من صور التوجيه الاجتماعي ، ومحاولة للبناء الانساني الذي كان الشعراء يسعون اليه من خلال مدائحهم ، ويجهدون انفسهم في تثبيت قواعده ، وهم يتحدثون عن الصفات التي كان المجتمع يرى فيها النموذج الامثل ، والتطلع الافضل ، واذا استطاع هذا الغرض ان يوطد دعائم هذه الحقيقة في الادلة التي اعتمدتها في النماذج ، والتحليلات التي اكدتها في ثنايا البحث وطريقة التناول التي وقفت عندها . فان الهجاء مازال يؤكد هذه الحقيقة على الرغم من الاحكام الكثيرة التي قيلت بشأنه ، أو الصفات المتعددة التي اتهم بها ، ولعل النماذج التي وقفت عندها ، والاشارات التي ذكرتها والنتائج التي توصلت اليها تؤكد هذه الحقيقة الجديدة التي تعطي هذا الغرض الصورة الواضحة ، وتكشف عن التناول الجديد الذي بموجبه يقوم هذا الغرض الشعري وفي ظل الاحكام الاجتماعية السائدة ، والقيم الاخلاقية التي ظلت حصنا منيعا من حصون التداعي ، وسياجا وثيقا من اسيجة البناء القومي ..

التـــدريب الصـــحفي

((نظـــرة تحليليـــة))(*)

د . زكي الجابر
كلية الاداب ـ جامعة بغـداد

اضـــواء ســـاطعة

ان سياســة عــدم الانحياز هي اختيار البلدان المســتقلة الطامحة الى التقدم ، والى بناء علاقات دولية قائمة على الحرية والتكافؤ والعدالة .

الرئيس احمد حســن البــكر

بمناسبة الذكرى التاسعة لثورة ١٧ تموز / ٩٦٨

هذه الدراسة محاولة لمعالجة موضوع التدريب للصحافة كمهنة لتوضيح الوظائف الرئيسة لمؤسسات تدريب صحفي المستقبل . وقد بنيت الورقة على الافتراض بان الصحفي كغيره من المتصلين عبر اجهزة الاعلام يســـتطيع التوصل الى النجاح في وظيفته من خلال التدريب من اجلها ، والعمل بهـــا ، والمثابرة عليها[1] ان هذا الافتراض يمكن ان يبرر بعوامل عدة ، من بينها :ـ

١ ـ الحاجة الى سد الهوة بين الكفاءة التقنية والخلفية الثقافية لاولئك القائمين حاليا بالمهنـــة .

٢ ـ الحاجة الى توظيف صحفيين ذوى اختصاص في حقول معينة[2] .

---

* قدمت في المؤتمر الاول لصحفيي دول عدم الانحياز ـ بغداد ٢١ ـ ٢٤ كانون الثاني / ١٩٧٩ .

٣ ــ الحاجة الى الوصول والاحتفاظ بالمستوى المنشود من الثقافة والقدرة التقنية لمواجهة ما يريده المجتمع من اجهزة الاعلام. اذ ان هناك ادراكا بان الاعلام عما تقوم به اية سلطة ليس كافيا بل يضاف الى ذلك الاعلام عن « لماذا » تحقق هذا العمل[٣] . لقد ازداد عالمنا تعقيدا على المستويين الانساني والثقافي ونتيجة لذلك فقد ازدادت ايضا مسؤوليات اولئك الذين هم في مواقف اعلام الشعب عبر قنوات الاتصال الجماهيرية .

٤ ــ ان عالمنا يشهد عهد انهزام المنطق الشكلي والقوانين التي تستثنى الحركة وتنكر التغيير صوب العدالة الاجتماعية ، وهناك تدعو الحاجة الى جيل فعال من الصحفيين الذين لديهم الاستيعاب الكافي للاحداث الجارية وفلسفة الصحافة في عصرنا المتغير[٤] .

٥ ــ هذا ، وعلى اعتبار نشر المعلومات هو احد العوامل الهامة في حل مشكلات عالمنا[٥] ، فان هناك حاجة لتحسين نوعية الخدمة الاعلامية وفي الوقت ذاته تجنب تعلم مهنة الصحافة على حساب القراء[٦] . ولكن عبر السنوات لم يكن هناك اتفاق على صيغة معينة للتدريب لمهنة الصحافة. لقد كانت البرامج متغيرة وستبقى متغيرة من قطر الى اخر ومن منطقة الى اخرى عبر الزمن وفقا الى تغير الحاجات[٧] .وفي وثيقة قدمتها اليونسكو عبر المجلس الاقتصادى والاجتماعي الى مؤتمر الامم المتحدة حول حرية الاعلام في اذار ١٩٤٨ ، حاولت اليونسكو ان تبرهن ان الصحافة الان مهنة وذات مركز مشرف . ولكن بالرغم من ان عمل الصحفي قد توقف عن ان يكون ميدانا للهواة والمرتجلين،والصحافة غدت مهنة يجب ان تتعلم ولا زال الشوط طويلا للاتفاق حول اساليب المعاهد او نوع التدريب المطلوب للمهنة[٨] . وقد اعلن فريدس . سيبرت كرئيس لجمعية التربية الصحفية قائلاً : ان ما كان ملائما للتربية من اجل الصحافة قبل عشرين او حتى عشر سنوات لم يعد ملائما لمتطلبات عالمنا المعاصر .. ان اهم حدث مفرد في تاريخ الانسانية وقع عندما تساءل الانسان لاول

مرة ، ماهو الجديد[٩] •الى جانب عدم الاتفاق حول صيغة التدريب والتأهيل يوجد اتفاق حول الشاب الذى ينتمي الى صف التدريب ، الاتفاق على ان يكون متطلعا ، جيد الكتابة ، راغبا في العمل والتعلم ، يعتمد عليه مع شعور بالمسؤولية ، وينسجم مع الناس •• ذا شخصية غير مملة مع روح النكتة والحماسة [١٠] •

واذا كانت الكلية او الجامعة لا تخلق عاملا احسن فان خريج معهد التدريب اكثر قربا لان يكون صحفيا احسن[١١] •

ومن هنا فان الغرض هو تزويد مؤسسات الاتصال بالجماهير بصحفيين اكفاء يحبون مهنتهم ويتمتعون بالخبرة وميزات احترافهم • وكعلامة مشجعة فقد اشارت دراسة اجريت حديثا حول الطلبة الذين انضموا توا الى قسم الاعلام في كلية الاداب / جامعة بغداد ، ان ٧٥٪ منهم قد اعربوا رغبتهم في ممارسة عملهم في المستقبل وان ٩١٪ منهم يعتقدون برفعة مستوى مهنتهم ، وان ٧٧٪ يعتقدون بأنهم سيحظون باحترام المجتمع •

ان مهنة الصحافة التي ندافع عنها ونعني بها ، ينظر اليها كمجموعة من الصفات لعمل تجعله متميزا عن الاعمال الاخرى[١٢] هذه الخصائص يمكن تلخيصها كما يأتي :ـ

١ ـ امتلاك تقنية متخصصة مسندة بمجموعة من النظريات •

٢ ـ امتلاك حرفة تسندها جمعية من زملاء •

٣ ـ امتلاك مكانة مسندة باعتراف المجتمع[١٣] •

ان تعريف المهنة ينبغي ان ينضم الى جانب اشياء اخرى كاعتراف الاعضاء بميثاق اخلاقي ، وتوجه الى مصلحة المجتمع ، ونظام للمكافآت المعنوية والمادية ، كما ينبغي ان تضم عملية الاحتراف قيام مؤسسات تدريبية ذات

اشكال محددة لتخريج العاملين الجدد[١٤] ان السؤال الذى ينبغي ان يسأل هو عن الشخص المؤهل الذى يعلم ويدرب الصحفيين الجدد ، لقد جرت محاولات للبرهنة على ان هذا الشخص ينبغي ان يمتلك اطلاعا وفهما مستوعبا لما يأتي :ـ

١ ـ ادارة مؤسسات الاعلام •

٢ ـ تدفق الاخبار •

٣ ـ تكوين الرأى •

٤ ـ عمليات التقنية •

ولايمكن ان يضطلع بهذه المتطلبات ويضمن النجاح لشخص سواء كان حملا شهادة دكتواره الفلسفة في الاتصال بالجماهير او المدرب الذي اكتسب خبرته من الممارسة الميدانية •

ان معهد الاعلام ينبغي ان يضم جهازا يمتلك خبرة مهنية تمكنهم من تزويد طلبتهم بالخبرات المطلوبة للاتصال والتي تتضمن الخبرات الشفوية وغير الشفوية للاتصال ، التحرير والتحقيق ، تاريخ وفلسفة الاعلام ، قانون الاعلام ، نظريات الاعلام وطرق البحث اضافة الى ادارة اجهزة الاعلام واقتصادياتها[١٥] ولمواجهة هذه المتطلبات فقد ارتؤى ان تتكامل الدكتوراه مع الممارسة العملية من خلال بناء جهاز تدريسي عن طريق الاختبار وفي الحقيقة، لا يوجد مدرس واحد يمتلك كل الخصائص المطلوبة ولكن الجهاز التدريسي كمجموع يمكن ان يحقق ذلك فعن طريق الاختيار عبر مدة من الزمن ، يستطيع الرئيس المدبر لقسم تأهيل الصحفيين ان يضم تشكيلا من المدرسين ذوى قابليات وخلفيات ثقافية مختلفة يكمل بعضها بعضا[١٦] •

خلال عملية تعيين المدرسين . على المعهد ان يلاحظ التحديات التي سيواجهها المتخرجون الجدد • هذه التحديات الجديدة كما نراها يمكن تلخيصها بما يأتي :ـ

١ ــ ان الصحفي في معالجته المشكلات الاجتماعية من الممكن الا يرى قمة الجبل الجليدي العائم ، اذ ان الجزء الاكبر يبقى غير مرئي او تحت السطح • ولو ان تأهيل صحفي المستقبل ، يجب ان يضم اللغة والادب والتاريخ والفلسفة والقانون والالعاب فأن هناك حاجة ماسة الى الاحصاء ايضا •

ان الشعب يحتاج الى من يوضح الاحصاءات التي تغطي جانبا يسيرا من الصحافة في عصرنا الحديث • والاحصائيات كمؤشرات للحياة الاجتماعية ينبغي ان تتحول الى معلومات واضحة وذات دلالة وان العلل الاجتماعية ينبغي ان تبحث ضمن الاطار العام لمجمل القضايا التي تمس المجتمع • وضرورى ان توضح بصورة منظمة لكي تهيىء للناس تحديد مواقفهم من هذه العلل اخذين بنظر الاعتبار اهدافهم وما يقوم به النظام الاجتماعي المحيط بهم ككل(١٧) •

٢ ــ وفي عملية بحثه ، على الصحفي ان يقترب ما امكن من الباحث الاجتماعي • انهما يشتركان في كثير من الوجوه ، الاهداف ، الاتجاهات ، الموضوع وطرق الوصول • انهما يشتركان بداية البحث ببناء سؤال يستند على ارضية نظرية ، ويقترحان فرضيات ، يثبتان او يرفضان هذه النظريات ويبينان اسباب الرفض او القبول • والمقترح هو ان يعمل الصحفيون كما يعمل العلماء على التعبير الكمي والبحث عن ثبات النتائج وصحة ما اذا كان المقاس هو المنشود قياسه(١٨) •• غير ان الصحفيين يمكن ان يختلفوا عن العلماء في طريقة الكتابة • وبالرغم من ان الوضوح مطلوب كعنصر اساس في الكتابة الصحفية وتدوين العلوم الاجتماعية ، فان الصحفي مطالب ان يكون قادرا على كتابة الاخبار البسيطة والمعقدة مستخدما ادوات التعبير بشكل مناسب وتحت ضغط الموعد المحدد لتقديم التقرير او الخبر الصحفي(١٩) •

٣ ـ ولا زال هناك نوع من الاختلاف بين رغبات الاكاديميين والصحفيين ولكن يوجد هناك من الصحفيين المحترفين « والمتعصبين » الذين لا زالوا ينظرون بعين الشك الى قدرة مدارس ومعاهد التأهيل الصحفي للاضطلاع الناجح بما انشئت من اجله ٠ولكن من المهم جدا استقدام الصحفيين المحترفين للصف المدرسي وفق اسس منظمة ٠ ومن الامور الاساسية ايضا اقامة علاقة مثمرة بين التربية الصحفية والمهنة ، وبين الوسط المحترف وبين مدرسي الاعلام(٢٠) ٠

٤ ـ ان التغيير في اجهزة الاعلام والذى اتخذ مكانه كنتيجة للتقدم الهائل في العلوم الالكترونية لن يكون له تأثير كبير على الاخبار ذاتها ما لم يكن هناك أولا تغير في تهيئة الصحفي الجديد ٠ ان اتجاهات الصحفي الفكريةوالعاطفيةالى جانب تعليمه وتدريبه وخلقيته الثقافية تقررمايقال للجمهور اكثر من تأثير اى نوع من المطابع والاشرطة كاميرات التصوير الفوتوغرافي والسينمائي التي تحمل الرسالة الاعلامية(٢١) ٠

٥ ـ وسواء اتخذ التدريب في داخل الجامعة او خارجها على مدى طويل او على فصول قصيرة ، فانه من الضرورى تبني طرائق حديثة في تعليم الاتصال بالجماهير والعمل على توظيف الاساليب الجديدة في التعليم المبرمج لدراسة التحرير والاخراج وكذلك استعمال التسجيلات الصورية في دروس الاعلام(٢٢) ٠

٦ ـ ومع ان الصحافة كغيرها من المهن تحتاج الى نوع من التأهيل فان الصحفي لا يمكن ان يصنع كما تصنع الكعكة الشهية ٠ يحتاج الصحفي لكي ينضج مدة تقارب عشر سنين ، لذا فانه من المستحسن تقديم دورة منتصف المهنة في الكليات او المعاهد للشباب الذين تم تعيينهم في المؤسسات الصحفية(٢٣) ان استمرارية التعليم ضرورية لتطوير الخبرات الاساسية من اجل التوصل الى تخصص في حقول معينة مثل الصحافة الزراعية ، الصحافة الاقتصادية والتصوير الصحفي ٠

٧ ـ مع تنامي عدد الوظائف الجديدة في الحقل الواسع للاعلام كما في الاقسام المختلفة من اقسام وزارات الاعلام والتجارة والخارجية ، فانه من المقبول الاستفادة من المدرسين في مختلف المعاهد العلمية سواء اتخذ التأهيل مكانه داخل الجامعة او في معهد متخصص خارج الجامعة[٢٤] .

٨ ـ لوحظ ان البحث على المستوى العالمي قد فشل في سد الثغرة القائمة بين البحث الصحفي والتطبيق اليومي في غرفة الاخبار . ولوحظ كذلك ان التطبيق اليومي في الميدان الاعلامي لم يستفد بشكل كلي من نتائج البحوث في تدفق الاخبار والتعرض الانتقائي[٢٥] .واذا كان مما يوصي به اعتبار البحث من وظائف مؤسسات التأهيل الاعلامي ، فمما يوصي به ايضا البدء ببناء برامج التدريب على ما تم التوصل اليه من نتائج في حقول البحث الاعلامي .

٩ ـ وبسبب كما هو مفترض من النوعية العالية للتدريب فان مؤسسات التأهيل مطالبة لان تكون مراكز لنشر تحقيقات متسمة بالعمق في مواضيع ذات اهمية متصلة بمصلحة المجتمع . وفي ضوء التحليل السابق للتحديات ، فأننا نوصي بان تكون معاهد التدريب الصحفي :ـ

١ ـ مراكز تدريب لصحفيي المستقبل وللصحفيين الممارسين معا .
وتقوم هذه المراكز بتزويدهم بالخبرات الاعلامية الاساسية المتطورة الشفوية منها وغير الشفوية بالاضافة الى تاطير هذه الخبرات بمعرفة نظرية واسعة ، ان التأهيل يمكن ان يأخذ مداه عبر فترة قصيرة او طويلة بناء على الحاجة .

٢ ـ كمراكز للبحث لتطوير فهم لتدفق الاخبار ، والتحقيقات والاتناجات وكيف يدركها الناس ويستعملونه ضمن مختلف البيئات الطبيعية والاجتماعية ٠

٣ ـ كمراكز لنشر تحقيقات تتسم بالعمق وتعالج مواضيع ذات مساس بالحياة العامة ٠ وفي هذا الصدد فان الصحفي يجب ان يدرب ليس على جمع الاخبار وصياغتها بل كيف يعطي معاني لهذه الاخبار على اعتباره قائدا ومكتشفا وناقدا[٢٦] وعلى هذه المراكز ان تضع في حيز التطبيق اخر تنائج البحث الاعلامي ٠

وفي الوقت الذى تجد فيه مؤسسات تأهيل الصحفيين اهتماما في كل البلدان المتقدمة صناعيا، لابد لنا ان نذكر ان تأهيل صفيي البلدان النامية ، ومنها دول عدم الانحياز ، يمكن ان يتخذ اساليب اخرى تختلف عما هو متبع في البلدان المتقدمة صناعيا ٠٠ علما بان هذه الاساليب يمكن ان تختلف من قطر الى اخر وفقا للتطور الثقافي والتقدم الاجتماعي والاقتصادى وتصور النخبة السياسية في تزويد الشعب بمعلومات واضحة ومكتوبة بشكل جيد عن انفسهم وعن الناس الاخرين في العالم ٠

ان مؤسسات التدريب والتأهيل يمكن ان تتبع واحدا او أكثر من واحد من الاساليب الاتيـة :ـ

١ ـ التدريب اثناء الخدمة من خلال التعلم عن طريق الخبراء المتوفرين في المؤسسة الاعلاميـة ٠

٢ ـ التأهيل والتدريب في جامعة او كلية ٠

٣ ـ الدورة التدريبية في مؤسسة خاصة خارج او داخل القطر ٠

٤ ــ التعاون الاقليمي من خلال البحث والتعليم وطبع النشرات والدوريات والمشاركة بالمعلومـــات •

٥ ــ عقد حلقات النقاش والمؤتمرات لبحث اخر التطورات في حقل الاتصال بالجماهير •

٦ ــ تبادل وجهات النظر والزيارات بين الطلاب والمدرسين في الحقل الواسع للاعـــلام[٢٧] •

٧ ــ عقد برامج للتدريب والتثقيف بمساعدة من المؤسسات الصحفية المهنية في البلدان غير المنحازة واليونسكو ومنظمة الصحفيين العالمية وغيرهـا من المنظمات الصحفية التي تعني بتدريب الكوادر الصحفية الشابة •

اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان واجهات عدة للصراع لا زالت باقيـــة في عالمنا ، فاننا ينبغي ان ندرك ايضا ، ان الصحفيين مواطنون اعـــدوا للحياة في اطـار البيئة السياسية والاجتمـاعية لاوطانهم ، ولكن على الصحفيين في بلدان عدم الانحياز الا يجدوا خلافا بين كونهم مواطنين وادوارهم كصحفيين في سعيهم نحـو السلام والدفاع عن كرامـــة الانسان • ان على مؤسسات الاعداد الصحفي ان تذكر طلابها باهمية بناء السلم والصداقة الحقيقيـــة • ان انتقال المعلومات عبر القنوات الرسمية في الوسط الدولي يمكن اعتباره اقل من المعلومات التي تنتقل عبر اجهزة الاعلام وعليه فانه لايمكن اغفال اهمية التحقيقات الاخبارية في الاعلام الدولي واتخاذ القرارات[١٢٨] •

ومع نمو التعقيد على المستوى العالمي فقد ازدادت معـه مسـؤولية اولئك الذين هم في مراكز الاعلام عبر اجهزة الاتصال الجماهيريـة ؛ وعلى مدارس الصحافة وغيرها من معاهد التدريب وتأهيل الاعلاميين في الاقطـار غير المنحازة ان تخلق تشابكا في الاراء الفلسفية حول تطوير الانسان وبنـاء سـلام عـادل يقوم على العدالة فوق الارض •

وفي ضوء التحليل اعلاه فأننا نصل الى خلاصة ترى ان التعليم المهني للصحفيين لايمكن ان يقام بالتعاون مع مؤسسات لديها نوع او اخـر من الصلات مع مراكز الاستعلامات الاستعمارية او مع دوائر المعلومات لمـا « وراء البحار » • لقـد علم الرفيق صدام حسين رئيس الجمهورية العراقية ابناء شعبه قائلا : « للقلم والبندقية فوهة واحدة » إن هذا المبدأ يصلح ان يشكل استراتيجيـة تأخذهـا بعين الاعتبار اية مؤسسـة تدريبية لصحفيي عدم الانحياز •

اننا نؤمـل من صحفيي المستقبل ، وكـذلك اولئك الذين تم انخراطهم كصحفيين في بلدان عـدم الانحياز ان يجدوا في مدرسـة التضـامن التي ستفتح قريبا في بغداد مركزا جيدا للتدريب والتأهيل ولفترات قصيرة ومن الممكن ان تقدم هـذه الدورات ، المتخصصة دورات متداخلة مـع فلسفة الصحافة في بلدان عـدم الانحياز •

تطور صناعة الادوات الحجرية في شمالي افريقيا

د . وليد الجـــادر
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

لقد اصبح من الواضح الان ان اقدم النماذج البشرية وجدت في قارة افريقيا ، واصبح واضحا ايضا ان اقدم الادوات الحجرية المصنوعة من قبل الانسان كانت في نفس هذه القارة ، حيث ان التجمعات السكانية في افريقيا كانت قد انتجت ادوات من الحجر منذ حوالي عام • وكان الدكتور ليكي "Leaky" (١) قد عثر في عام ١٩٥٩ وفي منطقة اولدوفاي في تنجانيقا على مواقع للانسان المعروف بزنجاتروبس ووجدت معه ادوات ذات صناعة بدائية جدا ، وامكن تشخيص تلك الادوات على انها اقدم ماعرف لحد الان مما صنعته هذه الجماعات في القارة الافريقية • لقد عرفت هذه النوعية البدائية من الادوات بانها من الادوات الحصوية ومرحلة صناعتها بمرحلة الصناعية الحصوبة ونسبها المتخصصون الى الفترة التي تسبق اقدم مراحل صناعة الانسان للادوات الحجرية المعروفة حتى الان بالادوات الابقيلية(٢) •

لقد كان اسلوب معاملة قطع الحجارة بدائيا الى حد ان العديد ظن في أول الامر انها ربما من صنع الطبيعة ولكن وبعد العثور على نماذج غزيرة من هذا الاسلوب في معاملة الادوات الحجرية وبشكل خاص في آسيا وافريقيا أصبح اكيداً انها كانت من صنع الانسان •ولقدعرفت اماكن عديدة عثر فيها على مثل هذه الادوات في شمال افريقيا بشكل خاص وتمتد هذه المواقع من موريطانيا الى وادي النيل ومن اثيوبيا الى المغرب والصحراء (انظر الشكل ١) • اما

في اوربا فان مثل هذا الاسلوب من الصناعة كان محدودا جدا ووجدت قطع منفردة في ابسويج في انكلترا واكتشف هنري بروي (H. Breuil)، مشابها لهذه الاداة في البرتغال وعلى الساحل[٣] .

لقد ازداد الاهتمام بتتبع مراحل تطور الانسان وتطور ادواته المصنوعة في قارة افريقيا بالذات وكان أهم دافع الى ذلك كثرة النماذج التي وجدت في مواقع عديدة واستمرار صناعة الادوات بشكل متسلسل تقريبا واحيانا في منطقة واحدة ، وبالنتيجة فان جدولا زمنيا يرتب تطور صناعة الادوات الحجرية فيها صار منذ فترة طويلة لازما ، الى جانب الجدول القياسي الذي ظل معمولا به لفترة تزيد على القرن من الزمن والذي يستند على الادوات الحجرية المصنوعة والتي عثر عليها في اوربا وخاصة في فرنسا . لقد غطت مراحل صناعة الادوات الحجرية المكتشفة في افريقيا تلك المراحل المعاصرة لها في اوربا بل وزادت عليها بالعثور على مراحل ثانوية في تطور صناعة الادوات الحجرية خلال فترة واحدة ، هذا اضافة الى غزارة النماذج المغطية لكل مرحلة من هذه المراحل والاختلافات الجزئية التي توجد في المرحلة الواحدة نتيجة الصناعة المحلية أو نتيجة تأثيرات الهجرة السكانية وخاصة من مناطق جنوب غرب آسيا .

اما ترتيب تطور الصناعة الحجرية واساليبها في شمال افريقيا فهو كالاتي :

الدور الايوليثي : وهو فترة الصناعة الحصوية هذه والتي تغطي فترة طويلة جدا تسبق فترة العصر الحجري القديم .

لقد عرفت مواضيع عديدة وجدت فيها نماذج كثيرة من هذه الصناعة ومن ذلك عين حنش القريب من قسنطينة في الشرق الجزائري وفي موضع قرب الدار البيضاء يسمى سيدي عبدالحمن . وجدير بالذكر ان هذه الادوات الحصوية وجدت في طبقات هذه المواقع اسفل الطبقات التي وجدت فيها الادوات الحجرية المميزة لاساليب الصناعة اللاحقة المعروفة بالابقيلية (الشيلية) والاشولية[٤] . (انظر الشكل ٢)

كذلك عرفت الثقافة الحصوية في مواقع اخرى وجدت فيها نماذج من هذه المرحلة المعروفة بمرحلة الثقافة الحصوية في موقع مغارة العالية في طنجة • وفي هذه المغارة الاخيرة وجدت ، اضافة الى نماذج الادوات الحجرية من هذه المرحلة ، ادوات اخرى تغطي مجموعة فترات صناعية لاحقة وبشكل متسلسل وصولا الى فترة العصر الحجري القديم الاوسط[٥] •

ان هذه الصناعة المعروفة بـ « الحصوية » غطت مرحلة طويلة بحيث قسمت من قبل البعض من الباحثين الى مراحل ثانوية ومن ذلك تقسيم (P. biberson) الذي يقسمها الى اربع مراحل خلال فترتها ولقد وجد من نماذج هذه المراحل الثانوية الاربع في مواقع من شمال افريقيا وبالذات في المغرب[٦] •

ان مثل هذه الادوات كان قد وجد في وسط وجنوب افريقيا وكذلك في اقسام افريقيا الشرقية • كما تم اكتشاف خمس طبقات بسمك حوالى مئة متر في احد المواقع في افريقيا واعطت هذه الطبقات الخمس كلها نماذج غزيرة جدا من بقايا هذه الصناعة المعروفة بالحصوية[٧] •

وفي موقع اخر وجدت مثل هذه الصناعة في اماكن سكن قريبة من بحيرة قديمة وفي احدى تلك الاماكن وجدت سبعة ارضيات سكنية متتالية فيها بقايا حيوانات ايضا[٨] •

والواقع فان غزارة ماوجد من نماذج هذه الفترة الخاصة بصناعة الادوات الحصوية في مواضع عديدة من افريقيا قد دفع البعض الى القول انها الاصل للصناعة الحجرية المشابهة لها التي سبق وان وجدت بشكل منفرد ونزر في بعض مواضع اوربا كما سبق وان اشرت الى ذلك •

وفي الواقع فان مثل هذه المرحلة الاولى من صناعة الادوات ومنذ كانت مواكبة لوجود بقايا الانسان في نفس القارة الافريقية ومنذ اكثر من مليوني عام بينما لم توجد لحد الان ، بقايا بمثل هذا القدم في اوربا •

وفي مستوطن كبير في شمال افريقيا ، وهو موقع يسمى كهف هوافتيح أو هو افطيح ، اجرى المنقب مكبرني ، (M. McBurney) حفريات منتظمة تشير نتائجها الى استمرارية السكن في هذه المواقع ابتداء من العصر الحجري القديم الادنى وحتى عهد الاستيطان الاغريقي في شمال افريقيا أي من حدود القرن السابع ق٠م ٠

والمعروف ان هذا الكهف يعتبر لحد الان اكبر واوسع الكهوف التي ترجع الى فترة ماقبل التاريخ في حوض البحر المتوسط ، وشكله نصف دائري بقطر ٨٠م ، ويبعد بضعة امتار عن ساحل البحر ويقع في ليبيا قريبا من مرسى سوسة ٠ ولقد وجد مكبرني ان طبقات الكهف وترسباته هي عبارة عن بقايا لتجمعات سكانية مرتبة بقاياها بشكل طبقات افقية واضحة هي كالاتي ابتداء من الاعلى الى الاسفل :

بقايا استيطان اغريقية ٠

اثار الليبين القدماء ٠

اثار العصر الحجري الحديث في المنطقة ٠

مرحلة التدجين ٠

اثار الصناعة القفصية ـ الليبية المتأخرة ، أي من حدود ١٠٫٠٠٠ ـ ٧٫٠٠٠ ق٠م ٠

ادوات من المرحلة المعروفة بالوهرانية : ١٤٫٥٠٠ ـ ١٠٫٠٠٠ ق٠م ٠

ادوات حجرية من العصر الحجري القديم الاعلى المشابهة لما وجد منها في مناطق عديدة من شمال افريقيا وفلسطين ومناطق اخرى عديدة في جنوب غرب اسيا والتي يعود تاريخها الى الفترة بين ٤٠ ألف الى اربعة عشر الف عام ق٠م٠
ادوات من العصر الحجري الاوسط (ليفالوازى ـ موستيري) ، اي من الفترة المحصورة بين ٦٠٫٠٠٠ ـ ٤٠٫٠٠٠ سنة ق٠م ٠

بقايا اثرية من فترة حوالى ٩٠،٠٠٠ سنة ق٠م ، واعطت هذه الاخيرة معلومات ثمينة عن طبيعة التبدلات الخاصة بالحيوانات والنباتات[١٠] ٠

ان نتائج حفريات مكبرني في كهف هوافطيح هذا والذي يقع على انساحل الليبي تتأكد من خلال نتائج حفريات اخرى في مناطق تقع هذه المرة في اقصى الشرق من الشمال الافريقي ٠ ولقد اثبتت الحفريات المنجزة في المناطق الاخيرة نتائج مشابهةلمعظم العصورالمتسلسلة التي وجدها مكبرني فيكهف هوافتيح

فنحن نعرف مثلا من خلال دارسة بقايا ما يعرف بالمدرجات البحرية والمنخفضات الواقعة بالقرب من واحة الخارجة غرب النيل ،ومن الاختبارات التي انجزتها الباحثة الاثرية كاتون تومبسون في مدرجات بحيرة قارون ان هناك اثارا تغطي المنطقة وتوضح تتابع السكن فيها ابتداء من العصر الحجري القديم الاسفل وحتى العصر التأريخي في مصر (وصولا الى بداية عصر الاسرة الرابعة)[١١] ٠

ولقد افردت الباحثة تومبسون نتائجها على شكل جدول يوضح موجودات الطبقات أو المدرجات وعلى النحو التالي :

- مدرج على عمق ٤٣م وجدت : بقايا فأس يدوية من الحجر (من مدرج مجاور)
- مدرج على عمق ٤٠م وجدت : الات ليفالوازية ٠
- مدرج على عمق ٣٤م وجدت : الات موستيرية ٠
- مدرج على عمق ٢٨م وجدت : الات من المرحلة السبيلية القديمة ٠
- مدرج على عمق ٢٣م وجدت : الات سبيلية من المرحلة المتوسطة ٠
- مدرج على عمق ١٨ ـ ١١ م وجدت : الات حجرية حديثة أ ٠
- مدرج على عمق ٤ م وجدت : الات حجرية حديثة ب ٠
- مدرج على عمق ٢ م تحت مستوى سطح البحر ٠ وجدت الات حجرية اكثر حداثة من الات سطح البحر ٠

- مدرج ٤ م تنتمي الى عصر ما قبل الاسرات والاسرات (الاسرة الرابعة[١٢]) .

وفي الواقع ، فان تنقيبات عديدة اخرى في مواضع متعددة في الاقسام الشرقية من شمال افريقيا وفي مصر بالذات اثبتت وجود ادوات ترجع الى فترة العصر الحجري القديم الاسفل وتتدرج الات اخرى في نفس المواضع في الغالب لتغطي مراحل احدث زمنا[١٣] . وترد تسميات محلية مثل الادوات السبيلية والوهرانية وهي في الواقع ادوار او صناعات محلية معروفة في شمال افريقيا باصالتها المحلية كما سنأتي على ذلك في الفصول اللاحقة .

وفي مواقع اخرى في تونس اليوم اكتشف ادوات تغطي مرحلة الثقافة والصناعة الاشولية[١٤] في طبقات سفلى من موقع قفصة المشهور والمعروف بنموذجيته المثلة لفترة العصر الحجري الحديث في شمال افريقيا .

ان اكتشاف أرمبورغ (Arambourg) لموقع عين الحنش ، شرقي مدينة سطيف ، الواقعة في الشرق الجزائري ، يثير أهمية كبيرة ايضا وذلك لكون ادوات الموقع تمثل صناعة آشولية محلية انتشر اسلوب صناعتها باتجاه الشرق أيضا وصولا الى برقوبة الحلو ورقوبة عين السلطان قرب مدينة قفصة[١٥] .

والمعروف ان مثل هذه الادوات الاشولية التي تقرب الى الاشكال المدورة والتي تحتوي على جزء اقرب ما يكون الى ان يكون مجوفا قليلا وتكون احجام مثل هذه الادوات من هذه الفترة اقرب الى ان تحويها اليد البشرية الواحدة ويمكن ان تستخدم للرمي والدق والتكسير بشكل خاص . ان سعة انتشار مثل هذا الاسلوب الصناعي من هذه المرحلة حدى بالعديد من الباحثين على تمييز هذه المرحلة بالحنشية نسبة الى موقع عين الحنش هذا[١٦] .

وتتدرج من العصر الحجري القديم الاوسط (Middle Paleolithic) وحتى العصر الحجري الحديث في شمال افريقيا اساليب في صناعة الادوات الحجرية اعطاها الباحثون من الاوربيين تسميات محلية . لقد وجدت نماذج

لكل هذه الاساليب في مواقع عديدة في شمال افريقيا والصحراء • ويظم ثلاثة من الباحثين المتخصصين المعروفين في دراسات ما قبل التاريخ في شمال افريقيا والصحراء ، في اخر دراسة مهمة لهم معتمدة على اساليب التحليل العلمي الحديثة ، جدولا بتتابع هذه الاساليب والمراحل وهي كالاتي :

- الثقافة أو اسلوب الصناعة العتيرية •
- الثقافة أو اسلوب الصناعة الايبروموريسية •
- الثقافة أو اسلوب الصناعو الايبياليوليثيكية • (Epipaleolithique)
- الثقافة أو أسلوب الصناعة القضية التقليدية أو الكلاسيكي •
- الثقافة أو اسلوب الصناعة القفصية العلوية •
- الثقافة أو اسلوب الصناعة التابعة للعصر الحجري الحديث - الصحراوي - السوداني •
- الثقافة أو اسلوب الصناعة التابعة للعصر الحجري الحديث والخاصة بالبحر المتوسط •

واخيرا مرحلة الثقافة أو الصناعة الخاصة بالقفصية(١٧) •

ان احدث النتائج الخاصة بكل مرحلة من هذه المراحل الخاصة بمواقع العصور الحجرية في شمال افريقيا وفترات اساليب صناعاتها قد تيسرت بفعل الاختبارات المعتمدة على قياس اعمار المواد العضوية التي عثر عليها مع هذه الادوات المكتشفة في حوالى المائتي موقع ويمكن تلخيص النتائج كالاتي :

ان مرحلة الثقافة واسلوب صناعة الادوات من الفترة المعروفة بالعتيرية قد اصبحت اكثر وضوحا بفعل تثبيت طبقة وجودها جيولوجيا وبفعل فرز ثقافتها في اكثر من موقع واحد ويمكن القول انها ترجع الى فترة اقدم من الفترة التي حددها فوفري ، (R. Vaufrey) ، في عام ١٩٥٥ والتي قال بانها ترجع الى العصر الحجري القديم الاعلى الاوربي(١٨) •

ومن جهة اخرى فان اختبار البقايا الاثرية من نتائج تنقيبات موقع بيرار ، (Bérard) سابقا ، وهو الموقع الذي يقع تقريبا على الساحل الى الغرب من العاصمة الجزائرية بحوالى ثلاثين كيلو مترا ، يشير الى تتابع طبقي متسلسل امكن تشخيص الثقافة والمرحلة العتيرية فيه بموجب اختبار (C 14) بأنها تعود الى ٢٩٨٥٠ ق٠م ± ١٩٠ ٠ ولكن نتائج التنقيبات اثبتت وجود طبقات اخرى اسفل الطبقة العتيرية هذه والتي شخصت فيما بعد الفترة أو المرحلة العتيرية الاولى ارجعت الى الالف الثلاثين ق٠م وتتعزز الثقة بوجود هذه الفترة الاخيرة بفعل اكتشاف ما يشابهها في موقع تافوغالت ، (Taforalt) في المغرب والذي يرجع تحديده الى الباحث روش (J. Roche) وهي فترة ٤٠٠ و ٣٠ ق٠م٠[١٩] ٠

والمعروف ان رايكاس ، (Reygasse) ، هو الذي عثر لاول مرة على اثر يشخص هذه المرحلة من الثقافة العتيرية في شمال افريقيا وذلك قرب مجرى وادي الجبانة وعند بئر العتير الذي يبعد حوالى ٨٤ كم جنوب تبسة الى الشرق من مدينة قسنطينة على مقربة من الحدود الجزائرية ــ التونسية ٠ **(انظر الشكل ٣)**

ان طبيعة اسلوب مثل هذه الصناعة العتيرية تتميز اولا بكونها ادوات من الحجر ذات ٠٠ امتداد عبارة عن ساق مهيألان يربط بمقبض أو ما يعرف بالمذنب ، ومن هذه الادوات ٠٠ السهام والنصال ٠

لقد امتد اسلوب مثل هذه الصناعة المميزة من هذه المناطق السالفة الذكر وصولا حتى البحر الاحمر شرقا وحتى موريطانيا غربا وبعمق يصل جنوبا الى النيجر وتشاد[٢٠] ٠ **(انظر الشكل ٤)**

ان اسلوب أو طريقة تهذيب الادوات الحجرية في هذه المرحلة الثقافية المميزة وجد انها تطور واقتباسا من اسلوب وطريقة هندمة الادوات الحجرية من الفترة السابقة المعروفة بالثقافة الليفالوازية ــ الموستيرية مع ظاهرةجديدة مضافة تلك هي عمل واضافة الذنب أو الاستطالة المنوه عنها سابقا. كذلك تتميز هذه الادوات بكونها مدببة ومن مفردات ادواتها المتخصصة اضافة الى النصال والمقاشط : الشفرات والمداعيك وان البعض من هذه الادوات الاخيرة وجدت معمولة على شكل مقوس اشبه بالشكل النصف دائري تقريبا واقرب ما يكون الى شكل القارب المصغر[٢٢] . انظر الشكل ٥ أ .

يؤكد باحثون اخرون من المتخصصين بدراسة هذه الفترة بان اسلوب تهذيب الحجر خلال هذه المرحلة يطابق فعلا نفس الاسلوب والثقافة المتجاوبة مع المرحلة المعروفة ايضا بالليفالوازية ـ الموستيرية وخاصة في طريقة صقل الادوات ولمعانها وشكلها[٢٣] .

ويرى ليونارد وولي ، وهوكس (Sir L. Woolley ' J. Hawkes) ان انتشار الثقافة العتيرية كان ابتداء من الساحل من نفس المنطقة المشار اليها سابقا في الشرق الجزائري وباتجاه الشرق. وفعلا يؤكد ان هذا الانتشار ضمن هذه الحدود ناتج عن تطور محلي لصناعة المرحلة العروفة بالموستيرية في هذه المنطقة. ويرى هذان الباحثان بأن ما يميز هذه الصناعة في هذه المنطقة هو اعتمادهم لاسلوب الضغط ، (Pression) في صنع الادوات والمعروف ان مثل هذه الطريقة التي يفترضها المؤلفان والخاصة بتطوير اسلوب هذه الصناعة العتيرية ادت فيما بعد الى معرفة القوس والسهم[٢٣] . هذا اضافة الى تميزهم في تبني اسلوب تشظية القطعة الحجرية الواحدة ومثل هذه العملية الاخيرة تعتبر من ناحية عمل الادوات ، .. ممثلة للمرحلة الاساسية في صناعة القوس والسهم[٢٤] .

ومن منطقة كوم ـ امبو في الجزء المصري ، في منطقة اسوان ، وقريبا من نهر النيل وجدت نماذج من مرحلة الثقافة العتيرية وعلى ثلاثة تدرجات ثانوية متسلسلة من الفترة المقابلة زمنيا للفترة الموستيرية الى الميزوليثيكية[٢٥] .ان مثل هذا التسلسل الزمني واسلوب الصناعة للادوات المميزة لهذه المرحلة وجد في مواقع في المغرب والجزائر[٢٦] حيث تم الكشف عن موقع : جوف الجمل وبيرارد ، المذكورة سابقا والواقعة الى الغرب من العاصمة الجزائر كما اكتشف في تونس في موقع يسمى عين ميترشم وفي كل هذه المواقع وجدت معالم الثقافة العتيرية اضافةالى طبقات سفلية منهاعثر فيها على دلائلالعصر الحجري القديم الاسفل واهم نموذج لذلك الموقع المعروف بالزاوية الكبيرة[٢٧] .

أما بالنسبة للثقافة الايبروموريسية فلقد عرفت منذ عـام ١٩٠٩ حيث اطلق هذه التسمية لاول مـرة الباحث بيليرى (P. Pallery) [٢٨] . لقـد وجدت معالم هذه الثقافة منتشره في اماكن عديده من شمال افريقيا واحيانا سميت هذه الاماكن باسمائها المحلية .

ان اول اكتشاف لهذه الثقافة كان في موقع تافوغالت ، (Taforalt) في المغرب اليوم والقريب الى الحدود مع الجزائر واعتبرت فترة الالف الثالث عشر ق.م . كبداية لممارسـة هذا الاسـلوب من الصناعـة التي ميز صفاتهـا بيليرى ، بكونها نموذجية وهي :ـ

- صناعة النصال والشفرات ذات الخلفيات المشغولة .
- صناعة النصال والشفرات ذات التدبيب الحاد .
- صناعة المداعيك المدورة .
- صناعة الات مدورة اقرب الى اشكال الحصا ، تكون الضربات الخاصة في صناعتها عبارة عن ضربات متقابلة بالتناوب . تتميز هذه الفتـرة بندرة الادوات المصنوعة من حجر الصوان والنماذج من هذا الحجر وجد انها اقرب ما تكون الى شكل المربع المنحرف[٢٩] .

لقد وجدت اولى مواقع هذه الثقافة الايبروموريسية في شمال افريقيا قريبة من الساحل ووجدت بقايا ادوات المرحلة في فجوات المرتفعات الصخرية المطلة على البحر وقرب الانهار القريبة من الساحل • وكان اعتماد هذه المناطق بالدرجة الاساسية على صيد الاسماك والقواقع اضافة الى ماكانوا يجمعونه من القوت من المرتفعات الساحلية ، واكتشفت نماذج من هذه الثقافة في وديان الكرمة القريبة من العاصمة الجزائر وكوربة البحرية القريبةمنها[٣٠]• واضافة الى ذلك فقد تم العثور على بقايا من الثقافة الايبروموريسية في اطراف الصحراء الشمالية مثل منطقة سعيدةالواقعة جنوب شرقالعاصمةالجزائر ومنطقة مويلة وبشكل يجعلها ثقافة محلية كبيرة مثلتلك التيوجدت فيجنوبوهوان[٣١]•

ومن الجدير بالملاحظة ان هـذه التسـمية المعروفـة باسـلوب الصناعة الايبروموريسية ظلت منسوبة الى باليرى : Pallary على الرغم من العثور على مرادفات مشابهة لهذه الصناعة في اماكن عديدة على الساحل وفي داخل الصحراء وظلت هذه التسمية قرابة نصف القرن بهذه الشمولية من حيث اسلوب الصناعة والفترة الزمنية التي شغلتها الى ان اسـتطاع الباحثـون المتخصصون تجديد الخصائص المميزة لهذه الفترة وتصنيف الادوات الحجرية واساليب تصنيعها وتحديد مراحلها • والمعروف ان هذه المرحلة من الصناعة الايبروموريسية تضم مجموعة ثقافات أو اساليب صناعية محلية اكتشفت في مواقع مهمة وسميت ، كما قلنا سابقا ، بتسميات محلية مثل الوهرانية والمويلية كذلك تمثلت هذه الثقافة في موقع هوافتيح وبرقة (سيرانايكة) وفي مغارة سعيدة[٣٢] • (انظر الشكل ٥ ب)

وكان اوائل الباحثين الذين قسموا فترة الثقافة الايبروموريسية الباحث الجزائري براهيمي ، المتخصص بفترات ما قبل التاريخ في شمال افريقيا • لقد اعتمد براهيمي على تقسيماته هذه على نتائج تنقيباته العديدة في مناطق قريبة من الجزائر العاصمة مثل كوربة البحرية الواقعة على الساحل القريب منغرب الجزائر العاصمة بحوالى اربعين كيلو مترا وكذلك في منطقة مغارة راسل اضافة

الى المنطقة التي تقع في ملتقى وديان الكرمة وتنيز • ويذكر براهيمي بأن مواقع اخرى في تونس مثل المنشية والوشتاتة تمثل نفس الثقافة وكذلك ما يعرف بمناطق القبائل في الشرق الجزائري وبمحاذات الساحل مثل تمارحات وجيجل وتازه ، اضافة الى جنوب وهران مثل الثقافة المعروفة بالكولمناتية ، نسبة الى موقع كولمناتا ، والهوتية • ان كل هذه المناطق الرئيسية الاخرى التي يوردها براهيمي يجمعها اسلوب صناعي ممثل لهـذه الفترة ويشمـل صناعـة نموذجية تضم مايلي(٣٣) :

النصال والشفرات والمداعك وادوات حجرية مسننة وادوات دقيقة ذات اشكال اقرب الى الاشكال الهندسية ، اضافـة الى المثاقب الدقيقـة والصغيرة الحجم ، وبذلك فانه يناقض (Pallary) ، فيما عدا مايضيفه من ادوات دقيقة وصغيرة الحجم هي في الواقع من صفات ادوات فترة العصر القديم الاعلى في المنطقة هذا مع ملاحظة حداثة اراء براهيمي قياسا باراء باليرى في بداية هذا القرن وكثرة النماذج المحلية الاخرى المكتشفـة في الفترة الاخـيرة • اما تقسيمات براهيمي الحديثة التي يوردها فترات الثقافة الايبروموريسية حسب اكتشافها في مناطقها المحلية فهي كالاتي :ـ

بقايا اثار وادوات مغارة راسيل الواقعة الى الغرب من العاصمة الجزائر والقريبة من الساحل من فترة : ١٢٫٣٢٠ ق•م•

تمارحات من فترة : ١٠٫٥٠٠ ق•م •

كولمناتا ، من فترة : ٨٫٨٥٠ ق•م•

تازة من فترة : ١٠٫١٢٥ ق•م •

تازة ٤ ، من فترة : ٩٫٣٩٠ ق•م •

تازة ٥ ، من فترة : ١٠٧٥٠ ق•م •

واخيرا الهوتية من ٦٫٨٧٠ ق•م ، والمرحلة الاخيرة من فترة بداية المرحلة الاولى من الثقافة القفصية •

ان من اهم المواقع التي ساهمت في توضيح مدى انتشار الثقافة الايبروموريسية في شمال افريقيا هو موقع كولمناتا ، يقع هذا الموقع بالقرب من سيدى حسين في القطاع الادارى الحالي التابع لولاية تيارت في الجزائر . (انظر الشكل رقم ٦)

وكان سكنة هذا الموقع من الجماعات التي ترجع الى فترة العصر الحجري القديم الاعلى ، ونظرا لطول فترة سكنة هؤلاء في نفس المنطقة فقد امكن تمييز اربع ثقافات متتابعة فيها ترجع الى المرحلة الكبيرة نفسها وهي الفترة الايبروموريسية ، ويرجع الفضل في الكشف عن اثار المنطقة الى الباحث الفرنسي كادينا ، (Cadenat) [٣٤] ، الذي نقب بشكل متقطع في المنطقة ما بين فترة ١٩٣٧ - ١٩٦٢ ونشر نتائج بحوثه بشكل دوري ، واهم نتائج تنقيبات كادينا تتركز في تحديده للفترة الايبروموريسية الرئيسية وفي تشخيص فترة تالية سماها بالكولمناتية نسبة الى نفس الموقع الذي عمل فيه خلال هذه الفترة المذكورة سابقا .

لقد ذكر كادينا بانه وجد معالم الثقافة القفصية المتأخرة ومعالم فترة العصر الحجري الحديث في شمال افريقيا[٣٥] . وفي الواقع ان اكتشاف اربعة مراحل في هذا الموقع ، كولمناتا ، يعتبر امرا هاما لما يوضحه من استمرار المعيشة المتوفرة في المنطقة بصورة يغطي فيه هذه الفترات او المراحل الاربعة.

ان أحدث البحوث المعتمدة والخاصة بتحديد نهاية فترة الثقافة الايبروموريسية هذه في منطقة شمال افريقيا تشير الى انها قد وصلت حتى نهاية الالف التاسع ق.م ولقد تاكد ذلك من خلال نتائج التنقيبات التي اجريت في موقعي (Taforalt) وكولمناتا[٣٦] . ومع ذلك فان مواقع اخرى اعطت نتائج لثقافات لاحقة لفترة نهاية الثقافة الايبروموريسية من ٦٣٣٠ و ٦١٩٠ ق . م تقريبا ، ومن ذلك موقع كولمناتا نفسه ، ثم كوديات كفن الذي حددت ثقافته من فترة ٦٧٥٠±٢٠٠ و ٦٣٧٠ و ± ١٥٠ ق.م[٣٧] .

كذلك حدد اسلوبا صناعيا محليا للادوات الحجرية اكتشف نماذجه لاول مرة في موضع يسمى حكفت الضبة ، الواقع الى الشرق من مدينة بنغازي في ليبيا والقريب من الساحل . لقد اعتبر هذا الاسلوب المحلي الخاص في صناعة الادوات الحجرية اسلوبا متطورا عن اسلوب الصناعة العتيرية . وسمي هذا الاسلوب بالصناعة الدباوية أو الضباوية نسبة هذا الموقع ، وتميزت صناعته بالنصال ذات القاعدة والنصال المخرومة المؤرخة خلال فترة العصر الحجري القديم الاعلى وكانت معالم هذه الصناعة قد اكتشف في موقع هوافتيح ايضا ، ويرجع تاريخ هذه الثقافة الى حدود الالف العاشر ق.م. ولقرب مناطق سكن جماعات هذه الثقافة من مناطق الثقافة القفصية اللاحقة ، فقد اقترح ان يكون سكان الثقافة الاولى هم انفسهم الذين انحدروا من سفوح جبال الاطلس المواجهة لتونس والجزائر ، والمعروف ان جماعات القفصيين انتجت في بدايات الالف السابع ق.م صناعة النصال المقوسة والكبيرة الحجم نسبيا اضافة الى نتاجاتها المميزة الاخرى الخاصة بها[٣٩] .

(انظر الشكل رقم ٧)

اما بالنسبة للثقافة القفصية فلقد عرفت اولا بعد الكشف عن مناطق انتشارها في اقسام عديدة من الشرق الجزائري وفي تونس الحالية ، وكانت تسمية هذه الثقافة نسبة الى مدينة قفصة الواقعة قرب مدينة تبسة الحالية الواقعة في الشرق الجزائري وعلى الحدود مع تونس .

ان دارسة العديد من المنقبين تحدد مرحلة هذه الثقافة بالعصر الحجري الحديث في شمال افريقيا ومن ذلك ما توصل اليه المنقب ـ الفرنسي بالو (Balout) خلال عثوره على بقايا ما يميز الثقافة القفصية في تادمايت وهي من بقايا انتشار هذه الثقافة في الصحراء حيث عثر بالو على بقايا عظمية وكسر من بيض النعام المحفورة بشكل دقيق[٤٠] ، كذلك فقد عثر في مواقع ترجع الى نفس الفترة على نماذج اخرى عديدة من بيض النعام واعتبرت فيما بعد هذه الظاهرة ميزة خاصة بثقافة هذه الفترة[٤١] حتى لقد

سميت هذه الثقافة من قبل البعض من الباحثين بثقافة او صناعة بيض النعام او بثقافة القواقع ، لكثرة ما وجد من بقايا القواقع التي تركتها التجمعات السكانية في المناطق ذات الثقافة القفصية وخاصة الشمالية ، اي القريبة من الساحل في شمال افريقيا قياسا بالصحراء • وسماها البعض الاخر من الباحثين بثقافة الرماد لكثرة ما وجد من اثار الحروق في مواقع تجمعاتهم السكانية • ومع بقايا الرماد هذه وجدت اكوام من القواقع الحلزونية وتصل الى حوالي عشرة امتار في ارتفاعها وتمتد الى مسافة ١٠٠ ــ ١٫٥٠ مترا ، ووجد ان هذه الاكوام تتكون من الرماد والادوات الحجرية والعظام ومجموعة كبيرة من الاصداف الصغيرة الحجم وقسم كبير منها على شكل الحلزون •
(انظر الشكل رقم ٨)

والواقع ان اساليب الصناعة خلال فترة الثقافة القفصية هذه تعتبر ثقافة متطورة لاترتبط بوضوح باستمرارية وبقايا الثقافة الايبروموريسية • وتتميز من ناحية صناعة ادواتها الحجرية بكونها دقيقة وكون الادوات المستخدمة من العظام فيها تقرب الى الاشكال الهندسية •

لقد ارخت بعض البقايا من الادوات العظمية والصدفية وبيض النعام المزين بخطوط هندسية بسيطة بنهايات الالف السادس ق•م [٤٢] •

لقد ظلت الثقافة القفصية منتشرة في مناطق عديدة من شمال افريقيا والصحراء وظلت واضحة المقاشط النموذجية تكتشف في مناطق في تونس بالذات وصولا الى الالف الرابع ق•م [٤٣] • ومع بقايا استخدام هذا النوع من المقاشط القفصية استمر اسلوب اخر في صناعة الحجر اعتبر استمراراً لواحد من جوانب الصناعة الايبروموريسية ذلك هو اسلوب الادوات المضروبة أو المشغولة الظفر أو المشغولة من جانب واحد والممثلة لحوالي ٦٠٪ من الادوات المستخدمة بهذا الاسلوب سواء في انتاج المقاشط المدورة او غيرها من الادوات الاخرى[٤٤] •

(انظر الشكل رقم ٩ والشكل ١٠)

اما مجموعة السكان القفصيين (اصحاب الثقافة القفصية) فيعتقد ان اصلهم من المناطق الواقعة في شرق البحر المتوسط ، وارتبطت بهذه النظرية آثار اخرى وضحت بشكل اوسع الصلات الثقافية اللاحقة •

والمعروف ان التنقيبات الاثرية كانت قد كشفت وجود بقايا تجمعات سكانية ترجع الى فترة بدايات الالف الخامس ق•م في مناطق شمال غرب وادي النيل ووجد ان انتاجات هذه التجمعات السكانية كانت لاتختلف كثيرا عن الثقافات الضخمة التي انتشرت قبل هذه الفترة واكثر من الف عام سابق لها في مناطق الشرقين الاوسط والادنى القديمين • وقد انتشرت الثقافة القفصية في اماكن ليست مقتصرة فقط على سواحل شمال افريقيا أو قريبا منها بل في مواضع تبعد عن الساحل اكثر من ٨٠٠ كم كما هو الحال في مناطق الصحراء القريبة من وركلة ولقد امكن اعادة موجودات هذه البقايا بعد اختبارها الى الفترات التالية : ٥٠٠٠ ± ١٢٠ ق.م و ١٥٧٥ ± ١٢٠ ق.م[٤٥] ، وكان من بين اثار هذه المواقع بقايا بيض النعام ، المعروف بكونه من انتاج الثقافة القفصية ، الى جانب بقايا الصناعات الحجرية من قطع الصوان وباعداد كبيرة جدا • وفي بعض المراكز من هذه الفترة وخاصة في هذا القطاع القريب من وركلة وجدت صناعة فخارية اعطت ابعادا جديدة وغريبة فاعتبرت في مجموعها مكملات لانتاج تجمع سكاني متكامل على الرغم من كون تجمعاته السكانية هذه متباعدة عن بعضها البعض بمسافات كبيرة جدا تقرب من الالف كم احيانا •

وحتى مناطق تقع في كينيا وجدت بقايا الثقافة القفصية من فترتها المتأخرة وذلك من خلال بقايا المجموعات الفخارية ذات الطابع المشابه لما عرف انتاجه في مواقع الصحراء الاخرى السابقة الذكر[٤٦] •

(انظر الشكل رقم ١١)

هذا اضافة الى العثور على بقايا صناعة فخارية من انتاج جماعات الصيادين السودانيين ومن الفترة المعروفة بفترة الميزولثيك ، العصر الحجري الوسيط ، في الخرطوم[٤٧] . والمعروف ان صناعة الفخار في افريقيا لم تمارس قبل فترة الالف الخامس ق.م ولذلك فالعثور على نماذج ضمن بقايا التجمعات السكانية فيها قد يكون بفعل ارتباط واتصال هذه الجماعات بسكان غرب النيل ككل اضافة الى الاتصال المعروف بجماعات جنوب غرب اسيا .

واخر البحوث الخاصة بتنقيبات الباحث الفرنسي (H. Camps-Fabrer) في مناطق تقع شمال العلمة الواقعة جنوب شرق العاصمة الجزائر بحوالي ٣٠٠ كم ، أعطت في الواقع تحديدات اخرى جديدة لمرحلة من مراحل الثقافة القفصية حدد هذا الباحث حتى المرحلة التي يقترح انها دامت حوالي الالف عام :

٦٩١٠ ± ١٥٠ ق.م - ٥٩٠٠ ± ١٥٠ ق.م[٤٨] .

اما المرحلة الثانية فيقترح بكونها قد استمرت حوالى خمسة قرون (٥٨٣٠ ± ١٤٠ ق.م)[٤٩] ، كذلك اعطت نتائج تنقيبات كل من (J. P. Maître ‘ G. Camps) في مناطق قريبة من جبال الحجار في الصحراء وخاصة في منطقة تعرف تحت اسم اميكني . (Amekni) ، ابعادا اخرى عن استمرارية الثقافة القفصية في هذه المناطق الصحراوية القريبة من جماعات غرب النيل ومن هذه الابعاد العثور على ادوات يومية من صناعة مثل المثاقب المخارز والسكاكين اضافة الى بعض المنحوتات على الحجر وبقايا فخارية[٥٠] .

وفي مناطق قريبة الى المناطق السابقة الذكر والواقعة في الصحراء كشف المنقب الايطالي فابريزيو موري (Fabrizio Mori) وذلك بين عامي ١٩٥٩ - ١٩٦٣ وفي منطقة تدرارت (Tadrart) ، القريبة من الغاط .(Ghat)

رسوما جدارية اضافة الى بقايا من قطع الخشب المتفحم ، ولقد تمت عملية اختبار هذه البقايا بواسطة التحليل (C. 14) وارجعت الى فترة حوالي ٤٧٠٠ ق ٠ م ٠

علما[٥١] بأن هذه الرسومات أرجعت من قبل بعض الباحثين الى فترة رعاة الماشية في شمال افريقيا ٠ والمعروف عن اكتشاف منحوتات من الحجر عثر عليها في تسنيت (توات) وفي جنات او تاجنتورت في منطقة الحجار منها اشكال الاكباش وبعض هذه الاكباش وغيرها المكتشفة في تاسيلي ايضا وجد انها شبيهة بالاشكال المتخذة كنصب[٥٢] وقد تكون في اول امرها للتعظيم أو التقديس ٠ ومما يلفت النظر في مثل هذه النماذج المنحوتة والموضحة لفكر تجمع يعتمد على الصيد والرعي اعمق من اعتماده على الزراعة انه يوضح اكثر الحس الفني والاسلوب المحلي المميز ومثل هذه الاشكال تشير ، وكما سبق ذلك ، الى ممارسة بعض الطقوس الخاصة بالصيد والرعي قبل ان تكون مفسرة لمظهر زراعي معين ٠ ان مجموعة الرسومات التي وجدت ملونة احيانا واحيانا اخرى محفورة على الصخور تعطي اولوية الاهتمام بالحيوانات اكثر من أي موضوع اخر ٠

وما عدا مواضع التجمعات السكانية في هذه المناطق الجبلية التي كانت مشجعة على الرعي وحتى استئناس الحيوانات خلال فترة الالف الخامس ق٠م ، فان نتائج التنقيبات في وسط الصحراء الحالية اظهرت مواضع تجمعات سكانية مؤقتة وقد تكون مما يعرف بالرحل الممارسين لعملية الصيد اضافة الرعي ٠ لقد وجدت بقايا مراكز هؤلاء على شكل بقايا صخرية كانت مساكن مؤقتة لهؤلاء ولا يزيد المتبقي من هذه المساكن اكثر من سمك نصف متر ووجد ان هذه المساكن موزعة بشكل منتظم[٥٣] ٠

ان رسومات عديدة تفوق العدة الاف اكتشـفت في منـاطق الصحراء الوسطى ومنها العديد الذي يظهر اشكال الصيادين بمفردهم أو على شـكل جماعات أو مع طرائدهم ، وتوضح العديد من هذه الاشكال ادوات الصيد ويبدو واضحا شكل السكين أو الخنجر(٥٤) .

(انظر الشكل رقم ١٢ والشكل رقم ١٣) .

لقد سبق للباحث رايكاس ، (M. Reygasse) ، ان ذكر خلال المؤتمر الخاص بعلوم ما قبل التاريخ والذي انعقـد بباريس عام ١٩٣٤ والـذي كان مكرسا بشكل خاص عن منطقة الصحراء الوسطى بان مشاهد واهتمامات فناني شمال افريقيا في الصحراء الحالية كان مكرسا لاشكال الصيادين وبعد ذلك تركز اهتمامهم باولى مراحل فترة الرعي(٥٥) .

ان تتبعا علميا يرصد من خلال الاكتشافات الاثارية والذي يوضح مراحل تطور فعاليات الصيد في الصحراء الوسطى والجنوبية الشرقية منها ، كـذلك نستنج من خلال الدراسات الخاصة بالاجناس ان صيادي هذه المرحلة كانوا انفسهم الممهدين لمرحلة الرعي وهم من جماعات غرب النيل والسودانيين ثم كان هؤلاء انفسهم الممهدين لتكوين جماعات من الرعاة الصحراوية مع بقاء القسم الاعظم من التجمعات السكانية في المناطق السابقة الذكر معتمدة على الصيد(٥٦) .

عبادة اللات العربية وانتشارها
في ضوء الشواهد الأثرية

الدكتور واثق اسماعيل الصالحي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

احتلت الالهة اللات مركزا بارزا ومهما بين محموعة الآلهة العربية القديمة في الفترة التي سبقت الدعوة الاسلامية وقد عبدها عرب الحجاز وعرب الشمال في سورية والعراق وقد خصصت لها معابد كثيرة منتشرة في مواضع عديدة من هذه الاقطار وبخاصةفي مراكز المدن العربية كتدمر والحضر ودورايوروبس (الصالحية) والبتراء استنادا الى المنحوتات التي تصورها وبعض الكتابات التي يرد فيها اسمها التي اكتشفت اثناء التنقيبات الاثرية التي جرت في تلك المدن • ففي جنوب الجزيرة اقترنت عبادتها ، كما يعتقد ، بعبادة الشمس بدليل أن الشمس انثى ، أى الهه في اللغة العربية وفي كثير من لهجات الجزيرة العربية الاخرى وأن اللات انثى ايضا [١] وقد ورد أسمها بصيغة «ألت» في الكتابات النبطية والآرامية التي وجدت في الحجر وصلحد وتدمر والحضر وبصيغة « هلت » في الكتابات الصفوية ويقصد بها اللات لان الهاء أداة تعريف فياللهجة الصفوية[٢] •وأطلق عليها المؤرخ هيرودوتس اسم «أليلات» والتي تعني الالهة[٣] ولفظة اللات هي ادغام لتلك الكلمة • في الجزيرة العربية ، كان مركز عبادتها بمدينة الطائف حيث قدسة وزاره العرب لاغراض التبرك وبنت قبيلة ثقيف ، ومركزها في الطائف أيضا ، بيتا (معبدا) على صخرة مربعة بيضاء ، كما يذكر ابن الكلبي ، وأصبح بعد ذلك معبدا للات وانه كان يضاهي الكعبة وسدانته كانت لآل أبي العاص بن ابي يسار بن

مالك من ثقيف أو لبني عتاب بن مالك وكانت قريش تعظمه وتقدسه أيضا[٤] وموضع المعبد كان في موقع مسجد الطائف او تحت منارة المسجد اليسرى[٥] وقد هدم هذا المعبد واحرق قوضت حجارتـه بأمـر من الرسول لله (ص) عندما دخلت ثقيف الاسلام • وقدتعددت الروايات حول امر رسول الله بتهديم المعبد ويذكر ان الرسول (ص) قد ارسل أبا سفيان بن حرب ، المعـارض للرسول وحامي الاصنام والمدافع عنها قبل فتح مكة ومعه المغيرة بن شعبه للبدء بتهديمه[٦] وفي روايات اخرى بعث الرسول (ص) المغيرة بن شعبة وحده[٧] والرواية التي تذكر اشتراك ابي سفيان مع المغيرة في هدم بيت الربه (أي اللات)كما يطلق عليه في بعض الاحيـان ان صحت فانها تـدل على الروح الجديدة والمثل العليا التي ظهرت بجزيرة العرب بظهور الاسلام وتعبير عن التطور الفكري الخطير الذي حدث فيها منبئا بظهور نهضة عربية جديدة •

وكان للات مركز مهم بين أصنام مكة المكرمة ، ويذكر ابن الكلبي أن قريشا ومن أقام بمكة من القبائل العربية كانوا يقدسون العزى واللات ثم مناة من بين الاصنام الاخرى وكانت قريش تخص العزى بالهدايا والزيارات وثقيف تخص اللات وكانت الاوس والخزرج تهتم بمناة وقد وردت الالهات الثلاث اللات والعزى ومناة في القرآن الكريم بهذا الترتيب[٨] • ووضع الاخباريون العزى بعد اللات مجاراة لما ورد في القرآن الكريـم وذكروا أخبارهم عنها على هذا الاساس لأن العرب الجاهليين قدموا اللات على العزى • ويذكر الاخباريون أيضا أن قريشا كانت تقدم الهدايا من الحلي والثياب والنفائس نذورا لهذه الاصنام حيث كانوا يعلقون الاسلحة والقلائد عليها ويقدمون الاشياء الاخرى الى سدنة معابدها ويؤيد ذلك من بيت شعر ينسب الى كعب بن مالك الانصاري يقول فيه[٩]

ونـنـسـى الـلات والعـزى وودا

ونسـلبها القلائـد والسـيوفا

ويذكر أيضا ان تماثيل الالهات كانت تؤخذ معهم في الغزوات[١٠]

لقد وردنا العديد من أسماء الاعلام المركبة التي تعتمد اللات أمثال تيم اللات ، زيد اللات ، عائذ اللات ، شيع اللات ، شكم اللات ، وهب اللات وعبد اللات. وقد وصلت عبادة اللات الى سورية بواسطة الهجرات المتعاقبة لقبائل الجزيرة العربية حيث نجدها في سنة ١ ميلادية في الحجر (مدائن صالح)[١١] حيث تذكرها كتابة نبطية على تمثال ، جزؤه الايسر مكسور . بالصيغة التالية «هذه هي الالهة اللات من بصرى» [١٣] . وفي بصرى عثر على تمثال اخر يمثل اللات عليه كتابة مشابهة لما ورد في الحجر ويدل على ذلك ان العرب الانباط كانوا يقدسون ويعبدون اللات ضمن مجموعة آلهتهم حيث بنوا لها معابد في داخل وخارج مملكتهم[١٣] وذكرتها الكتابات على انها «أم الالهة» [١٤] وقد وردت في صلخد في كتابات يعود تأريخها ان سنة ٦٥ ميلادية[١٥] . وهناك أدلة آثارية تثبت انتشار عبادة اللات في سورية وتقديسها على النطاق الشعبي بين قبائل عرب الشمال وعلى الصعيد الرسمي كونها تدخل ضمن مجموعة الآلهة الرئيسية المدن السورية العربية القديمة واعتبرت الالهة الام او الالهة العظيمة ، ومن جملة هذه الادلة أن أسمها يتردد في الكتابات الآرامية ويدخل في تركيب أسماء الاعلام مثل شلم اللات ، وهب اللات ، عبد اللات ، أمات اللات ، سعد اللات ، نصر اللات ... الخ[١٦] . هذا بالاضافة الى العثور على منحوتات وتماثيل تمثلها . وفي تدمر كانت الهة رئيسية ولكننا لانعرف مركزها في مجموعة الآلهة التدمرية ، ويعزي سبب ذلك الى ان عبادتها قد وصلت متأخرة الى تدمر ولم تحتل موقعا دينيا مهما[١٧] ولكن التنقيبات الحديثة التي جرت في المدينة ابتت ، بشكل واضح ، أهمية مركزها بين الالهة التدمرية وعبادتها على نطاق واسع . ومن خلال منحوتاتها والادلة المكتوبة التي عثر عليها أثناء التنقيبات اتضح مدى تطابقها مع الالهة الاغريقية اثينا . حيث نحتت بهيئة أثينا ببزتها العسكرية وصدرها المغطى بدرع مكون من حلقات معدنية مزردة ويظهر وجه مدوسا المطلسم في وسط الدرع

وتبدو الالهة وعلى رأسها الخوذة الكورنثية وباحدى يديها رمح طويل وتضع اليد الاخرى على ترس بجانبها . والادلة المهمة التي اعتمدنا عليها في هذا التطابق مستمدة من الكتابات التذكارية . فقد عثر على كتابة باللغة اليونانية تذكر اثينا ــ اللات[١٨] ، اضافة الى ان اسم وهب اللات ، ابن زنوبيا ملكة تدمر ، قد ترجم الى اليونانية بشكل أثينا دوروس على كتابة يونانية . وعلى النقــود الاغريقية لوهب الــلات فقــد كتب « أوبالاثوس » أعقبته الترجمة الاغريقية للاسم «أثينادوروس»[١٩] .

وعثر مؤخرا على معبد يقع في الجزء الغربي من مدينة تدمــر خصص لعبادة اللات وبعض الالهة العربية الاخرى . واقدم ذكر للات ورد في كتابات تؤرخ في حدود عام ٦ ق ٠م وفيها يذكر أن اللات هي آرتمس وتذكرها كتابات اخرى وجدت في تلك المنطقة تؤرخ في القرن الاول والثاني الميلادي . وعثر أيضا في خلوة المعبد على تمثال يصورها بهيئة اثينا بارثنوس يرجع بتأريخه الى حدود القرن الثالث الميلادي[٢٠] . والتنقيبات اوضحت وبشكل مؤكد انللات معبدا خاصا بها في الجزء الغربي من المدينة في بداية القرن الاول الميلادي او أقدم عهدا منهذا التاريخ . وعلى منحوتة تدمرية حفرت بالنحت الواطىء تظهر اللات اثينا مع خمس آلهة اخرى وهي تلبس ملابس طويلة تكاد تصل الارض وتضع فوق رأسها الخوذة وتمسك بترس بيضوي بيدها اليســرى وباليمنى تمســك رمحا وعلى صدرها تضع الدرع المطلسم الحامي[٢١] . وصورت اللاتأيضا على بطاقات الدعوات الدينية بخصائصها المتميزة وعليها اسم «ألت» وعلى بعض من تلك البطاقات تظهر صورة أســد مع أسم اللات وعلى أخريات صورة نجمة وهلال مقرونة بصورة واسم اللات[٢٢] . وفيتدمر أيضا عثر على كتابة يرجع تأريخها الى عام ١٢٩ ميلادي تذكر بأن احدى القبائل المحلية التدمرية شيدت بناية تحتوي على أعمدة في وسط المدينــة خصصت لعبادة شمس ورحيم واللات الذين وصفتهم الكتابة بالآلهة الطيبين « ألهيا طبيا »[٢٣] .

وقد انتشرت عبادة اللات في معظم مناطق سورية فقد عثر على نحت بارز يمثل اللات بالخصائص المميزة لاثينا في حوران ، وهو الان محفوظ في متحف اللوفر ، وفيه تظهر الالهة حاملة ترسا صغيرا ورمحا طويلا وتلبس الدرع الحامي على صدرها وبجانب الالهة توجد كتابة تذكارية تشير الى ان مقدمها كان تدمريا [٢٤] . وفي خربة لقتير القريبة من جبل شعار الواقع الى الشمال الغربي من تدمر عثر على لوحة عليها نقش بالنحت البارز يمثل أربع آلهة وهم اللات وارصو وأما يارجول أو ملكبل ومن المحتمل أن يكون الاله الرابع تمثيلا لبعلشمين . وتظهر اللات ـ أثينا وهي تحمل نفس الخصائص المميزة[٢٥] . وفي خربة وادي سوانة عثر على ثلاث منحوتات تمثل اللات مع آلهة رئيسية[٢٦] . وفي خربة وادي الصانه وجدت منحوتات اخرى للات وفي احدها تظهر الالهة بدون الدرع الحامي[٢٧] . وفي سويداء عثر على اسكفة مهمة عليها نقش يمثل اللات بصفاتها المتميزه اضافة الى صورة اسد بجانبها ، ويدل هذا دلالة واضحة على قدسيتها من قبل القبائل العربية[٢٨] .

وفي دورايوروبس (الصالحية) نلاحظ أن الادلة ضئيلة بشأن عبادتها ولايظن أنها كانت في مصاف الآلهة الرئيسة للمدينة . وأهم صورة وجدت للات في دورا عثر عليها في معبد الاله بل وفيهما يظهر شخص يقدم القرابين لخمسة آلهة تدمرية ، أربع منها تمثل ذكورا والخامس يمثل انثى ويظن انه يمثل اللات ـ اثينا استنادا الى الترس الظاهر بجانب لباسها الطويل علما بأن الجزء السفلي فقط بقي من صورة الالهة . وبجانب الصورة أيضا كتابة تذكر اسمها[٢٩] . وعثر في دورا أيضا على احدى عشرة لوحة جصية معمولة بواسطة قالب اثنتان منها وجدت في شارع وواحدة في بيت اما الاخريات فمعاثرها غير معروفة ويظن انها كانت في الاصل تزين واجهة معبد خصص لعبادة اللات في الاجزاء غير المنقبة من المدينة . ويمكن أن تصنف منحوتات اللات في دورا الى صنفين أولهما منحوتات عملت لتشابه المنحوتات الهلنستيه ـ الرومانية لاثينا وثانيهما منحوتات تتصف بالصفات العامة لها في الشرق

الادنى وهي تحوير للشكل الاول من ناحية الاختلاف في شـكل الخوذة والملابس التي أصبحت مستمدة من التقاليد المحلية ويظن ان احدى تلك اللوحات تمثل اللات العربية لان نحتها يختلف عن النحت المعروف للات ـ اثينا يتضح من ذلك ان الادلة الاثارية تؤيد ان عبادة اللات ـ أثينا كانت منتشرة على نطاق شعبي ،اضافة الى تكرار اسماء الاعلام المركبة التي تتضمن اسم أثينا مثلا : أثينا دوررس ، أثينا فيلوس ، أثينا فيليا ... الخ ولكنها لم تحتل موقفا بارزا في الديانة الرسمية لدورايوروبس عدا ورودها ، كما ذكرنا سابقا ، مع الآلهة التدمرية في معبد « الاله بل »[٣٠] .

اما في مدينة الحضر والتي كانت مركزا للقبائل العربية فالشواهد الاثرية والمكتوبة تدل على ان اللات قد احتلت موقعا مهما وبارزا في الديانة الرسمية للمدينة ، قد دخلت في تركيب اسماء الاعلام وورد أسمها في العديد من الكتابات الدعائية جنبا الى جنب مع آلهة المدينة الرئيسية اضافة الى العثور على منحوتات تمثلها . وكشفت التنقيبات التي جرت مؤخرا عن معبد ضخم ، يقع داخل المعبد الكبير ، مخصص لعبادتها استنادا الى ادلة مكتوبة سنذكرها بعد ئذ . أما أسماء الاشخاص الذين سموا باسمها والتي وردت في الكتابات فهي (١) زيد اللات ووجد هذا الاسم منقوشا على قاعدة تمثال الملك سنطروق الثاني . ومقدم التمثال شخص اسمه نشريهب ابن زيد ـ اللات ونشريهب كان سادنا لمعبد مرن[٣١] . (٢) جرم ـ اللات وهو الشخص الذي أقام تمثالا للملك ولجش . ووجد التمثال في هيئة وقوف بموضعه الاصلي في الايوان الجنوبي وعلى سيف الملك يوجد نقش يمثل الالهة اللات بوقفتها الاعتيادية وخصائصها المتميزة[٣٢] (٣) يتم ـ اللات ورد في كتابة دعائيه تذكاريه[٣٣] (٤) عويذ اللات ـ ورد أيضا في كتابة تذكاريه[٣٤] . ويرد اسم اللات (ألت) في العديد من الكتابات الدعائيه بالصيغة التي ورد فيها اسمها في كتابات تدمر . ويتكرر اسم اللات مع آلهة حضرية معينه وفي خمس كتابات يرد بعد اسماء آلهة التثليث الحضرية (مرن ومرتن

وبرمرين) ويعقبه أما شحيرو أو سميا وفي الامثلة على ورود اسم اللات في الكتابات ماجاء في الكتابة المرقمة [٧٤] والتي نصها « مذكور نشري بالخير والحسنى أمام سيدنا النسر وشمش وزوجته وابنه والرايات كلها • ولعنه سيدنا على كل من يزيف هذه الكتابة أو يكتب عليها ، هذا عمل سيء أمام مرن ومرتن وبرمرين واللات وشحيرو »[٣٥] ؛ أو في الكتابة المرقمه [٨٢ | ٤٨٨ (١٧٧ ميلادي) المعبد الذي بناه سنطروق ملك العرب المظفر عابد شمش الاله (العظيم) ابن نصرومريا لمرن ومرتن وبرمرين واللات وسميتا »[٣٦] •

وعثر في خلال التنقيبات التي جرت في مرافق المدينة المختلفة على احدى عشر لوحة وتمثال تظهر فيها اللات مرتدية بزتها العسكرية المشابهة لتلك التي ترتديها على لوحات تدمر ودورايوروبس وتطابقها مع أثينا يبدو واضحا من خلال تشابه مميزات الالهتين ، ولكننا نفتقد الى الدليل المكتوب الى ذلك التطابق في الحضر • وأبرز منحوتات اللات اكتشفت أثناء تنقيب المعبد الخامس وتبدو فيها واقفة على ظهر أسد وعلى جانبيها تقف امرأتان لعلهما العزى ومناة[٣٧] • وفي منحوتة اخرى تظهر اللات مع اله ملتحي على وشك أن يطعن ثعبانا يظن أنه يمثل فيراثراكنا ؛ اله النصر في الديانة الزرادشتية[٣٨] • ونقشت صورة اللات بالنحت البارز على بدن حصالة نقود حيث تبدو مسرعة لنجدة هرقل الذي يخوض صراعا مع قنطرس[٣٩] • وعلى تمثال اخر لها وجد ايضا في المعبد الخامس يظهر الدرع الواقي على صدرها بشكل محور يشبه القلادة معلقة بسلسلة حول رقبتها[٤٠] ونستدل من المنحوتات والادلة المكتوبة التي كشفت عنها تنقيبات المعبد الخامس انه كان مخصصا لعبادتها حيث سميت فرحة الاله بل ونعتت بالبتول[٤١] • وبل اله معروف في الشرق الادنى القديم ويطابق زوس ، كبير آلهة الاغريق ؛ في بعض الاحيان • وتعتبر الالهة اثينا في الاساطير اليونانية ابنة زوس العذراء ، ويظهر من هذا بشكل واضح أن فرحة الاله بل البتول هي اللات ـ اثينا •

وتزودنا التنقيبات التي جرت مؤخرا في المدينة بأدلة آثارية ومكتوبة تلقي ضوءا جديدا على مركز اللات المهم في مجموعة الالهة الحضرية • فقد عثر على كتابات منقوشة على جدران بناية ضخمة تقع في المعبد الكبير تذكر ان الملك سنطروق (الاول) بنى تلك البناية وخصصها لعبادة اللات بعد ان زينها بالتماثيل والزخارف البديعة(٤٢) • أما صفاتها ومميزاتها فتظهر من خلال منحوتة ، وجدت في غرفة من غرف المعبد ، تبدو فيها اللات جالسة بوضعية جانبية على جمل يقوده الملك سنطروق بنفسه مرتديه ملابس النسوة الاعتيادية المتعارف عليها من خلال المنحوتات والتي تختلف عن بزتها العسكرية ولاتحمل الرمح والترس ولاتلبس الخوذة والدرع الواقي ويظن ان ظهورها بهذا الشكل لاتمثل اللات ـ اثنيا وانما اللات العربية •

وهناك ادلة على عبادتها في الوركاء ، فقد عثر على دمية فخارية تمثلها واقفة على قاعدة وتمسك ترسا صغيرا في يدها اليسرى وترفع يدها اليمنى وكأنها تمسك رمحا(٤٣) • ووجدت في سلوقية على دجله خمس دمى فخارية تصورها بهيئة اثينا(٤٤) •

من خلال هذا الاستعراض واستنادا للادلة الاثارية والمكتوبة يتضح لنا أن اللات العربية قد عبدت في معظم مراكز المدن العربيـــة وفي المناطق التي سكنتها القبائل العربية سواءا في الجزيرة العربية أو سوريه او العراق • وتطابقها مع اثينا في سوريه والعراق يدل على تشابه صفاتها وكونهما الهتا حرب وحكمة ، وظهور الاسد معها في بعض المنحوتات يدل على قوة الطبيعة للبيئة التي تسكنها تلك القبائل • ونستدل من الادلـــة أيضا انها احتلت موقعا بارزا في الدين الرسمي وعبدت كذلك على الصعيد الشعبي •

الهوامش

(١) جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، الجزء الخامس ، بغداد ١٩٥٦ ص٩٢

(٢) J. G. Février, La Religion des Palmyréniens, Paris, 1931, p. 13.

(٣) هيرودوتس ـ ٣ ، ٨ ، ١ ، ١٣١

(٤) بن الكلبي ـ كتاب الاصنام ـ تحقيق احمد زكي باشا ، ص ٢٣

(٥) الازرقي ـ اخبار مكة ـ تحقيق رشدي الصالح ملحس ـ الجزء الاول الطبعة الثالثة ـ بيروت ١٩٦٩ ص ١٢٦

(٦) جواد علي ـ تأريخ العرب ـ ص ٩٤

(٧) الازرقي ـ اخبار مكة ـ ص ١٢٦

(٨) ابن الكلبي ـ كتاب الاصنام ـ ص ٢٤

(٩) جواد علي ـ تاريخ العرب ـ ص ٩٥

(١٠) Adolf Grohmann, Kulturgeschichte des Alten Orients : Arabien, München. 1963. p. 83.

(١١) CIS, 11, 198.

(١٢) Grohmann, Op. Cit., p. 79.

(١٣) Nelson Glueck, Deities and Dolphins, New York, 1963, p. 166.

(١٤) CIS, 185, 198.

(١٥) CIS, II, 182.

(١٦) Février, p. 10.

(١٧) Henri Seyrig, AS, IV, p. 73f.

(١٨) Franz Cumont, **Syria,** V, 1929, pp. 342(345.

(١٩) Du Mesnil Du Buisson, Les Tessères et les Monnaies de Palmyre, Paris, 1965, pp. 755-756.

(٢٠) H. Seyrig, AS, III, pp. 114

(٢١) Segrig, **Syria,** (XIII) 1932, p. 258.

(٢٢) Ingholt, et al, Recueil des Tessères de Palmyre, Paris, 1955, p. 16, 23-24, 38.

(٢٣) Février, **op. cit.,** p. 12.

(٢٤) R. Dussaud, "Les déesses Allat- Athena et Simia", **Syria,** XVI (1935), p. 324.

مدى مسؤولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية

الدكتور علاء موسى كاظم نورس
قسم التاريخ/كلية الآداب
جامعة بغداد

يلاحظ عند دراسة التاريخ العثماني أن الجيش الانكشارى يعد من أشهر ما تميزت به الدولة العثمانية عسكريا ، اذ كان سلاحا للدفاع والتوسع في مراحله الاولى .

ويقوم هذا الجيش على أساس تجنيد أبناء رعايا السلطان من المسيحيين، الذين مكنت الغزوات الاولى للعثمانيين في أوربا من الحصول على عدد كبير منهم[١] . ويذكر المؤرخون ان السلطان أورخان (١٣٢٦-١٣٥٩م) ـ الذى يعتبر صاحب فكرة تأسيسه ـ قد جند في بادىء الامر الفا من هؤلاء تجنيدا دائما ، ووضع قانونا خاصا بهم صيغ في أربع عشرة مادة ، تضمنت النظام الداخلي للجيش الانكشاري ، وتنظيم علاقات أفراده بعضهم ببعض ، كما نصت على الطاعة المطلقة والانقياد التام لاولى الامر[٢] .

---

(١) Charls Eliot, Turkey in Europe, (London, 1908), P. 59; H. Gibband H. Bowen, Islamic Society and the west, Vol. I, Pt. I, (London, 1950), P. 43, 58.

(٢) احمد جواد ، تاريخ عسكري عثماني ، (استانبول، ١٢٩٩)، ص٦١، احمد راسم ، عثمانلي تاريخي ، جا ، (استانبول ، ١٣٣٠) ، ص ٥١ ،
Ismail Hakki Uzunçarsili, Osmanli, Devleti Teskilâtinlan Kapukulu Ocaklari, I, (Ankara, 1943), P. 240. Ahamd Bedvi Kuran, Osmanli Impartorlugunda Inkilap Hare-katleri Ve Milli Mucadele, (Istanbul), PP. 26 — 7.
وانظر : كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي ، الطبعة السادسة ، (بيروت ، ١٩٧٤) ، ص ٤١٤ .

ويبدو ان السلاطين قد وجدوا في هذا النظام ميزة كبرى ، فالشبان الذين يجندون كانوا يفقدون ـ بمقتضى تربيتهم واعتناقهم الاسلام ـ روابطهم الاصلية . كما لم يكن بوسعهم اكتساب روابط جديدة ، لانه لم يكن يؤذن لهم بالزواج ما داموا جنودا ، وبذلك تنمو فيهم روح الجماعة المهنية مع ولائهم لعرش السلطان[3] . في حين ان القوات المعروفة باسم « اليايا » أو « البيادة » ـ أي المشاة ـ والتي تمت على يدها الفتوحات الاولى للعثمانيين ، كانت صعبة الانقياد ، بحكم كونها غير نظامية ومقصورة على الاناضول ، كما لم يكن بالامكان الركون اليها في عمليات بعيدة عن مواضع اماكنها دون التعرض لبعض المشاق[4] ، لهذا كان من الطبيعي ـ كما يقول المستشرق كب ـ أن يفكر السلاطين العثمانيون في ابدالهم بفرق أخرى . وهذا ما سمحت الظروف بتحقيقه ، حين تمكن العثمانيون من الحصول على عدد كبير من الاسرى خلال عمليات توسعهم في أوربا[5] . ولما كانت رغبة السلاطين في ذلك الوقت اختيار أقوياء البنية منهم كأجناد لتأليف القوات الجديدة « الييني جرى »[6] ، لذا تعين على هؤلاء الدخول في الدين الاسلامي، اذ لم يكن الا للمسلمين الحق في حمل السلاح[7] .

---

(٣) اسماعيل سرهنك ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، جـ١ ، (القاهرة ، ١٣١٢) ، ص ٤٨٨ .

Edward Creasy, History of the Ottoman Turks, (London, 1878). P. 14, Eliot, Op. Cit., PP. 59 — 60.

(٤) Gibb & Bowen, Op Cit., Vol I, Pt. I, 58.

وانظر : محمد انيس ، الدولة العثمانية والشرق العربي ، (القاهرة) ، ص ٧٥

(٥) Ibid.

(٦) الييني جرى هو الاسم الذي صار فيما بعد علما على الجيش ثم حرف في اللغة العربية فأصبح « الانكشاري » ويكاد يكون القصد من التحريف التعريب .

(٧) بروكلمان ، المصدر السابق ، ص ٤١٤ ،

Theophile Lavallee, Historie de L'Empire Ottoman, (Paris, 1855), P. 131.

وكانت هذه النخبة تخضع لتدريب خاص في المدارس العسكرية ومدارس القصور السلطانية ، ويتخرجون منها ، حسب مؤهلاتهم ، جنودا في وحدات الانكشارية ، أو خداما في القصر ، أو موظفين كبارا في حكومة السلطان[٨]

وعلى أي حال فان الانكشارية لم يكن لهم في القرن الرابع عشر تلك الاهمية التي اصبحت لهم فيما بعد ، ولم ينظم قانون التجنيد المسمى بالدوشرمة[٩] الا في القرن الخامس عشر على عهد السلطان مراد الثاني[١٠] (١٤٢١-١٤٥١م) . فبعد ادخال هذا النوع من التجنيد أصبح مقدرا لمعظم المجندين أن يصبحوا انكشارية[١١] . وبذلك خلق السلاطين جيشا رسميا دائما يغنيهم في كثير من الاحيان عن المتطوعة .

وقد حدث في تلك الفترة أن أنضوى الانكشارية تحت لواء الطريقة

---

(٨) للتفاصيل ، انظر :

Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol I, Pt. I, PP. 56 — 7.

(٩) الدوشرمة هو الاسم الذي يدل على حمل اولاد المسيحيين من رعايا السلطان ممن تتراوح اعمارهم بين العاشرة والعشرين ، على الانخراط في فرق الانكشارية وعلى الخدمة في القصور السلطانية .

A. H. Lybyer, The Government of the Ottoman Empire, (New York, 1966), P. 34, 48.

وللتفاصيل ، انظر :

Encyclopaedia of Islam, art. Dewshirme.

(١٠) محمد فؤاد كوبريلي ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمه عن التركية احمد سعيد ، (القاهرة ، ١٩٦٥) ، ص ١٨٩ .

(١١) Gibb & Bowen, Op Cit., Vol. I, Pt. I, P. 59.

البكتاشية[١٢] ، والمعروف ان (حاجي بكتاش) الذى استقيت الطريقة منه، بارك في عهد السلطان اورخان تأسيس الجيش الانكشارى وذلك بوضع كمه على رأس واحد من أفراده ، ورغم ان الرواية اسطورية اذ ان حاجي بكتاش قد توفي قبل قرن تقريبا من مجرد التفكير في انشاء الجيش الانكشارى ، فان الانكشارية اتخذوه حاميا لهم ورمزا . وعمل المتصوفة من طرفهم على أخذ جيش المشاة الجديد تحت رعايتهم الروحية ، وهي رعاية قوبلت بالتجاهل من السلطات الرسمية في بادىء الامر ، وان يكن قد اعترف بها بعد ذلك . وهكذا اصبح الاسم الثاني للانكشارية هو « ابناء حاجي بكتاش » والجند البكتاشية[١٣] .

---

(١٢) انتشرت الطريقة البكتاشية اكثر ما انتشرت في آسيا الصغرى ، ولا يعرف في الواقع متى شكل البكاشيون بالضبط طريقتهم وانهوا تنظيمها ، ولكن يمكن ارجاعها بشكلها المنظم الى القرن الخامس عشر . وتنسب هذه الفرقة نفسها الى « حاجي بكتاش » ، والمعلومات عن هذا الولي خرافية اكثر منها واقعية . ويقال انه كان تلميذا (لبابا اسحاق) زعيم الحركة الصوفية الباطنية بين قبائل الاناضول في منتصف القرن الثالث عشر . ومهما يكن فقد اختاروه وليا لهم وبنو تكيتهم الرئيسية بالقرب من ضريحه في قرة شهر بين انقره وقيصرية .

ومعتقدات البكتاشية قريبة جدا من معتقدات القزل باش في آسيا الصغرى .

Encyclopaedia of Islam, art. 'Bektash'.

وانظر :

احمد سري دده بابا ، الرسالة الاحمدية في تاريخ الطريقة البكتاشية ، (القاهرة ، ١٩٥٩) ، ص ١٥ .

(١٣) عن البكتاشية وعلاقتها بالانكشارية ، انظر :

F. W. Hasluck, Christianity and Islam under the Sultans, Vol. II, (Oxford, 1929), PP. 483 — 493; J. K. Birge, The Bektashi order of Dervishes, (Bristol, 1937), P. 74.

ومارست البكتاشية دورا سياسيا كبيرا لاتحادها مع الانكشارية ، وربما يكون هذا هو السبب الذى منع السلطات العثمانية من ملاحقتهم ، ومهما يكن فانه منذ نهاية القرن السادس عشر تم الاعتراف الرسمي بارتباط الانكشارية بالبكتاشية ، ونال الرئيس العام لطريقتهم رتبة شرفية ، واصبح ثمانية من دراويشهم يقيمون في ثكنات استانبول لتأدية الصلوات اليومية لرخاء الامبراطورية ونصرة قواتها • وفي الاحتفالات كانوا يسيرون امام أغا الانكشارية مرددين ادعية جماعية[١٤] •

وقد أصبح الانكشارية في نهاية القرن الخامس عشر صفوة الفيالق العسكرية التي تستند اليها الدولة العثمانية ، وبلغ عدد كتائبهم التي كانت تسمى كل منها (أورطة) ١٦٥ كتيبة[١٥] ، وهي منظمة تنظيما متشابها ، وتعداد كل منها كان خمسون جنديا تحت قيادة ضابط يدعى (الجورباجي) يساعده ستة من مرؤسيه وعدد من ضباط الصف • وهي تقيم في ثكنات تسمى (أوطـة) • ولكل كتيبة شارة توضع على اعلامها وعلى أبواب ثكناتها• وجرت عادة الانكشارية على وشم هذه الشارات على أذرعتهم وسيقانهم[١٦] •

---

(١٤) احمد سري دده بابا ، المصدر السابق ، ص ١٥ .
Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol I, Pt. I, P. 65.

(١٥) في اواخر القرن الثامن عشر بلغ عدد الاورط (١٩٦) ، واصبح تعدادها يتراوح ما بين ١٠٠ ـ ٣٠٠ رجل في اوقات السلم . اما عند اعدادها للحرب فان العدد كان يصل الى ٥٠٠ رجل . وكان السبب في هذه الزيادات هو الاسراع في التجنيد .

(١٦) للتفاصيل ، انظر :
Uzunçarsili, Kapukulu Ocaklari, I, PP. 343 — 371; Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol. I, Pt. I, PP. 60 — 2; 314 — 328.

وكانت شارات الانكشارية اما مفتاح أو سمكة او علم او عصا ذات طرف مدبب من المعدن .

وبرغم تفوق السباهية[١٧] على الانكشارية من الناحيتين العددية والاجتماعية ، فان قادتهم الذين كانوا يؤخذون من أرقى انواع غلمان السلطان ، كانوا يلون أغا الانكشارية في نظام الاسبقية[١٨] .

وكان أغاالانكشارية شخصية بالغة الاهمية لانهقائد اقوى وحداتالدولة المحاربة ولانه كان يقوم بمنصب رئيس الشرطة في استانبول كما انه - بحكم منصبه - عضوا في مجلس الدولة[١٩] ، ومقدما على كل الوزراء الذين تقل مرتبتهم عن مرتبة الوزير التي كان هو ينعم بها ، كما كان مقدما على كل القواد أيا كانوا . وفي حالة الحرب كانت له ميزة قيادة الفرق الانكشارية في حالة توجه السلطان بنفسه الى الحرب ، والا فانه كان يرسل نائبا عنه كي ينفذ أوامر القائد الذي يدير العمليات[٢٠] .

ومن اوائل الاشارات الرسمية لمهمات الجيش الانكشاري التوسعية كانت في عهد السلطان مراد الثاني ، كما جاء في روايات بعض المؤرخين . اذ انه شارك في الحملات التي وجهها الى بلاد البلقان . وكذلك في الحرب التي شنها السلطان محمد الثاني (١٤٥١ - ١٤٨١م) على القبيلة المعروفة باسم الآق قوينلو (الخروف الابيض) في ربيع سنة ١٤٦١[٢١] .

---

(١٧) كانت السباهية بمثابة الفرسان النظاميين في الجيش العثماني . ويقال أن مجموع القوة التي كان يقدمها السباهية معأتباعهم كانتتصل فيبعض الاوقات الى حوالي مائتي الف .

Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol. I, Pt. I, P. 52.

(١٨) Ibid, P. 327.

(١٩) كان مجلس الدولة يتألف من الصدر الاعظم وشيخ الاسلام والوزراء وقواد الجيوش البرية والبحرية ويترأس جلساته السلطان . علاء نورس ، حكم المماليك في العراق (بغداد ١٩٧٥) ، ص ٢١٠ .

(٢٠) Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol. I, Pt. I, P. 61.

(٢١) سرهنك ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٥٠٤ ، ٥١٣ ، راسم ، المصدر السابق ، ج١ ص ١٩٧٥ ، ص ٢٠٩ ، محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، (القاهرة ، ١٨٩٦) ، ص ٥٧ ، Creasy, Op. Cit., P. 64.

وفي عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦ م) ، وهو العهد الذى استكملت فيه الدولة العثمانية عناصر قوتها وعظمتها ، مارس الانكشارية ، الذين بلغ تعدادهم ما بين ١٢ و ١٤ ألفا[٢٢] ، دورا مهما في العمليات العسكرية العثمانية في المجر وبلاد فارس[٢٣] . كما ان اسطولا عثمانياً حاملا الانكشاريين ، هاجم في سنة ١٥٥٩ البحرين في محاولة للاستيلاء عليها[٢٤] .

بالاضافة الى المهمات الدفاعية فقد كلفت الانكشارية في الولايات بمهمات أخرى منها حماية الامن وجمع الضرائب . وان قوادهم كانوا أعضاء في الديوان الذى هو الهيئة الحكومة العليا في الولاية[٢٥] .

غير ان شعور الانكشارية بقوتهم على اعتبار أنهم السند الرئيسي للسلطان جعلهم يلجأون الى هذه القوة بالفعل حين اعلنوا عصيانهم في العاصمة سنة ١٤٨١ ، وقتلوا الصدر الاعظم قرمانلي محمد باشا لكتمانه موت السلطان محمد الثاني ومحاولته تنصيب الأمير جم الابن الاصغر للسلطان على العرش بدلا من أخيه بايزيد ، ولم تهدا الفوضى الا بعد تسلم بايزيد مقاليد الحكم ، وقيامه

---

(٢٢) راسم المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٧ ، محمد جميل بيهم ، فلسفة التاريخ العثماني (بيروت ، ١٩٢٥) ، ص ١٥١ ، Lybyer,Op.Cit., P. 95.

(٢٣) انظر : سرهنك ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٤. ، ٥٥. ، فريد ، المصدر السابق ص ٨٣ ، ٨٧ ، ٩٨ .

(٢٤) ستيفن هيسلي لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الخياط ، الطبعة الرابعة ، (بغداد ، ١٩٦٨) ، ص ٥٩ .

(٢٥) نفس المصدر ، ص ٦٧ ، عبدالعزيز نوار ، تاريخ العراق الحديث ، (القاهرة ، ١٩٦٨) ، ص‌ص ٩ — ١٠ .

بزيادة اعطيات الانكشارية[٢٦] زيادة صارت منذ ذلك الوقت عرفا ثابتا يطلبون انفاذه كلما أرتقى العرش سلطان جديد[٢٧] .

وفي أواخر حكم السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢ م) مارس الانكشارية دورا خطيرا في الصراع الذي نشب بين ابنائه المتنازعين على العرش ، وهو بعد على قيد الحياة ، واجبروه على التنازل عن العرش لابنه سليم ، الملقب بـ « ياوز سلطان »[٢٨] . وبذلك تركت هذه العلاقات الشاذة بين السلاطين وابنائهم أو بين هؤلاء الابناء بعضهم بعضا ثغرة واسعة ليفرض الانكشارية نفوذهم على السلطة .

والحق انهم لم يكتفوا بالالحاح في طلب الهبات السخية كلما رقي العرش سلطان جديد ، فقد عانى منهم السلطان سليم الاول الامرين اثناء حملته على بلاد فارس التي انتهت بمعركة جالديران سنة ١٥١٤[٢٩] ، وعدوا ذلك الى ما هو أخطر ، فأكرهوا السلطان على ان يقطع أثناء الحرب الفارسية، رأس الصدر الاعظم ، ورأس قاضي العسكر ، ورأس قائدهم نفسه[٣٠] .

---

(٢٦) سرهنك ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥١٩ ، فريد ، المصدر السابق ، ص ٦٨ ، Lavallee, Op. Cit., PP. 197 — 8.
ويذكر ليبايران السلطان بايزيد الثاني دفع لكل انكشاري عند تسلمه الحكم الفي آقجة . Lybyer, Op. Cit., P. 92.

(٢٧) ابطل هذا العرف السلطان عبدالحميد الاول سنة ١٧٧٤ . سرهنك ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٦٣٤ .

(٢٨) راسم ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٥١ ؛
Lavallee, Op. cit., P. 203; Creasy, Op. Cit., PP. 127 — 8.

(٢٩) Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol. I, Pt. I, P. 179.
وجالديران سهل في آذربيجان شرقي بحيرة ارمية بالقرب من تبريز . وقد ادت المعركة التي دارت فيه الى سقوط تبريز عاصمة الدولة الصفوية في ايدي العثمانيين .

(٣٠) بروكلمان ، المصدر السابق ، ص ٤٦٦ ، انيس ، المصدر السابق ، ص ٧٦.

كذلك تمرد الانكشارية في اوائل حكم سليمان القانوني ، وعاثوا في العاصمة فسادا حتى تدارك السلطان الموقف بالاغداق التقليدى عليهم[٣١] . كما مارسوا دورا رئيسيا في مصرع ولده الاكبر مصطفى ، وانتهت الازمة بأن تولى العرش سليما الثاني . وهنا تبدو خطورة تدخل الانكشارية في السياسة ، اذ كان سليم دون مستوى ابيه وكذلك دون مستوى اخويه مصطفى وبايزيد ، واليه تعزى الى حد كبير كارثة لبانتو البحرية التي حلت بالاسطول العثماني سنة ١٥٧١[٣٢] .

وفي اواخر القرن الساس عشر استطاع الانكشارية الغاء مبدأ تحريم الزواج والذي يعد من مبادىء تنظيم الرئيسية، الامر الذي ترتب عليه أن أصبح الانتماء اليهم وراثيا بصرف النظر عن المقدرة العسكرية[٣٣] .

والحقيقة ان نظام الانكشارية تعرض الى التصدع منذ عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٦م) حين سمح في سنة ١٥٨٢ بدخول عدد كبير من المجندين غير المدربين في صفوفهم ، بالرغم من معارضة أغا الانكشارية. ويعتقد كب ان مرادا كان راغبا في الواقع في افساد تنظيم الانكشارية بعد ان لاحظ الى أي مدى هم سادة الدولة[٣٤] . يضاف الى ذلك انه ، في اثناء الحرب مع بلاد فارس ، وهي الحرب التي نشبت في عهده ، سمح بتجنيد عدد

---

(٣١) فريد ، المصدر السابق ، ص ص ٨٣ - ٨٤ .
وانظر : Lybyer, Op. Cit., P. 92.

(٣٢) سرهنك ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٥٨ ،
Lybyer, Op. Cit., PP. 94 — 5.
ولبانتو هي المعركة البحرية التي دارت بين الدولة العثمانية من جهة واسبانيا والبندقية من جهة اخرى وترتب عليها انهيار البحرية العثمانية في البحر المتوسط .

(٣٣) Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol. I, Pt. I, P. 182.

(٣٤) Ibid, P. 180.

اكثر من ذلك ، فاصبح عدد الانكشارية في نهاية عهده اكثر من ضعف ما كان عليه[٣٥] .

وتمخض هذا الاجراء عن نتيجة مزدوجة ، فهو قد نسف نظام الدوشرمة ، اذ كان من الواضح أن هذا النظام سيصبح عقيما فيما لو تكررت هذه الاجراءات ، ثم انه أجهد خزانة الدولة كثيرا . يضاف الى ذلك أن الاثر الثاني قد ترتب عليه استشراء الاثر الاول بشكل حاسم حيث لجأت الحكومة الى خفض العملة لكي تدفع رواتب الجيش الذى زيدت اعداده ، وهذا بدوره أدى الى نشوب ثورات في العاصمة ، وهي ثورات قام بها الانكشارية اولا ثم قامت بها فرق الخيالة بعد ذلك بسنوات قليلة[٣٦] . وكانت أخطر تلك الثورات تلك التي اندلعت في سنة ١٥٨٧ اذ قام الانكشارية بقتل ناظر الضربخانة[٣٧] والدفتردار وهاجموا السراى السلطانية[٣٨] .

ومنذ ذلك الوقت سرى الانحلال الى انكشارية الولايات ، وفشل الباشوات في مواجهة اعمال العدوان التي كانوا يقومون بها . فقد مارسوا - على سبيل المثال - في بغداد دورا خطيرا في الفتن الداخلية ونشب القتال اكثر من مرة بينهم وبين القوات المحلية ، وضج الناس بالشكوى من تعدياتهم[٣٩] .

---

(٣٥) يذكر جودت ان عدد الانكشارية في اواسط حكم السلطان مراد الثالث كان يقدر ب (٢٧) ألفا . (تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ٤٨) .

(٣٦) Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol. I, Pt. I, P. 180.
للتفاصيل ، انظر : Encyclopaedia of Islam, art. 'Murad III'.

(٣٧) دار سك النقود .

(٣٨) سرهنك ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٥٦٧ .

(٣٩) خير من وضح ذلك :
C. Huart, Historie de Bagdad, (Paris, 1909), PP. 36 — 49, 80, 85. 92 — 3.
وانظر : لونكريك ، المصدر السابق ، ص ص ٦٨ ، ١١٤ ، ١١٨ ، ٢٠٠ - ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٦٧ .

وقد استطاع احد القادة الانكشاريين في بغداد المدعو محمد بن أحمد الطويل ان يستأثر في سنة ١٦٠٧ بالسلطة العليا في المدينة ، وان يهزم جيشا ارسله الباب العالي لاخضاعه ، بقيادة نصوح باشا والي ديار بكر . ولكنه ما لبث أن قتل من قبل احد اعدائه ، وعندما خلفه أخوه مصطفى في تولي الحكم حدثت ثورة في بغداد اطاحت به ، وأنهت السيطرة الانكشارية[٤٠] .

وبرز بعد أربعة عشر عاما ثائر آخر من بين انكشارية بغداد هو بكر صوباشي[٤١] . ـ احد قوادهم ـ الذى عظم شأنه كثيرا وتعالت سلطته فتفوقت على سلطة الوالي الضعيف يوسف باشا واستطاع في سنة ١٦٢١ أن يستأثر بالحكم بعد أن تمكن من القضاء على الحركة التي استهدفت الاطاحة به والتي قام بها أشراف المدينة ، وقتل اثناءها باشا بغداد[٤٢] .

وقد غدا الصوباشي سيد بغداد غير المنازع ، ونصب نفسه للباشوية ، فكان ذلك ممهدا لوقوع بغداد فريسة بيد الفرس . اذ استنجد بالشاه عباس الكبير عندما اصدرت القيادة العثمانية اوامرها الى حكام الولايات المجاورة (الموصل وشهرزور ومرعش وسيواس) للزاحف نحو بغداد والقضاء على السيطرة الانكشارية[٤٣] .

---

(٤٠) مصطفى نعيما الحلبي ، تاريخ نعيما ، جـ ١ ، (استانبول ١٢٨١) ، ص٤٥٨ ، مرتضى نظمي زاده ، كلشن خلفا ، ترجمة موسى كاظم نورس ، (النجف ، ١٩٧١) ص ٢١١ .

(٤١) صوباشي : من الالقاب الحربية والشرطية ، شاع استعماله في الاناضول منذ القرن الرابع عشر . وقد اصبح الصوباشي في الولايات من كبار ضباط الشرطة ، كما كانت له مهام اخرى منها التجوال في الاسواق والمحلات ومراقبة نظافتها ، واخبار رئيس المعمارين بما هو متداع من الانية. محمود شوكت ، عثمانلي تشكيلات وقيافت عسكرية ، (استانبول ، ١٣٢٥) ، ص ٦٠ ، يعقوب سركيس ، مباحث عراقية ، ق٢ ، (بغداد ، ١٩٥٥) ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

(٤٢) مصطفى عبدالله كاتب جلبي ، فذلكة كاتب جلبي ، جـ٢ ، (استانبول ، ١٢٨٥) ، ص ٣٩ .

(٤٣) نفس المصدر ، ص ٤٠ ، منجم باشي ، صحائف الاخبار ، جـ٣ ، (استانبول ، ١٢٨٥) ، ص ٦٥٨ ، لونكريك ، المصدر السابق ، ص ٧٤ .

فكانت هذه فرصة للشاه لم يتوان عن انتهازها لكي يتوسع على حساب العثمانيين ، فزحف نحو بغداد واستطاع احتلالها في ٢٨ تشرين الثاني ١٦٢٣ (٢ صفر ١٠٣٣ هـ)[٤٤] .

وقد بذل السلطان عثمان الثاني (١٦١٨ - ١٦٢٢ م) جهدا كبيرا لكبح جماح الانكشارية ، الا انهم كانوا من القوة بحيث عجز عن التغلب عليهم ، وانتهى النزاع بخلعه وقتله . وبدأ يكون للانكشارية شأن سياسي ، فأرهبوا الحكام وأخذوا يولون الوزراء ويعزلونهم ويمنحون المناصب لمن يجزل لهم العطايا[٤٥] .

وتكشف القصة المستمرة لشغب الانكشارية ، عن ظروف الضعف المتزايد الذى اصاب الدولة العثمانية من الداخل ، وعن الفوضوية العسكرية التي كانت سببا في الاخفاق الذى مني به الجيش العثماني مرتين في حربه مع الفرس ، والتي استهدفت استعادة بغداد .

والجدير بالذكر انه في الوقت الذى كانت القوات الفارسية تحتل بغداد ، كانت الدولة العثمانية تواجه اخطارا وكوارث ، فقد تجمعت سحبا سوداء حول مطلع عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠ م) الذى ولاه الانكشارية العرش ، اذ يذكر المؤرخ كريسي « انه كانت تصل من كل اجزاء الامبراطورية الرسائل حاملة أنباء لا تسر : فهؤلاء هم الفرس المرابطون على الحدود ، وهذا هو الثائر اباظة[٤٦] صاحب الامر والنهي على اسيا الصغرى ، وهناك كذلك قبائل لبنان المتمردة علنا ، كما ان حكام مصر

---

(٤٤) فذلكة كاتب جلبي ، جـ٢ ، ص ٤٦ ، كلشن خلفا ، ص ٢٢٠.

(٤٥) فريد ، المصدر السابق ، ص‌ص ١٢٣ - ١٢٤ .
وانظر : Creasy, Op. Cit., P. 243.

(٤٦) كان اباظة باشا واليا على ارضروم ، وقد اعلن عصيانه اكثر من مرة ، واخيرا تمكنت الدولة من اخضاعه وابعدته الى البوسنة سنة ١٦٢٨ .
فريد ، المصدر السابق ، ص‌ص ١٢٥ - ١٢٦ ،

والولايات الاخرى يتأرجح ولائهم للسلطان ، وايضا هؤلاء البرابرة يجعلون من أنفسهم أوصياء على العرش متظاهرين بأنهم من ذوي السلطات المستقلة التي تتيح لهم أن يعقدوا معاهدات مع الامم الاوربية لحسابهم الخاص ، وليس هذا فقط ، بل ان الاساطيل القوقازية المغيرة لم تكتف بما كانت باستمرار على طول البحر الأسود ، فأخذت تظهر في البسفور ، وراحت تنهب الأماكن القريبة جداً من العاصمة •ثم ان في القسطنطينية نفسها ، كانت هناك خزينة خاوية ، ودار صناعه معطلة ، ونقود قليلة القيمة لانخفاض قيمة الذهب والفضة فيها اثناء سكنها ، ومخازن للذخيرة هزيلة ، وسكان يسوتون جوعا ، وجند بلغ بهم الفجور مبلغا »[٤٧] •

وفي سنة ١٦٣١ قام الانكشارية بحركة عصيان خطيرة في القسطنطينية ، على اثر التغييرات التي اجراها السلطان مراد الرابع في القيادة العسكرية ، بعد أن فشل الجيش العثماني في انقاذ بغداد من الاحتلال الفارسي • فتمرد الانكشارية في السراى نفسه ، واخذوا يطالبون برأس كل من الصدر الاعظم والمفتى والدفتردار • وكذلك طالبوا بتسليم أناس آخرين من المقربين الى السلطان وبلغ عدد الذين طالبوا بهم سبعة عشر شخصا • وأقفلت العاصمة محلاتها وأصبحت والسراى في حالة رعب • ولم يجد السلطان بدا من تسليم الصدر الاعظم اليهم والتضحية به ، بعد أن كاد تمردهم أن يطيح به ايضا ، فقتلوه أشنع قتلة في حضرة السلطان نفسه[٤٨] (شباط ١٦٣٢) •

---

(٤٧) Creasy, Op. Cit., PP. 246 — 7.

وانظر : أوليا جلبي سياحتنامه سي ، جـ١ ، (استانبول ، ١٣١٤) ، ص ٢٢٨ .

(٤٨) تاريخ نعيما ، ج٣ ، ص ٨٤ ، ٩٢ ، خيرالله افندي ، دولت عليه عثمانية تاريخي ، جـ١٧ ، (استانبول ١٢٩٢) ، ص ٤٤ ، سرهنك ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٥٨٠ .

ويذكر كريسي تفاصيل المحنة التي واجهت السلطان مراد الرابع والظروف التي حملته على الاستجابة لمطلبهم ، ومما يذكره ان السلطان عندما خاطب المتمردين الذين تجمعوا في الساحة الثانية للسراى والتي كانت تعد بمثابة قاعة الديوان ، قائلا : « ما الذى ترغبون اليه يا رعاياى ؟ » أجابوه في صوت عال وبوقاحة : « اعطنا السبعة عشر رأسا ... أو يسير الامر معك الى ما لاتحمد عقباه » . كما انهم كانوا يصيحون عاليا مرددين « السبعة عشرة رأسا او التنازل عن العرش » وقد توسل اليهم السلطان الا يدنسوا شرف الخلافة ، ولكنه كان يتشفع عند من لا شفاعة لهم ، فاستسلم لمطلبهم وملؤه الاسف ، وارسل يستدعي الصدر الاعظم حافظ أحمد باشا للسوت ، وعند مجيئه خاطب مراد الرابع قائلا : « مولاى ، ليهلك الف عبد مثل حافظ في سبيلك ، انني فقط اتضرع اليك الا تقتلني انت ، بل دعني لهؤلاء الرجال لاموت شهيدا وليجرى وزر دمي البرىء على رقابهم ، ولتأمر بدفن جثماني في اسكودار »[٤٩] . ويصور كريسي بعد ذلك تفاصيل المشهد الذى تم فيه قتل الصدر الاعظم ومما يقوله ان احد الانكشارية جثم على صدره وجز رأسه . وعلى مدى شهرين بعد هذا الحادث ، سقط ضحايا جدد أمام الغوغاء ، الامر الذى جلب العار الى اسم القوات العثمانية[٥٠] .

وازاء هذا الوضع الشاذ ، كان لابد للسلطان ان يخطط لكسر شوكة الانكشارية . وقد تم ذلك في ٢٩ مايس ١٦٣٢ ، بعد ان نظمت تدريجيا وبهدوء قوة جسورة يمكن الاعتماد عليها في وقت الحاجة ، كما ان المنازعات داخل القوات المتمردة نفسها ، وبخاصة بين السباهية والانكشارية ، جعلت

---

(٤٩) اقدم واكبر حي بالعاصمة العثمانية القسطنطينية ، في جزئها الواقع على الجانب الاسيوي من البسفور .

(٥٠) Creasy, Op. Cit., PP. 248 — 9.

هناك ثمة فرصة لكبح جماح الجميع(٥١) . فأمر السلطان بقتل كل من ثبت عليه اية مساهمة في حوادث الشغب الاخيرة(٥٢) . وقد قتل من بينهم الصدر الاعظم رجب باشا الذى كان يحرض الثائرين سرا(٥٣) ، حيث رأى السلطان انه لم يعد هناك مفر من مواجهة البديل المخيف «اقتل أو تقتل» ، وذلك بعد أن أخذ الانكشارية يتناقشون في مسألة عزله بشكل علني في ثكناتهم(٥٤). كما وزع اعدادا كبيرة منهم على حاميات الحدود ، وانشأ تشكيلات جديدة يستطيع الاعتماد عليها(٥٥) . ولكي يخفض عدد المشاة الانكشارية اوقف التجنيد بالدوشرمة . غير ان ذلك ادى الى نتائج وخيمة بالنسبة الى القوة العثمانية ، اذ قد تضمن اضمحلال نظام التدريب العسكرى والادارى بأسره. وكان بالامكان تخفيف آثار ذلك فيما لو ألغي في نفس الوقت الجنود الذين وضع النظام في الاصل لتزويد الدولة بهم ، وحل محلهم آخرون أحسن تدريبا ونظاما ، ولكن التشيكلات التي انشأها مراد الرابع لم تكن من القوة بحيث تكفي للقضاء على الانكشارية(٥٦) .

---

(٥١) Creasy, Op. Cit., P. 294.

(٥٢) فريد ، المصدر السابق ، ص ١٢٧ .
يذكر كريسي انه « في كل صباح كان البسفور يرمي على الشواطيء بجثث اولئك الذين اعدموا في الليلة السابقة ، وكان الجمهور القلق يتعرف على الانكشاريين والسباهيين الذين كانوا يشاهدونهم في الفترة الاخيرة متجمعين في الشوارع بكل غطرسة الفوضى العسكرية » .Creasy, Op. Cit., P. 251.

(٥٣) فذلكة كاتب جلبي ، جـ٢ ، ص ١٤٢ ، تاريخ نعيما ، جـ٣ ، ص ١١٠ .

(٥٤) Creasy, Op. Cit., P. 249.

(٥٥) تاريخ نعيما ، جـ٣ ، ص ١١٢ .

(٥٦) Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol. I, P. 181.

وهكذا ظل الانكشارية يثيرون المتاعب ويبهظون الدولة بالنفقات ، وبالتالي اصبحوا عديمي الجدوى في الحرب[٥٧] ، ومثلا للفساد والانحلال تحتذيه كل قوة أخرى منافسة تكونها الدولة لتلافي عيوبهم •

ومما زاد في فساد الانكشارية ان الكثيرين منهم أخذ يشتغل بالوان من النشاط الصناعي والتجارى[٥٨] ، الامر الذى ترتب عليه تضاءل ارتباطهم بثكناتهم ، فصار العديد منهم لا يذهب الى الثكنات الا لتسلم المرتبات ، التي كانت تسمى « العلوفات » ، اضافة الى قيام بعضهم ببيع تذاكر علوفاتهم الى الراغبين من الناس[٥٩] • لهذا اصبح امرا غير عادى باطراد بالنسبة اليهم ان يعيشوا في الثكنات ، وازدادت صعوبة اخضاعهم للنظام والتدريب • يضاف الى ذلك ان موظفين من ذوى النفوذ استعملوا اعلام الانكشارية – حين رأوها قد اهملت – في الحصول على تسجيل اسماء خدمهم واتباعهم في قوائم الجيش ، وبذلك كانوا يكلفون الدولة باعالتهم • كما ان الغاء نظام الدوشرمة ادى الى دخول المسلمين الاحرار في الفرقة الانكشارية ، وارتباط هؤلاء بأسرهم وبحرفهم جعل الانكشارية عبارة عن رجال مدنيين في الغالب[٦٠] •

---

(٥٧) في سنة ١٦٢٦ اضطر الصدر الاعظم حافظ احمد باشا الذي كان يحاصر بغداد في محاولة لاستعادتها من ايدي الفرس ، الى الانسحاب بسبب تمرد الانكشارية وعدم رغبتهم في مواصلة الحرب . كذلك اضطر القائد حسين باشا سنة ١٦٤٨ الى رفع الحصار عن مدينة (كنديا) عاصمة جزيرة كريت لنفس السبب .
انظر : تاريخ نعيما ، جـ٢ ، ص ص ٣٨٥ – ٣٨٦ ، سرهنك ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٥٧٦ .

(٥٨) J. A. Marriott, The Eastern Question (Oxford, 1958). P. 102.
وكان قد حرم على الانكشارية تحريما قاطعا ان يعملوا في التجارة او الصناعة .

(٥٩) ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، (بيروت ، ١٩٦٥) ، ص ٤٧ .

(٦٠) Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol. I, Pt. I, P. 182.
ويذكر كب – على سبيل المثال – انه لاجل الحصول على امتيازات الانكشارية اصبح معظم الشعب البغدادي انكشارية .

وقد بذلت الدولة محاولات متكررة لانقاص عدد الرجال الذين وضعت اسماؤهم في القوائم الرسمية • ولكي تسهل الحكومة هذا الاجراء يحتمل انها سمحت بتطور آخر كانت له نتائج سيئة كذلك • وهو تغلغل عدد كبير من الرجال غير المأجورين في كتائب الانكشارية في اوقات السلم ، وكان هؤلاء الرجال ـ حين يطلبون ـ يسجلون رسميا على ايدي ضباط متنقلين • وكان الاجراء مغريا لكل من الانكشارية والرجال المرتبطين بالفرقة بهذا الشكل ، فهؤلاء الاخيرون يحلفون يمين الانضمام ثم يلبسون بعد ذلك شعار كتيبتهم (أورطتهم) الموشوم على اذرعتهم وسيقانهم • وحين يتم ذلك كانوا يتمتعون بمركز ممتاز ، فمثلا كانوا يشبهون الانكشارية الاصليين في اعفائهم من عقاب السلطات المدنية لهم[٦١] • وكانوا يستطيعون ان يسخروا نفوذ الفرقة لمصالحهم الخاصة • كما ان الانكشارية الاصليين حصلوا على قوة احتياطية ضخمة مكنتهم من فرض ارادتهم على بقية المجتمع بشكل اسهل من اى وقت مضى[٦٢] •

ولا أريد ان اسهب في ذكر ضروب الفساد التي اخذت تشق طريقها الى نظام الانكشارية ، فقد تحولوا الى اداة هزيمة وتخريب ، واستمرت تمرداتهم خلال القرن الثامن عشر ، وكانت اخطرها تلك التي حدثت في عهد السلطان احمد الثالث (١٧٠٣ ـ ١٧٣٠ م) ، اذ تمكن الانكشارية في الثامن والعشرين

---

(٦١) من المزايا المرتبطة بوضع الانكشارية ، الحصانة ضد القبض عليهم • وضد قيام السلطات المدينة بتوقيع العقاب عليهم ، وانما كانوا يخضعون خضوعا تاما لسلطة كبار ضباطهم الذين كانوا هم يقاضون المذنبين منهم ويعاقبونهم .
Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol. I, P. 63, 324.

(٦٢) Ibid, 183.

من ايلول ١٧٣٠ ، من فرض سيطرتهم التامة على العاصمة[٦٣] ، وظلوا لمدة ثلاثة ايام متتالية يطالبون برأس الصدر الاعظم وعدد من كبار رجال الدولة ، وذلك على اثر الانتصارات التي احرزها الفرس ضد القوات العثمانية المحتلة لاراضيهم وما سببته من هياج كبير في العاصمة العثمانية[٦٤] . وقد اضطر السلطان احمد الى ان يستجيب لمطلبهم ، خوفا من ان يطيح تمردهم به[٦٥] فأعدم الصدر الاعظم واثنين من ذوي الشأن . لكن انصياعه لهم لم يمنعهم من العصيان عليه ، فاعلنوا اسقاطه عن العرش[٦٦] .

وفي الوقت الذى كان فيه الانكشارية يسببون المتاعب للسلاطين ، لحقت الدولة العثمانية في المجال الخارجي - طوال القرن الثامن عشر - هزات خطيرة على يد الدول الاوربية[٦٧] ، مما ادى الى ظهور تجاه جديد في الدولة العثمانية يدعو الى اصلاح الدولة ونظم الحكم فيها وهو الاتجاه المعروف بحركة الاصلاح والتجديد[٦٨] .

---

(٦٣) كامل باشا ، تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، جـ٢ (استانبول ، ١٣٢٧) ، ص ١٤١ ، فريد ، المصدر السابق ، ص ١٤٦ ،

V. J. Parry, A History of the Ottoman Empire to 1730 (London, 1976), P. 218.

وينفرد كريسي بجعل تاريخ حدوث العصيان في العشرين من ايلول .

Creasy, Op. Cit., P. 349.

(٦٤) فريد ، المصدر السابق ، ص ١٤٦ ،

Lavallee, Op. Cit., P. 366; Creasy, Op Cit., P. 350.

(٦٥) سبق ان تمرد الانكشارية في عهد سلفه السلطان مصطفى الثاني (١٦٩٥ - ١٧٠٣ م) واجبروه على التنازل عن العرش . سرهنك ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٦١٣ .

(٦٦) تاريخ جودت ، جـ ١ ص ٧٤ ، سعيد الاحدب ، تفصيل الياقوت والمرجان في اجمال تاريخ دولة بني عثمان ، (بيروت ، ١٣٠٤) ، ص ١٠٢ .

(٦٧) انظر Eliot, Op. Cit., PP. 63 — 5; Creasy, Op. Cit., PP. 323 — 325

(٦٨) الحصري ، المصدر السابق ، ص ٧٢ .

ولقد كان من الطبيعي ان يستهدف الاصلاح ، في المحل الاول ، انشاء جيش جديد يحل محل الانكشارية الذين ذر التمرد قرنه في صفوفهم ، **وانتهوا** الى ان يكونوا بلاء الدولة .

والواقع ان الاصلاح العسكرى قد بدأ في عهد السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤ م) ، ولكن خوف السلطان من الانكشارية[٦٩] جعله يتجنب اصلاحهم ، واتجه الى تنظيم البحرية والمدفعية[٧٠] . غير ان هذا لم يكن ذا نفع كبير لانه لم يتناول القوة الرئيسية في الجيش ، وهي المشاة (الانكشارية).

ومع ان محاولات اصلاح الجيش سارت سيرا حثيثا في عهد السلطان عبدالحميد الاول (١٧٧٤ - ١٧٨٩ م) ، الا انها لم تلبث ان دخلت في طور جديد في عهد خليفته السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧م) الذي كان يؤمن بضرورة اصلاح الجيش على اساس النظام الاوربي الحديث .

---

(٦٩) يذكر المؤرخ التركي جودت باشا الحوار التالي الذي جرى بين السلطان مصطفى الثالث والدفتردار حليم افندي : « .. اذا نحن لم ننظم العساكر حسب التنظيمات الجديدة فلا نقدر على مقاومة اوربا فما العمل حينئذ ؟ فقال حليم افندي : فلندخل الانكشارية تحت النظام ، فقال السلطان : وهل يقبلون النظام ؟ قال : نعم ، فقال : وهل تتعهد انت بذلك ، قال : نعم ، غير متردد ، فأوقع هذا الكلام عليه الشبهة ، وتصور حضرة السلطان ان حليم افندي لو لم يكن له مداخلة مع الانكشارية ، لما تجرا على هذا الجواب القطعي واتهمه انه سيكشف هذا السر لهم ، فأبعده عن الاستانة خوفا من الانكشارية في صورة متصرف على الموصل ، فلما كان في الطريق ، نفاه ثم أعدمه » .
انظر : تاريخ جودت ، جـ١ ، ص ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٧٠) راسم ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٨٤ ، الحصري ، المصدر السابق ص ٧٦ .

فقد قرر هذا السلطان انشاء فرق جديدة من المشـــاة ، دون ان يتعرض للانكشارية ، الذين سمح لهم بان ينظموا الى هذه الفرق اذا شاءوا ، واستقدم من اجل تدريبها عددا من الضباط الخبراء الاوربيين[٧١] • وسعى السلطان الى تعميم النظام الجديد في الولايات ، فيذكر المؤرخون ان والي بغـــداد سليمان باشا الكبير اخذ بهذه الفكرة ، اذ عهد الى ضابط انكليزى استقدمه من الهند بتعليم وتنظيم الجيش الجديد[٧٢] ، كما يذكرون ان والي مصـر خسرو باشا اهتم ايضا بهذا الامر ، وشرع في انشاء ثكنـة خاصـة بجيش « النظام الجديد » • وأخذ كذلك بهذه الفكرة احمد باشـا الجـزار والي عكـــا[٧٣] •

غير ان الانكشارية ما لبثوا ان تآمروا على السلطان سليم وارغموه على الغاء « النظام الجديد » الذى وصفوه بانه بدعة مخالفة للشرع ، واعدموا جميع مؤيديه من رجال الدولة[٧٤] • ولم يكتف الانكشارية بذلك ، بـل

---

(٧١) سرهنك ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٦٤٥ ، فريد ، المصدر السابق ، ص ١٧٩ ، للتفاصيل انظر :
Stanford J. Shaw, The Ottoman Empire Under Sultan Selim III, (London, 1971), PP. 127 — 137.

(٧٢) استطاع سيلمان باشا الكبير (١٧٨٠ ـ ١٨٠٢ م) ان يجمع الف مملوك ، واخذ يدربهم وفق النظام الاوربي الحديث ، وامدته حكومة بومباي في سنة ١٧٩٨ و ١٧٩٩ بكثير من الاسلحة وعدد من الضباط الخبراء . (عـــلاء نورس ، المصدر السابق ، ص ١٢٧) •

(٧٣) الحصري ، المصدر السابق ، صص ٧٧ ـ ٧٨ ؛
Shaw, Op. Cit., P. 132, 135.

(٧٤) يذكر المؤرخون ان عددا كبيرا من الانكشارية ، تجمعوا في ميدان الســباق (آت ميدان) وصفوا القدور الخاصة بهم علامة على العصيان ، ثم قرىء عليهم احد رؤسائهم اسماء جميع المؤيدين لجيش النظام الجديد من الوزراء والاعيان ، فذهبوا الى منازلهم ثم اعدموهم واتوا برؤوسهم ووضعوها امام القدور . ولما بلغ السلطا نخبر هذا العصيان اصدر على الفور أمرا بالغاء النظام الجديد . سرهنك ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٦٥٨ ، راسم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٨٤ ، فريد ، المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

استصدروا فتوى من شيخ الاسلام بوجوب عزله حتى لايتركوا له فرصة احياء النظام الجديد ، وعزلوه بالفعل سنة ١٨٠٧[٧٥] .

ولم يكن من غير المنتظر ان تعود الفوضى ادراجها الى الجيش في عهد السلطان مصطفى الرابع (١٨٠٧ ـ ١٨٠٨ م) الذى نصبه الانكشارية محل السلطان سليم الثالث المخلوع ، ولم يكن من غير المنتظر كذلك ان تتوالى هزائم الدولة امام اعدائها . فلما تولى السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) العرش ـ بعد ثورة دموية قتل فيها السلطان مصطفى ـ ادرك انه لن يتمكن من اصلاح الجيش الا بالتخلص من الانكشارية ، ولكنه تريث في الامر وراح يستعد لهذه المهمة الخطيرة ، خصوصا وان الانكشارية كانوا يستمدون نفوذهم وسطوتهم من البكتاشيه ، وهم من اكبر فرق الطرق الصوفية في البلاد .

وفي بادىء الامر ، حاول محمود الثاني اقناع الانكشارية بقبول التعليم العسكرى على النظام الاوربي ولكن دون جدوى ، بل كانوا ينكرون فائدته قائلين : « ان ولي الله الحاج بكتاش ، كان قد بارك جماعة الانكشارية عند تأسيسها ، ودعا لها بالنصر الدائم » ، وكانوا يزعمون ان بركة ذلك الولي ودعاءه يغنيها عن كل تعليم[٧٦] .

---

(٧٥) احمد رشيد ، مكمل تاريخ عثماني ، (استانبول ، ١٣٢٧) ، جـ٢ ، ص ٥٦٥ ، راسم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٨٥ ،
Shaw, Op. Cit., P. 137, 406 — 7.

(٧٦) الحصري ، المصدر السابق ، ص ٧٧ .

وخلال سنوات حكمه الاولى استطاع ان يتخلص سرا من جماعات صغيرة من الانكشارية[77] ، ثم انتهز فرصة اندلاع الثورة في اليونان[78] وفشل الانكشارية في اخمادها لاستئناف العمل ضدهم ، بعد ان اسند معظم المناصب الرئيسية الى رجال مخلصين له شخصيا[79] . حتى اذا وافى ربيع سنة ١٨٢٦ أصدر امره بانشاء جيش نظامي جديد ، وقد تلا ذلك هياج حسب العادة ، وطالب الانكشارية بالغاء قوانين التدريب المستحدثة ، الا ان النتيجة كانت شيئا جديدا ، فقد تم في ١٥ حزيران ١٨٢٦ تطويق الانكشارية في ساحة (آت ميدان) حيث كانوا مجتمعين وصدرت الفتوى بوجوب ابادتهم ، ومن ثم دارت رحى مجزرة لم يسلم من هولها الا القليل . كما قتل عدد كبير من الانكشارية في الاقسام الاخرى من العاصمة ومختلف المدن التركية الاخرى . وطلب من حكام الولايات اتخاذ خطوات مماثلة والغاء الانكشارية المحلية[80] .

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول ان الانكشارية كانوا في المراحل الاولى، قوام الجيش العثماني وعماده ، ويكونون فئة عسكرية منيعة الجانب تفانت في الذود عن الدولة . وانهم ساهموا بشكل فعال في توسيع رقعتها . على ان وضعهم طرأ عليه تبدل انقلابي غير يسير منذ نهاية القرن السادس عشر ،

---

(٧٧) Hasluck, Op. Cit., Vol. II, P. 619.

(٧٨) وهي ثورة المورة الشهيرة (١٨٢١ ـ ١٨٢٧) ، التي شملت جميع اجزاء اليونان وجزر بحر ايجة .

(٧٩) فريد ، المصدر السابق ، ص ٢٢٠ ، بروكلمان ، المصدر السابق، ص ٥٤٠ .

(٨٠) راسم ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١٧٢٣ ، فريد ، المصدر السابق ، ص ٢٢٠ ، Bernard Lewis, The Emergence of Modern Turkey, (London, 1968), PP. 78 — 9.

عندما بدأ الفساد يدب في نظامهم وبدأوا يفقدون روحهم العسكرية حتى تحولوا في آخر الامر الى معول من معاول الهدم ، واقفين بشكل سافر امام جميع محاولات السلاطين الرامية الى الاصلاح وتطبيق القوانين العسكرية الحديثة والتي كانت تنتهي احيانا بنتائج مؤسفة كما توضح ذلك في سياق البحث .

وبالرغم من ان الانكشارية غدوا من عوامل تدهور الدولة العثمانية ، وان التخلص منهم كانت الحاجة ماسة اليه ، الا ان الدولة العثمانية ظلت تعاني من الانحطاط وان اخذت تسير في طريق الاصلاح سيرا مطردا ، ويمكن ان يعزا ذلك الى التدخلات الاجنبية المستمرة في شؤونها ، وما ترتب عليها من مشاكل ، وكذلك مساوىء الموظفين والولاة ومحاولات بعضهم الاستقلال عن السلطة المركزية . وبذلك لا يمكن ان نحمل الانكشارية المسؤولية كاملة في تدهور الدولة العثمانية ، وانما من الانصاف ان نقول انهم كانوا من جملة عوامله حتى سنة ١٨٢٦ .

المصـــادر

(١) الاحدب ، سعيد ، تفصيل الياقوت والمرجان في اجمال تاريخ دولة بنـي عثمان ، بيروت ١٣٠٤

(٢) انيس ، محمد ، الدولة العثمانية والشرق العربي ، القاهرة .

(٣) اولياء جلبي ، محمد ظلي بن درويش ، اوليا جلبي سياحتنامة سي ،ج ١ ، استانبول ١٣١٤ .

(٤) بروكلمان ، كارل ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي ، ط٦ ، بيروت ١٩٧٤ .

(٥) بيهم ، محمد جميل ، فلسفة التاريخ العثماني ، بيروت ١٩٢٥ .

(٦) جواد ، أحمد ، تاريخ عسكري عثماني ، استانبول ١٢٩٩ .

(٧) جودت ، احمد ، تاريخ جودت ، جـ١ ، ترجمه عن التركية عبدالقـادر الدنا ، بيروت ١٣٠٨ .

(٨) الحصري ، ساطع ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ١٩٦٥ .

(٩) الحلبي ، مصطفى نعيما ، تاريخ نعيما ، جـ ٢ ، ٣ ، استانبول ١٢٨١ .

(١٠) خيرالله افندي ، دولت عليه عثمانية تاريخي ، جـ١٧ ، استانبول ١٢٩٢ .

(١١) راسم ، احمد ، رسملي وخريطه لي عثمانلي تاريخي ، أربعة اجـزاء ، استانبول ١٣٣٠ ـ ١٣٣٥

(١٢) رشيد ، أحمد ، خريطة لي ورسملي مكمل تاريخ عثماني ، جـزءان ، استانبول ١٣٢٧ .

(١٣) سرهنك ، اسماعيل ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، جـ١ ، القاهـرة ١٣١٢ .

(١٤) سركيس ، يعقوب ، مباحث عراقية ، ق٢ ، بغداد ١٩٥٥ .

(١٥) شوكت ، محمود ، عثمانلي تشكيلات وقيافت عسكرية ، استانبول ١٣٢٥

(١٦) فريدبك ، محمد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، القاهرة ١٨٩٦ .

(١٧) كاتب جلبي ، مصطفى عبدالله ، فذلكه كاتب جلبى ، جزءان ، استانبول ١٢٨٥ .

(١٨) كوبرلي ، محمد فؤاد ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمه عن التركيةاحمد السعيد ، القاهرة ١٩٦٥ .

(١٩) لونكريك ، ستيفن هيمسلي ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديـث ، ترجمة جعفر الخياط ، ط٤ ، بغداد ١٩٦٨ .

(٢٠) محمد ، كامل باشا ، تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، ثلاثة اجزاء ، استانبول ١٣٢٧ .

(٢١) منجم باشي ، احمد بن لطف الله ، صحائف الاخبار ، ثلاثة اجـــزاء ، استانبول ١٣٨٥ .
(٢٢) نظمي زاده ، مرتضى افندي ، كلشن خلفا ، ترجمه عن التركية موسى كاظم نورس ، النجف ١٩٧١ .
(٢٣) نوار ، عبدالعزيز ، تاريخ العراق الحديث ، القاهرة ١٩٦٨ .
(٢٤) نورس ، علاء ، حكم المماليك في العراق ، بغداد ١٩٧٥ .
(٢٥) Birge, John K., The Bektashi Order of Dervishes, (Bristol, 1937).
(٢٦) Creasy, Edward S., History of the Ottoman Turks, (London, 1878).
(٢٧) Eliot, Sir Charles, Turkey in Europe, (London, 1908).
(٢٨) Encyclopaedia of Islam, Isteld; 4 vols. and Supple, leiden, 1913 — 38, 2nd ed, 1954.
(٢٩) Gibb, H. and Bowen, H., Islamic Society and the West, Vol. I, Pt. I, (London, 1951).
(٣٠) Hasluck, F. W., Christianity and Islam under the Sultans, 2 Vols, (Oxford, 1929).
(٣١) Kuran, Ahmad Bedvi, Osmanli Impartorlugunda Inkilop Harekttleri Ve Milli Mucadele., (Istanbul).
(٣٢) Lavallee, Theophile., Histoire de I'Empire Ottoman, (Paris, 1855).
(٣٣) Lewis, Bernard., The Emergence of Modern Turkey, (London, 1968).
(٣٤) Lybyer, Albert Howe., The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent., (New York, 1966).
(٣٥) Parry, V. J., A History of the Ottoman Empire to 1730, (London, 1976).
(٣٦) Shaw, Stanford J., The Ottoman Empire under Sultan Selim III 1789 — 1807., (London, 1971).
(٣٧) Uzuncarsili, Ismail Hakki, Osmanli Devleti Teskilâtindan Kapukulu Ocaklari., I, (Ankara, 1943).

الصيد والقنص في الآثار العربية من العصر العباسي

الدكتور صلاح حسين العبيدي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

عرف العراقيون القدماء في العصور السومرية والبابلية والاشورية انواعا مختلفة من الطيور والجوارح باسمائها المختلفة ، كما راقبوا عن كثب عاداتها وطباعها وعرفوا خصائصها ومثلما الف" الاقدمون قوائم بأسماء النباتات والحيوانات والمعادن ، فقد ذكروا ايضا اسماء الطيور الجارحة منها وغير الجارحة . وقد ادرك العراقيون القدماء المقدرة الفائقة التي تتمتع بها الصقور على سبيل المثال من الانقضاض على فرائسها . ومن الاثار السومرية التي تصور ذلك ، المسلة المعروفة بمسلة الصقور (Stele of vullures) التي تعود الى ايناتم امير سلالة لكش الاولى (النصف الاول من الالف الثالث ق . م) والتي تصور الصقور وهي تنقض على اشلاء الجنود في مدينة اوما المعادية . ونشاهد على المسلة نفسها الاله ننكرسو ، اله مدينة لكش يمسك بيده اليسرى بصقر له رأس اسد وبطريقة كبيرة الشبه جدا بوضعية الطائر الجارح المدجن الذي يقف عادة على كتف صاحبه[1] .

كما وصلنا من العبيد (في النصف الاول من الالف الثالث ق . م) افريز نحاسي كبير بجسد نسر له رأس اسد وقد بسط جناحيه على ايلين واقفين مما يشير بوضوح الى معرفة الاقدمين بقدرة ومهارة هذا الطائر الجارح على صيد مثل هذه الحيوانات[2] .

ومن الاثار التي تذكر بهذا الخصوص مزهرية من الفضة من مدينـة تلـو (كيرصو قديمـا) تعود الى الامير انتمينا من سلالة لكش الاولى ايضـا ومن المشاهد التي حفرت على هذه المزهرية ، منظر يمثل جارحا وهو يمسك بحيوانين ، علمـاً بأن المشهد يتكرر اربع مرات بصورة متناوبة[٣] .

هذا وقد استعمل السومريون صفات النسر نعوتا اطلقوها على ملوكهم ، فوصفوا الملك « بالنسر الجبلي » و « مخلب النسر » تعبيرا عن القوة وشدة البأس ، كما ادركوا عن كثب القـوة الكامنة في جناحي النسـر وقابليته على حمل فرائسه الثقيلة . حتى انهم نسجوا اسطورة طريفة عن ابيتنا ملك سلالة كيش الاولى ملخصها ان هذا الملك ارتقى الى السماء على متن جناحي نسر من اجل ان يحصل على نبات للنسر لانه كان عقما لا وريث له على العرش .

ان هذه الملاحظات المستفضة عن الطيور الجارحة في حضـارة وادي الرافدين تدلنا على ان العراقيين القدماء عرفوا قابليتها على الانقضاض على الفرائس وادركوا قوتها بين الطيور الاخرى المختلفة .

ولاشك في ان هذه المعرفة بالطيور الجارحة قد استمرت عند العـرب بعد الفتح العربي حيث استأثر هـذا الصنف من الطيـور بحب العـرب . خـلال تاريخهم الطـويل ، فكـانت عنايتهـم بهـا واهتمامهم بتربيتها عنايـة تفوق كل شيء واهتماما لايكون مثله اهتمام فاتخذوا الجوارح من الطير وربوها على صيد الطيور والحيوانات المختلفة .

وقد استعار الفنانون والصناع العرب في العصر العباسي هذا الموضوع فاكثروا من تصوير مناظر الصيد على منتجاتهم الفنية المختلفة من مخطوطات وخزف ومعادن واخشاب وعاج ونسيج وغيرهـا .

وقد استهواني هذا الموضوع الذي بقي بعيـدا عن متناول الباحثين والدارسين في الاثار العربية على الرغم من اهميته ؛ لانه يكشف جانبا مشرقا من جوانب متعددة من تراث امتنا العربيـة .

وقد اعتمدنا في كتابة هذا البحث على مصدرين اولهما ما جاء في المراجع التاريخية والادبية وثانيهما الرسوم التي وجدت في المخطوطات المصورة والتحف الاثرية المختلفة •

اما المعلومات التي اوردها المؤرخون عن الجوارح والصيد بها فهي كثيرة ، شملت اسماء الجوارح وطبائعها وصفاتها ، وعاداتها واساليب تعليمها والوانها وطرق الصيد بها والطيور والحيوانات التي كانت تصطادها وغيرها من المعلومات التي تتعلق بهذا الصنف من الطيور •

جاء في المخصص[٤] « الجوارح من الطير » الصوائد واحدتها جارح وجارحة ، ومنها الصوائد لانفسها غير المعلمة ومنها المعلمة الصوائد لاهلها وهي الجوارح • قال الله تعالى « يسألونك ماذا احل لهم قل احل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما امسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله أن الله سريع الحساب[٥] •

اما الجاحظ[٦] فيسمي طيور الصيد بالسباع وعلل ذلك لاكلها اللحوم •

اما الدميري[٧] فان طيور الصيد عنده كواسر وضوار ، وهي عند سباع كذلك • وقد اشارت الكتب في بعض مواضعها الى معرفة العرب الصيد بواسطة الطيور منذ فجر الاسلام فقد ذكرت كتب السيرة ان حمزة بن عبدالمطلب عم الرسول (ص) كان يخرج للصيد متشحا قوسه وعلى يده صقر[٨] . كما عرف عن يزيد بن معاوية انه كان من اكثر خلفاء بني أمية افتتانا بالصيد فكان صاحب طرب وجوارح وكلاب وفهود[٩] • ويقال انه أول من اشتغل بالصيد من الخلفاء وبلغ من اهتمام هذا الخليفة بالصيد وبوسائله انه كان يلبس كلابه الاساور من الذهب والحلل المنسوجة بالذهب ويخصص لكل كلب عبدا[١٠] •

وكانت عناية العباسيين بهذا الفن الجميل جدا كبيرا ، وكان الخلفاء من اكثر الناس اهتماما بالجوارح والصيد بها ، ومن الخلفاء العباسيين الذين نهجوا بالصيد الخليفة المنصور وتحدثنا الروايات التاريخية[١١] انه عبر جسر بغداد مرة وقد شمر كمه وعلى يده باز ، والرشيد هو الاخر من خلفاء بني العباس المولعين باصيد ، حتى كان يركض فرسه ركضا شديدا في اثر الطريدة[١٢] ولم يتأخر المكتفي بالله عن ممارسة رياضة الصيد الا انه كان اكثر مايدمنه الصيد بالفهد والعقاب[١٣] .

ومن الملاحظ في العصر العباسي ان الخلفاء ورجال الدولة كانوا يكثرون من الخلع والهدايا للاخرين . ويضمنون هذه الهدايا طيور الصيد مثل البزاة ، فقد ذكر الخالديان[١٤] ان يعقوب بن الليث الصفار صاحب خراسان اهدى الى الخليفة المعتمد هدية من جملتها عشرة بزاة منها بازى ابلق لم ير مثله كذلك كان اخوه عمرو بن الليث يرسل كل سنة التحف النفيسة الى المعتضد بالله من سنة ٢٨١ هـ الى سنة ٢٨٦ هـ . منها عشرون بازيا أو بزاة كثيرة .

كما كان ملوك الغرب يرسون بها للخلفاء العباسيين كناية عن الود وربما لمآرب اخرى ، فقد جاء في كتاب التحف والهدايا[١٥] ان برتا مملكة الفرنج بعثت الى الخليفة المكتفي (٢٤٩ هـ ـــ ٨٦٣ م) رسولا معه تحف نادرة من جملتها خمسون سيفا وعشرة اكلب كبار لايطيقها السباع وسبعة بزاة وسبعة صقور .

وازاء هذا الاهتمام الواسع بالجوارح نجد الخلفاء العباسيين يبذلون اموالا طائلة لتربيتها واقاموا عليها اناسا ينظرون في شؤونها ومنهم البيازرة واصحاب الصقور . وكانت الدولة تجري عليهم مبالغ كبيرة ، ومما يذكر بهذا الصدد أن نفقات الكلابزيين والبازدارة والفهادين في دور الخليفة المتوكل بلغت خمسمائة الف درهم في السنة[١٦]

وكثيرا ما كان السلاطين يطلبون الى الفنانين والصناع ان يصوروا صقورهم لوحدها أو يصوروهم مع صقورهم وبزاتهم وغيرها من طيور الصيد[١٧] • ومن غير المستبعد انهم كانوا يصطحبونهم في رحلات الصيد نفسها حتى يصوروا وقائع الصيد على الطبيعة ، ولعل مشاهد الصيد التي رسومها او نقوشها على تحفهم ما يؤيد هذا الرأى •

وكان للعرب دور مهم في تعليم الجوارح ولهم يرجع الفضل في ادخال الغشاء الذي يغطي عين الجارح خلال مدة تدجينه ، وهذه الطريقة تعتبر من مبتكرات العرب وعنهم اخذها الاوربيون واقبلوا على اقتباسها والعمل بموجبها وكانوا قبل ذلك يغلقون عين الجارح المحبوس قبل أن يربوه ويخيطون اجفانه بابر وخائط لئلا يرى وجه الانسان • وبعد ان يتم تهذيب الجارح يفتحون له عينيه فيرى كل ما في العالم • وقد اعترف بذلك الامبراطور فردريك في كتابه « فن الصيد بواسطة الجوارح » • فهو يقول في الباب السابع والسبعين « ان غشاء الباز من مخترعات أهل الشرق وعمل بها اولا العرب ••• وحصلنا منهم على كل ما عرفوا من علم ، ولما كان استعمال الغشاء افضل ما كان لديهم من مناهج التهذيب قيمة ولما شاهدنا فائدته العظيمة في تربية الصقور اتخذناه لبزاتنا واستحسناه حتى ان معاصرينا اخذوا منا طريقة استعماله »[١٨] •

وينسب الى الصيادين العرب ايضا استعمال غطاء لليد يعرف بالقفاز ، والقفاز « كيس يصنع عادة من الادم يجعله الصياد على يده تحت رجلي الصقر »[١٩] • وقد اعطانا ابو نواس في بعض طردياته وصفا لما يؤديه القفاز من فوائد للصياد مثل حماية يد الصياد من جرح البازي حين يظفر على يده ، ووقاية يديه من البرد ، يقول ابو نواس[٢٠] :

كسوت كفي دستبانا مشعرا   فروة سنجاب لؤاما او برا
تقي بنان الكف الا تحصدا   وغمرة البازي اذا ما ظفرا
قسمت فيه الكف الا الخنصرا   اعددت للبغثان حتفا محقرا

اما طيور الصيد التي سيتناولها البحث فهي العقاب ، البازي ، الصقر، الشاهين ، والطغرل •

العقاب :

وهي مؤنثة لا تذكر ، والعقاب لا يعد من الصقور ولا من البزاة وهو معدود من الجوارح بل هي من اعظمها[٢١] • واصل لونها السواد[٢٢] ، وبلغ من عظمة العقاب ان سباع الطيور كانت تحيد عنها ، وكان لا يرسل شيء من الجوارح الى الصيد اذا كانت معه خوفا[٢٣] منه واول من لعب بالعقاب اهل المغرب • وقد اعجبت الروم بها وقد بلغ من عظمة وقوة العقاب وفاعليته العظيمة بـ « ملك سباع الطير » كما يحلو للاصبهاني[٢٤] ان يسمي العقاب بـ « سيد الطيور » •

يصيد العقاب الحيوان والطيور على حد سواء ، كما يستخدم في بعض الاحيان معقوفا للفريسة وبالاخص في صيد الحيوان الكبير الحجم مثل ثور الوحش ويكون عمل الطائر تمهيدا لعمل كلاب الصيد التي تصل الى الفريسة في وقت اسرع عندما يعوقها ، وهذه الطريقة تساعد في الحصول على الفريسة وهي حية • جاء في المصايد والمطارد[٢٥] « ان العقاب اذا نظرت حمار الوحش رمت بنفسها في الماء حتى يبتل جناحها ثم تخرج فتقع على التراب فتحمل منه ومن الرمل ما يعلق بها ثم تطير ثقيلا حتى تقع على هامته فتصفق على عينيه بجناحها فيمتلئان ترابا من ذلك فيدركها القانص فيأخذها» •

ولدينا نص واضح من الباخرزي احد رجال القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) يشير الى استخدام العقاب في صيد الحيوانات الصغيرة مثل الارنب وفي النص تصوير لعملية الصيد ، وكان الباخرزي احد الذين صاحبوا الصيادين في عملية صيد بواسطة الجوارح فهو يقول « فلما فرغنا وبذلنا الوسع واستفرغنا ثار عن الكمين ارنب ••• فالقى العقابي عقابا يوسع الوحش عقابا فعلق في الهواء على رسمه ، ثم نزل على الارنب كاسرا كاسمه •••• وسحب على الارنب نصول مخلبه وما استمر حتى قضى الارنب نحبه »[٢٦]

ومن صنف العقاب نوع يقال له « الزمج » وهو من الطيور المعروفة ، تصيد به الملوك الوحش واهل البيزرة يعدونه من خفاف الطير الجوارح ، ومن صفاته ان يصيد على وجه الارض »(٢٧) .

البـازي :

ومن الجوارح ايضا البزاة ، وهي تختلف عن الصقور في كثير مـن الصفات ، فالصقور سود العيون ، محددة الرؤوس قصار الاجنحة طوال الارجل(٢٨) . والبزاة حمر العيون او زرقها او صغيرها مـدورة الرؤوس قصار الاجنحة طوال الارجل ، حجن المناقير اقتم الريش في ريشها حمـره ضاربة في السواد(٢٩) .

وفي جناح البازي من عدد الريش عشرون اربع قوادم واربـع مناكب واربع اباهر واربع كلى واربع خواف(٣٠) .

والبزاة ذات الوان منها الاحمـر والاكثر سـوادا والاشهب الشبيه بالابيض والاصفر المدبج الظهر(٣١) .

والبزاة على خمسة اصناف ، الاول البازي ، وهو من اشرف الطيور الجوارح ، ومن صفاته ان الصيد فيه طبيعة لانه يؤخذ فرخا من وكره من غير ان يكون يصيد مع ابويه فيصيد ابتداء وقريحة من غير تضريه ، بخلاف الصقر فانه اذا اخذ قبل ان يتصيد مع ابويه لم ينجب ولم يصد ، واذا كان قد لحق ابويه وصاد معهما ثم عود اكثر مما يوجد عنده في تلك الحال وجرى على ما هو اكبر من الظباء اعتاد ذلك ومهر فيه »(٣٢) .

والبزاة تصيد الطيور وصغار الحيوان مثل الارنب والغزال والكركي والحجل والبط(٣٣) .

واتحفنا الباخرزي بصورة بديعة لباز ينقض على فريسته من البط اثناء ما كان في رحلة صيد مع فهادين وكلابين وبيازرة وعقابين وصقارين ومعهم جوارحهم وادوات صيدهم ، حيث ابصر البازيار سربا من البط انحط على بركة ماء فتأمله ثم اخذ الطبل يقرع مستفزا السرب من الماء حتى اذا ما بسط البط اجنحته للنهوض اطلق الباز من عقاله فهبط الباز نحو البط وقد لوى جيده فهصره بمنقاره الحاد وسال الدم منه ، ثم سددت البنادق نحو بقية الطيور فجعلت تتساقط الواحدة بعد الاخرى .

ولا نجد ضيرا من ان نسوق النص ليلمس القارىء دقائق الصورة التي جاء بها الباخرزي (.. فبينا نحن كذلك اذ وقع في الماء منحط وتأملناه فاذا هو بط ، فقرع البازيار الطبل حتى استفزه من وجه الماء الى جو السماء ولم يزل يصك طبله صكا صكا حتى دك بازية بمنقار البط دكا دكا وضربه بمخالبه انحدر به الارض منحدرا كالشهاب الثاقب ، ونزل به وظفاره مصغره بالعلق ولوى جيده وكأن صليب المكسر فهصره بالمنسر وسال منه الدم كما كسر الابريق واريق منه الرحيق ...)(٣٤)

ويفيد هذا المقطع من رسالة الباخرزي ان الطبل قد دخل عدة من عدد الصيد ، فلم يكن الباز وحده في هذه الساحة بل شاركت فيه هذه الالة الموسيقية التي ادت دورا اخر غير السرور والطرب .

وقد اشار المؤرخون الى ان اول من صاد البازي من ملوك قسطنطين ملك الروم وذلك انه مر يوما بلحف جبل فراى بازيا يطير ثم ينزل على شجرة كثيرة الاغصان فاعجبه صورته فأمر بان يصاد له جملة من البزاة فصيدت له وحملت اليه فارتبطها في مجلسه(٣٥) .

ان مثل هذا الحكم نقف منه في كثير من التحفظ لاننا لم نقع لحد الان على اي دليل مادي يعطينا الفترة المحددة لتدجين هذا الطير ، لكننا نستطيع ان نحكم من خلال هذا النص ان عصر قسطنطين يعد من العصور المتقدمة في تدجين البازي واستخدامه لهذا الغرض .

وقد سبق ان بينا في بداية البحث ان هناك جذورا قديمة لتراث اصيل عن الجوارح في العراق سبقت عصور الساسانيين والبيزنطيين وغيرهم بقرون كثيرة ٠

اما عن طريقة امساك البازي واطلاقه فقد جاء في المصايد والمطارد[٣٦]، « الامساك على اليمين امكن من الحمل وادنى الى الاصابة في الوقوع على الصيد ٠ وكلما كان امعن كان اسرع ٠ واذا اراد الفارس الركوب على يسار البازي لم يمكنه ذلك حتى يضع يده اليسرى على القربوس فربما يفر الجارح عند تهيؤ الفارس للاستواء في سرجه فصار من تحته فقتله فان كان على يمينه وضعها على المؤخرة فاذا هم بالاستواء في سرجه رفعها لئلا يصيبها آفة ٠ وكان من الايين ان يأتي البازيار ٠٠ والجارح على يساره فيعارض الملك ورأس كل واحد منهما الى كفل الاخر فتحوله من يساره الى يسرى الملك وهذا مذهب العرب في امساك الجوارح ٠

وقد اخذ صاحب كتاب « قابوس نامه »[٣٧] على ملوك خراسان ان من عاداتهم الا يحملوا الباز على ايديهم ، بينما يحملها ملوك وامراء العراق ٠ وفي نفس هذا المعنى يقول الجاحظ[٣٨] « وليس ترى شريفا يستحسن حمل البازي لان ذلك من عمل البازيار » ٠

اما عن عادة ملوك وامراء جراجان فيقول صاحب « قابوس نامه »[٣٩] انه يليق بالملك ان يحمل ويطير بازيا ولكنه لا يليق به ان يطيره غير مرة واحدة ثم يأخذ بازيا اخر ٠

ومن جنس البزاة « الزرق » وهو ذكر البازي ، جاء في المصايد[٤٠] ان « الزرق يصيد ما يصيد البازي من دق الطيور ولا ينتهي الى صيد الكركي» ٠

« والفقيسي » صنف اخر من اصناف البزاة ، وهو اقل قوة وشجاعة من بقية الاصناف الاخرى ، فقد وصف كشاجم[٤١] هذا الطائر بأنه باز ضعيف قليل الصبر ذاهل النفس ٠

ومن اصناف البزاة ايضا « الباشق » ويسميه اهـل الشـام ومصر السافر[٤٢] • وقد جاء في كتاب حياة الحيوان[٤٣] عن هذا الطائر بانه طائر حسن الصورة اصغر الجوارح جثه يصطاد العصافير وما في حجمها •

ويأتي « البيدق[٤٤] » في اسفل قائمة البزاة ، ومن صفاته يصيد العصافير دون غيرها •

الصقر :

وتجمع على اصقر وصقور وصقار وصقاره ، والانثى صقرة[٤٥] • والعرب تسمى كل طائر يصيد صقراً خلا النسر والعقاب[٤٦] قال صاحب «المصايد والمطارد[٤٧] » عن الصقور بانها بغال الطير لانها اصبر على الاذى وبسبب ذلك يغـرى على الغـزال والارنب ولا يغرى على الطير لانه يفوتـه ، والعرب تحمد من الصقور ما قرنص وحشيا وتذم ما قرنص داجنا[٤٨] •

يخبرنا ادهم بن محرز ان اول من لعب بالصقر الحارث بن معاوية بن كندة الكندي خرج يوما الى الصيد فرأى صيادين قد نصبوا اشباكا عدة فوقع فيها عصافير عدة فحين رأها صقر في الجـو انقض عليها يطلبها فأمر الحارث بنصب الشباك للصقور فنصبت لها فاصطاد منها جملة[٤٩] •

والصقر يصيد الكركي والبط وسائر طيور الماء كما يصيد الحبارى •

ويمدنا الباخرزي بصورة دقيقة جدا وغنية بالتفاصيل عن صقر فك عنه صاحبه قيده فأخذ يلتهب حرصا وانفعالا قبل الطيران نحو غنيمته وهي طير من طيور الحبارى فاذا ما خلي عنه سدد الحاظا نحو فريسته واصحابه من خلفه يركضون حتى اذا ادركوه اذا به منكب على فريسته بجميع جوارحه ، والفريسة قد ادركها اليأس من النجاة وكانت قد استخدمت سلاحها الواهي فان من عادة الحبارى اذا داهمها الصقر سلحت عليه عسى ان تظلله بسلحها فتجد سبيلا الى الهرب ، ولكي تصبح الصورة اكثر وضوحا لدى القارىء فاننا نورد نصها (••• ومررنا ولم تمر علينا ساعة حتى رأينا الصقر والحرص

يلتهب به ويشتعل ويكاد قبل الفعل ينفعل وخلي للحباري من مكان بعيد وكر اليه الحاظ مستعيد ففككنا عنه قيده وخليناه وصيده ، وتبعناه فاذا هو مكب عليها بمجامعه وهي تحته كالاسير في جوامعه ايسه من الفلاح لم يغن عنها سلاح السلاح »[٥٠] .

ويبدو ان الصيد بالصقور كانت طريقة تختلف عن طرق الصيد الاخرى، وقد اشار الى ذلك الدميري[٥١] في معرض حديثه عن الصقور اذ قال ان الصيد بالصقور من اعجب الطير اذ يشترك فيها صقران في وقت واحد ، وهي خاصة في قنص الحيوانات مثل الظبي ، ففي هذه الحالة يرسل الصقران الى الظبي فينزل احدهما على رأسه يضرب عينيه بجناحيه ثم يعلو وينزل الاخر ويفعل مثل ذلك وهكذا يشغلانه عن المشي حتى يدركه من يبطش به » .

للصقور اصناف منها « السنقر » وهو من اشرف الجوارح ، والسناقر تجلب من البحر الشامي[٥٢] .

ومن صنف الصقور ايضا « الكونج » وهو طائر صغير الحجم ، وبالنظر لصغر جسمه فقد اقتصر في صيده على طيور الماء[٥٣] .

ويشير القلقشندي[٥٤] الى طائر اخر من جنس الصقور وهو « السقاوة » وقال عنه انه قريب الشكل من الصقر .

ومن جنس الصقر ايضا « الشاهين ، ويعتبر الشاهين من اسرع الجوارح كلها واشجعها واخفها واحسنها تقلبا واقبالا وادبارا واشدها ضراوة على الصيد [٥٥] .

وكان للشواهين شأن عظيم عند العرب ، قال ابن عفير كانت ملوك العرب اذا ركبت في مواكبها طيروا الشواهين فوق رؤوسهم وكان ذلك عندهم هو الرتبة العظيمة[٥٦] .

تذكر المصادر التاريخية[٥٧] ان اول من صاد بالشاهين قسطنطين امبراطور الدولة البيزنطية الذي اعجب بهذا الطير فضراه على الصيد • ان هذا الرأي الذي جاء به المؤرخون والباحثون لا يختلف عن احكامهم الذي قالوا به في مسألة الصيد بالبازي ، وقد سبق ان نوهنا على هذه المسألة بان الحكم المطلق فيها يعد ضربا من المجازفة العلمية ان لم يتأييد ذلك بدليل مادي ثابت •

ومن فصيلة الشواهين « الانيقي » وهو دون الشاهين في القوةويقتصر على صيد العصافير دون غيرها[٥٨] •

ويضاف الى صنف الصقور صنف اخر يدعى « اليؤيؤ » ، [٥٩] وتسميه اهل مصر والشام « الجلم » وهو طائر صغير اسود اللون يضرب بالزرقة •

واليؤيؤ مختص بصيد نوع من الطيور البرية يعرف القنبره وفي رسالة الطرد للباخرزي وصفا شيقا ممتعا يصور من خلاله يؤيؤ اطلق وراء سربا من القنبر في وضح الصباح الباكر فتمكن منها تمكينا سريعا (•• فلما ذكا الصبح كما يذكو المصباح ••• ذعرت همهمه السنابك سربا من القنبر فاعتمدنا في صيدها على يؤيؤ •• وطار اليؤيؤ مراقبا للذخاخ الى ان بسط بالقنبرة كلكل الجناح وبقى في انتهاز فرصة ، حتى احكم المخالب في فريسته ••)[٦٠] •

الطفرل :

وهو من طيور الصيد بل من اعظمها واكبرها واكثرها شراسةيمتاز بقوة احتماله فهو ينقض عشر مرات ويستطيع صيد كل الحيوانات[٦١] •

هذا عن الجانب التاريخي للجوارح ، اما عن الجانب الاثري أي عن المأثورات التي وجدت ممثلة على التحف الاثرية المختلفة فاهميتها كبيرة جدا، اذ ان مجال الواقعية فيها ابرز من جانب الخيال ، ومع ذلك فقد صادفتنا

صعوبات كبيرة في الوقوف على انواع الجوارح التي مرذكرها ، وسبب هذه الصعوبات ان طيور الصيد تتشابه في مظهرها العام وان الفنان مهما بلغ من الدقة في التعبير فانه لا يوفق دائما في تعرفنا على نوعية الطير الجارح ، فالملاحظ ان كثيرا من الرسوم التوضحية ان لم تكن جميعها سواء في المخطوطات ام على التحف الاخرى كان الفنان يعرض لنا من خلالها ، نماذجه بصورة او باخرى دون ان يتعرض لتفاصيل هذه الطيور من حيث انواعها وعدد ريشها والوانها وعاداتها وما الى ذلك من المعلومات الاخرى لانه في كثير من الاحيان يهمل رسم اشياء على جانب من الاهمية وربما تحدد تلك الاشياء نوعية الجارح ان كان صقرا او شاهيناً او عقابا او بازا وتتيجة لذلك كله انه يصعب على المتأمل ان يحكم بنوعية الجارح الذي تظهر صورته في المخطوطات او على اي تحفة اثرية ولا سيما وان الفروقات في بعض الاحيان دقيقة جدا وربما لا تلفت اهتمام المصور او الفنان ، اذ يصعب عليه رسمها مثل عدد الريش او لون العيون ، وفي بعض الاحيان ينحصر الفرق بين جارح واخر في لون العيون مثلا او عدد الريش .

هذا بالاضافة الى الاختلاف في الاداء بين فن واخر اذ يجب ان نضع في الحساب ان الحفر والنقش على الاخشاب يختلف عن النقش على المعادن وكذلك الامر بالنسبة للمخطوطات لان لكل مادة طريقة خاصة في التعبير عن الصور التوضيحية . وعلى هذا فاننا سنطلق كلمة جارح بصورة عامة على كل طير من طيور الصيد التي ترد صورها او رسومها على التحف الاثرية وفي المخطوطات المصورة الا اذا كان هناك ما يشير صراحة الى نوعية هذه الطيور .

ولقد رصدنا مجموعة طيبة من مشاهد الصيد بالجوارح ممثلة على العديد من التحف الاثرية العربية بعضها على الخزف وبعضها على المعادن واخرى على الخشب وعلى المخطوطات والاخر على الزجاج وعلى العاج .

اما مناظر الصيد على التحف المعدنية فهي كثيرة نذكر منها مشهد منقوش على ابريق[٦٢] (شكل ١) من النحاس من صناعة احمد الذكي النقاش الموصلي مؤرخ من سنة ٦٢٠/١٢٢٣م وهو محفوظ في متحف كليفلاند ، ويزين الابريق المذكور جملة من الصور والرسوم المكفتة بالفضة ، ومن المؤسف ان معظم التكفيت سقط عن الرسوم بحيث اصبحنا نلاقي صعوبة في تتبع تلك الصور ، ومع ذلك يستطيع المرء ان يلمح صورة صياد امتدت يده اليسرى مثنية الى اعلى ، في حين بسط اليد اليمنى بصورة افقية وقد حمل على كفه الايمن والايسر جارح •

وهناك تحفة معدنية اخرى (شكل ٢) يظهر عليها منظر الصيد بالجوارح ، وهي عبارة عن طست[٦٣] من النحاس المكفيت بالفضة من صناعة احمد الذكي النقاش الذي صنع لنا الابريق السابق ، الطست يرجع تاريخه بين سنتي ٦٣٦ - ٦٣٨هـ/١٢٣٨ - ١٢٤٠م والطست محفوظ في متحف اللوفر بباريس ، ونجد على الجدار الداخلي للطست زخارف ورسوم مختلفة ، ولايرى المرء في هذه الزخارف لاول وهلة سوى رسوم فروع نباتية ورسوم مناظر اشخاص متشابكة ، ولكن اذا دقق النظر فيها يستطيع ان يكشف صورا عديدة لصيادين وحيوانات وطيور ، فنرى هنا مجموعة من الصيادين بعضهم على صهوة جيادهم والبعض الاخر على الارض وهم يمارسون عملية صيد الطيور والحيوانات بآلات واسلحة وطرق متنوعة بعضهم يطلق سهمه من قوسه وآخر يطعن حيوانا برمح واخر يصطاد بواسطة طيور الصيد ، فنجد هنا احد الصيادين وقد امسك بجارح كانما يتأهب لتجربته ، وفي جانب آخر من جدار الطست وفي الزاوية العليا من الجهة اليسرى نشاهد صيادا على فرسه وبجانبه جارح ينقض على طائر اتجه اليه من الناحية الخلفية في حركة بديعة بينما امتدت يد الصياد نحوهما كما لو كان يريد صيده • وعلى مقربة من هذا المشهد يطالعنا مشهدا آخر يختلف عن سابقه حيث جاء هذه المرة صورة جارح يطارد غزالا يحاول اقتناصها •

وهناك قطعة معدنية أخرى[٦٤] (شكل ٣) محفوظة في متحف اللوفر بباريس وهي من صناعة « محمد بن الزين » والقطعة تمثل طستا تزينه زخارف ورسوم مكفتة بالفضة وهي تمثل مناظر مختلفة من مناظر البلاط والصيد والقتال ومشاهد من الحياة اليومية موضوعة في اشرطة واشكال هندسية متعددة الانواع على مهاد من الفروع النباتية ، والذي يهمنا من المشهد الصيد والمنظر المذكور يعبر عن جماعة من الصيادين عادوا تواً من رحلة الصيد وقد امسك احدهم بيده اليمنى بصيده الذي يمثل غرنوقاً وقد تدلى رأسه مما يقطع بأنه ميت والى جانبه صياد يحمل فوق ذراعه الايسر جارحا والى جانبه من الجهة اليسرى من المنظر صياد ثالث يرافق كلب صيد وقد امسك بيمينه طرف الحبل الذي يربط عنق الكلب. اما الصياد الرابع فقد التفت الى الوراء منشغلا بالنظر الى جهة اخرى لم يتضح الشيء الذي يشغله

ويظهر لنا موضوع الصيد بواسطة الجوارح في تحفة معدنية[٦٥] اخرى تتمثل في صينية مصنوعة من النحاس الاصفر المكفت بالفضة وهي موجودة في متحف الفنون الشعبية في ميونيخ ، وتزين الصينية المذكورة صور تمثل موضوعات مختلفة ، من بينها صور تمثل رجلا يصطاد من على صهوة جواده بواسطة القوس وصياد اخر يصطاد اسدا بواسطة الرمح . كما اظهرت بعض الرسوم الاخرى صيادا يستخدم في صيده نوع من طيور الصيد .

ولم يكتف الفنانون العرب بتصوير رسوم الصيد بالجوارح على التحف السابقة بل امتد تصويرها الى مواد الكتابة ايضا كالمحابر ، وقد وصلت الينا محبرة من النحاس المكفت بالفضة وهي من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ومحفوظة الآن في متحف برلين ، وتزين المحبرة زخرفة قوامها ثلاثة اشرطة العلوي والسفلي ضيقان ويضمان فروعا نباتية ، اما الشريط الاوسط فاعرض من الشريطين الاولين ويضم هذا الشريط اشكال دائرية تضم واحدة منها رسم صياد يصطاد بطير من طيور الجوارح وقد ظهر الجارح هنا على اليد اليسرى للصياد بينما رفع اليد اليمنى نحو الاعلى قد تكون اشارة لانطلاق

الجارح نحو مهمته (شكل ٤) كما لم يكتف الحكام والامراء في العصر العباسي بحمل طيور الصيد اثناء الصيد فحسب بل كانوا يحملونها في مجالسهم الخاصة مما يدل على اعتزازهم وولعهم وشغفهم بهذه الطيور ، وقد ارشدتنا الى ذلك صورة منقوشة على شمعدان[٦٦] من النحاس (لوحة ٥) من صناعة ابي بكر ابن جلدك الموصلي سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م وتمثل الصورة المذكورة مجلسا يضم حاكما يجلس على عرشه وقد وضع يده اليسرى امام صدره وحمل عليها طائرا من طيور الصيد ، ولعل الفنان أراد بذلك ان ينعت هذا الحاكم أو الامير بانه صياد كناية عن الشجاعة والفروسية •

اما صناع البلور والزجاج فقد أعجبوا اعجابا عظيما بموضوع الصيد لذا نراهم ينقشون مشاهد الصيد على تحفهم التي كانوا يصنعونها ، ومن القطع التي يظهر عليها منظر الصيد ابريق من البلور الصخري[٦٧] من القرن الحادي عشر محفوظ في متحف فكتوريا والبرت بلندن وقوام الزخرفة في هذا الابريق رسم جارح ينقض على غزال محاولا اقتناصها وقد ثبت مخالبه بظهر الغزال بينما انتصبت جناحاه (شكل ٦)

وفي المصنوعات الزجاجية رسوم تمثل مشاهد الصيد ، نذكر منها انية محفوظة في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، والانية ذات زخرفة متنوعة ، ويزين اكتاف الانية المسطحة تصميم زخرفي بديع من افرع نباتية تتخلله مناطق بها رسوم طيور يصطاد بعضها البعض الاخر ، فنرى فيها ثلاثة من الجوارح كل منها ينقض على اوزره •

كما مثل الصيد بالجوارح على الاخشاب ، ففي متحف الفن الاسلامي بالقاهرة عارض خشبي ضيق مزين بزخارف وشريط طويل تتعاقب فيه اشكال مستطيلة مسدسة فتملؤها رسوم لصائد يحمل جارحا وهو على صهوة جواد يقوده سائس يحمل درعا ورمحا ، ثم حشوتين متواجهتين لصائدين احدهما يحمل جارحا وهو على صهوة جواده يتقدمه سائس آخر يحمل من السلاح ما رأيناه في صورة السائس السابق[٦٨] •

وفي متحف الفن الاسلامي بالقاهرة حشوة من الخشب مطعمة بالعظم وبالخشب الاحمر وهي من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وتتألف الحشوة من دائرة مستديرة تضم رسم جارح ينقض على ارنب يعدو رافعا رأسه في وضع طبيعي كأنه يأكل من فرع نباتي وذيل الجارح منحن الى اسفل • ويلاحظ أن جسمي الجارح والارنب تزخرفهما معينات بداخلها اشكال صليبية تتألف من افرع نباتية مورقة(٦٩) •

على ان تصوير مناظر الصيد بالجوارح لم يكن مقتصرا على المعادن والزجاج والاخشاب • بل شمل ايضا التحف المصنوعة من العاج ، ويحتفظ متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، بقطعة من العاج(٧٠) (لوحة ٧) يعود تاريخها الى القرن الحادي عشر والثاني عشر ، ويزين القطعة المذكورة مجموعة من الصور ، من بينها رسوم تمثل ستة من الصيادين موضوعة داخل شريط ، فالاول الذي يظهر على الجهة اليمنى من الشريط يحمل فوق يديه اليسرى جارحا كانما يتأهب للانطلاق ، بينما ظهر الى جانبه صياد آخر امتدت يده اليسرى سائبة في الهواء كأنه يشير للطائر بالانطلاق نحو الجهة المطلوبة بينما وقف على كتفه طائر جارح ناشرا جناحيه بينما امسكت يده اليمنى بحيوان اقرب ما يكون الى الارنب يليه صياد ثالث يعتلي صهوة فرسه وقد امسك بيسراه بجارح بينما امتدت يمناه مشيرا الى الجهة المطلوبة • اما الصياد الرابع فهو الذي يمثل نهاية هذا الشريط فيظهر هو الاخر ممتطيا صهوة جواده حاملا على يده اليمنى طير من طيور الصيد •

وفي كاتدرائية طرطوسه باسبانيا صندوق من الخشب(٧١) المغطى بالعاج وهو من القرن الثاني عشر ، ويحلى الصندوق زخرفة من دوائر مستديرة تضم رسوما أدمية ورسوم حيوانات اضافة الى عدد من الاشرطة الكتابية ، والذي يهمنا من هذه الزخرفة مشهد الصيد الممثل على هذه التحفة الفريدة •

والمنظر المذكــور يمثل دائرتين من الدوائر التي تزين بدن الصندوق ، ففي الدائرة اليمنى نشاهد فارسا يعتلي صهوة فرسه وقد امسك بجارحين رفعهمـا الى اعلى والفرس تجري من اليمين الى اليسار (شكل ٨) في حين اتخذ فارس آخر احتل الدائره اليسرى بنفس موقعه ووضعه بالنسبة لحمل الجارحين ، الا ان الفرس جارية به من الشمال الى اليمين (شكل ٩) •

ولم يقتصر منظر الصيد بالباز والشاهين والصقر والعقاب على المواد السالفة الذكر ، بل صورها على مواد اخرى مثل النسيج ، ومن القطع التي يظهر عليها منظر الصيد بالجوارح قطعة نسيج من الكتان ذي الزخارف المطبوعة[٧٢] تعود الى القرن الثاني عشر وهي من مقتنيات متحف الفن الاسلامي بالقاهرة وتتألف زخرفة هذه القطعة من شريطين • العلوي يضم فرع نباتي فضلا عن رسم جارح باسط جناحيه وينقض على اوزه لفتت برأسها نحوه ؛ ورسم اخر لجارح ينقض على غزال في حركة بديعة ، اما الشريط السفلي ، فيضم زخارف من فروع نباتية فضلا عن رسم لجارح اخر ينقض على ارنب •

وقطعة ثالثة من النسيج[٧٣] ايضا (شكل ٩٠) يظهر فيها مشهد الصيد ، والقطعة المذكورة مصنوعة من الحرير في القرن الثاني عشر وقد رسم عليها صفوف من الصيادين في مواجهة بعضهم وقد امتطت صهوة جيادهم وحمل كل صياد على يده جارحا ،

وقد حظيت المخطوطات المصورة ببعض من الصور التي تمثل الصيد ، فهناك مخطوط[٧٤] هراري المحفوظة في المكتبة البودلية بلندن به صور عن الصيد ، ففي احدى صفحاته صورة تمثل الصيد بواسطة الطيور ، ففي هذه التصويرة نجد ان الفنان قد عبر عن منطقة الصيد بغابة أو بحقل والمنظر به مجموعة من الشجيرات الصغيرة بارتفاع واحد تقريبا وقد وزعت الشجيرات

بشكل زخرفي وبه مجموعة من الصيادين يتجهون من اليسار الى اليمين ، وفي مقدمة المنظر نشاهد اثنان من الغزلان تجرى بسرعة من الخوف والفزع امام جارحا ناشرا جناحية وهو ينقض على احدى الغزالين بعنف وقوة ويستطيع المرء أن يلاحظ ان الفنان كان دقيقا في معالجة الحيوانات من حيث معرفته بتفاصيل اجسامها وعضلاتها وقوة التعبير عن انفعالاتها •

وصور الصيد بالجوارح امتدت الى التحف المصنوعة من الخزف ، فاتخذها الخزاف مادة للزخرفة حيث ظهرت على مجموعة من التحف الخزفية ، نذكر منها على سبيل المثال صحن[٧٥] (شكل ١١) من الخزف ذي الزخارف المحفورة والمتعددة الالوان من القرن الخامس أو السادس الهجريين (الحادي عشر او الثاني عشر الميلاديين) محفوظ في متحف المتربوليتان وتمثل الزخرفة في هذا الصحن رسم جارح ينقض على نعامة في حركة تقوسية بديعة من جهة الخلف ويلاحظ ان قدمي الجارح قد لامس ظهر النعامة ومنقاره مثبت في عنقها من اسفل الرأس وتحت المنقار مباشرة •

وفي مجموعة والترهاوزر صحن[٧٦] آخر (شكل ١٢) من الخزف ذي البريق المعدني عليه رسم يشبه الى حد بعيد الرسم الذي شاهدناه في الصحن السابق ، حيث تمثل الصورة المذكورة جارح ينقض على طائر من الخلف ويستقر ايضا فوق ظهره بحيث يلامس اقدامه ظهر الطائر ، وقد اعمل منقاره في صدر الطائر في انحناءه بديعة وقد التصق رأس الطائر في صدر الجارح • ويطالعنا مشهد الصيد بالجوارح على قطعة اثرية اخرى تمثل صحنا من الخزف ذو البريق المعدني (شكل ١٣) من القرن الخامس والسادس الهجري (الحادي عشر او الثاني عشر الميلادي) في مجموعة كيرو ويمثل المشهد جارحا وفريسته من طيور البط وقد شغل الرسم سطح الاناء ، ونفذ بجمال وحيوية تدل على

مهارة الفنان في تصوير مثل هذه المشاهد ، ونشاهد الجارح هنا وقد فرش جناحيه بزهو وكبرياء ، بينما ثبت مخالبه في ظهر فريسته ، فاخضعها لسيطرته تأهبا للانقضاض عليها وعبثا تبحث هذه الفريسة التعسة عن مخرج لها[٧٧] والى جانب القطعة المذكورة كسرة اناء من الخزف المتعدد الالوان عليها رسم يمثل واحدا من النماذج العديدة لاسلوب الصيد بالجوارح في الفن العربي المبكر الذي مثل على العاجيات الاسبانية المشهورة من العصر الاموي والرسم المذكور يعرض لنا جارحا ينقض على غزال صغير اتجه اليها من الناحية الخلفية وقد بدا الجارح منكب عليها بجميع جوارحه والفريسة من تحته كالاسيرة وقد ادركها اليأس من النجاة[٧٨] • (شكل ١٤)

وفي نفس المجموعة السالفة الذكر كسرة اخرى من اناء خزفي (شكل ١٥) ذات رسوم تحت الدهان تعود الى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) عليها منظر مشابه لما هو ممثل في القطعة السالفة ، ويمثل الرسم طائرا على هيئة جارح قد فرش جناحيه وهو ينقض على بطة وقد سدد مخالبه في ظهرها وعمل منقاره في صدرها ورمى بثقله على ظهر فريسة التي بدأ عليها الذعر والفزع[٧٩] •

وبعد فقد ظهر لنا من خلال هذا البحث جملة امور على جانب كبير من الأهمية ، يأتي في مقدمتها كون العرب اساتذة وروادا في الصيد بواسطة الجوارح ، فقد اوجدوا لهذا الفن مناهج خاصة بتهذيب وتدريب الجوارح على الصيد حتى عد بعضها من مبتكراتهم ، وعنهم أخذها الاوربيون في العصور الوسطى •

يضاف الى ما تقدم ان لكل جارح طرديته وطريقته في الصيد ، ولم يكن الامر مجرد جارح ينقض على طائر أو حيوان كما يتصور البعض ، وانما كانت هناك قواعد واصول تتبع في الصيد وكان على الصياد التقيد بها والعمل بموجبها •

ومن استنتاجات البحث الاخرى ان الجارح لم يترك وحده في بعض الاحيان في عملية الصيد وانما كانت هناك عدد اخرى مساعدة كما هو الحال في آلة الطبل •

وقد مكنتنا دراسة الرسوم المصورة للجوارح والصيد بها من الاطلاع على معلومات ناطقة وصحيحة عززت الروايات التي استقيناها من اقوال المؤرخين القدامى •

وكذلك اوضحت لنا هذه الدراسة ان الصيد بالجوارح تراث اصيل عند العرب وان العراقيين القدماء قد عرفوا هذا الفن ومارسوه قبل غيرهم ، ولم يكن الساسانيون والبيزنطيون هم الذين أوجدوا هذا الفن كما ذهب الى ذلك بعض المؤرخين •

كل ذلك يؤكد ان العقلية العربية عقلية متفتحة وانهم كانوا على مستوى كبير من الدراية في هذا الميدان •

المسكوكات وثيقة معبرة عن الاحداث السياسية زمن الخليفة هارون الرشيد

الدكتور ناهض عبدالرزاق دفتر
كلية الآداب / جامعة بغداد

المسكوكة تلك الوثيقة المهمه التي تحمل تأريخها ومكان سكها معها ، وقد لعبت دورا كبيرا في توضيح العديد من الحقائق التي اغفلها المؤرخون وبخاصه السياسيه منها • فقد كانت المسكوكات احد عنصري مستلزمات الخلافة العباسية • فالعنصر الاول الخطبه التي كانت تذكر اسم الخليفه في اثناء صلاة الجمعة اضافة الى الامور العامة • والثاني هو السكه التي كانت المرآه التي تعكس ما يجري من احداث وصراعات على السلطة • وبالرغم مما تحملة المسكوكة بين طيات نصوصها من الشواهد المهمة غير ان المؤرخين العرب القدامى والمحدثين عزفوا عن الخوض في غمار هذا الرافد المهم للتأريخ ، الا من نتف ذكرتها كتبهم هنا وهناك • وربما يعود السبب في ذلك للصعوبات التي ترافق مثل هذا الحقل من الدراسه • منها صغر حجم المسكوكه واسلوب الخط والاسماء التي تظهر عليها او اماكن سكها غير المعروفه ـ وخاصة المدن المندرسة ـ اضافه الى صعوبة الوصول الى معرفة دار الضرب • لذلك نجد النقص الفاضح في مكتبتنا العربية لمثل هذا الموضوع اذا ما قورن ببقية كتب التراث الاخرى •

فقد وصلتنا من مدينة السلام عاصمة الخلافه العباسيه مئات الالاف من المسكوكات التي كانت تسك فيها سنويا ولكن للاسف لم تقف لحد الان على اية مخطوطه تكشف عن اسرار سك المسكوكات فيها او اساليب صناعتها •

غير ان بعض المصادر ـ وباقتضاب ـ تحدثت عن المسكوكات التي صدرت عن دور ضرب اخرى ومن فترات زمنيه متأخره بعض الشيء عن عصر الخليفة هارون الرشيد . ومن هذه المصادر ما يلي : ـ

١ ـ البلاذري ، فتوح البلدان (القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي) حيث ذكر عن اوزان الدراهم الساسانية والاموية[١] .

٢ ـ الماوردي ، الاحكام السلطانية ، (القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي) فقد ذكر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب بعض المعلومات[٢]

٣ ـ اسعد ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، (القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) في الفصل التاسع من هذا الكتاب ترد بعض المعلومات عن دار الضرب[٣] .

٤ ـ ابن خلدون ، المقدمه (القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي) ناقش بعض المصطلحات المتعلقه بصناعة المسكوكات مثل كلمة السكه والتي عرفها بانها قالب السك[٤] .

٥ ـ المقريزي ، شذور العقود في ذكر النقود . (القرن التاسع الهجري /الخامس عشر الميلادي فقد ذكر الاوزان للنقود العباسيه ، اضافه الى دراسه مسهبه عن النقود المصريه[٥] .

---

(١) احمد بن يحيى البلاذري ـ فتوح البلدان ـ طبعة برل ١٨٦٦ ص ٤٦٥ـ ٤٧٠ .

(٢) الماوردي ، الشافعي ابو الحسن علي بن محمد البغدادي الاحكام السلطانية القاهرة ١٣٨٦ـ١٩٦٦ ص ١٤٢ـ١٤٦ .

(٣) ابن مماتي ، اسعد قوانين الدواوين ، سوريال ١٩٤٣

(٤) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن جابر ، المقدمة القاهرة ١٣٤٨/ ١٩٢٩

(٥) المقريزي ، شذوذ العقود في ذكر النقود ـ اخذ عنه الكرملي في كتابه (النقود العربية وعلم النميات) القاهرة ١٩٣٩ .

احتوت هذه المصادر بعض المعلومات المتفرقه عن المسكوكات الاسلاميه • غير ان ثلاث مخطوطات ـ حققت مؤخرا • تضمنت معلومات مهمه وواسعه عن صناعة المسكوكات في كل من اليمن ومراكش ومصر وهي : ـ

١ ـ الهمداني ، الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء ، (القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي) وفيه وصف موسع لصناعه الدنانير والدراهم في دار الضرب بصنعاء عاصمة اليمن(٦) •

٢ ـ الحكيم ، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكه • (القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) فيه دراسه مهمه لصناعة المسكوكات في دار الضرب بمراكش(٧) •

٣ ـ ابن بعره ، كشف الاسرار العلميه بدار الضرب المصريه (القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي) يحتوي هذا المخطوط على وصف شامل لصناعة المسكوكات الاسلاميه بالقاهره خلال الفتره الايوبيه(٨) •

وعلى الرغم مما وفرته هذه المصادر من معلومات مهمه في صناعة المسكوكات الاسلاميه من دور ضرب خارج العراق وبعيدا عن عاصمتها مدينة السلام ابان حكم الرشيد ، لكن هذه الاقطار (اليمن ومراكش ومصر) كانت جزءا من الخلافة العباسية ، فمن الارجح ان تكون دار الضرب في مدينة السلام وماتعتمده من اساليب في صناعة السكه كانت مشابهة لما جاء وصفها في مدن الضرب الاخرى وهذا ماتوكده دراسات مسكوكات مدينة السلام عند مقارنتها بمسكوكات دور الضرب في كل من اليمن ومراكش ومصر •

---

(٦) الهمداني ابو محمد الحسن بن احمد الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء تحقيق كرستفر تول ابسلا / ١٩٦٨ •

(٧) الحكيم ، ابو الحسن بن يوسف ، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة مراكش

(٨) ابن بعرة ، منصور ، كشف الاسرار العلمية بدار الضرب المصرية تحقيق د. عبدالرحمن فهمي القاهرة ١٩٦٦

واستنادا إلى المسكوكات الاسلاميه المتوفره لدينا نستطيع ان نقدم عرضا للاحداث السياسية زمن الخليفة هارون الرشيد وبخاصة في السنوات السبع الاولى من حكمه (١٧٠ـ ١٧٦هـ/ ٧٨٦ـ٧٩٢م) فقد كان عام ١٧٠هـ /٧٨٦م مليئا بالاحداث السياسية . وكان الحكم خلاله مشتركا بين الخليفتين الهادي واخيه هارون الرشيد ، الا ان الخليفة الهادي جعل ولاية العهد لأبنه جعفر (وكان عمره انذاك خمس سنوات) بعد ان عزل اخيه هارون وقد سارع كبار قادة الجيش والشرطة ورجال الحاشية بالمبايعه وتأييده على فعلته .فجاءت المسكوكات من هذه الفترة الحرجه من تاريخ الخلافه العباسية لتعكس هذه الاحداث بدنانير ضربت بهذه المناسبه وهي تحمل اسم جعفر ـ ولي العهد الجديد ـ ونصوصها كما يلي .

مركز الوجه : لا اله الا	مركز الظهر محمد
الله وحده	رسول
لاشريك له	الله
الطوق : محمد رسول الله	جعفر
ارسله بالهدى ودين	الطوق : بسم الله ضرب هذا
الحق ليظهره على	الدينر سنة سبعين
الدين كله	ومئة(٩)

وعلينا ان نذكر هنا بخصوص هذه المسكوكه انها الاولى بين الدنانير الاسلاميه التي حملت اسم ولي العهد ، واعتمدت بشكل رئيسي كوسيله للاعلام لاشعار عامة الناس بالتغيرات السياسية والتي كانت بمدلول هذه المسكوكة عزل هارون من منصب ولاية العهد ونصب جعفرا بدله ، ولكن اعقب ذلك مباشرة وفاة الخليفة العباسي الهادي في ظروف غامضة ونصب هارون الرشيد خليفه في نفس الليلة التي توفي بها الهادي وكان ذلك في ١٥ ربيع الاول من

---

(٩) شكل رقم ١ هذا الدينار محفوظ في المتحف البريطاني / مسكوكات الهادي

سنة ١٧٠هـ •وتنعكس هذه الاحداث بسرعه على المسكوكات لتقوم بدورها السياسي والاعلامي ، فقد سك الخليفة الحديد هارون الرشيد وفي اوائل ايام حكمه من نفس العام ١٧٠هـ/٧٨٦م دنانير نقش عليها اسمه وعبارة أمير المؤمنين ونصوصها كالاتي : ـ

لا اله الا	محمد رسول الله
مركز الوجه : الله وحده	مركز الظهر : مما امر به عبدالله
لاشريك له	هرون اميرالمؤمنين
الطوق : محمد رسول الله ارسله	الطوق : بسم الله ضرب هذا الدينر
بالهدى ودين الحق ليظهره على	سنة سبعين ومئة(١٠)
الدين كله	

وهنا يجب ان نذكر بان هذا الدينار هو الاول في الدنانير الاسلاميه التي حملت اسم الخليفه ـ غير ان الدراهم الفضية كانت قد حملت اسم الخليفة منذ عام ١٥٨ هـ عندما نقش الخليفة المهدي اسمه عليها •

ان الغاية الرئيسية للخليفة هارون الرشيد من وضع اسمه ولقبه كأمير المؤمنين كان لغايتين الاولى سياسية لتأكيد سلطته كخليفة للمسلمين ، والثانية اعلاميه لاشعار الناس بان الرشيد هو الخليفه الشرعي وليس جعفر بن الهادي الذي نصبه اباه كوليا للعهد بنفس السنة ١٧٠هـ •

ومن خلال المصادر التاريخية عرفنا مدى العون الذي قدمه البرامكه الى هارون الرشيد وايصاله الى منصب الخلافه ، لذلك احتل يحيى البرمكي اعلى المناصب في الدولة واصبح اولاده الفضل وجعفر من اقرب المقربين للخليفه الرشيد وخاصة الاخير منهما ، فقد ذكر المقريزي عن جعفر البرمكي ما يلي : فلما صير هارون الرشيد السكك الى جعفر بن يحيى البرمكي كتب اسمه

---

(١٠) شكل رقم ٣ هذا الدينار محفوظ في متحف الآثار باسطنبول وهو ضمن مجموعة كنز خضر الياس المكتشف عام ١٨٩٦م في بغداد بجانب الكرخ والذي احتوى على ٣٦٩٢ دينارا ذهبيا • ونقل الى هناك خلال فترة الحكم العثماني للعراق •

بمدينة السلام وبالمحمديه من الري على الدنانير والدراهم .... وهارون الرشيد اول خليفة ترفع عن مباشره العيار بنفسه وكان الخلفاء من قبله يتولون النظر في عيار الدراهم والدنانير ، وكان هذا مما نوه باسم جعفر بن يحيى اذهو شيء لم يتشرف به احد قبله[11] .

يتبين من هذا النص بان الخلفاء قبل هارون الرشيد كانوا يشرفون على دور الضرب بانفسهم وان الرشيد تنازل الى جعفر البرمكي عن هذا الحق فظهر اسم جعفر على الدنانير والدراهم ولم يظهر اسما لغير الخليفة قبل هذا العهد على رأى المقريزي وتكشف المسكوكات حقيقة تناقض ماجاء به المقريزي فلم يكن جعفر البرمكي اول من ظهر اسمه على المسكوكات منذ سنة (١٧٦هـ/٧٩٢م وحتى سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م) فقد ظهرت اسماء اخرى على الدنانير قبل جعفر وهذه الاسماء هي علي في سنة ١٧٠هـ/٧٨٦[12] ، وموسى في السنوات ١٧١هـ/٧٨٧م و١٧٢هـ/٧٨٨م[13] وعمر للسنوات (١٧٢ و ١٧٣ و ١٧٤ هـ/٧٨٨ و ٧٨٩ و ٧٩٠م)[14] وداود في سنة ١٧٤/هـ ٧٩٠م[15] ، وموسى مره ثانية للسنوات ١٧٤ و١٧٥هـ[16] وابراهيم سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م[17] واخيرا جعفر للسنوات ١٧٦ ولغاية ١٨٦هـ حيث قتل بداية عام ١٨٧هـ ولم يظهر اسمه على مسكوكات مدينة السلام بعد ذلك التاريخ . وكانت الفكره السائده عند الباحثين بان هذه الدنانير سكت في مصر وليس في مدينة السلام — العاصمه — لان الاسماء الوارده عليها لها تشابهه باسماء امراء مصر في تلك الفترة[18] .

---

(١١) المقريزي ، الكرملي ، النقود العربية وعلم النميات القاهرة ١٩٣٩ ص ٤٧-٤٨

(١٢) شكل رقم ٣

(١٣) شكل رقم ٤

(١٤) شكل رقم ٥

(١٥) شكل رقم ٦

(١٦) شكل رقم ٧

(١٧) شكل رقم ٨

(١٨) ابن تغربردى ، النجوم الزاهرة جـ٢ القاهرة ١٩٣٠ ص ٦١ — ٨٥

الا ان الحقائق التالية تدحض تلك الفكرة وتوكد بان هذه الدنانير كانت قد سكت في مدينة السلام عاصمة العالم الاسلامي انذاك •

اولا ـ كان الاشراف المباشر لصناعة المسكوكات وخاصة الدنانير للخليفه وحده وكانت هذه الدنانير تسك في المكان الذي يقيم فيه الخليفه ، فيذكر الطبري[١٩] ان الخليفه العباسي المهدي انتقل سنة ١٦٦هـ من عاصمته مدينة السلام الى قصر السلام في منطقه عيساباذ احدى ضواحي مدينة السلام وقد اختلف العديد من المؤرخين في تحديد موقعها ـ وقد سك فيها دراهم ودنانير • وبالفعل فان دراهم المهدي خلال السنوات ١٦٧ و ١٦٨ و ١٦٩هـ تحمل اسم قصر السلام كمدينة الضرب وليس مدينة السلام • كما ان دنانير تلك الفتره تختلف بالاسلوب عن الدنانير التي سبقتها وهذا مايوكد الاشراف التام للخليفه على ضرب المسكوكات • وان الدينار الذي يحمل اسم جعفر المضروب سنة ١٧٠هـ والدينار الذي يحمل اسم هرون امير المؤمنين وان كانا لايحملان اسم مدينة الضرب ، لان الدنانير الاسلامية لم تكن تحمل اسم مدينة السك حتى حلول سنة ١٩٨ هـ وهي السنة الاولى من حكم الخليفه العباسي المامون حيث توسعت الدولة الاسلامية فسمح بسك الدنانير خارج العاصمة ـ مدينة السلام • فظهر بعضها تحمل عبارة « ضرب بمصر » او « بالمغرب » او « بالمشرق » •

ثانيا ـ السبب الاخر الذي يدعو للاعتقاد بان تلك الدنانير كانت مضروبة بمدينة السلام وليس بمصر هو ما ذكره المؤرخ المقريزي والذي كان على اطلاع كامل بمسكوكات مصر ، حيث يشير الى أن اسم جعفر ظهر على المسكوكات حين تنازل الرشيد عن حقه بالاشراف على عيار الدنانير والدراهم في مدينة السلام والمحمدية ولم يذكر مصر ، وهذا يزيد في إبعاد مصر من كونها المكان الذي ضربت فيه هذه الدنانير •

---

(١٩) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك جـ٣ ص ٥٠٢ طبعة برل ١٨٧٩-١٨٨١

ثالثا ــ هناك العديد مــن امراء مصــر لــم تظر اســماؤهم على الدنــانير امثال مسيلمة بن يحيى الذي تولى الاماره في مصر سنة ١٧٣/٧٨٩م ومحمد بن زهير الأزدي والذي تولى الاماره هناك من ٥ شعبان ١٧٣هـ/٧٨٩م وحتى ١٤ محرم ١٧٤هـ/٧٨٠م ، وعبدالله بن المسيب بن زهير بن جميل الضبي من ١٩ رمضان ١٧٦هـ/٧٩٢م وحتى شهر رجب ١٧٧هـ/٧٩٣م • فاذا كان مــن مستلزمات الاماره ذكر الاسم على المسكوكات فلمــاذا اهملت اســماء هولاء الامراء •

رابعاً ــ بالنسبه لبعض الاسماء ، فقد ظهرت في اكثر من مكان كما هي الحال مع داود فقد كان داود بن يزيد اميرا على مصر عام ١٧٤هـ وظهر اسم داود على الدنانير الذهبيه بنفس السنة ، غير ان الاســم داود ظهــر على الدراهــم الفضيه المضروبه بالمحمديه في ايران سنة ١٧٤هـ ايضــا • وظهر اسم جعفر على الدنانير الذهبية وكذلك على الدراهم المضروبه بمدينة السلام سنة ١٧٦ هـ ، وقد ظهر اســم (جعفر بن يحيى) على الــدراهم المضروبه بالمحمديــه بنفس السنة[٢٠] وليس عندنا اي دليل تاريخي يؤكد ان داود بــن يزيــد او جعفر البرمكي كانت لهم اية سلطه على المحمدية في ذلك الوقت •

خامساً ــ يذكر المؤرخ ابن الاثير[٢١] ان جعفر البرمكي لم يذهب الى مصرعندتوليتهعليها ، بل ارسل نائباعنه وهو عمر ابن مهران في ٢٨صفر من سنة ١٧٦هـ وحتى ١٥ جمادى الاول من نفس العام في حين نجد ان اسم عمر قد ظهر على الدنانير الذهبية للسنوات (١٧٢ و ١٧٣ و ١٧٤هـ) ولم يكن عمر خلال تلك السنوات في مصر • ولم يظهر اسم عمر على الدنانير المضروبه عام ١٧٦هـ والتي كان فيها فعلا موجودا في مصر •

---

(٢٠) Miles, Numismatic History of Rayy. New York 1938 P. 90.

(٢١) ابن الاثير الكامل في التاريخ جـ٦ ليدن ١٨٦٥ ص ٨٥

لذلك نرجح ان تكون الاسماء الوارد ذكرها على الدنانير الذهبيه لاشخاص كانت لهم وظائف ادارية في دار الضرب بمدينة السلام آهلتهم لأن تضعوا اسمائهم عليها •

يتبين مما اشرنا اليه اعلاه ما للمسكوكه من اهميه كبيره كوثيقة تاريخية تتوفر عندها شروط الزمان والمكان والحدث • ولكن نشير في نفس الوقت الى تبعثر مجاميع المسكوكات في المتاحف الخاصة والعامة في انحاء العالم ، وهي نقطه جديره بالانتباه والتوقف عندها •

تعرضت المسكوكه العربية الاسلاميه باعتبار ماده صنعها من المعادن النفيسه الى مخاطر كثيره • فقد سرقت كنوز من المسكوكات من المدن والحواضر الاسلامية ، ولاننسى في هذا الخصوص الاشارة الى دور الفايكنك في عمليات النهب الواسعه التي تعرضت لها الكثير من المدن الاسلامية الساحليه ، والتي كان من بين المواد التي غنمها الفايكنك كميات كبيره من المسكوكات ، كذلك لعب تجار الاثار والرحاله والسياح وقناصل الدول الاوربية دورا لايقل خطوره عن الفايكنك في نقل وتهريب الاف القطع من المسكوكات العربيه الاسلاميه • وكان نصيب المسكوكات في عمليه شراء ونقل وتهريب الاثار كبيرا بسبب صغر حجمها وسهولة تداولها ونقلها ، يقابل ذلك جهل اهل المدن باهميتها التاريخية والحضارية والفنية ، وانما كان النظر اليها ينطلق من زاوية قيمتها المعدنية فحسب ، مما ساعد على انتقال المزيد من المسكوكات الاسلاميه الى العالم الغربي •

وبالاضافه الى ذلك ، فالمسكوكه العربية الاسلاميه انتقلت بفعل النشاط التجاري الواسع للعرب المسلمين الى مختلف مناطق المعموره • حيث كشفت اعمال التنقيبات في الجزر الاسكندنافيه عن كنوز واسعه من هذه المسكوكات

يصل عددها الى ١٣٤ كنزا ، وكان هذامن مكتشفات القرن الماضي فقط ، حيث اعقبه أكتشاف مجموعه اخرى خلال القرن الحالي • ان هذه المجاميع الكبيره من المسكوكات العربيه والاسلاميه والتي تتوزع في معظم دول العالم سواء كانت في متاحفها او ضمن المجموعات الخاصه لبعض الافراد ، تحتاج الى عنايه خاصه من قبل الباحثين ، وبخاصه العرب منهم لانها تمس مباشره تاريخهم وحضارتهم • كما يجدر التنويه بأن اعدادا كبيره من هذه المسكوكات لانعرف عنها سوى ارقام مجاميعها • وهذا يقتضي ـ في اعتقادي ـ السعي بشتى السبل الممكنة لتصويرها على غرار تصوير المخطوطات لتهيئتها امام الدارسين في القطر علما بان عملية تصويرها تكلف اقل بكثير من تصوير المخطوطات وما اثبته في نهاية هذا المقال انما هي دعوة مخلصة للاهتمام بهـذا الجانب المهمل من تراثنا العربي الاصيل •

ابن عساكر في بغـداد : أخذ وعطاء

الدكتور بشار عواد معروف
رئيس قسم التاريخ
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

رحل الحافظ ابن عساكر الى بغداد رحلتين : أولاهما سنة ٥٢٠ هـ وهي الرحلة الرئيسة التي استمرت قرابة الخمس سنين ، وثانيتهما سنة ٥٣٣ هـ عند انتهاء رحلته الى مشرق العالم الاسلامي[١] .

وكانت الدولة العباسية خلال هذه الفترة قد اخذت تستفيق وتحاول اعادة مجدها وبسط سلطانها الذي لم يبق السلاجقة منه ما يذكر ، وظهرت بوادر تلك اليقظة بظهور شخصية عباسية عظيسة هي شخصية الخليفة المسترشد بالله ٥١٢ـ٥٢٩هـ[٢] . وكان المسترشد يوم ولي الخلافة في عز قوته : شابا لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره ، فحاول جاهدا الحد من نفوذ المتغلبين على الخلافة كبني مزيد وغيرهم ، وباشر الحروب بنفسه ، ثم أخذ يتطلع الى شيء أعظم من ذلك : هو ابعاد النفوذ السلجوقي عن الخلافة العباسية ، ولم يكن ذلك بالامر اليسير والسلاجقة في عز قوتهم وسلاطينهم الاقوياء مثل السلطان محمود وولده مسعود يسيطرون على دفة الامور . وعلى الرغم من أن هذا الخليفة العظيم قتل سنة ٥٢٩ نتيجة لمؤامرة بين

---

(١) ابن نقطة : التقييد ، الورقة ١٧٧ (نسخة الازهر) ؛ وابن الدبيثي ، ذيل تاريخ مدينة السلام ، الورقة ١٣٦ (كيمبرج) ؛ والذهبي : تاريخ الاسلام الورقة ٢٠ (احمد الثالث ٢٩١٧/١١) وغيرها .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ١٩٧/٩ فما بعد ؛ وابن الاثير : الكامل (حوادث ٥١٢ فما بعد) وابن الكازروني : مختصر التاريخ ٢١٩ فما بعد .

الباطنية والسلاجقة فانه كان ملائعيا فتح الباب على مصراعيه لمن جاء بعده للوقوف بوجه النفوذ السلجوقي ، قال مؤرخ الاسلام شمس الدين الذهبي: « كان ذا همة عالية وشهامة واقدام ورأى وهيبة شديدة ، ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب ، وأحيا رمم الخلافة ونشر عظامها وشيّد اركان الشريعة وطرز أكمامها ، وباشر الحروب بنفسه ، وخرج عدة نوب الى الحلة والموصل وطريق خراسان »[٣] • ومن اجل كل ذلك كان المسترشد بالله يتقرب الى شعبه ويتمسك بدينه فسمع الحديث من أبي القاسم ابن بيان وعبدالوهاب بن الله السيبي وغيرهما ، بل قرأ عليه المحدث محمد بن عمر بن مكي الاهوازي أجزاء الحسن بن عرفة بسماعه من ابن بيان ، فكان ابن الاهوازى يقرأ عليه والخليفة سائر بقرب المدائن لقتال دبيس بن صدقة المتغلب على الحلة[٤] • وحذا ابنه الراشد حذوه في الحرب ، فحاربه السلطان وخلعه[٥] • وولي المقتفي لامر الله سنة ٥٣٠ هـ حيث لزم الصمت مدة حتى اذا وجد الفرصة مواتية بعد ذلك قال : « لاصبر على الضيم بعد اليوم » وطرد الشحنة (وكيل السلطان) واستولى على املاكه وأملاك المؤيدين للسلاجقة ، وباشر الحروب بنفسه فقاد الجيوش وملك العراق من اقصى الكوفة الى حلوان ومن تكريت الى عبادان ، وعاونه في ذلك وزيره العالم الجليل ابن هبيرة[٦] •

---

(٣) تاريخ الاسلام ، الورقة ١٩٠ (احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) .

(٤) ابن الدبيثي : ذيل م٢ (بتحقيقنا) • وابن الجوزي : المنتظم ٢٤٢/٩ ، وسبطه ٦٧/٨ والذهبي : المختصر المحتاج ٨٢/١ .

(٥) ابن الجوزي : المنتظم ٥٤/١٠ فما بعد ، وابن الكازروني ٢٢٤ .

(٦) ابن الجوزي : المنتظم ٦٠/١٠ فما بعد ، والبنداري : توريخ آل سلجوق ٢٣٤ • وابن الاثير (حوادث ٥٣٠ فما بعد) وانظر الشاعر (الشعراء) في العراق ٤٣/١ .

وكانت بغداد في مطلع القرن السادس من اعظم المراكز العلمية العربية الاسلامية ولا سيما في العلوم الدينية ، كالحديث والفقه وتوابعها كالتاريخ والادب واللغة ، ولا ادل على مكانتها من ذلك العـــدد الضخم من متعيني الرواة الذين عاشوا فيها أو قصدوها من شتى بقاع العالم الاسلامي ، والذي يظهر من ضخامة الذيل الذي وضعه أبو سعد ابن السمعاني على تاريخ الخطيب، فعلى الرغم من أن الفترة الزمانية التي تناولها الكتاب لا تزيد على القرن الواحد ٤٦٣ ـ ٥٦٢ فانه كان بحجم تاريخ الخطيب تقريباً[٧] .

وبدأت المدارس تنتشر في هذه المدينة منذ منتصف القـرن الخامس الهجري انتشارا كبيرا ، متوجة بانشاء المدرسة النظامية سنة ٤٥٩ هـ والتي اصبحت منارا للعلم ومقصدا لطلبته[٨] .

ولم تكن بغداد منطقة جذب للعلماء بسبب مكانتها العلمية حسب ، لكنها وهي دار العلم آنذاك ، كانت تقع على طريق الحجـاج القادمـين من مشرق العالم الاسلامي الزاخر آنذاك بطائفة عظيمة من مشاهير العلماء ، فكان هؤلاء ينتهزون هذه الفرصة عند المرور ببغداد للسماع أو التحديث بهـــا فيوفر كل ذلك على الطالب القادم اليها تعبا في لقاء هؤلاء الشيوخ[٩] .

---

(٧) انظر كتابنا : تواريخ بغداد التراجمية (بغداد ١٩٧٤) ، ومقدمتنا لتاريخ ابن الدبيثي ١/١٤ ، وراجع السخاوي في الاعلان ، ص ٦٢٢ .

(٨) انظر التفاصيل في كتاب المرحوم الدكتور ناجي معروف : علماء النظاميات (بغداد ١٩٧٣)

(٩) سمع ابن عساكر على جملة من علماء المشرق ببغداد حينما قدموا اليها عند الحج . انظر مثلا : معجم شيوخه ، الورقة ٨٧ ، ١٠٢ ، ١٢٤ ، ١٤١ ، ١٥٠ ... الخ . وراجع تاريخ الاسلام للذهبي (الورقة ١٥٢ ، ١٧٩ (ايا صوفيا ٣٠١٠) .

وقد اسهم المحدثون المسلمون خلال تلك العصور في الحفاظ على الوحدة الثقافية بين ارجاء الوطن العربي والعالم الاسلامي برحلاتهم الكثيرة الطويلة وتنقلهم بين مدنه وأقاليمه ، ونشر راية اللغة العربية في ارجائه . وكان المسلمون يعتبرون العالم الاسلامي كله موطنا ودارا لهم ، وبذلك توطدت الصلات بين اجزائه بالرغم من اختلاف حكامه[10] .

وكانت العلاقات الثقافية بين دمشق وبغداد قائمة على قدم وساق منذ أقدم العصور ، لكنها توطدت بشكل أكبر خلال هذه الفترة ، فقد رحل عالم بغداد ومؤرخها الخطيب البغدادي مثلا الى دمشق غير مرة ومكث فيها فترة طويلة لم يسكنها في مدينة اخرى سوى بغداد ، وكان يعقد مجلسه في الجامع الاموي بدمشق يحدث بمصنفاته ومصنفات غيره رغم سيطرة الفاطميين عليها وعدم ارتياحهم من نشاطه العلمي[11] .

وكثيرا ما كان الدماشقة يرحلون الى بغداد ، بل ويستوطنها بعضهم ، فالحافظ أبو القاسم ابن السمرقندي ولد بدمشق سنة ٤٥٤ هـ وسمع بها ثم رحل به وبأخيه أبوهما المقرىء أبو بكر أحمد في حدود سنة ٤٦٩هـ وسكنوها، واصبح ابن السمرقندي بعد ذلك من أعاظم علماء بغداد في عصره الى حين وفاته سنة ٥٣٦هـ[12] . وقدم أبو عبدالله الحسين بن الحسن المقدسي الحنفي المقرىء من الشام الى بغداد وهو في السابعة عشر من عمره سنة ٤٧٠ هـ فاستوطنها وتفقه بها وولي أمامة مشهد أبي حنيفة بها[13] :

---

(١٠) انظر بحثنا : اثر دراسة الحديث في تطور الفكر العربي (بغداد ١٩٧٩)

(١١) انظر تفاصيل رحلات الخطيب الى دمشق في كتاب المرحوم يوسف العش الخطيب البغدادي ٣٨–٣٩ ، والعمري : موارد الخطيب ٤٣–٤٤ وراجع تاريخ الخطيب ٤٠٣/٩ ، ٤٤٧/١٤ ، والذهبي : تذكرة ١١٣٨ وغيرها .

(١٢) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٤١–٢٤٢ (أياصوفيا ٣٠١٠ ، السبكي :طبقات الشافعية ٤٦/٧ ، وابن كثير : البداية ٢١٨/١٢ .

(١٣) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٧١ –٢٧٢ (اياصوفيا ٣٠١٠ والعيني: عقد الجمان ١٦/الورقة ١٤٧ .

وكانت علاقة عائلة الحافظ أبي القاسم ببغداد قوية جداً ، فقد رحل اليها جده لامه القاضي أبو المفضل يحيى بن علي بن عبدالعزيز القرشي الأموي (٤٤٣ - ٥٣٤هـ) ، وسمع بها من عبدالله بن طاهر التميمي الفقيه وغيره ، وتفقه بها على الفقيه أبي بكر الشاشي ، كما أنه مر بها عند ذهابه الى الحج سنة ٥١٠هـ[١٤] ، ورحل اليها خالاه ، بل ان خاله زين القضاة أبا المكارم سلطان بن يحيى (ت ٥٣٠) صلى التراويح بالنظامية ، ووعظ بها، وخلع عليه الخليفة هناك[١٥] .

ورحل أخوه الصائن هبةالله بن الحسن (٤٨٨-٥٦٣هـ) الى بغداد سنة ٥١٠هـ[١٦] ، وحج سنة ٥١١هـ ، ورجع اليها وبقي فيها حتى سنة ٥١٤هـ[١٧] .

وكانت رحلة الحافظ أبي القاسم مع العلم وطلبه قد بدأت منذ طفولته، حيث تلقن القرآن الكريم[١٨] ، وأحضر مجالس السماع ، واستجاز له اهله كبار العلماء ابان طفولته ، ثم اخذ هو يسمع بنفسه . والظاهر أنه كان يتشوق الى الرحلة الى البلدان الاخرى ولا سيما بغداد ، لكن اهله ، كما يبدو ، لم يمكنوه من ذلك في أول الامر ، فلما بلغ الحادية والعشرين من عمره سمحت له أمه بالسفر الى بغداد ، لكنها اشترطت عليه الا يرحل الى مشرق العالم

---

(١٤) انظر سبط ابن الجوزي ١٧٦/٨ ، والذهبي في تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٣٣ (ايا صوفيا ٣٠١٠) ، والعبر ٩٣/٤ ، والعيني : عقد الجمان ١٦ /الورقة ١١٩ .

(١٥) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٩٤-١٩٥ (اياصوفيا ٣٠١٠) ، والعبر ٨٢/٤ ، وابن العماد في الشذرات ٩٥/٤ .

(١٦) تحرفت في وفيات ابن خلكان الى : ٥٢٠هـ .

(١٧) ابن خلكان : وفيات ٣١١/٣ ط . احسان عباس ، والذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٩٢ (أحمد الثالث ٢٩١٧/١٣) ، وابن كثير ٢٩٤/١ ، والاسنوي في طبقات الشافعية ٢١٥/٢-٢١٦ .

(١٨) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٦٦ (اياصوفيا ٣٠١٠) .

الاسلامي[١٩] . ولم يكن الحافظ ابنا عاقا يخالف ارادة امه لا سيما أن آداب طالب العلم تقتضي استئذان الابوين في الرحلة[٢٠] ، ووجوب طاعتهما وبرهما وترك الرحلة مع كراهتهما وسخطهما[٢١] .

وكان الحافظ ـ رحمه الله ـ في اشد الشوق الى الرحلة الى بغداد ، فقد حكى زين الامناء ابن عساكر لعمر بن الحاجب أن أبا القاسم لما عزم على الرحلة اشترى جملا وتركه بالخان فلما رحل القفل تجهز وخرج فوجد الجمل قد مات ، فقال له الجماعة الذين خرجوا لوداعه : ارجع فما هذا فأل مبارك ، وفندوا عزمه ، فذكر لهم أن مثل هذا لا يثني عزمه ، وانه لابد من الرحلة حتى مشيا على قدميه ، ثم حمل خرجه واكترى من الركب بعيرا[٢٢] .

ومما لا شك فيه أنه وصل بغداد قبل شهر رجب من سنة ٥٢٠ هـ وهو الشهر الذي توفيت فيه شيختة البغدادية فاطمة بنت عبدالقادر ابن السماك، وقد ذكر الذهبي انها اقدم شيوخه ببغداد وفاة[٢٣] . واذا استثنينا ذهابه الى الحج سنة ٥٢١هـ وسماعه هناك[٢٤] ورجوعه الى دمشق لفترة[٢٥] ، فانه بقي ببغداد حتى سنة ٥٢٥ هـ . ونحن نعلم أيضا أنه كان بدمشق في شوال

---

(١٩) نفسه ، الورقة ٤٢ (أحمد الثالث ١٤/٢٩١٧) .

(٢٠) الخطيب البغدادي : الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع ، الورقة ١٧٠ (نسخة مكتبة البلدية بالاسكندرية رقم ٣٧١١ج .

(٢١) نفسه ، الورقة ١٧١ـ١٧٥ .

(٢٢) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٢ (احمد الثالث ١٤/١٩١٧) .

(٢٣) نفسه ، الورقة ١٣٩ (اياصوفيا ٣٠١٠) .

(٢٤) نفسه ، الورقة ٤٠ (أحمد الثالث ١٤/٢٩١٧) ، والورقة ١٧٢ (ايا صوفيا ٣٠١٠) .

(٢٥) ابن خلكان : وفيات ٣٠٩/٣ .

سنة ٥٢٥هـ وهو الشهر الذي توفي فيه شيخه أبو علي الحسن بن سلمان[٢٦] النهرواني مدرس النظامية[٢٧] فقال في كتاب (تبيين كذب المفترى) : فورد عليَّ بعد عودي من بغداد كتاب الشريف أبي المعمر المبارك بن احمد بن عبدالعزيز الانصارى فذكر انه توفي في يوم الاثنين الخامس من شوال سنة خمس وعشرين وخمس مئة[٢٨] .

أما الرحلة الثانية فكانت رحلة قصيرة من ضمن رحلته العامسة الى المشرق التي ابتداها سنة ٥٢٩ هـ فتوقف ببغداد سنة ٥٣٣ هـ وسمع على شيوخها ايضا ، وحدث بها ، ثم عاد الى دمشق ليبدأ نشاطه العظيم في عطاء علمي غزير هادف لم ينقطع طيلة حياته .

ويبدو أن أبا القاسم الدمشقي لم يرحل غير هاتين الرحلتين الكبيرتين ، ودلالة ذلك أنه حينما عاد الى دمشق سنة ٥٣٣ هـ كان يأمل أن تصل بعض نسخ سماعاته من رفيقه أبي علي ابن الوزير ، وحينما تأخر وصول النسخ ولم يصل أحد من رفاقه كان يقول : « فلابد من الرحلة ثالثا » ثم وصلت اليه وفرح بها ولم يرحل[٢٩] .

وهكذا كانت رحلته الاولى وهي اطول رحلاته مخصصة لعاصمة الثقافة آنذاك بغداد ، أما الثانية فكانت غايتها الرئيسة مشرق العالم الاسلامي ، لكن بغداد لم تغب عن نفسه فعرج عليها بعد انتهاء رحلته المشرقية .

---

(٢٦) في تبيين كذب المفتري (٣١٨) : « سليمان » محرف .

(٢٧) ابن الجوزي : المنتظم ٢٢/١٠ ، والسبكي : طبقات ٦٣/٧ وابن الاثير في الكامل ٢٥٦/١٠ ، والذهبي في تاريخ الاسلام ، الورقة ١٦٨ ايا صوفيا ٣٠١٠ والعيني ١٧/الورقة ٣٤ — ٣٥ .

(٢٨) التبيين ، ص ٣٢٠ .

(٢٩) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٠ احمد الثالث ١٢/٢٩١٧ ، ياقوت : ارشاد ١٤٠/٥ ، السبكي ٢١٧/٧ .

وحينما وصل أبو القاسم الى بغداد واظب على حضور الدروس بالمدرسة النظامية وكان شيخه مدرس النظامية الحسن بن سلمان بن عبدالله ابن الفتى النهرواني الاصبهاني ، نزيل بغداد . وقد ولي تدريس النظامية في اول رحلة ابن عساكر الى بغداد وبقي مدرسا بها الى حين وفاته في شوال سنة ٥٢٥ هـ . وكان ابن عساكر من المعجبين به ، قال : « ولي تدريس المدرسة النظاميــة ببغداد اذ كنت بها ، وكان ممن يملأ العين جمالا والأذن بيانا ويربي عــلى اقرانه في النظر لانه كان أفصحهم لسانا »[٣٠] .

ودرس الخلاف ببغداد على الشيخ ابي سعيد اسماعيل بن احمد بـن عبدالملك النيسابوري (٤٥١ ـ ٥٣٢هـ)[٣١] وكان شيخا ذا رأى وعقل وتدبير وفضل وافر[٣٢] ، قال ابن عساكر : « كان اماما في الاصول والفقه حسن النظر مقدما في التذكير ... لقيته ببغداد سنة احدى وعشرين وخمس مئـة وسمعت منه »[٣٣] .

الا أن عناية أبي القاسم الدمشقي انصبت ببغداد ، وبغيرها فيما بعد ، على سماع الحديث ، فانطلق فيه حتى طغى على كل تفكيره ، واستغرق كل حياته بعد ذلك ، فسمع ما لا يحصى كثرة من الكتب والاجزاء ، ولقي ببغداد مئات عديدة من الشيوخ والشيخات ، يدل على ذلك معجم شيوخه ، كما تدل عليه تآليفه ، وأصيب بالشره في سماع الحديث وقراءته حتى كان يسمع من أناس قد لا يرضى عنهم ، فقد سمع مثلا من أبي المعالي ثعلب بن جعفر بـن احمد السراج[٣٤] المتوفى سنة ٥٢٤هـ وهـو « عامي لا يدري شيئا انمـا

---

(٣٠) تبيين كذب المفتري ٣١٩ ، وانظر الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٦٨
(٣١) ياقوت : ارشاد ٥/١٤٠ ، والذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٠ (احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) .
(٣٢) هذا قول السمعاني كما نقله السبكي ٧/٤٥ .
(٣٣) ابن عساكر : تبيين ٣٢٥ـ٣٢٦ .
(٣٤) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ٣٧ .

سمعه أبوه بدمشق ... وعاد به الى بغداد »[٣٥] وسمع من أبي الاعز قراتكين ابن الاسعد بن مذكور التركي البغدادي الازجي[٣٦] المتوفى سنة ٥٢٤هـ . وقد سئل عنه فقال فيه : « ما كان يعرف شيئا »[٣٧] ، وسمع عبيدالله بن محمد البيهقي الخسروجردي[٣٨] المتوفى سنة ٥٢٣هـ ، وقال ابن السمعاني : سألت عنه أبا القاسم الدمشقي ، فقال : ما كان يعرف شيئا[٣٩] وسمع من أبي السعود أحمد بن علي بن محمد ابن المجلي[٤٠] المتوفى سنة ٥٢٥هـ (ولم يكن يعرف شيئا من الحديث ، وكان يعظ ويذكر بجامع القصر)[٤١] ، وروى عن عبدالله بن محمد بن نجا ابن شاتيل المراتبي الدباس[٤٢] المتوفى سنة ٥٢٥هـ أيضا « وكان لا يعرف شيئا »[٤٣] قال عن شيخه أبى عمرو عثمان بن احمد بن عبيدالله بن دحروج البغدادي النصري[٤٤] المتوفى سنة ٥٢٧هـ : «ما كان يفهم شيئا »[٤٥] ، وقال عن شيخه أبي منصور احمد بن محمد بن احمد بن السلال الوراق الناسخ المتوفى سنة ٥٢٨ هـ وقد روى عنه في معجم شيوخه[٤٦] : « كان بئس الشيخ قليل الصلاة »[٤٧] وهلم جرا .

---

(٣٥) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٦ (اياصوفيا ٣٠١٠) .
(٣٦) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ١٦٦ .
(٣٧) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٩ (اياصوفيا ٣٠١٠) .
(٣٨) معجم الشيوخ ، الورقة ٩٧ .
(٣٩) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٢ من النسخة السابقة .
(٤٠) معجم الشيوخ ، الورقة ١١ .
(٤١) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٦٧ من نسخة اياصوفيا ٣٠١٠ .
(٤٢) معجم الشيوخ ، الورقة ٩٤ .
(٤٣) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٠ من النسخة اعلاه .
(٤٤) معجم الشيوخ ، الورقة ١٣٥ .
(٤٥) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٩ من النسخة اعلاه
(٤٦) معجم الشيوخ ، الورقة ١٣ .
(٤٧) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٨٢ من مجلد ايا صوفيا المذكور .

ان عدد الشيوخ الذين اخذ عنهم أبو القاسم ببغداد يفوق عددهم في أية مدينة اخرى يدل على ذلك معجم شيوخه حيث نجد فيه مئات عديدة ، لكنه اكثر عن بعضهم نظرا لمكانتهم العلمية وما حصلوا عليه من اسناد عال في الرواية ، قال رفيقه المحدث أبو المواهب الحسن بن هبة الله ابن صصري الربعي البلدي الاصل الدمشقي الدار والوفاة المتوفى سنة ٥٨٦هـ[٤٨] : أما انا فكنت اذاكره في خلواته عن الحفاظ الذين لقيهم فقال : أما ببغداد فأبو عامر العبدري »[٤٩] . وكان أبو عامر بن سعدون بن مرجى القرشي العبدرى الميورقي نزيل بغداد المتوفى سنة ٥٢٤ هـ أحد الحفاظ المذكورين والعلماء المبرزين ، ومن كبار الفقهاء الظاهرية قال أبو القاسم : « كان فقيها على مذهب داود ، وكان احفظ شيخ لقيته »[٥٠] .

وقد أدرك الحافظ ابن عساكر ببغداد مسند العراق العظيم أبا القاسم هبةالله بن محمد ابن الحصين الشيباني الهمذاني الاصل البغدادي (٤٣٢ـ ٥٢٥ هـ) ، وكان من الشيوخ الثقات الواسعي الرواية ، وقد تفرد برواية مسند الامام احمد ، واحاديث ابي بكر الشافعي واليشكريات[٥١] .

---

(٤٨) وفي سماعاته القديمة كان يسمى « نصر الله » أنظر : ابن الدبيثي : الذيل الورقة ٢٠ (باريس ٥٩٢١) ، والمنذري : التكملة ١/٢٦٤ (بتحقيقنا والذهبي : سير اعلام النبلاء ١٣/الورقة ٦١ وغيرها .

(٤٩) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٤١ (احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) ، والسبكي في الطبقات ٧/٢٢١ .

(٥٠) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٩ـ ١٦٠ .

(٥١) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ٢٣٧ ، ابن الجوزي ، المنتظم ١٠/ ٥٢٤ وابن الاثير ١٠/٢٥٦ ، وابن كثير ١٢/٢٠٣ ، والذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٧٣ (ايا صوفيا ٣٩١٠) ، والعيني ١٧/الورقة ٣٥ .

وسمع بها من أبي العز احمد بن عبيدالله ابن كادش العكبري البغدادي (٤٣٦-٥٢٦هـ)، وكان آخر الرواة عن أقضى القضاة أبي الحسن الماوردي[٥٢]، ومن أبي الحسين محمد بن محمد بن الحسين ابن الفراء البغدادي الحنبلي المقتول سنة ٥٢٦هـ صاحب طبقات الحنابلة[٥٣] .

واخذ الحافظ عن أبي الحسن علي بن عبيدالله ابن الزاغواني (٤٥٥ - ٥٢٧ هـ) شيخ الحنابلة ببغداد ، وكان اماما فقيها ، متبحرا في الاصول والفروع ، متفننا ، واعظا ، مناظرا ، ثقة ، مشهورا بالصلاح والديانة والورع والصيانة وكثرة التصانيف[٥٤] .

واكثر عن ابي القاسم هبة الله بن أحمد بن عمر البغدادي الحريري المقرىء المعروف بابن الطبر (٤٣٥ - ٥٣١ هـ) خال الحافظ عبدالوهاب الأنماطي ، وهو من الشيوخ المعمرين المقرئين الثقات العارفين بالعربية[٥٥] .

واخذ عن أبي منصور عبدالرحمن بن محمد بن زريق الشيباني القزاز البغدادي الحريمي (٤٥٣ - ٥٣٥) ، وكان قد سمع التاريخ من الخطيب ورواه[٥٦] .

---

(٥٢) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ٩ ، والذهبي : تاريخ الاسلام ، والورقة ١٧٤ (اياصوفيا ٣٠١٠ والمنتظم ٢٨/١٠ وابن الاثير ٢٦٠/١٠ والعيني ١٧/الورقة ٤٥ .

(٥٣) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ٢٠٩ ، وابن الاثير ٢٦٠/١٠ ، والمنتظم : ٢٩/١٠ وسبط ابن الجوزي ١٤٤/٨ وابن رجب ١٧٧/١ والذهبي في تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٦ (اياصوفيا ٣٠١٠) والعبر ٦٩/٤

(٥٤) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ١٤٤، الذهبي : تاريخ الاسلام ، ١٧٩من المجلد السابق ، والمنتظم ٣٢/١٠ ، وابن الاثير ٤/١١ والعيني ١٧ /الورقة ٥٣ .

(٥٥) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ٢٣٠ ، والذهبي : تاريخ الاسلام، الورقة ٢٠٩ من مجلد اياصوفيا ٣٠١٠ ، والمنتظم ٧١/١٠ ، وابن الاثير ٢٢/١١ ، والعيني ١٧ / الورقة ٩٥ ، وابن كثير ٢١٢/١٢ ، والشذرات ٩٧/٤

(٥٦) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ١١٠ ، والذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٣٦ (اياصوفيا

ومن كبار شيوخه البغداديين أيضا القاضي أبو بكر محمد بن عبدالباقي ابن محمد الانصاري البغدادي الحنبلي البزاز المعروف بقاضي المارستان (٤٤٣ ـ ٥٣٥هـ) قال الذهبي : « مسند العراق بل مسند الآفاق .. روى عنه خلق لا يحصون منهم من مات في حياته ومنهم من تأخر »(٥٧) .

وسمع الكثير على أبى القاسم اسماعيل بن احمد ابن السمرقندى المولود بدمشق سنة ٤٥٤ هـ والمتوفى ببغداد سنة ٥٣٦ هـ الذى كان واحدا من اعظم علماء بغداد(٥٨) بحيث كان الحافظ أبو العلاء العطار الهمذاني يقول : ما أعدل بأبي القاسم السمرقندي احدا من شيوخ العراق وخراسان ، وقال ابن عساكر في حقه : كان ثقة مكثرا صاحب اصول ، وكان دلالا في الكتب... وعاش الى أن خلت بغداد وصار محدثها كثرة واسنادا ، وقد املى في جامع المنصور في ايام الجمع زيادة على ثلاث مئة مجلس »(٥٩) .

وسمع ابن عساكر ايضا من الشيخ الحافظ الثقة المتقن الكثير السماع الواسع الرحلة أبي البركات عبدالوهاب بن المبارك الانماطي (٤٦٢ ـ ٥٣٨)(٦٠)، قال ابن السمعاني : جمع الفوائد وخرج التخاريج ولعله ما بقي من العالي والنازل جزء الا قرأه وحصل نسخته اما بخطه ، أو بخط غيره . ونسخ الكتب الكبار مثل طبقات ابن سعد وتاريخ الخطيب . وذكره أبو موسى المديني في معجمه ، فقال : حافظ عصره ببغداد(٦١) .

---

(٥٧) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ١٩٢ ، الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٣٩ (أياصوفيا ٣٠١٠) ، والمنتظم ٦٦/١٠ ، وابن الاثير ٣٣/١٩.

(٥٨) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ٢٧ ، المنتظم ٩٨/١٠ ، وسبط ابن الجوزي ١٨١/٨ ، وابن كثير ٢١٨/١٢ .

(٥٩) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٤٢ (أياصوفيا ٣٠١٠) .

(٦٠) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ١٣٤ ، المنتظم ١٠٨/١٠ ، وابن الاثير ٤٠/١١ ، والذهبي في العبر ١٠٤/٤ ، وابن كثير في البداية : ٢١٩/١٢ وابن العماد في الشذرات ١١٦/٤ ، والعيني ١٧/ الورقة ١٣٧ .

(٦١) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٥٧ (أياصوفيا ٣٠١٠) .

ومنهم ايضا : أبو منصور محمد بن عبدالملك بن الحسن بن خيرون البغدادي المقرى الدباس (٤٥٤ ـ ٥٣٩ هـ) ، وهو من الشيوخ المعمرين الثقات البارعين في القراءات . حدث بكتاب النسب للزبير بن بكار عن ابن المسلمة ، وسمع اكثر تاريخ الخطيب وكان ينسخه ويبيعه[٦٢] .

وروى الحافظ أبو القاسم عن عدد من الشيخات اللائي التقى بهن في بغداد وسمع عليهن ، منهن :

فاطمة بنت عبدالقادر بن احمد بن الحسين ابن السماك الواعظة وتدعى المباركة المتوفاة سنة ٥٢٠ هـ ، قال الذهبي : « وهي اقدم شيخ توفي لـه ببغداد »[٦٣] .

وفاطمة بنت الحسين بن الحسن بن فضلويه الرازي ، العالمة المعروفة ببنت حمزة ، قال الذهبي : « واعظة مشهورة ببغداد متعبدة لها رباط يأوي اليه النساء . روت عن ابن المسلمة ، وابي بكر الخطيب . روى عنها ابـو القاسم ابن عساكر ، وقال : « توفيت في ربيع الاول »[٦٤] (سنة ٥٢١ هـ) .

وفاطمة بنت أبي الحسن علي بن الحسين بن جَدّا العكبري البغدادية المتوفاة سنة ٥٢٦هـ[٦٥] .

وكريمة بنت الحافظ ابي بكر محمد بن احمد ابن الخاضبة المتوفاة سنة ٥٢٧ هـ . روت عن أبي الحسين ابن النقور . قال ابن السمعاني : رأيت نسخة لتاريخ بغداد كاملة بخطها[٦٦] .

---

(٦٢) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ١٩٦ ، الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٦٨ (أياصوفيا ٣٠١٠) ، وانظر المنتظم ١١٥/١٠، وابن الاثير ٤٢/١١، والنجوم الزاهرة ٢٧٦/٦ ، والعيني : ١٧/الورقة ١٤٤ من مصورة دار الكتب بالقاهرة .

(٦٣) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٣٩ (اياصوفيا ٣٠١٠) .

(٦٤) نفسه ، الورقة ١٤٨ .

(٦٥) نفسه ، الورقة ١٧٦ .

(٦٦) نفسه الورقة ١٨٠ .

ومهناز بنت ياتش الرومي ، أم بشارة البغدادية . سمعت من أبي جعفر ابن المسلمة « صفة المنافق » . روى عنها أبو المعمر الانصاري وابن عساكر ، وتوفيت سنة ٥٣٠هـ وقد نيفت على التسعين[٦٧] .

أثر بغداد في تكوينه الفكري

كان ابو القاسم طيلة مقامه ببغداد لا يكل من السماع والتحصيل ولا ينقطع عنهما وكان رفقته في الطلب ، ومنهم ابن صصرى « ت ٥٨٦ » يدركون هذا الحماس في الدراسة والتحصيل ، فكان ابن صصري يقول : « ما كنا نسمي الشيخ أبا القاسم ببغداد الا شعلة نار من توقده وذكائه وحسن ادراكه »[٦٨] . فجمع من العلم ما لم يجمعه غيره « ورجع بعلم جم وسماعات كثيرة »[٦٩] ، ولا ادل على ضخامة زاده من بغداد تلك الروايات الكثيرة التي نقلها عنهم في كتبه ، ففي المجلدة الاولى من تاريخ دمشق نجده يورد اكثر من مئة وعشرة نصوص عن ابي القاسم ابن السمرقندي ، واكثر من خمسين نصا عن ابن الحصين ، وقرابة الاربعين نصا عن ابن البناء ، والثلاثين نصا عن محمد بن عبدالباقي الانصاري ، وهلم جرا[٧٠] .

وصل ابن عساكر الى بغداد وهو في مطلع شبابه : في الحادية والعشرين من عمره وبقي فيها قرابة الخمس سنوات لم ينقطع فيهما عن التحصيل والدرس ، وهذه الفترة ، في رأينا ، هي التي أثرت تأثيرا عظيما في تكوينه الفكري وطبعته بطابع أهل بغداد المحبين للحديث وروايته ودراسته حبا شغلهم

---

(٦٧) نفسه ، الورقة ٢٠٠ .

(٦٨) ياقوت : ارشاد ٥/١٤٥ . ومثل ذلك نقل الذهبي هذا القول عن ابي العلاء الهمذاني (تاريخ الاسلام ، الورقة ٤١ (أحمد الثالث ١٤/٢٩١٧) ، انظر السبكي في طبقاته الكبرى ٧/٢١٨ .

(٦٩) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٠ أحمد الثالث ١٤/٢٩١٧ .

(٧٠) انظر : الفهرس الذي صنعه محقق الكتاب الاستاذ الفاضل الدكتور صلاح الدين المنجد في آخر المجلدة الاولى لشيوخه .

عن كثير من العلوم الاخرى • وفي بغداد كانت المشارب التي اخذ عنها أبو القاسم متنوعة التنوع كله ، ففي شيوخه اشاعرة وسلفية منهم المرن ومنهم المتعصب لعقيدته ؛ وهو لم يترك أحدا استطاع مجالسته والسماع عليه والاخذ عنه ، فعلى الرغم من اشعريته التي ورثها عن عائلته ، ودفاعه عن الاشاعرة والذب عنهم ما استطاع الى ذلك سبيلا (كما يتضح من كتاب التبيين) فانه ما كان ليحجم عن الاخذ من شيوخ كانوا يعادون الاشاعرة ؛ فقد اخذ مثلا لا حصرا عن القاضي أبي الحسين محمد ابن القاضي أبي يعلى محمد بن الفراء الحنبلي البغدادي المتوفى سنة ٥٢٦ هـ صاحب طبقات الحنابلة وقد قال فيه السلفي الحافظ : « كان أبو الحسين متعصبا لمذهبه وكان كثيرا ما يتكلم في الاشاعرة ويقول فيهم ويسمعتهم »[٧١] •

وبسبب اتصال الحافظ أبي القاسم بشيوخ من مشارب مذهبية وعقائدية متنوعة وحبه واحترامه لهم ، وجدناه ينشأ على غاية من النزاهة عن التعصب الذي عرف به كثير من الاشاعرة وخصومهم • ولم يكن تحقيق تلك النزاهة والمرونة في تلك الاعصر من الامور الهينة والبيئة الدمشقية والبغدادية آنذاك مشحونة بها •

وعلى الرغم من اشعرية الحافظ ابن عساكر فقد اتصل اتصالا هائلا بالحديث والمحدثين يذكرنا باتصال الحنابلة به ؛ فقد افنى عمره في سماع الحديث وروايته ، وألف معظم كتبه في هذا المجال الذي أخذ بمجامع نفسه •

وتتصل قيمة التاريخ عند الحافظ ابن عساكر اتصالا وثيقا بالحديث • وهو أمر يعكس مفهومه وفلسفته في الدراسة والعطاء ؛ فالتاريخ عنده ليس اكثر من معين لمعرفة صحيح الحديث من سقيمه في اغلب الاحيان لذلك وجدناه يعنى بالتراجم عناية فائقة ويؤثر المحدثين من المترجمين على من سواهم في كتبه ولا سيما في تاريخه العظيم لمدينة دمشق •

---

(٧١) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٦ (أياصوفيا ٣٠١٠) •

وقد استعمل الحافظ مناهج البحث عند المحدثين في عرض الروايات التاريخية ، فاستعمل الاسناد بشكل كبير في كتبه ولا سيما تاريخ دمشق • ويعد استعمال الاسانيد عند اهل الحديث من أدق طرق ذكر المصادر ، فبقدر ما نعجب اليوم بالحواشي المرصوصة في البحوث الحديثة ، كانت الاسانيد عند اسلافنا هي هذه الحواشي المرصوصة بل اكثر دقة والتزاما •

كما يتضح اثر الحديث في صياغته للترجمة ونوعية المادة التي يوردها فيها : من اسم ، ونسبة ، ومولد ، ووفاة ، وشيوخ ، وتلاميذ ، وتقويم واحكام ، وهو الاطار الذي وضعه المحدثون ، وهو احدهم ، لعناصر الترجمة التي انتقلت منهم الى غيرهم من المعنيين بالتراجم(٧٢) •

ويذكر ابن خلكان ان ابن عساكر ألف تاريخه لدمشق على نسق تاريخ بغداد للخطيب • ومع اننا لا نريد أن نعقد مقارنة بين الكتابين لنرى مصداق هذا القول ، كما لا نريد الدخول في البحث عن اول من ألف تاريخا تراجيميا لمدينة على نسق الخطيب ممن سبقه لكن علينا ملاحظة جملة أمور من ابرزها :

١ ـ ان ابن عساكر سافر الى بغداد وهو في الحادية والعشرين من عمره ولم يكن قد بدأ بجمع مادة تاريخ دمشق جمعا منظما يهدف الى تأليف كتاب عن مدينته •

٢ ـ ان كتاب الخطيب كان كتابا مرموقا عند المحدثين والمعنيين بالرواية ، فعلى الرغم من ضخامته كان يروى في المجالس ويسمعه الطلبة على الشيوخ ، وقد رأينا بعض ذلك عند كلامنا على شيوخ ابن عساكر البارزين من اهل بغداد واهتمامهم بهذا الكتاب •

---

(٧٢) قارن عناصر الترجمة عند ابن عساكر بما كتبناه عن عناصر الترجمة عند المنذري (ت ٦٥٦هـ) في كتابنا : المنذري وكتابه التكملة ٢٤٠ ، وانظر الفصل الثالث من الباب الثاني من كتابنا : الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الاسلام ، ص ٣٥٩ فما بعد حيث فصلنا القول في عناصر الترجمة عند الذهبي •

٣ ـ ان الهيكل العام للكتابين متشابه فهو يبدأ بمقدمة خططية ويتناول بعد ذلك تراجم اهل المدينة ومن وردها من أعلام الناس أو حل بها •

٤ ـ ألف ابن عساكر تاريخه بعد الخطيب ولا ريب انه استفاد بعض طريقته في التنظيم وحسّنها بما يتلاءم وتكوينه الفكرى وذوقه التاريخي المتصل بالحديث والمحدثين •

من كل ذلك نستطيع القول أن شهرة تاريخ الخطيب ومكانته ودخوله في الكتب المروية قد شجعت الحافظ ابن عساكر على القيام بشروعه العظيم لتاريخ مدينة دمشق في الاقل ، ولابد أنه أفاد من طريقته سواء أكان ذلك في اتباع بعضها أم في تجنب البعض الآخر أو تحسينه • ولا يشك باحث بأن غزارة مادة ابن عساكر في تاريخ دمشق أعظم من تلك التي في تاريخ بغداد للخطيب ولا سيما في الخطط وسعة التراجم •

العطـاء

حينما قدم ابن عساكر الى بغداد أعجب بـه البغداديون وقالوا : قدم علينا من دمشق ثلاثة ما رأينا مثلهم : الشيخ يوسف الدمشقي ، والصائن ابو الحسين هبةالله بن الحسن ، وأخوه أبو القاسم[٧٣] • وقد بدأ عطاؤه ببغداد قبل دمشق ، ففي رحلته الاولى خرج لشيخه أبي غالب احمد بن الحسن بن احمد ابن البناء البغدادى الحنبلي (٤٤٥ ـ ٥٢٧) مشيخة[٧٤] ذكر ابن الدبيثي انها في نحو عشرة اجزاء تكلم على احاديثها وأحسن[٧٥] • وسمع منه مفيد بغداد أبو بكر المبارك ابن كامل بن أبي غالب الخفاف البغدادي الظفري (٤٩٠ ـ ٥٤٣هـ) وهو أسن منه[٧٦] ، قال ابن الجوزي :

---

(٧٣) ياقوت : ارشاد ٥/١٤٤ ، والسبكي ٧/٢١٧ .

(٧٤) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٠ (احمد الثالث ٢٩١٧/١٤) .

(٧٥) الذيل ، الورقة ١٣٦ من نسخة كيمبرج . وذكر الذهبي في العبر أن مشيخة ابن البناء هذه من المشيخات المروية ٤/٧١

(٧٦) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٣٠٣ (اياصوفيا ٣٠١٠) .

« انتهت اليه معرفة المشايخ ومقدار ما سمعوا والاجازات لكثرة دربته في ذلك »[٧٧] . وتوفي المبارك بن كامل الخفاف قبل أبي محمد مكي بن المسلم ابن علان آخر الرواة عن الحافظ ابن عساكر بمئة سنة وتسع سنين ، فقد كانت وفاة ابن علان في سنة ٦٥٢هـ[٧٨] .

ونظرا للمكانة المرموقة التي احتلها ابن عساكر ببغداد فانه كان يسئل عن الرواة من حيث الجرح والتعديل فتؤخذ اقواله فيهم وتعتبر عندهم أقصى حدود الاعتبار[٧٩] .

وقد أقام الحافظ ابن عساكر بعد رجوعه الى دمشق علاقات وطيدة مع جملة من علماء بغداد ، فبقي تبادل المعلومات العلمية بينهم قائما[٨٠] ، وكان يحرص على لقاء البغداديين القادمين الى دمشق[٨١] فيسمع عليهم ويذاكرهم أو يسمعون عليه ويذاكرونه .

وها نحن اولاء نرى كيف آمن اسلافنا العظماء بالوحدة بين ارجاء الوطن العربي وطبقوها تطبيقا عمليا وعمقوها بلقاءآتهم المستمرة . واننا على يقين من أن مثل هذه الامور تقدم لنا مثلا رائعا في الايمان بحتمية اللقاء والتوحد ، لا سيما والامة تمر بظروف عصيبة يشعر ابناؤها بانهم محاويج دائما الى وحدة متينة تجمع شملهم بعد طول تفرق ، وتلم شعثهم بعد التمزق الذي كابدوه طيلة عصور التخلف والظلام ، فتزيد في قوتهم اليوم قوة متجددة .

---

(٧٧) المنتظم ١٣٧/١٠ .

(٧٨) العبر ٢١٣/٥ .

(٧٩) انظر مثلا الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٤ ، ١٧٩ ، ١٨٢ - ١٩٦ الخ. (اياصوفيا ٣٠١٠ .

(٨٠) انظر مثلا : التبيين ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٨١) انظر مثلا تاريخ الاسلام للذهبي ، الورقة ١٧٦ (ايا صوفيا ٣٠١٠) .

ملحق

ترجمة الحافظ ابن عساكر

في كتب المؤرخين البغداديين غير المنشورة

يتضمن هذا الملحق ثلاث من التراجم غير المنشورة التي وضعها مؤرخون بغداديون للحافظ أبي القاسم ابن عساكر وهم :

١ ـ الحافظ معين الدين أبو بكر محمد بن عبدالغني البغدادي الحنبلي المعروف بابن نقطة المتوفى سنة ٦٢٩ هـ حيث ترجم له في كتابه « التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد » • وقد اعتمدت نسختي المصورة عن النسخة المحفوظة في المكتبة الأزهرية تحت رقم ١٣٧ مصطلح الحديث •

٢ ـ الحافظ جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سعيد المعروف بابن الدبيثي المتوفى سنة ٦٣٧ هـ في تاريخه الذي ذيّل به على ذيل ابن السمعاني على تاريخ الخطيب وهو المعروف بـ « ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد » • وتقع ترجمة الحافظ ابن عساكر في المجلد المحفوظ بمكتبة جامعة كيمبرج في انكلترا • وقد حققت هذا الكتاب وتبنت وزارة الثقافة والإعلام في العراق طبعه بنفقتها فظهر منه المجلد الاول سنة ١٩٧٤ والمجلد الثاني سنة ١٩٨٠، وترجمة ابن عساكر من هذا التاريخ لم تنشر حتى الان •

٣ ـ الحافظ محب الدين أبو عبدالله محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادي ، شيخ دار الحديث بالمدرسة المستنصرية المتوفى سنة ٦٤٣هـ في تاريخه الذي ذيّل به تاريخ الخطيب البغدادي والمعروف بـ « التاريخ المجدد لمدينة السلام وأخبار فضلائها الاعلام ومن وردها من علماء الانام » وهو تاريخ حافل يقع في ثلاث مئة جزء حديثي ، لكن الزمان قد أتى على معظمه فلم يصل الينا منه غير مجلدين : المجلد العاشر في دار الكتب الظاهرية بدمشق (رقم ٤٢ تاريخ) والحادي عشر في دار الكتب الوطنية بباريس (٢١٣١ عربي) وهما من اصل نسخة أظنها تتكون من خمسة عشر مجلدا ، وفي خزانة كتبي نسختان مصورتان لهذين المجلدين . والمفروض أن تقع ترجمة الحافظ ابن عساكر في المجلد الذي بالظاهرية الذي يبدأ في اثناء من اسمه « عبدالملك » ولسوء الحظ فان نسخة الظاهرية فيها خرم عند هذه الترجمة فأذهب بمعظمها ولم يبق منها الا عجزها في اول الورقة ٢١٣ . لكننا في الوقت نفسه وجدنا مختصر هذه الترجمة في انتقاء للحافظ شهاب الدين أحمد بن أيبك الدمياطي الحسامي المتوفى سنة ٧٤٩هـ من هذا التاريخ سماه « المستفاد من ذيل تاريخ بغداد » حيث توجد النسخة الفريدة منه بخط المنتقي بدار الكتب المصرية تحمل الرقم ٢٩٦ وفي خزانة كتبي نسخة مصورة عنها . كما نقل قسما من ترجمة ابن النجار للحافظ ابن عساكر ، مؤرخ الاسلام شمس الدين الذهبي في كتبه ولاسيما في كتابه العظيم « تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام » وكتابيه الآخرين « سير أعلام النبلاء » و « تذكرة الحفاظ » ، واقتطف تاج الدين السبكي قليلا منها في « طبقات الشافعية الكبرى » فأفدنا من كل ذلك في اعادة الترجمة بعد المقارنة بين مختصر الدمياطي وما وصل الينا منها في نسخة الظاهرية ، وما اقتطفه المؤرخون منها .

وقد قمت بتحقيق هذه التراجم الثلاث وعلقت عليها تعليقات مختصرة غايتها ضبط النص وتدقيقه وتحقيقه ودفع ايهام قد يقع فيه القارىء ، وتوضيح ابهام قد يتأتى من ورود بعض الاسماء المختصرة .

اولا :

قال ابن نقطة في التقييد : الورقة ١٧٧ ـ ١٧٨ :

علي بن الحسن بن هبة الله ، أبو القاسم بن عساكر الحافظ الدمشقي . سمع بدمشق من الشريف أبي القاسم[٨٢] عليّ بن ابراهيم بن العباس الحسيني المعروف بابن أبي الجن ، وأبي الوحش سبيع[٨٣] بن المسلم بن قيراط ، وغيث[٨٤] بن علي الأرمنازي . وببغداد من أبي الحسن علي[٨٥] بن عبدالواحد بن احمد الدينوري وأبي نصر أحمد[٨٦] بن عبدالله بن رضوان ، وأبي القاسم بن الحصين[٨٦] ، وأبي الحسين محمد[٨٨] بن محمد ابن الفراء ، وأبي الاعز قراتكين[٨٩] بن الاسعد بن المذكور ، وأبي العز أحمد[٩٠] بن عبدالله بن

---

(٨٢) توفي سنة ٥٠٨ (الذهبي : تاريخ الاسلام ، الورقة ٨٢ من مجلد ايا صوفيا ٣٠١٠ وأصعد نسبه الى جعفر الصادق . والعبر ١٧/٤ .

(٨٣) توفي سنة ٥٠٨ (الذهبي : العبر ١٦/٤ .

(٨٤) توفي سنة ٥٠٩ (العبر ١٨/٤) .

(٨٥) توفي سنة ٥٢١ (الذهبي : تاريخ الاسلام الورقة ١٠٣ من المجلد المذكور اعـــلاه .

(٨٦) انظر : ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ٨ . وذكر الذهبي انه توفي سنة ٥٢٤ (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٥ من المجلد السابق) .

(٨٧) هبةالله بن محمد ابن الحصين الشيباني المتوفى سنة ٥٢٥ وهو مشهور .

(٨٨) صاحب طبقات الحنابلة المتوفي سنة ٥٢٦ (تاريخ الاسلام ، الورقة ٧٦ ايا صوفيا ٣٠١٠ .

(٨٩) توفي سنة ٥٢٤ (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٩) .

(٩٠) ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ٩. وذكر الذهبي انه توفي سنة ٥٢٦ (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٤) .

كادش ، وابي بكر محمد[٩١] بن الحسين المزرفي ، في آخرين • وبأصبهان من ابي الفرج سعيد[٩٢] بن أبي الرجاء الصيرفي والحسين[٩٣] بن عبدالملك الخلال ، وأبي القاسم اسماعيل[٩٤] بن محمد بن الفضل الحافظ • وبنيسابور من أبي عبدالله محمد[٩٥] بن الفضل الفراوى •• وأبي محمد عبدالله بن سهل السيدي[٩٦] ، وزاهر[٩٧] بن طاهر الشحامي ، وأخيه وجيه[٩٨] • وبهراة ومرو من جماعة •

وحدث باكثر مسموعاته •

وكان حافظا ثقة في الحديث •

---

(٩١) توفي سنة ٥٢٧ (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٨٠) .

(٩٢) توفي سنة ٥٣٢ (الحاجي : الوفيات « بتحقيقنا » رقم ١٠٥ وتعليقنا هناك

(٩٣) ذكر عبدالرحيم الحاجي انه توفي سنة ٥٣٢ (الوفيات رقم ١٠٨) وراجع ابن نقطة في التقييد ، الورقة ٨٣ ، واكمال الاكمال ، الورقة ١٤ من نسخة الظاهرية .

(٩٤) ويعرف بالطلحي ، وهو صاحب كتاب « سير السلف الصالحين » المشهور توفي سنة ٥٣٥ كما ذكر الحاجي في الوفيات رقم ١٢٠ ، وابن نقطة في التقييد ، الورقة ٦٢ .

(٩٥) توفي سنة ٥٣٠ كما في انساب السمعاني ولباب ابن الاثير وغيرهما . ولاجله رحل الحافظ ابن عساكر الى المشرق .

(٩٦) في الاصل : «التستري » وهو وهم من الناسخ ، والصواب ما اثبتنا ، انظر : الذهبي في العبر ٩٣/٤ وتاريخ الاسلام ، الورقة ٢٢٨ من المجلد المذكور سابقا، وابن العماد في الشذرات١٠٣/٤ . وقال ابن عساكر فيمعجم شيوخه : اخبرنا هبةالله بن سهل بن عمر بن محمد بن الحسين بن محمد بن الهيثم بن القاسم بن مالك بن ابي الهيثم ، ابو محمد ... البسطامي ثم النيسابوري المعروف بالسيدي الفقيه بقراءتي عليه بنيسابور . قال... (الورقة ٢٣٦) .

(٩٧) توفي سنة ٥٣٣ ابن الجوزي : المنتظم ٧٩/١٠ ، وابن الاثير في الكامل ٣٠/١١ ، والعيني في عقد الجمان ١٦/ الورقة ١٠٦ من مصور القاهرة .

(٩٨) توفي سنة ٥٤١ المنتظم ١٢٤/١٠ ، والعبر ١١٣/٤ ، وغيرهما) .

وصنف كتبا منها : تاريخ دمشق ، وكتاب الاطراف ، وغرائب مالك ، وشيوخ الكتب الستة[99] ، وغير ذلك .

حدث عنه أبو سعد السمعاني ، فقال : هو حافظ متقن ، جمع بين معرفة المتون والاسانيد ، ورحل في طلب الحديث ، وجمع منه مالم يجمع غيره . ورد بغداد سنة عشرين وخمس مئة . مولده في العشر الأُخر من المحرم سنة تسع وتسعين واربع مئة .

قلت : توفي الحافظ أبو القاسم بن عساكر في ليلة الاثنين حادي عشر رجب من سنة احدى وسبعين وخمس مئة .

حدثني عبدالله بن أبي الفضل ، قال : سمعت الحافظ عبدالقادر بن عبدالله الرهاوي يقول : قد رأيت الحافظ أبا طاهر السلفي ، والحافظ أبا العلاء الهمذاني والحافظ أبا موسى باصفهان ، ما رأيت فيهم احفظ ، أو قال : مثل أبي القاسم ابن عساكر .

ثانيا :

قال جمال‌الدين ابن الدبيثي في الذيل (الورقة ١٣٦)[100] :

علي بن الحسن بن هبة‌الله بن عبدالله بن الحسين ابن عساكر أبو القاسم ابن أبي محمد الحافظ .

من أهل دمشق

ممن اشتهر فضله وعلمه ، وشاع ذكره وحفظه ، وعرف اتقانه وصدقه .

---

(٩٩) هو كتاب « معجم شيوخ الائمة النبل » المشهور عند اهل الفن . عندي منه نسخة بخطي .

(١٠٠) مما تجدر الاشارة اليه ان الحافظ ابا عبدالله الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ قد اختصر هذه الترجمة في « المختصر المحتاج اليه من تاريخ الحافظ ابي عبدالله » ٣/١٢١ ــ ١٢٢ ثم علق عليها زيادة من عنده . والزيادة هذه موجودة في تاريخ الاسلام وغيره من كتبه .

سمع الكثير ببلده ، والعراق ، والحجاز ، وخراسان . وكتب الكثير ، وحصل ما لم يحصله غيره . ورزقه الله حسن التوفيق فيما صنفه وألفه ، فجمع تاريخا للشام وبسطه وأجاد في جمعه وحسنه ، وغيره من الكتب في علم الحديث وفنونه .

وقدم بغداد مرتين : أولاهما في سنة عشرين وخمس مئة، وسمع فيهما الكثير من أبي القاسم ابن الحصين، والبارع أبي عبدالله الدباس(١٠١) ، وأبي العز ابن كادش ، وأبي غالب ابن البناء وخرج له مشيخه(١٠٢) في نحو عشرة أجزاء وتكلم على أحاديثها وأحسن ، ومن أبي بكر المزرفي ، وأبي القاسم الشروطي(١٠٣) ، وأبي القاسم الحريري(١٠٤) ، وأبي منصور بن زريق(١٠٥) ، والقاضي أبي بكر الانصاري(١٠٦) ، واسماعيل(١٠٧) ابن السمرقندي ، وعبدالوهاب(١٠٨) الانماطي ، وخلق يطول ذكرهم .

---

(١٠١) هو الحسين بن محمد المتوفى سنة ٥٢٤ . (الذهبي : تاريخ الاسلام الورقة ١٥٦ ـ ١٥٧)

(١٠٢) ذكر الذهبي في العبر انها من المشيخات المروية ، وتوفي ابن البناء سنة ٥٢٧ (ابن عساكر : معجم الشيوخ ١٩ ، والذهبي في تاريخ الاسلام ، الورقة ١٧٧ من مجلد ايا صوفيا رقم ٣٠١٠) .

(١٠٣) هو هبة الله بن عبدالله بن احمد المتوفي سنة ٥٢٨ (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٨٦ من مجلد اياصوفيا ٣٠١٠) .

(١٠٤) هبةالله بن احمد بن عمر المقريء المعروف بابن الطبر المتوفى سنة ٥٣١ (ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ٢٣٠ ، وتاريخ الاسلام ، الورقة ٢٨ من المجلد المذكور) .

(١٠٥) عبدالرحمن بن محمد بن زريق الشيباني القزاز المتوفى سنة ٥٣٥ (ابن عساكر : معجم الشيوخ ، الورقة ١١٠ ، وتاريخ الاسلام ، الورقة ٢٣٦) .

(١٠٦) توفي سنة ٥٣٥ وهو محمد بن عبدالباقي الانصاري المعروف بقاضي المارستان (تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٣٩)

(١٠٧) اسماعيل بن احمد الدمشقي المولد البغدادي الدار . توفي ببغداد سنة ٥٣٦ (ابن عساكر : معجم الشيوخ الورقة ٢٧ ، المنتظم ١٠/١٨/وغيرهما)

(١٠٨) عبدالوهاب بن المبارك الانماطي المحدث المشهور المتوفى سنة ٥٣٨ (قارن معجم الشيوخ ، الورقة ١٣٤)

وسمع بنيسابور من زاهر الشحامي وأخيه وجيه ، وأبي عبدالله الفراوي، وغيرهـــم .

وعاد الى بلده ، وحدث بالكثير ، وسمع الناس منه سنين .

وبنى له نورالدين محمود بن زنكي أمير الشام دار الحديث بدمشق ووقف عليها وقفا تصرف غلته الى المشتغلين عليه بالحديث فيها .

وكان موفقا في افعاله وتصنيفه .

حدثنا عنه ابو جعفر احمد بن علي القرطبي بمكة ، وغيره .

وذكره تاج الاسلام أبو سعد ابن السمعاني في كتابه الذي كتابنا هـذا مذيل عليه فوصفه بالفضل والحفظ والاتقان ، وروى عنه فيـه الكثير .

وذكرناه نحن لان وفاته تأخرت عن وفاة ابن السمعاني على ما شرطناه .

حدثنا أبو جعفر احمد بن علي بن عتيق المغربي لفظا بالمسجد الحرام في حجتنا الاولى سنة تسع وسبعين وخمس مئة . قال : اخبرنا الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن ابن عساكر قراءة عليه بدمشق ، قال : اخبرنا ابو الحسن مكي بن ابي طالب البروجردي بقراءتي عليه بمنى(١٠٩) ، قـال : اخبرنا أبـو الحسن علي بن أحمد بن محمد الصيدلاني بنيسابور قال: اخبرنا ابو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي ، قال : حدثنا احمد ابن محمد بن يحيى بن بلال، قال : حدثنا يحيى بن الربيع المكي، حدثنا سفيان بن عيينه ، عن أيوب بن موسى ، عن نبيه بن وهب ، عن ابان بن عفان ، عن عفان فبلغ بهـا النبـي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « لا ينكح المحرم ولا يخطب » .

---

(١٠٩) قارن معجم شيوخ ابن عساكر ، الورقة ٢٤٦ . وذكره ابو سعد السمعاني في التحبير ٢/٣١٣ ، وذكر انه توفي بين سنتي ٥٢٥ــ٥٣٠ كما ذكره في معجم شيوخه ، الورقة ٢٦٥ .

أنبأنا أبو المحاسن عمر(110) بن علي القرشي الدمشقي ، قال : سألت الحافظ أبا القاسم ابن عساكر عن مولده فقال : في محرم سنة تسع وتسعين وأربع مئة . وتوفي في حادي عشر رجب سنة احدى وسبعين وخمس مئة .

وقال غيره : في ليلة الاثنين . وصلي عليه يوم الاثنين ، ودفن عند أبيه وأهلـــه .

ثالثا :

وقال ابن النجار البغدادي(111) :

علي بن الحسن بن هبةالله بن عبدالله بن الحسين ، أبو القاسم ابن أبي محمد بن أبي الحسين الشافعي ، عرف بابن عساكر .

من أهل دمشق .

هو(112) امـام المحدثين في وقته ، ومن انتهت اليه الرئاســة في الحفظ والاتقان ، (والمعرفة التامة بعلوم الحديث والثقة والنبل وحسن التصنيف والتجويد)(113) وبه ختم هذا الشأن .

---

(110) كان من رفاق الحافظ ابن عساكر ، وقد توفي سنة ٥٧٥ وهو معروف جـــدا .

(111) اعتمدت في هذه الترجمة ، خلا القسم الاخير منها ، على ما جاء في انتقاء احمد بن أيبك الدمياطي الحسامي من تاريخ ابن النجار، والذي سماه : « المستفاد من ذيل تاريخ بغداد » ، الورقة ٥٥ . واشرت بعد ذلك الى الزيادات التي جاءت في الكتب الاخـرى .

(112) هذه اللفظة زيادة من السبكي ٢١٨/٧ .

(113) مابين الحاصرتين اضافة من طبقات السبكي ٢١٨/٧ . وقد اوردهـا الذهبي في تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٢ (أحمد الثالث ١٤/٢٩١٧) لكنه حذف منها قوله : « بعلوم الحديث » ، كما حذف من كلمة « والنبل » الى نهاية العضـــادة .

روى[114] عنه جماعة وهو في الحياة وحدثوا عنه بالاجازة في حياتـه •

سمع بافادة أخيه الاكبر في سنة خمس وخمس مئة من أبي الحسن ابن الموازيني[115] • وابي القاسم النسيب[116] ، وأبي الوحش سبيع بن قيراط المقرى ، وأبي طاهر الحنائي[117] وسمع هو بنفسه من والده ، وأبي محمد ابن الاكفاني[118] ، وأبي الحسن بن قبيس[119] وطاهـر[120] بـن سـهل الاسـفرايني •

وحج في سنة إحـدى وعشرين ، وسمع بمكة أبـا محمـد عبدالله[121] محمد بن اسماعيل المصري •

---

(١١٤) مـن هنا والى نهاية السطر اضافة من تاريخ الاسلام ، الورقة ٤٢ من النسخة السابقة .

(١١٥) أبو الحسن السلمي المتوفى سنة ٥١٤ كما في تاريخ الاسلام ، والعبر للذهبي ٣٣/٤

(١١٦) ابو القاسم علي بن ابراهيم بن العباس الحسيني المتوفي سنة ٥٠٨ وقد مر التعريف به .

(١١٧) ابو طاهر محمد بن الحسين بن محمد الدمشقي المتوفي سنة ٥١٠هـ (العبر ٢١/٤) .

(١١٨) هبةالله بن احمد الانصاري المعروف بابن الاكفاني صاحب كتاب « الوفيات » المتوفي سنة ٥٢٤ (العبر ٦٣/٤) .

(١١٩) علي بن احمد بن منصور الغساني . و « قبيس » بضم القاف ، وليس بالفتح كما جاء في العبر من وهم المحقق ، وقد وجدتها مقيدة بالضم بخط الحافظ الذهبي (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٩٦ اياصوفيا ٣٠١٠) .

(١٢٠) توفي سنة ٥٣١هـ كمافي العبر ٨٥/٤ وغيره ، وقال الذهبي في تاريخ الاسلام : « روى عنه الحافظ ابو القاسم وقال : كان شيخا عسرا مع جهله بالحديث وعدم ثقة ، حك اسم اخيه من كتاب الشهاب للقضاعي واثبت بدله اسمه » الورقة ٢٠٦ من نسخة اياصوفيا رقم ٣٠١٠ .

(١٢١) المعروف بابن الغزال ـ بالتخفيف ـ . وقد سمع منه ابو القاسم حديثا واحداً تلقينا لسمم شديد حصل لابن الغزل هذا ، قال التقي الفاسي : « وقد رويناه من طريقه في أربعينه البلدانية » العقد الثمين ٣٤٢/٥ . وتوفي سنة ٥٢٤ (تاريخ الاسلام ، الورقة ١٥٧ من نسخة ايا صوفيا ٣٠١٠) .

ورحل الى العراق في سنة عشرين • وسمع الكثير ببغداد من ابن الحصين ، وأبي الحسن الدينوري ، وأبي العز بن كادش ، وأبي القاسم الحريري ، ومحمد بن عبد الباقي الانصاري ، في آخرين • وسمع بالكوفة الشريف أبا البركات عمر بن ابراهيم [١٢٢] الزيدي •

وعاد الى بغداد فأقام بها يسمع الحديث والفقه والخلاف بالمدرسة النظامية[١٢٣] ويكتب ويحصل خمس سنين • ثم عاد الى دمشق •

ورحل الى خراسان على طريق اذربيجان ، ودخل نيسابور في سنة تسع وعشرين ، وسمع أبا عبدالله الفراوي ، وأبا محمد السيدي ، وزاهراً الشحامي ، وأخاه وجيها ، وبمرو من يوسف بن أيوب الهمذاني • وسمع ببسطام ، ودامغان ، والري ، وزنجان ، وسمنان •

وعاد الى دمشق يملي ، ويحدث ، ويصنف •

وسمع منه جماعة من شيوخه •

وكان اماما ، حجة ، ثقة ، نبيلا •

حدث ببغداد ، وروى عنه من اهلها أبو بكر بن كامل ، وكان أسن منه[١٢٤] •

قال سعد الخير[١٢٥] : ما رأينا في سن الحافظ أبي القاسم مثله ، وله من المصنفات : التاريخ • الاشراف على معرفة الاطراف • المعجم ، لاسماء شيوخه • الموافقات عن شيوخ الائمة الثقات ، اثنان وسبعون جزءا •

---

(١٢٢) توفي سنة ٥٣٩ (تاريخ الاسلام ، الورقة ٢٦٦ـ٢٦٧ من النسخة السابقة) .

(١٢٣) قد يلبس قول ابن النجار هذا فيظن القاريء انه لم يسمع الحديث بغير المدرسة النظامية ، والواقع ان الحافظ سمع في معظم محال بغداد كما يتضح من ذكره هذه المحال في معجم شيوخه .

(١٢٤) ولد ابو بكر المبارك بن كامل الخفاف سنة ٤٩٠ وتوفي سنة ٥٤٣ .

(١٢٥) ابو الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل الانصاري البلنسي الحافظ المشهور المتوفى سنة ٥٤١ (العبر ٤/١١٢ ، وراجع تعليقنا في هامش التكملة للمنذري ١/٢١٨) .

قلت : وأملى أربع مئة مجلسا في جامع دمشق ، وكان يختمها بأبيات من شعره . ولقد سمعت شيخنا عبدالوهاب[١٢٦] بن علي الامين يقول[١٢٧] : كنت يوما مع الحافظ ابي القاسم ابن عساكر وأبي سعد ابن السمعاني فمشي في طلب الحديث ولقاء الشيوخ ، فلقينا شيخا فاستوقفه ابن السمعاني ليقرأ عليه شيئا ، وطاف على الجزء الذى هو سماعه في خريطته[١٢٨] فلم يجده وضاق ، فقال[١٢٩] له ابن عساكر : ما الجزء الذي هو سماعه ؟ فقال : كتاب « البعث والنشور » لابن أبي داود ، سمعه من أبي النصر ابن النرسي[١٣٠] ، فقال له : لا تحزن . وقرأ عليه من حفظه ، أو بعضه . الشك من شيخنا .

وقرأت[١٣١] بخط الحافظ معمر بن الفاخر في معجمه : أخبرني ابو القاسم علي بن الحسن الدمشقي الحافظ من لفظه بمنى املاء ، وكان احفظ من رأيت من طلبة الحديث والشبان . وكان شيخنا اسماعيل[١٣٢] بن محمد يفضله على جميع من لقيناهم من اهل أصبهان وغيرها . قدم اصبهان ، وسمع،

---

(١٢٦) تاخرت وفاة عبدالوهاب المعروف بابن سكينة الى سنة ٦٠٧ هـ وهو زاهد العراق المشهور

(١٢٧) نقل هذه الحكاية غير واحد ، منهم الذهبي والسبكي وغيرهما .

(١٢٨) الخريطة : شيء كالحيبة من قماش او غيره يعلقها المحدث بجسمه ويضع فيها كتبه .

(١٢٩) في المستفاد : «قال» وما اثبتناه من السبكي .

(١٣٠) في طبقات السبكي : « الزيني » محرف ، وهو منسوب الى «نرس» النهر المشهور بالعراق (راجع الانساب للسمعاني) وانظر مشتبه الذهبي ٨٣ــ ٨٤ .

(١٣١) من هنا والى نهاية الفقرة نقلها الذهبي عن ابن النجار في تاريخ الاسلام (الورقة ٤٢ من مجلد احمد الثالث ١٤/٢٩١٧) وفي سير اعلام النبلاء ١٢/الورقة ٢٨٠ وتذكرة الحفاظ ١٣٢٣ مع بعض الحذف . ومعمر بن عبدالواحد هذا قرشي اصبهاني ولد سنة ٤٩٤ وتوفي سنة ٥٦٤ه وكان من الحفاظ المشهورين

(١٣٢) هو المعروف بالطلحي المتوفى سنة ٥٢٥ وقد سبق التعريف به .

ونزل في داري ، وما رأيت شابا أورع ولا اتقن ولا احفظ منه . وكان مع ذلك فقيهاً سنيا ـ جزاه الله خيرا وكثر في الاسلام مثله ـ أفادني في الرحلة الاولى والثانية ببغداد كثيرا وسألته عن تأخره في الرحلة الاولى عن المجيء إلى اصبهان فقال لم تأذن لي أمي[١٣٣] . (وقال السمعاني : أبو القاسم كثير العلم غزير الفضل حافظ ، ثقة ، متقن ، دين ، خيّر ، حسن السمت ، جمع بين معرفة المتون والأسانيد ،صحيح القراءة ، متثبت محتاط ، رحل وتعب وبالغ في الطلب الى ان جمع ما لم يجمع غيره ، وأربى على اقرانه . ودخل نيسابور قبلي بشهر أو نحوه في سنة تسع وعشرين فسمع بقراءتي وسمعت بقراءته مدة مقامنا بها ، الى ان اتفق خروجه الى هراة وخروجي الى اصبهان . واجتمعت به ببغداد بعد رجوعه في سنة ثلاث وثلاثين ، وسمعت منه كتاب « المجالسة » بدمشق ومعجم شيوخه . وكان قد شرع في التاريخ الكبير لمدينة دمشق وصنف التصانيف وخرج التخاريج)[١٣٤] . وبعد انصرافي الى خراسان كانت كتبه تصل اليّ وأنفذ اليه جوابها .

كتب اليّ ابو محمد القاسم بن علي بن الحسن بن هبةالله الشافعي ، قال : ولد ابي في المحرم سنة تسع وتسعين واربع مئة .

سمعت يوسف بن خليل بن عبدالله الدمشقي بحلب يقول : سمعت أبا محمد القاسم بن علي ابن هبدالله الشافعي يقول : توفي والدي ليلة الاثنين ثاني عشر رجب سنة احدى وسبعين وخمس مئة ، ودفن بمقابر باب الصغير .

---

(١٣٢) مابين المضادتين اضافة مني نقلتها من تاريخ الاسلام للذهبي لايماني

(١٣٣) الى هنا انتهى قول ابن النجار كما جاء في كتب الذهبي ومنها : تاريخ الاسلام .

(١٣٤) ما بين المضادتين اضافة مني نقلتها من تاريخ الاسلام للذهبي لايماني بان ابن النجار نقل هذا القول او اكثر منه او اقل عن السمعاني في ذيل تاريخ بغداد ، يدل على ذلك ما بقي من نقل عنه في الورقة ٢١٣ من نسخة الظاهرية من تاريخ ابن النجار وهو قوله : وبعد انصرافي الى خراسان ... الخ . وقد نقلنا ما تبقى من الترجمة عن المجلد المحفوظ بالظاهرية برقم ٤٢ وهو آخر ترجمة الحافظ ابن عساكر في تاريخ ابن النجار .

دور الخريطة في تدريس مادة الجغرافية في العراق

ـ بحث ميــــداني ـ

الدكتور فلاح شاكر اسود
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

يهدف البحث الى الوقوف على مدى استفادة المدارس في القطر من الخرائط في تدريس مادة الجغرافية باعتبارها احدى الوسائل الايضاحية الضرورية التي يستعين بها المدرس في مختلف المراحل الدراسية • وفي ضوء نتائج هذا البحث انتهى الباحث الى استخلاص بعض المقترحات والتوصيات التي من شأنها تطوير وتحسين الافادة من الخرائط كأداة رئيسية في عملية دراسة وتدريس مادة الجغرافية

ولاجل ان نقف على اهمية الخرائط ومدى الاستفادة منها في العملية التدريسية فقد تم الاعتماد على المرحلة المتوسطة في الدراسة • كعينة نموذجية من بين المراحل الدراسية الثلاث (الابتدائية والمتوسطة والثانوية) • ويمكن اجمال اهم المبررات التي حددت الباحث الى حصر نطاق بحثه في هذه المرحلة الى مايلي :

١ ـ ان مادة الجغرافيا في المرحلة المتوسطة من الدراسة تكون اكثر عمقا وتقدما منها في المرحلة الابتدائية ، وهي بالتالي تحتاج الى الاستعانة بالخرائط اكثر من احتياجها لها في المرحلة الابتدائية •

٢ـ ان المرحلة المتوسطة من الدراسة قياسا للمرحلة الاعدادية تعتبر أكثر منطقيا من الدراسة الموضوعية بأعتبار أن المرحلة الاخيرة ـ الاعدادية ـ تنقسم الى تخصيصات وفروع يكاد ينفرد فرع واحد فيها (الفرع الادبي) فقط في دراسة الجغرافيا بعمق كمادة منهجية مقررة • لذلك فان المرحلة المتوسطة تعتبر اكثر شمولا من لاحقتها • حيث تشترك جميع المدارس فيها بتدريس الجغرافيا كمادة منهجية ملزمة لجميع الطلبه •

٣ ـ اكمال تأليف الكتب الجغرافية المدرسية للمرحلة المتوسطة ، وتوزيعها على كافة الصفوف ولكافة المدارس ، بينما لازالت المرحلة الثانوية لم تشملها الكتب الجديدة لانها في مرحلة التأليف •

اما فيما يتصل بادوات البحث وعينته فقد اعد الباحث استبيانا يتضمن اربعة بنود رئيسية تغطي كافة جوانب الموضوع •فالبند الاول يتعلق بالوسائل التعليمية ومشاكلها ، في حين يدرس البند الثاني الكتاب المدرسي ومدى استفادة المدارس بالخرائط الواردة فيه ، بينما يبحث البند الثالث طرق التدريس والاسلوب المتبع في مناقشة الخرائط ومدى مساهمة الطلبة في ذلك من خلال الفعاليات التي يقومون بها • اما البند الرابع من الاستبيان فانه يتطرق الى الواجبات والامتحانات ومدى انعكاسها على اهتمام الطلبه بالخريطة ودورها في فهم المعلومات الجغرافية •

وقد تم الاستعانة بمديرية المناهج والوسائل التعليمية في وزارة التربية عند ارسال نسخ الاستبيان وعددها ٧٠٠ نسخة ، الى مديريات التربية في المحافظات بغية توزيعها على المدرسين المشمولين بالبحث في مختلف محافظات القطر لتغطية اكبر عدد ممكن من المدارس المتوسطة في العراق • وقد تم فرز الاستمارات الموزعة واعتمدة ٢٥٣ استمارة تشمل مختلف محافظات القطر •

وعلى الرغم من ان المجتمع الاحصائي موضوع البحث يعتبر من المجتمعات المتجانسة بحيث يمكن الاستعانة بعينة عشوائية بسيطة تفي بالغرض المطلوب(*) الا ان الباحث توخى الاستفادة من العلاقة الطردية بين حجم العينة ودقة النتائج وصولا الى تحديد المشاكل والعقبات المشتركة التي تحول دون الاستفادة القصوى من الخريطة على نطاق المدارس بشكل عام • ولعل ذلك كان سببا رئيسيا في عدم حصر العينة في محافظة واحدة ، بل تعدت ذلك لتشمل معظم مدارس القطر •

وفيما يلي نموذج الاستبيان الذي اعتمد عليه البحث(١) •

المحافظة   القضاء   الناحية

عدد المدرسين الذين يقومون بتدريس الجغرافية

متخصص   غير متخصص   المجموع

(*) الدكتور عبدالباسط محمد حسن ، اصول البحث الاجتماعي ط٣ منشورات مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧١ ص ٢٥١ •

(١) استند الاستبيان على المصادر التالية

أ ـ ن ، ف ، سكارف ، مقترحات في تدريس الجغرافية : ترجمة زكي الرشيدي ومحمود مرسي ، مطبوعات اليونسكو ، دار مصر للطباعة ، (بدون سنة) •

ب ـ نعيم يوسف صراف والدكتور محمد حسن ال ياسين ، اصول تدريس الجغرافية لدور المعلمات والمعلمين ، مطبعة دار المعرفة ، بغداد ١٩٥٤ •

جـ ـ مرجع اليونسكو تعليم الجغرافية ، ترجمة زكي الكرمي ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت (بدون سنة) •

د ـ Gopsill, G. H. The teaching of geography, Robert Maelehose, Co. Ltd, Glasgow 1967.

هـ ـ Long, M. Roberson, B. S. Teaching geography Morrson & Gibb London, 1968.

اولا : الوسائل التعليمية

أ ـ الخـرائط

١ ـ ماعدد الخرائط الموجودة في المدرسة

الصالحة للاستعمال	غير صالحة للاستعمال	المجموع

٢ ـ يرجى ذكر عدد الخرائط غير الصالحة للاستعمال مقابل كل سبب

ممزقـة

قديمـة

معلومات غير وافيـة

معلومات غير صحيحة

(سبب آخر يذكر رجاء)

المجموع

٣ ـ ماهي انواع الخرائط المتوفرة في المدرسة مع ذكر العدد امام كل نوع

	العالم	القارات	الاقطار	المجموع
خرائط اقليمية				
خرائط سياسية				
خرائط طبيعة				
المجموع				

٤ ـ ماهو توزيع الخرائط المتوفرة حسب القارات والاقطار

قارة اسـيا قارة امريكا الجنوبية

قارة اوربـا اسـتراليا

قارة افريقيا العراق

قارة امريكا الشمالية الوطن العربي

ب ـ الافلام الجغرافية الخاصة بالخرائط

١ ـ هل يوجد جهاز عرض للافلام في المدرسة ٨ ملمتر ١٦ ملمتر لايوجد

٢ ـ هل يوجد جهاز عرض للافلام في المدرسة ٨ ملمتر ١٦ ملمتر لايوجد

٣ ـ هل عرضت افـلام جغرافية نعم لا

٤ ـ الجهة التي استعنت بها في عرض الافـلام

مديرية الوسائل التعليمية

مركز وسائل الايضاح بالمحافظة

مصدر اخـر

جـ ـ التجهيزات

ماهو دور مديرية الوسائل التعليمية في تزويد المدرسة بالخرائط والاشكال والمجسمات

عدد الخرائط

عدد المجسمات

الكرات الارضية

وسائل اخرى

المجموع .

ثانياً : الكتاب المدرسي

١ ـ هل الخرائط الموجودة في الكتاب المدرسي توضح المعلومات الواردة فيه   نعم   لا

٢ ـ هل تكتفي بهذه الخرائط   نعم   لا

٣ ـ اذا كان الجواب بـ (لا) فكيف تعوض هذا النقص

ثالثا : طرق التدريس

١ ـ هل حاولت رسم خرائط على السبورة

مع كل درس   بعض الاحيان   لااستعمل

٢ ـ هل استعملت الطباشير الملون لتوضيح الظواهر على الخارطة المرسومة على السبورة   نعم   لا

٣ ـ هل خصصت درسا او قسما من درس لقراءة الخريطة وتوضيح مصطلحاتها   نعم   لا

٤ ـ هل يوجد على جدران الصفوف خرائط توضيحية   نعم   لا

اذا كان الجواب بنعم يرجى الاجابة على الاسئلة التالية :

مطبوعة مع ذكر الجهة التي طبعتها   العدد   موضوع الخريطة

ساهم الطلاب برسمها

ساهم المدرس برسمها

ساهم المدرس والطالب برسمها

٥ ـ هل تحتوي النشرات المدرسية على خرائط توضيحية   نعم   لا

٦ ـ هل يشترك الطلبة بتعيين الظاهرة على الخارطة الجدارية   نعم   لا

ام توضع الخريطة امامهم ويقوم المدرس بالشرح   نعم   لا

٧ ــ هل تعتمد على خرائط الكتاب ام الخرائط الجدارية ام الاطالس

٨ ــ اسم الاطلس الموجود في المدرسة العدد اسم الاطلس لغة الاطلس

٩ ــ هل وزعت هذه الاطالس على الطلبة واستملها اثناء الشرح نعم لا

رابعـا : الواجبات والامتحانات

١ ــ هل يمتلك الطلبه دفتر رسم الخرائط نعـم لا

٢ ــ هل يجري التصحيح للدفتر بانتظام وتوضع عليه الدرجات نعم لا

٣ ــ هل تحسب الدرجات ضمن المعدلات الفصلية نعم لا

٤ ــ هل يتحمس الطلبه عند تكليفهم برسم الخرائط نعم لا

اذا كان الجواب بـ (لا) يرجى وضع علامة امام السبب

نواحي ماليـة

عدم توفر المواد المطلوبة للرسم في السوق

عدم معرفة الطلاب الرسـم

اسباب اخرى (تذكر رجاء)

٥ ــ ماهي الطريقة التي يستعملها الطلاب في رسم الخرائط

الاستنساخ من الاطلس او الكتاب

التكبير والتصغير بواسطة المربعات

التكبير والتصغير الكيفي دون التقيد بمقياس الرسم

استعمال جهاز البانتوكراف او الفانوس السحري

٦ ــ ماهو تجاوب ادارة المدرسة لمطالب مدرس الجغرافية في توفير

الامكانيات لتهيئة الخرائط جيدة متوسط ضعيف

٧ ــ هل لعدم ورود سؤال في الامتحانات الوزارية علاقة باهمال الخرائط   نعـم   لا

٨ ــ هل اعطيت اسئلة في الامتحانات المدرسية عن الخرائط نعم لا

٩ ــ ماهي الطريقة التي اتبعتها في اعطاء الخريطة بالامتحانات المدرسية

وزعت خرائط صماء

الشرح مع استعمال الخريطة •

طرق اخرى (يرجى ذكرها) •

تحليل نتائج الاستبيان

اتضح من الاستبيان ان عدد المدرسين المتخصصين ١٣٠ متخصصا من اصل ٢٥٢ وان ١٠٣ غير متخصصين و ١٩ لم يذكروا شيئا ، وبذلك يلاحظ مايلي

نسبة التخصيص الى المجموع الكلي ٥٩ر٥١٪

نسبة غير المتخصصين الى المجموع الكلي ٨٧ر٤٠٪

نسبة غير المبين الى المجموع الكلي ٥٤ر٧٪

واذا اعتبرنا غير المبين هم غير متخصصين ايضا فتكون نسبة غير المتخصصين الى المجموع الكلي ٤١ر٤٨٪ وهذا يوضح بان عدم الالتزام بالاختصاص الدقيق لازال سائدا في مدارسنا ، فرغم عدم احتياجات مديريات التربية في المحافظات الى متخصصين في الجغرافيا لتدريسها ، فان نسبة كبيرة تقارب النصف من القائمين على تدريس المادة من غير الاختصاص ، وهذا يوضح بان توزيع المدرسين غير عادل بين المدارس ، فتركيزهم يتم في بغداد ، ثم في مراكز المحافظات وفي الاعمال الادارية

الوسائل التعليمية

أ ـ الخرائط التي تملكها المدارس

تبين من الاستبيان ان اغلب الموجود من الخرائط في المدارس هي خرائط غير صالحة للاستعمال حيث احتلت نسبة ٨٧٫٥٪ وان سبب عدم صلاحيتها هو

خرائط ممزقة بنسبة ٤٨٫٤٪ من مجموع الخرائط غير الصالحة للاستعمال

خرائط قديمة بنسبة ٣٥٫٧٪ من مجموع الخرائط غير الصالحة للاستعمال

خرائط معلوماتها غير وافية بنسبة ٥٫٤٪ من مجموع الخرائط غير الصالحة للاستعمال

خرائط معلوماتها غير صحيحة بنسبة ٨٫٥٪ من مجموع الخرائط غير الصالحة للاستعمال

أسباب اخرى ٢٪ من مجموع الخرائط غير الصالحة للاستعمال

وهذا يوضح النقص الشديد الذي تعانيه مدارسنا من الخرائط ، مما يزيد العبء على مدرسي الجغرافيا في افهام الطلبه المادة النظرية . وبذلك ابتعدت مدارسنا عن التطبيق العملي واقتصرت على الطريقة القائمة على الحفظ والتلقين لمحتوى الكتاب من دون فهم مبصر وتصور واضح له . وهذه الطريقة تبعث السأم والملل في نفوس الطلبة . وتجعل تعلمهم لمادة الجغرافية تعلما لفضيا اليا قصير الاثر .

ورغم ان نسبة الخرائط الصالحة للاستعمال تمثل ١٢٫٥٪ فانها موزعة بحسب تخصصها كما يلي :

خرائط طبيعية ٤٨٫٦٪

خرائط سياسية ٣١٫٦٪

خرائط العالم ١٩٫٨٪

اما بالنسبة لخرائط القارات فقد وجدت موزعة كما يلي :

الخرائط الطبيعية ٤٥٪

الخرائط السياسية ٣٧٪

الخرائط الاقليمية ١٨٪

وخرائط الاقطار موزعة كما يلي

الخرائط الطبيعية ٤٤٪

الخرائط الاقليمية ٣٠٪

الخرائط السياسية ٢٦٪

يتضح من ذلك بأن أغلب خرائط القارات المتوفرة لدى المدارس تخص الجانب الطبيعي ثم الجانب السياسي وأخيراً الجانب الاقليمي .

وقد احتلت الخرائط الممثلة للاقطار المكانة الاولى بين الخرائط المتوفرة في المدارس ، حيث كونت نسبة ٥٢ر٥٪ ، والخرائط الممثلة للقارات نسبة ٣٢ر٦٪ وخرائط العالم نسبة ١٤ر٩٪

ولتوزيع الخرائط حسب القارات والاقطار ، يتضح بأن خرائط العراق والوطن العربي احتلت المرتبة الاولى وهي اكثر من نصف الخرائط ، وماتبقى موزع بين القارات الاخرى ،

يوضحه الجدول التالي :

خرائط العراق الى المجموع الكلي	٥٥ر١٪
خرائط الوطن العربي الى المجموع الكلي	
خرائط قارة اسيا المجموع الكلي	١٠٪
خرائط قارة افريقية المجموع الكلي	٩ر٨٪
خرائط قارة اوربا المجموع الكلي	٨ر٨٪
خرائط قارة استراليا المجموع الكلي	٥ر٦٪
خرائط قارة امريكا الشمالية المجموع الكلي	٥ر٥٪
قارة امريكا الجنوبية المجموع الكلي	٥ر٢٪

ولدى الرجوع الى تجهيزات مديرية الوسائل التعليمية للمدارس خلال الاعوام العشرة الماضية اتضح مايلي[٢]

عنوان الخريطة	العدد الموزع على مدارس العراق	السنة
خريطة العراق الادارية	٦٤٥٠	١٩٦٨
خريطة الوطن العربي	٦٢٥٠	١٩٦٨
توزيع الضغط والرياح لشهر كانون الثاني	١١٠٠	١٩٧١
توزيع الضغط والرياح لشهر تموز	١١٠٠	١٩٧١
خطوط الحرارة المتساوية لشهر كانون ثاني	١١٠٠	١٩٧١
خطوط الحرارة المتساوية لشهر تموز	١١٠٠	١٩٧١
المناخ في الوطن العربي (صيفا وشتاء)	١٥٠٠	١٩٧٣
المعدل السنوي للامطار في بعض مدن الوطن العربي	١٥٠٠	١٩٧٣
الخليج العربي	٧٨٠٠	١٩٧٣
سطح العراق	٧٨٠٠	١٩٧٣
بلاد الشام	٩٠٠٠	١٩٧٥
فلسطين الطبيعية	١٢٠٠٠	١٩٧٦
الوطن العربي ـ طبيعية	١٢٠٠٠	١٩٧٦
الوطن العربي أدارية	٨٥٠٠	١٩٧٦
المطر السنوي للوطن العربي	١٥٠٠	١٩٧٦
العراق الادارية ـ الجديدة	١٢٠٠٠	١٩٧٧
مشروع الثرثار	٢٠٠٠	١٩٧٧
الري في العراق	٢٠٠٠	١٩٧٧
العالم ـ طبيعية	١١٥٠٠	١٩٧٨

(٢) وزارة التربية المديرية العامة للمناهج والوسائل التعليمية سجل المصورات (غير مطبوع) .

ومن ملاحظة توزيعات مديرية الوسائل التعليمية ، اتضح بان الخرائط التي تخص الوطن العربي تمثل ٥٠٪ ، وكل من الخرائط التي تخص العراق والعالم ٢٥٪ على التوالي • وان خرائط العالم الخمسة خرائط طبيعية احداهما تمثل التضاريس والاربع الاخرى تمثل عناصر المناخ •

وبعد مقارنة هذه الخرائط مع المنهج الدراسي للصفوف الثلاث ، يتضح بان خرائط العالم يمكن الاستفادة منها في الصفوف الاولى من المدارس المتوسطة حيث يدرس كتاب مبادىء الجغرافيا العامة ، وخرائط الوطن العربي تخص الصف الثاني حيث يدرس كتاب جغرافية الوطن العربي وخرائط العراق تخص الصف الثالث ، حيث يدرس كتاب جغرافية العراق وبعض الاقطار المجاورة •

ب ـ الافلام التي تتضمن الخرائط

ان عرض الافلام كوسيلة مساعدة في فهم مادة الجغرافيا لايعوض عن استعمال الخارطة وتوفرها ، كما تربط الطالب بالمادة التي يدرسها ويحببها اليه •

وقد تبين من الاستبيان ان ٩٨ر٥٨٪ من مجموع الاجابات بان مدارسهم لاتملك جهاز عرض للافلام ، و ٩١ر٦٪ لاتملك جهاز عرض السلايدات • ونتيجة لذلك فان عرض الافلام سيكون معدوما تقريبا • ومن الاجابات كذلك يتضح بان ٩١ر٤٪ من المدارس لم تعرض الافلام • وان الافلام التي تخص الخرائط محدودة جدا ، حيث بلغت نسبة الاجابة بالنفي ٩٩٪ •

ولدى احصاء عدد الافلام التي تحويها مكتبة مديرية الوسائل التعليمية التابعة الى وزارة التربية تبين انها ٢٠٨١ فلما ، منها ١١٣٤ فلما متحركا و ٩٤٧ فلما ثابتا • وتمثل الافلام التي تخص الجغرافيا نسبة ١٢ر٦١٪ من

مجموع الافلام المتحركة ، تنخفض النسبة الى ٦٫٨٧٪ بالنسبة للافلام المتحركة والثابتة • اما الافلام التي تخص الخرائط فهي اربعة افلام فقط باللغة الانكليزية • وبذلك تحتل هذه الأفلام نسبة ٢٫٧٩٪ من مجموع الافلام الجغرافية وهذه الافلام هي[٣]

١ ــ خطوط الطول والعرض : ١٠ دقائق باللغة الانكليزيه ويشمل المبادىء التي تستند عليها خطوط الطول والعرض ودورها في تعيين المواقع المختلفة

٢ ــ فهم الخريطة : ١١ دقيقة ، ويشمل العلاقة بين الخارطة البسيطة والمساحة الجغرافية التي تمثلها انواع الخرائط •

٣ ــ الخريطة لعالم متغير : ١١ دقيقة باللغة الانكليزية ويشمل مفهوم خريطة العالم ويشرح الفرق بين الخرائط الكروية والمسطحة •

٤ ــ ماالخريطة : ١٠ دقائق باللغة الانكليزية ، ويشرح فهم طبيعة الخرائط

ورغم وجود هذه الافلام في مديرية الوسائل التعليمية ، فان الاستفادة منها لازال محدودا ، وقد بلغت نسبة الذين لايستفيدون من هذه الافلام ٨٥٫٧٪

ولدى تدقيق سجلات استعارة الافلام في مديرية الوسائل التعليمية الى المحافظات خلال السنوات التسع الاخيرة يتضح مايلي[٤]

(٣) وزارة التربية ، المديرية العامة للمناهج والوسائل التعليمية دليل الافلام التعليمية المتحركة والثابتة والشرائح مطبعة اوفسيت الاخلاق ، بغداد بدون سنة) •

(٤) وزارة التربية ، المديرية العامة للمناهج والوسائل التعليمية سجلات . اعارة الافلام للمحافظات (غير مطبوع) ١٩٧٠ ــ ١٩٧٨ •

المحافظة	١٩٧٠	١٩٧١	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	٩٧٨
دهوك	—	—	—	—	—	—	—	—	٢
اربيل	١	٥	٣	٣	٨	٤	٧	٥	—
السليمانية	٥	٣	٤	٧	٤	٢	٦	٢	—
التاميم	٩	—	—	٥	٥	٢	٢	—	—
نينوى	٧	—	—	٣	٦	—	—	—	—
ديالى	١٢	٨	—	—	—	٦	—	—	—
الانبار	٣	٣	١	—	٨	٣	٤	—	—
واسط	٣	٥	٢	—	٣	١	١	—	٥
بابل	٢	٢	١	١	٣	٢	٧	—	٣
كربلاء	١٣	٣	٦	٧	٦	٥	٧	٤	١
صلاح الدين	—	—	—	—	—	—	—	—	٢
النجف	—	—	—	—	—	—	—	—	—
ذي قار	—	١	—	—	١	٢	٤	—	—
القادسية	—	٣	—	—	—	—	١	١	—
ميسان	٥	—	—	—	—	—	—	—	٢
المثنى	—	—	—	٣	٤	—	—	١	—
البصرة	١	٣	—	١	٢	١	٢	—	—
بغداد	٢	١٨	٣٣	٥٤	١٢	٢٨	٨٤	٥١	١١٢
المجموع	٦١	٥٤	٥٠	٨٤	٦٣	٥٦	١٢٤	٦٤	١٣٧

يلاحظ من الجدول ما يلي :

١ ـ ان عدد الافلام المستعارة قليل جداً •

٢ ـ ان هنالك بعض المحافظات لم تستفد من الافلام اطلاقا • وان محافظة بغداد استفادت اكثر من غيرها بسبب قربها من مديرية الوسائل

التعليمية ، وكثرة عدد المدارس فيها • ولكن لايعتبر ذلك ميزة لها ، لان عدد الافلام المستعارة من قبلها بحكم موقعها هو عدد ثانوي لاقيمة له

٣ ـ لقد وزعت وزارة التربية جهازي عرض سينمائي كاملة لكل محافظة وجهاز عرض سلايدات • وان هذه الاجهزة تحفظ في مراكز المحافظات ، ولايمكن نقلها الى الاقضية والنواحي للاستفادة منها ، كما لايمكن الاستفادة منها حتى في نفس مركز المحافظات لصعوبة نقله الى المدارس •

ثالثا : الكتاب المدرسي

اكدت ٨٣٪ من الاجابات بان الخرائط التي تحويها الكتب الجديدة توضح المعلومات الواردة فيها ، ولكن رغم ذلك فان هذه الخرائط لاتعتبر كافية للمدرس للاستعانة بها لافهام الطلاب • وقد وضحت ٤٩٪ من الاجابات ذلك ، واعتبرت ان هذه الخرائط لايمكن الاكتفاء بها •

ومن حصر الخرائط الموجودة في الكتب الدراسية الثلاث وجدنا مايلي

١ ـ كتاب الصف الاول المتوسط ـ مباديء الجغرافية العامة(٥)

يحتوي على ٣٨ خريطة موزعة كمايلي

الباب الاول ـ الارض ، شكلها حركتها

طبيعة تكوين الكرة الارضية ، اليابس والماء والمناخ/٢٣خريطة

النبات الطبيعي	١
السكان	٢

(٥) الدكتور وفيق حسين واخرون ، مباديء الجغرافية العامة ، مطبعة الانتصار بغداد ١٩٧٨

الباب الثاني   التنوع الاقليمي

قارة اوربا ، اسبانيا	٦
قارة امريكا الجنوبية البرازيل	٦

٢ ـ كتاب الصف الثاني متوسط ـ جغرافية الوطن العربي[٦]

يحتوي على ٣٨ خريطة موزعـــه كما يلي

الباب الاول : مساحته ، شكله ، حدوده ، موقعه	٣
الخصائص الطبيعية	١٠
الحيـــاة الاقتصادية	١٢
الســـكان	٢
الباب الثاني الدول الافريقية المجاورة للوطن العربي	٥

٣ ـ كتاب الصف الثالث المتوسط ـ جغرافية العراق وبعض الاقطار المجاورة[٧]

يحتوي على ٢٨ خريطة موزعة كما يلي

الباب الاول : الظروف الطبيعية للعراق	١٣
الحياة الاقتصادية في العراق	٩
السكان في العـراق	٣
الباب • الثاني تركيا وايران	٣

ورغم ان هذه الكتب تعتبر خطوة جيدة ومتقدمة في هذا البـــاب بمقارنتها مع الكتب القديمة ، حيث استعملت فيها الخرائط الملونة لاول مرة فانها لازلت عاجزة عن ان تقدم للطالب ماينبغي ان تقدمه في موضوع الخرائط • فلا زال كثير من الخرائط التي تحويها غير وافية ، وتحتاج الى تبديل او توضيح ، لايتسع المجال هنا لمناقشة ذلك •

(٦) الدكتور ابراهيم شريف واخرون ، جغرافية الوطن العربي . مطبعة أوفسيت السعدون ، بغداد ١٩٧٨ .

(٧) الدكتور حسن عليوي خياط واخرون ، جغرافية القطر العراقي وبعض الدول المجاورة ، مطبعة الشرق الاوسط ، بغداد ١٩٧٨ .

أما عن تعويض النقص فقد أوضح الاستبيان ٦١ر٨٪ من المدرسين يستعينون بالرسم على السبورة ، و١٤ر٥٪ يستعينون بالخرائط المرسومة من قبل الطلبة و ١٢ر٥٪ يستعملون الخرائط الجدارية ، و ٩ر٤٪ يستعملون الاطالس و ١ر٨٪ يستعملون وسائل ايضاح اخرى •

ويبدو ان تعويض النقص لم يتم بصورة جيدة ، الا في حالة واحدة هي استعمال الاطالس ، ورغم ذلك فان الاعتماد على الاطالس لازال محدودا وذلك بسبب قلتها لدى المدارس ، وما توفر منها فان نسبة ٩٨ر٨٪ هي الاطالس العربية ، وهذا النوع من الاطالس لازال دون المستوى الجيد المطلوب واغلبها اطالس تجارية يلتمس اصحابها الربح السريع •

ثالثا طرق التدريس

لقد حاول البحث معرفة دور المدرس في تأكيده على رسم الخرائط ، فجاءت النتائج حول رسم الخريطة على السبورة ، بان ٥٧٪ يرسم الخرائط بعض الاحيان ، و ٤٢٪ يرسم في كل درس •

وحول توضيح الظواهر المختلفة على الخرائط فان ٨٩٪ من المدرسين يستعملون الطباشير الملون لذلك ، وهذه النسبة جيدة وينبغي تشجيع المدرسين على مواصلة تطبيقها •

وحول تخصيص درس او جزء منه لقراءة الخريطة ، فقد اوضحت الاجابات بان ٨٩٪ منهم يخصص ذلك • ورغم عدم كفاية ذلك ، فانه لازال ١١٪ لم يخصص حتى اقل من درس واحد لقراءة الخريطة وفهمها حتى يستطيع الطالب الاعتماد على الخريطة في البيت •

ووجد من تفاصيل الاجابات بان الخرائط الموجودة على جدران المدرسة والصفوف قليلة العدد ، وقد ساهم في رسم اغلبها المدرس والطالب معا اما المساهمات الفردية للمدرس او الطالب فهي محدودة •

وحول نشاط الطلاب اللاصفي اتضح بان نسبة ٧٨٪ من النشرات المدرسية تحتوي على خرائط توضيحية للمقالات المنشورة فيها ، موجودة هذه الخرائط سوف يعود الطالب على الربط بين المادة الجغرافية والخريطة .

وحول نشاط الطلاب داخل الصف ، فان ٥٨٪ من الاجابات اوضحت اشتراك الطلبة مع المدرس في تعيين الظاهرة على الخريطة التي امامهم . و ٣٩ر٤٪ منهم يكتفي المدرس بالشرح لوحده على الخريطة دون اشتراك الطلاب ، ٢ر٦٪ فقد يكتفي المدرس بوضع الخريطة امامهم . وهذا يوضح بأن الطريقةالمتبعة في مدارسنا هي طريقةخاطئة حيث تعلقالخارطة علىالجدار أو السبورة امام الطلاب ، ويشير اليها المدرس أثناءالشرح أو لا يشير اليها ، وينظر اليها الطلاب من بعيد بما لا يحقق للطالب امكانية تحديد مكانالظاهرة أو شكلها بشكل دقيق وصحيح ، وبذلك تفقد قيمتها العلمية .

رابعا : الواجباب والامتحانات

للواجبات والامتحانات دور كبير في اثارة اهتمام الطلاب في مدارسنا نحو المواد التدريسية . وان تأكيد المدرس في هذين المجالين على الخرائط سوف يزيد من مضاعفةجهود الطلبة وتحسسهم لتعلمرسم الخرائط والاستعانة بهـــــا .

ومن الاجابات يتضح بان اغلب المدرسين يقررون على الطلبة امتلاك دفتر للخرائط . حيث بلغتالنسبة ٩٩٪ ، ويصحح الدفتر بأنتظام ، وتوضع عليه الدرجات ، حيث بلغت النسبة ٩٨٪ . واحتساب الدرجات الموضوعة ضمن المعدلات الفصلية تم بنسبة ٩٥٪ . والنتيجة المتوقعة من هذه النسب الجيدة هو اهتمام الطلاب بهذه الدفاتر . وقد اوضحت ٨٠٪ من الاجابات بان الطلبة يتحمسون عند تكليفهم من قبل المدرس برسم الخرائط .

أما النسبة الباقية التي لاتتحمس للرسم فيعود الى أسباب عديدة توضح كما يلي :

عدم معرفة الطالب بالرسم بنسبة ٥١٫٧٪ من الـ ٣٠٪ •

الناحية المالية ١٣٫٥٪ من الـ ٣٠٪ •

عدم توفر المواد المطلوبة في السوق ١٢٫٤٪ من الـ ٣٠٪ •

اسباب اخرى ٢٢٫٤٪ من الـ ٣٠٪ •

واني اعتقد بان عدم معرفة الطالب الرسم هو الاساس في عدم تحمسه لرسم الخريطة • لان مجانية التعليم • ورخص المستلزمات التي يتطلبها رسم الخريطة ، ينفي جميع الاسباب الاخرى •

اما الطريقة التي يستخدمها الطلاب في رسم الخرائط فقد اوضحت الاجابات بان ٤٠٫٥٪ هي الاستنساخ من الاطالس ، و ١٨٫٦٪ استعمال طريقة المربعات و ٣٨٫٧٪ من الطلبه يرسمون الخرائط دون الالتزام باي طريقة من طرق رسم الخرائط الصحيحة •و ٢٫٢٪ استعمال البانتوكراف والفانوس السحري وهذا يوضح بانه لازالت هناك نسبة عالية من الطلبة تستعمل الطريقة الخاطئة وهذا مايستدعي الى تكريس الجهود لاجل انهاء ذلك لما فيه من خطورة كبيرة•

وحول الاسئلة في الامتحانات النهائية او علاقتها برسم الخرائط، اوضح ٩٦٪ من المدرسين بانهم يعطون اسئلة في الامتحانات المدرسية عن الخريطة والطريقة المتبعة كما يلي :

١٫٦٧٪ يعطي سؤالا يطلب فيه الشرح • ثم رسم الخارطة التي توضح ماشرحة

٤٫٣٦٪خرائط صماء

٥٫٦٪ طرق اخرى

أما الامتحان الوزاري للصف الثالث ، فيبدو ان الاسئلة تهمل الخرائط او حتى التأكيد عليها • مما لا يشجع المدرس والطالب على التأكيد على الخرائط وان ٤٦٫٥٪ من الاجابات اوضحت بان عدم ورود سؤال في الامتحانات الوزارية له علاقة باهمال الخريطة •

اما عن تجاوب ادارات المدارس لمطالب مدرس الجغرافية ، فان ٨٣٫٥٪ اوضحت انها جيدة و١٥٪ متوسطة و ١٫٥ غير جيدة وهذا يوضح بان المجال امام مدرس الجغرافية واسع للعمل طالما ان ٩٨٫٥٪ من هذه الادارات متجاوبة معه •

التوصيات والاستنتاجات

١ ـ التأكيد على ادارات المدارس الالتزام بالتخصص عند توزيع الدروس ، واعادة النظر في توزيع مدرسي الجغرافية بين المدارس ، وعدم تركزهم في مراكز المحافظات واشغالهم في الاعمال الادارية •

٢ ـ لازالت المدارس تفتقر الى الخرائط الكافية التي تسمح للمدرس التحرك بحرية بما يخدم الموضوع ، ولازال الكادر الذي تعتمد عليه مديرية الوسائل التعليمية في اعداد الخرائط ، لايتلائم مع امكانية تحقيق هذا الهدف ويتطلب ذلك تأليف لجنة يشترك فيها المتخصصون في موضوع رسم الخرائط من اساتذة الجامعة لوضع خطة لاكثر من سنة لتحديد الخرائط التي ترسم والتي تحتاجها المدارس • وتقوم بالاشراف العلمي على مايعده كادر وزارة التربية من الخرائط •

٣ ـ اعداد مجموعة من الخرائط الصامته لكل مرحلة دراسية توزع على طلبة المدارس • لان هذه الخرائط تحدد مقدار اتقان الطالب للمادة • فالطالب الذي يتقن موقع الظاهرة يستطيع ان يضعها بسهولة ودقـة •

٤ ـ تزويد المدارس سنويا بالحد الادنى من الاحتياجات الضرورية لاعداد الخرائط كالورق واقلام الرسم والحبر الصيني والالوان المختلفة ، او تخصيص مبالغ الى ادارات المدارس لشراء هذه الاحتياجات ، وخصوصا ان الجهة التي توفر هذه المستلزمات هي مؤسسات القطاع الاشتراكي مما يسهل ذلـك •

٥ ـ الاستعانة بمديرية المساحة العامة لتزويد كافة المدارس بخرائط ذات مقياس كبير تخص العراق والمحافظات ، ويفضل وضع نسخة من هذه الخرائط في مكان بارز من المدرسة ، ويعين عليها موقع المدينة او القرية ، ولو اتسع الامر الى امتلاك خريطة للمدينة يوضع عليها موقع المدرسة ، كي ينظر الطلبة الى الخارطة كوسيلة ايضاح عملية الى جانب الاستفادة منها في السفرات القصيرة •

٦ ـ تشجيع اقامة المعارض الجغرافية ، في الفصل الثاني من العام الدراسي ، وفي مراكز المحافظات ، يخصص فيها جوائز للمدارس الفائزة • لاجل حث مدرسي الجغرافية والادارات على الاهتمام باعداد خرائط تختلف عما تعده وزارة التربية ، وتشجع الطلاب على الرسم •

٧ ـ تخصص غرفة خاصة لمرسم الجغرافية وعرض الافلام ، مستقلا عن مرسم التربية الفنية ، وليس تابعا له ، ويفضل انتقال الطلاب اليه خـلال الساعات العملية كما ينتقلوا الى غرف المختبرات • حتى لايضطر المدرس الى نقل كثير من المستلزمات التي يحويها المرسم •

٨ ـ زيادة الحصص المخصصة لتدريس مادة الجغرافية من ساعتين اسبوعيا الى ثلاث ساعات ، وتخصص الساعة الاضافية كساعة عملية للتأكيد على رسم ودراسة الخريطة •

٩ ـ زيادة الوسائل التوضيحية في فهم المادة الجغرافية كعرض الافلام الجغرافية او السلايدات والاستعانة بالكرات الارضية ، واستخدام الاشكال البيانية التوضيحية وغيرها ورغم ان مكتبة مديرية الوسائل التعليمية غنية بالافلام والسلايدات فان الاستعانة بها لازال معدوما ، لان ذلك قد وضع على عاتق المدرس ، مما عطل الاستفادة من هذه الافلام ، وانني ارى ان توضح خطة في مديرية الوسائل التعليمية ومراكزها في المحافظات ، اوعلى ضوئها توزع الافلام على المدارس خلال اشهر السنة لعرضها على الطلبه .

١٠ـ التأكيد على مديرية المناهج والكتب بالفصل بين المادة العلمية للكتاب الجغرافي المؤلف والخرائط والاشكال التي يحتويها ، لان اغلب الكتب المؤلفة جيدة من الناحية العلمية ، ولكنها غير جيدة من حيث اعداد الخرائط التي تظمها ، وغير موفقة في اختيار الاشكال البيانية والرسوم التوضيحية ، بالاضافة الى الاخطاء العلمية التي تحتويها هذه الخرائط سواء في اطارها الفني او العلمي . لذا يقترح عرض خرائط كل مؤلف على المتخصصين برسم الخرائط من اساتذة الجامعة ، او تكليفهم برسم هذه الخرائط وتسليمها جاهزة للطبع وهذا افضل وخصوصا ان المديرية في مرحلة اعادة طبع هذه الكتب الجغرافية الجديدة .

١١ ـ ادخال موضوع الخرائط ضمن المناهج الدراسية كموضوعا مستقلا توزيع فصوله على الكتب المدرسية المقررة ، حتى يستطيع الطالب ان يلم بالموضوع عن فهم وادراك .

١٢ ـ التأكيد على مدرس الجغرافية اشراك الطلاب في استعمال الخارطة الصفية عند تحديد الظواهر او المناطق التي يرد اسمها اثناء الدرس ، وبذلك نحقق مشاركة الطالب مع المدرس للاستفادة من الخريطة ، بدلا من اعتبارها صورة معلقة امام الطلاب ينفرد فيها المدرس لوحده بالاشارة اليها او عدم الاشارة .

١٣ــ استخدام الخريطة في السفرات التي يقوم بها الطلاب ، وبذلك نحقق للطالب ربط دراسته النظرية مع دراسته الميدانية •

١٤ــ اعداد دورات صيفية لمدرسي الجغرافية والقائمين على تدريسها ، لتدريبهم على طرق رسم الخرائط وقراءتها ، حتى يستطيع المدرس تعويد الطلاب على استعمال الطرق الصحيحة عند تكليف الطلاب برسم الخرائط •

١٥ــ التأكيد على المشرفين على طرق التدريس في مادة الجغرافية الذين يزورون المدارس في بغداد والمحافظات ، الاهتمام بدور الخريطة كوسيلة ايضاح ضمن التدريس ، وحث المدرسين على استعمالها باستمرار ، وتقديم كشف مفصل لاحتياجات المدارس يقدم الى مديرية الوسائل التعليمية للاهتداء به كمسح ميداني عند وضع خطة اعداد الخرائط •

١٦ ــ التأكيد على لجنة وضع الاسئلة الوزارية ، بادخال الخريطة الصماء ضمن الاسئلة التي تعطى للطلاب ــ لحث المدرس والطالب على الاهتمام بالخريطـــة •

فصورة الارض الصحراوية الجافة ، شديدة الحرارة ، قليلة النبات والحيوان ، وما يرتبط بها من حياة بدوية لسكانها ،طغت على معظم الدراسات التي تناولت تاريخ العرب القديم ، واعتمدت بشكل كبير في تفسير أحداثه • وان اعتماد هذه الصورة في تفسير اسباب هجرة سكان الجزيرة العربية القدماء فيما يعرف بالهجرات السامية ليست بعيدة عن الاذهان • وذهب بعض الباحثين لأكثر من ذلك عندما ارجعوا النتاجات الحضارية العربية القديمة في مجالي العمارة والفنون الى تأثيرات الاقوام المجاورة ، وانها دخلت ارض جزيرة العرب عن طريق الاحتكاك بين العرب والامم المجاورة وهو الامر الذي حدث متأخرا بسبب الصلات التجارية ، وقد استفاد بعض هؤلاء الباحثين لدعم تفسيراتهم من بعض التشابه القائم بين عناصر حضارية عربية واخرى أغريقية او فارسية [1] ولكننا نعرف ان من اساسيات الحضارات المتقدمة شدة تفاعلها مع بعضها البعض اخذا وعطاء •

ومثلما كانت هذه الصورة المرسومة لاحوال البيئة العربية القديمة مشجعة لهؤلاءالباحثين ، كان نقص المعلومات عن مخلفات العرب الاقدمين مؤيدا لاستنتاجاتهم من جانب آخر •

ان اعمال الاستكشاف والتنقيب الاثريين الواسعة التي تشهدها مناطق مختلفة من جزيرة العرب في السنوات الاخيرة كفيلة الى حد بعيد بتغيير هذه الصورة ، او جانب منها ؛ وهي تواصل تقديم ادلة جديدة عن واقع حضاري متقدم للعرب القدماء على ارضهم في جزيرة العرب وضمن واقع بيئي مغاير لما هو عليه الان تماما •

---

(١) Gus van Beek : "South Arabian History and Archaeology"

تعريف بالجزيرة العربية واحوالها البيئية

الجزيرة العربية ارض مترامية الاطراف تبلغ مساحتها زهاء (١٫٢٠٠٫٠٠٠) ميلا مربعا ، وهي تحتل الاقسام الجنوبية الغربية من قارة آسيا ، تحيطها البحار من ثلاث جهات فهي شبه جزيرة ، لكن البلدانيين العرب المسلمين جوزوا تسميتها « جزيرة العرب » ان ابرز مايميز ارض جزيرة العرب ثلاثة اشكال من التضاريس :ـ

١ ـ الجبال في الاقسام الغربية المتاخمة للبحر الاحمر ، وفي الاقسام الجنوبية ابتداء من مضيق باب المندب وحتى رؤوس الجبال عند مضيق هرمز (رأس مصندام)

٢ ـ الهضاب . وتغطي معظم اقسام الجزيرة العربية مما يلي مناطق الجبال ، وهي عبارة عن بحار من الرمال الواسعة تتناثر في بعض اقسامها تنوءات صخرية اعتاد العرب على تسميتها بالجبال ، وهي معالم بارزة يستدل بها في منطقة شاسعة وتتشابه في مواصفاتها .

٣ ـ الواحات ، وتتوزع في مناطق متفرقة من ارض الجزيرة ، ولكنها تكثر غالبا على الاطراف وبخاصة الجهات الشرقية ، كما نجدها احيانا في مناطق الوسط .

وعلى الرغم من اختلاف هذه التضاريس فان الطبيعة الصحراوية والارض الرملية تمثلان الصفة البارزة لاكثر من ٤/٥ مساحة جزيرة العرب ، وحتى المناطق الجبلية في جزيرة العرب تبدو غالبيتها جرداء قليلة الغطاء النباتي مما يجعلها تشابه الارض الصحراوية من حيث بيئتها واحوالها .

ومما يزيد من جفاف جزيرة العرب وشدة حرارتها وغلبة الطبيعة الصحراوية عليها انها لاتعرف انهارا كدجلة والفرات والنيل وامطارها قليلة جدا ، حيث تحجز سلسلة جبال تهامة الرياح العكسية الممطرة عن التوغل في

أعماق الارض العربية ، كذلك تفعل السلاسل الجبلية الجنوبية في حجز الرياح الموسمية • وما يتجاوز هذين الحاجزين من الرياح المحملة ببخار الماء يصادف ضغطاً عالياً بسبب الحرارة الشديدة فتتصاعد عاليا في طبقات الجو وتسير نحو الشرق أو تتلاشى في طبقات الجو العالية واذا تهيأت الظروف المناخية لاسقاط المطر على ار ض الجزيرة العربية وذلك مايحدث في الشتاء والربيع ،فهو يروي بعض الظمأ ،وقبل ان ترتوي بعض الحشائش والشجيرات العطشى تبتلعه الارض الرملية وتخزنه في جوفها ليتدفق عبر طبقات صخرية حتى يجد بعض المنافذ عند الواحات في اطراف الجزيرة فيتدفق ليملأ الارض خيرا وعطاء •

ويكون طبيعيا ان مثل هذه الظروف البيئية تناسب انواعا معينة من الحيوانات والنباتات التي لها من المواصفات التركيبية ما يتناسب مع هذه الخصائص الحياتية ، من ذلك مثلا الابل من بين الحيوانات وانواع خاصة من الشجيرات من صنف الشوكيات التي تتناثر هنا وهناك على ارض الجزيرة العربيـــــة •

ومن الطبيعي ايضا الا تتناسب هذه الظروف البيئية مع حياة مستقرة متطورة ، لذلك كانت البداوة سمة الحياة الغالبة على سكان الجزيرة العربية ولكن هذه الصورة لواقع الحياة والبيئة الحديثة لارض الجزيرة العربية ، تعمم خطأً في غالب الاحايين لتشمل الواقع القديم لبلاد العرب •

فأولا وقبل كل شيء علينا ان ندرج مساحات واسعة من ارض جزيرة العرب خارج أطار هذه الصورة ، وهي تلك الأرضين التي توفر كل شروط الأرض الزراعية الخصبة التي هيأت فرصاً للتطور الحضاري المتقدم في تاريخ العرب القديم والمعاصر ، من ذلك العربية الجنوبيـة بشكل خـاص ومناطـق

الواحات الواسعة المتناثرة على أقسام من أرض الجزيرة العربية، كالحجاز وبعض مناطق شرقي الجزيرة العربية على مقربة من سواحل الخليج ومناطق اخرى متفرقة .

ان هذه الاقسام من جزيرة العرب لاتخضع للشروط البيئية العامة التي تتصف بها غالبية ارض الجزيرة في الوقت الحاضر ، لذلك فمثلما كانت هذه الاقسام مراكز حضرية متطورة في تاريخ العرب القديم فهي مناطق كثافة سكانية ملحوظة في الفترات التاريخية اللاحقة وحتى في الوقت الراهن ، ولها من الامكانات الطبيعية مما يشكل مرتكزا جيدا لبناء حضاري شامخ .

ولكن بعض هذه الاقسام من ارض العرب ، التي لايختلف اثنان في شروط الحياة المشجعة فيها ، تشير في جملة من الادلة المباشرة وغير مباشرة الى ان اهميتها تضاءلت تدريجيا ، وضعفت قدراتها على النماء ، وانخفضت نسبة الكثافة السكانية فيها . وان من بين الاسباب لهذا التغيير تبدل الاحوال البيئية في عموم ارض الجزيرة العربية والتي شملت بتأثيرها هذه الاقسام ايضـــا .

وعليه ، يبدو لنا جليا بان دراسة احوال المجتمع واحداث التاريـــخ والحضارة العربية القديمة لاتستقيم الا من خلال تفهم دقيق وواضح للواقع البيئي القديم الذي كانت عليه ارض الجزيرة العربية .

وتواجهنا في هذه الدراسة صعوبة رسم الحدود الزمانية للبحث . واذا كان ظهور الاسلام يؤشر الحدود النهائية ، لانه بالاضافة الى احداثه تغييرا جذريا في بنية المجتمع العربي واساليب حياته ، فبفضله ايضا وصلتنا ادق التسجيلات عن واقع الحياة والبيئة العربية ، ولكننا بسبب اعتمادنا المخلفات المادية من آلات وادوات وبقايا ابنية ورسوم كقرائن للأوضاع البيئية ، فان قدم هذه المخلفات سترسم الحدود الاولى للبحـــث .

ان دراسة تاريخ العرب القديم على الرغم من تقدمها الكبير في السنوات الاخيرة ، لاتزال تتلمس بدايات الطريق الطويل • كما ان تحديد الفترات التاريخية والحضارية لا تزال تعتمد المقارنة بأدلة الفترات التاريخية والحضارية لمراكز الحضارات المجاورة مثل حضارة وادي الرافدين وحضارة وادي النيل •

الادلة المعتمدة في الدراسة :

أشرنا فيما سبق اننا سنعتمد الادلة المادية في تحديد تصوراتنا لبيئة الجزيرة العربية القديمة ، فبقايا الابنية والمستوطنات في مناطق من ارض العرب تنعدم فيها حاليا شروط الحياة الانسانية تشير علينا بواقع بيئي مختلف • كما ان صور الحيوانات التي لاتتفق مواصفاتها البايلوجية مع بيئة جزيرة العرب الحالية ، والتي نجدها تتكرر في مناطق مختلفة ، نرى فيها ايضا اشارات ذات دلالات قوية بخصوص الاختلاف في الواقع البيئي ، بخاصة اذا ما وجدت هذه الادلة الاثرية دعما لها في الكتابات القديمة •

ان بقايا خزانات الماء ومشاريع الارواء ودلائل زراعة الارض كلهـا اشارات الى ظروف بيئية اكثر تشجيعا على الحياة والنماء والتطور في عصور الجزيرة العربية القديمـة •

وستكون لنا وقفة مع القرآن الكريـم ومبلـغ عنايتـه بمـا يرتبط بالزراعة واسبابها وذكر انواع النبات والثمار وبعض الحيوانات، وهي معلومات تتجه جميعا لتأكيد الواقع البيئي المشجع على الزراعة والتحضر والتي شهد الاسلام اواخره • وسنجد لتعليمات القرآن الكريم وعنايته بالزراعة واسبابها ترجمة في الواقع العملي لحياة العرب من مراسلات النبي ص•

واخيرا، سيكون للتفتيش بين ثنايا كتب المؤرخين والبلدانيين العرب فائدة كبيرة في تقصي المعلومات عن آثار العرب الاقدمين وانماط حياتهـم وطبيعة بلادهم ، بخاصة تلك المعلومات التي ترتبط روايتها بالجن والعمالقة والاقوام البائدة ، وباختصار الروايات الاسطورية عن الواقع القديم ، الذي يؤكد قـدم ذلك الواقـع •

الأدلة الآثارية :

١ ـ رسوم الحيوانات

وفر لنا كتاب « دليل الآثار في المملكـــة العربية السعودية » صورا فوتوغرافية رائعة لمعالم أثرية متفرقة من انحاء مختلفة من جزيرة العرب • وان من ابرز الصور التي تهمنا في موضوعنا الحالي صور النعام والخنازير والثيران والماعز والاسود • لقد حفرت رسوم هذه الحيوانات على الواجهات الصخرية للنتوءات والكتل الصخرية (الجبال) على مفترقات الطرق في جزيرة العرب •

جائتنا هذه الرسوم من مناطق مختلفة من ارض جزيرة العرب ، منها في نجد على مقربة من الرياض والمدن القريبة منها ، واخرى قريبة من حائل وبعضها مجاور لتبوك ، وتكثر صور الاسود في منطقة الحجاز بحيث ان واجهتي ضريحين او مدفنين نحتتا على هيئة اسد •

اما تاريخ هذه الرسوم فأمر غير مؤكد حتى الوقت الحاضر ، ولكنها قطعا ترجع الى الفترات التي سبقت الاسلام بسبب موقف الاسلام المتشدد من اعمال الرسم والنحت والتصوير • كما ان بعض الادلة الكتابية القديمة المنقوشة بجوار هذه الرسوم على الصخور ذاتها ، يستفاد منها في اعطاء تاريخ تقريبي لهذه الرسوم • فيتأرجح زمنها بموجب ذلك مابين ٤٠٠ ق • م ـ ٥٠٠ م •[٢]

لقد تم اكتشاف قشور بيض النعام مشكلة على هيئة كؤوس في بعض قبور البحرين وهي تؤرخ بحدود الالف الثانية ق • م[٣] ولوحظت اواني

---

(٢) مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية : ادارة الآثار والمتاحف ـ وزارة المعارف المملكة العربية السعودية ١٩٧٥ ص ١٧ـ١٨

(٣) G. Bibby : Looking for Dilmun, Proof Edition book, 1973. P. 33, 77.

مماثلة في قبور منطقة « هجر بن حميد » (حضرموت)[٤] تؤرخ بحدود القرن الثاني ق . م . واخيرا فان كؤوسا مماثلة مصنوعة من قشور بيض النعام ومطعمة باصداف واحجار عثر عليها في المقبرة الملكية في أور ، وبعضها من معروضات المتحف العراقي ببغداد .

وهكذا تزداد ادلتنا عن انتشار هذا الحيوان في مناطق واسعة من ارض جزيرة العرب . ويذكر المؤرخ اليوناني زينيفون (٤٠١ ق . م .) الى ان اقليم الجزيرة شرق الفرات كان يعج بافواج من الحيوانات البرية مثل الحمر الوحشية[*] والنعام والحباري وبقر الوحش ، ويتحدث عن طريق صيد هذه الحيوانات ويؤكد صعوبة الامساك بالنعام[٥]

ويقتات النعام النبات ولكنه يتناول بعض الاحيان المواد الغذائية الحيوانية ويتحمل النعام العطش لفترة طويلة ، وانقرض هذا الحيوان من سوريا والجزيرة العربية في عام ١٩٤١ م ، وينتشر الآن وباعداد قليلة بشمال افريقيا من المغرب حتى السودان .[٦] ان اختفاء الحيوان حاليا من مناطق جزيرة العرب لا يمكن تفسيره الا في ضوء المتغيرات البيئية .

---

(٤) Richard Le Baron Bowen and Frank P. Albright, Archaeological Discoveries in South Arabia. Baltimore, 1958, P. 8.

(*) تشكل عظام الحمر الوحشية اكبر نسبة بين بقية انواع العظام المكتشفة في تل «ام الدباغية » الذي يقع على مقربة من مدينة الحضر ويرجع زمنه الى حدود الالف الخامسة ق.م وعظام الحمر الوحشية بنسبتها العالية ليس لها مثيل في كل مواقع العصر الحجري في الشرق الادنى القديم . انظر (Sandor Bokonyi, "The Fauna of UMM Dabaghiyah" IRAQ, XXXV, (1973) P. 9

(٥) F.R.B. Godolphin, The Greek Historians, vol. II, New York, 1942 Xenephon, Anabasis, I - 5 - 1, (407 B.C.)

(٦) The New Encyclopaedia Britannica, (ostrich) London 1974.

والخنزير حيوان آخر يؤشر الواقع المناخي المتغير للجزيرة العربية ، فبالأضافة الى ورود ذكره في القرآن الكريم في معرض تحريم اكله ، وهو أمر يشير الى توفره في بلاد العرب واعتياد العرب على صيده وتناول لحمه ، نجده ايضا مصورا على بعض الواجهات الصخرية ، وهو في شكله المرسوم اقرب الى شكل الخنازير البريـــة •

يقتات الخنزير الوحشي بشكل رئيس على البلوط والجذور وثمر شجرة الزان ، وبذلك فحياته تشير الى ملائمة لمنطقة نفضية معتدلة(٧) • كذلك يمكننا اعتماد بيئة القسم الجنوبي من العراق حيث تكون كثرة المستنقعات الكثيفة بالاحراش وغابات القصب واشجار النخيل بيئة مثالية لحيـــاة الخنازير الوحشية • فهل كانت بيئة خيبر وفدك والمدينــة والطائـف والعـلا وتيماء وغيرها من مناطق الواحات والمياه الوفيرة بيئة مقاربة الشبه لبيئة العراق الجنوبية ؟

ونستطيع ان نستنتج من رواية سجلتها كتب التاريخ العربي واقعا بيئيا لخيبر يتفق كثيرا مع استنتاجاتنا فيروى ان شاعرا فقيرا كثير العيال قصد خيبر برغبة التخلص من بعض اولاده بسبب تفشي وباء الملاريا فيها وقال هذين البيتين :

قلــت لحمــى خيبــر استعدي   هناك عيالي فأجهـدي وجـدي

وباكــري بصـــالب وورد   أعـانك اللـه على ذا الجنـد(٨)

ولكنه حم ومات وبقي عياله

---

(٧) I. W. Cornwall, Prehistoric Animals and their Hunters, London 1968, P. 48-49.

(٨) زكريا بن محمد بن محمود القزويني (توفي ١٢٨٣ م) : آثار البلاد واخبار العباد ، دار صادر بيروت ، ص ٩٢

فانتشار الملاريا ملازم لكثرة المياه الراكدة التي يحتمل انها كانت تفيض عن حاجة الاراضي الزراعية لتستقر بعدئذ في اطراف المدينة حيث المنخفضات الارضية . وربما يفسر ذلك تقصير سكان خيبر في الاستفادة الصحيحة والقصوى من المياه ضمن مشروعات ارواء لاغراض الزراعة ، فادى ذلك بالمياه الفائضة للتجمع في المنخفضات التي اصبحت بيئة جيده لمعيشة البعوض ومهما يكن من اسباب تجمع المياه فهي تشير من جانب اخر الى وفرتها في بيئة خيبر . وكانت خيبر حتى عهد الاسلام الاول مدينة مشهورة بزروعها وبساتين نخيلها وكثرة ناسها[٩] وتقدم لنا رسوم الصخور صور الثيران ، التي يظهر فيها بقرون طويلة واخرى قصيرة . والثيران والابقار عموما تلتصق حياتها بالمناطق الزراعية الوفيرة المياة ، وهي تفضل مناطق الحشائش المعتدلة ومناطق الغابات النفضية المكشوفة[١٠] . واذا كانت بعض الثيران والابقار المدجنة قد نقلت الى مناطق جزيرة العرب من الاطراف او من افريقيا ، فيبقى امر بقر الوحش الذي يدعونا الى اعادة النظر في امر تواجدها على ارض العرب ، وقد تردد مرارا ذكر هذا الحيوان بصفته الوحشية في الشعر العربي القديم ، وكان مضربا للامثال في شعر «الايام» وهو توكيد على صلة وثيقة للعرب بهذا النوع من الحيوانات[١١] ولانجد مناصا من الاقرار ببيئة طبيعية مناسبة لحياة هذا الحيوان .

اما الاسود فهي تتآلف لحد وقتنا الحاضر مع المناخ الحار للاراضي المعشبة قليلة الاشجار في افريقيا (مناطق السفانا[١٢] وتعتاش الاسود عادة على الحيوانات التي تكثر في مثل هذه المناطق كالضباء والآيل وحمر الوحش والابقار وغيرها .

---

(٩) القزويني ، المصدر السابق ص ٩٢

(١٠) Cornwall, op. cit.

(١١) د . عادل جاسم البياتي ايام العرب (القسم الاول) بغداد ١٩٧٦ ص ٢٣٥

(١٢) Cornwall, op. cit.

ان رسوم الاسود التي وصلتنا تتركز في منطقة الحجاز مما يرجح ان تكون مناطق الزراعة ومصادر المياه وبخاصة العيون اكثر واكبر حجما مما هي عليه الآن • ولاتزال المنطقة تشتهر بكثرة واحاتها ووفرة مياهها بالقياس لغيرها من اقسام بلاد العرب • وبسبب هذه الخاصية للمنطقة فقد كانت قديما طريق مرور القوافل التجارية الرئيسي الذي يربط جنوبي جزيرة العرب بمدن الشام وسواحل البحر المتوسط ، وبخاصة وهي تنحصر بين سلسلة جبال تهامة من الغرب وبين صحراء نجد واطراف الربع الخالي من الشرق •

اما الماعز الجبلي ذو القرون الطويلة فتتكرر رسومه من مناطق مختلفة من جزيرة العرب ، والماعز كبقية الماشية يفضل مناطق الحشائش المعتدلة الوفيرة المياه • ولكن اظلافه تتيح له حرية الحركة في المناطق الصخرية والجبلية ، لذلك تكثر تربيته في الاقسام الجبلية من جزيرة العرب حيث تتوفر مستلزمات حياته من نبات وماء • ولاتزال مناطق العربية الجنوبية تشتهر بتربيته حتى الوقت الحاضر[١٣] •

٢ ــ مشاريع الارواء القديمة :ــ

وابرز مايلفت الانتباه في المخلفات الاثرية ومن اقسام متعددة من جزيرة العرب ، سعة بقايا الاعمال المتعلقة بالارواء من سدود ومصارف وسواقي وقنوات جوفية (أفلاج) وصهاريج وخزانات • وهي تمثل شواهد حية تتحدث عن جوانب التقدم في حياة العرب القديمة • وليس غريبا ان نصادف معظم هذه المخلفات في مناطق بعيدة عن الحياة الحضرية ويغلب عليها اليوم الطابع الصحراوي وتتراكم في اطرافها الرمال •

---

(١٣) بخصوص رسوم الحيوانات المستعرضة انظر (مقدمة عن اثار المملكة العربية السعودية الصفحات : ٢٢ ، ٢٦ ، ٧١–٨٢ ، ٦٨ ، ٩٨ ، ١٣٥ ، ١٤٥ •)

وانظر ايضا بخصوص تواجد وانتشار هذه الحيوانات (د جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج١ ص ١٩٩– ٢٠٥)

ففي دراسة تاريخية قيمة عن تاريخ الري في وادي حضرموت بجنوبي الجزيرة العربية ، يقدم الباحث لدراسته بهذه الاسطر ذات الدلاله العميقة والتي تهمنا في بحثنا هذا : « في أقليم جغرافي كجزيرة العرب ، واليمن منها خاصة ، تلعب الامطار والسيول وما ينظم للاستفادة منها من صهاريج وسدود ومصارف وسواق ، دورا رئيسيا هاما في مجال الري والزراعة ، قامت عليها حضارات عندما كانت هذه السدود والسواقي قائمة ومعمورة ثم بادت هذه الحضارات عندما خربت وتهدمت[١٤]

كان وادي حضرموت ، الجاف حاليا ، في الفترة الى ماقبل (٢٠٠٠٠ ـ ٢٥٠٠٠ سنة الماضية نهرا عظيما يتدفق نحو الشرق [١٥] ، وتصب فيه روافد لاحصر لها هي تلك الوديان الصغيرة التي تؤدي الى حضرموت [١٦]

---

(١٤) علي عقيل : « نموذج تاريخي عن الري في وادي حضرموت » مجلة التراث ـ المجلد الاول العدد الاول مارس ١٩٧٧ ، عدن ص ١٨٨ .

(١٥) ان كثيرا من وديان الجزيرة العربية التي تشهد تدفق الماء فيها موسميا اثر سقوط الامطار في فصلي الشتاء والربيع ، يبدو انها كانت في تاريخ الارض العربية القديم دائمة الجريان ، او تبقى المياه في قيعانها على مدار السنة على اقل تقدير مما دفع بسكنة الجزيرة العربية على تسميتها بالانهار وبقيت هذه التسمية في المتوارث الشفهي حتى فترات التدوين التاريخي من ذلك مثلا تسمية وادي الثرثار الذي يمر بجوار مدينة الحضر بنهر الثرثار ، ويصفه القزويني على الوجه الاتي : « وبجانب المدينة (اي الحضر) نهر الثرثار ، وكان نهرا عظيما عليه جنان بناها الضيزن بن معاوية » (القزويني ، المصدر السابق ص ٣٥٤) وانظر ايضا التعليق على رواية هيرودتس بشأن نهر «كورس» في جزيرة العرب ، ورواية بطليموس بشأن نهر «لار» المصدر التالي (د . جواد علي . المصدر السابق ج١ ص١٥٨ ـ ١٦٠)

(١٦) علي عقيل : المصدر السابق ص ١٩٠ .

وتذكر جاكلين بيرن في تقرير لها عن شبوه عام ١٩٧٥ مايلي « عززت الرؤية الجوية وجود ما كنا قد اشرنا اليه وشاهدناه من قنوات للري على وجه الارض ، وكانت المساحات المزروعة هائلة تتجاوز بدرجة كبيرة الحقول الحالية المحيطة بالمدينة كما انها كانت تمتد حتى منطقة تبدو اليوم صحراء[١٧]

ان انتظام الري في وادي حضرموت في العهود السالفة كغيره من اودية اليمن بالاستفادة القصوى من هطول الامطار ، والاعداد لمياهها في الاودية القريبة والبعيده بالسدود والمصارف والسواقي ، وزراعة هذه الادوية بانواع الاشجار وخاصة النخيل وبالغلات الموسمية والخضار والفواكه ، جعل تبعا لذلك ، دورة ماء الطبيعة منتظمة ، فتهطل الامطار موسميا ، دون حدوث أي جفاف او محل ، كما انه نتيجة لذلك صار اختزان الارض للمياه جوفيا متاحا ومتيسرا بل حتميا ، فكان ذلك عاملا مساعدا في سهولة حفر الابار وقرب مياهها ويسر رفعها دون عناء ، الى ذلك فان ارتفاع منسوب المياه الجوفية اعطى التربة الامكانية لدوام التندية وتغذية جذور الاشجار وخاصة النخيل دون حدوث مثل هذا الجفاف المستمر والناتج عنه فناء النخيل يوما عن يوم . وفوق هذا فان جبال وادي حضرموت معظمها رسوبية تسمح اذا هطلت الأمطار بان تنبت العشب الذي يخفض من حرارة الجبال المؤثرة في تلاشي السحب ، وتعطي بالعكس البرودة الكافية لتكوين السحب وهطولها[١٨] .

وربما يتم التذرع بالاحوال المناخية ونقص المياه طبيعيا مما تترك أثره على عموم المنطقة ووادي حضرموت بالذات ، ولكن الاستاذ علي عقيل يقدم لنا في بحثه قائمة طويلة بالسيول التي شهدتها المنطقة منذ عام ١٢٢٥ م وحتى سنة ١٩١٣م ، ذاكرا اكبر السيول واغزرها في كل قرن ،[١٩] وكان لبعضها

---

(١٧) علي عقيل : المصدر السابق، ص ٢٠١

(١٨) نفس المصدر ص ٢٠٦

(١٩) نفس المصدر ص ٢١٠-٢١٤

آثارا سلبية على المنطقة • لذلك يضطرنا الباحث الكريم للاتفاق معه بان سبب خراب المنطقة واندثار معالم العمران والحضارة فيها انما يرجع الى تقصير الانسان وليس الطبيعة(٣٠) •

وفي قسم اخر من ارض جزيرة العرب ، نجحت بعثة آثارية من تتبع بقايا قنوات الري الجوفية ، وكان ذلك في منطقة « صحار » على ساحل خليج عمان • فكانت واسطة الري هذه هي التي تسببت ــ بالاضافة الى النشاطات التجارية ــ في ازدهار مدينة صحار في حدود القرنين التاسع والعاشر الميلاديين وتأكدت البعثة بدليل امتداد هذه القنوات « تعرف محليا باسم الافلاج » ان مساحة الاراضي الزراعية كانت في تلك الفترات تفوق كثيرا مساحتها الحالية (٣١) •

ومما يؤكد اعتماد هذه الطريقة على نطاق واسع وفي انحاء مختلفة من جزيرة العرب ، ما كشفت عنه اعمال البعثة الدانمركية في جزيرة البحرين من بقايا قناة حجرية تأخذ المياه من عيون طبيعية في هضبة عالية في قلب الجزيرة وتسير بها صوب الغرب الى مجموعة من الحقول والبساتين لاتزال اثار بعضها قائمة لحد يومنا الحاضر • ولكن القناة لم تعد تصرف المياه كسابق عهدها الى المنطقة الزراعية • ويرى المنقبون الدانمركيون انها ربما استعادت نشاطها لو خضعت لعملية تنظيف وصيانة واسعتين ، وفي قولهم هذا اشاره الى تقصير الانسان اكثر من تقصير الطبيعة(٣٢) •

---

(٣٠) علي عقيل : المصدر السابق ص ٢١٤

(٣١) J. J. Wilkinson, "Sohar Ancient Fields project" in the Journal of Oman Studies, vol. I (1975) P. 159 ff.

(٣٢) Bibby : op. cit. P. 66-68

ان طريقة الارواء بواسطة الافلاج ، او القنوات الجوفية ، هي الطريقة المثلى للري في المناطق الممكن تنفيذها من ارض الجزيرة العربية ، فهي تحافظ على نظافة المياه في منطقة تكثر فيها الرياح الحاملة للاتربة والرمال ، وتحافظ على كمياتها من فعل الحرارة الشديد التي تؤدي الى تسرب نسبة عالية من المياه المكشوفة بسبب التبخر ، واخيرا فهي تتحكم في مسير المياه الجوفيه صوب مناطق الاستثمار الزراعية[٢٣] لذلك نجدها واسعة الانتشار في اقسام من جزيرة العرب ، في الحجاز وفي الخرج وفي الاقسام الشرقية ولعل في رواية هيرودتس عن عادة العرب القدماء في صنع قنوات من جلود الحيوانات ينقلون بواسطتها المياه من نهر يسميه هيرودتس نهر «كورس Corys »صوب مناطق بعيدة في قلب الصحراء ويخزنونها في صهاريج خاصة يرتادونها عند تنقلاتهم ، لعل في ذلك اشارة تاريخية قديمة الى اسلوب بناء القنوات الجوفية او الافلاج[٢٤]

ومن اقصى الجنوب الغربي لجزيرة العرب ، ومن عدن بالذات ، نتعرض الى نموذج اخر من مشاريع الارواء المتقدمة ، حيث تواجهنا في هذه المدينة ابنية في غاية المتانة والاتقان نحتت في الصخر على شكل احواض كبيره تتدرج في مستوياتها وتتصل فيما بينها ، يبلغ عددها (١٧) حوضا تقع على وادي الطويله في مدينة كريتر من المحافظة الاولى في جمهورية اليمن الديمقراطية • ووادي الطويلة عباره عن مضيق يبلغ طوله (٧٥٠) قدما يتلقى مياه المطر التي تنزل من اعالي الجبال وتصب في البحر • فمنعاً لتسرب المياه هدرا الى البحر ومنعا لتخريب السيل اقساما من مدينة عدن القديمة شيدت هذه الصهاريج اصلا كخزان لحفظ المياه للشرب • ويرجح ان يكون بناؤها في القرن

---

(٢٣) رضا جواد الهاشمي : « الافلاج » مشاريع الارواء العربية القديمة مجلة كلية الاداب ــ بغداد العدد / ٢٥ / ١٩٧٩ الصفحات ٥١ــ٤٠ .

(٢٤) Herodotus, III. 7-9

الاول الميلادي على عهد الحميريين أن لم يكن قبل ذلك التاريخ • وتبلغ سعة الاستيعاب لهذه الصهاريج مجتمعة حوالي عشرة ملايين غالون ماء • ان خزانات ماء عدن القديمة تحولت اليوم الى معالم اثرية سـياحية بعد ان افتقدت مصادر مياهها • [٢٥] •

وحيثما تجولنا في اقسام جزيرة العرب واجهتنا بقايا الجهد الانساني العظيم والذي حول مناطق واسعة من جزيرة العرب الى جنات رغيدة كثيرة المياة والزروع تسرح في ارجائها ، بحكم هذا الواقع ، العديد من الحيوانات والماشية التي نصادف بعض رسومها على واجهات الصخور ، كذلك حفظت لنا المدونات العربية المختلفة صورا واضحة عنها •

تنتشر بقايا مشاريع الارواء في مناطق غدت اليوم قاحلة وموحشة ، ولم تكن لتلفت الانتباه لولا بقايا هذه المشاريع الاروائية القديمة ، من ذلك مثلا بقايا حوض تجميع المياه شيد سوره الخارجي من الحجر يقع في منطقة فيد جنوب حائل ، وهو على مقربة من طريق الحج العراقي للديار المقدسـة المعروف باسم طريق زبيدة[٢٦] وحتى لو كان الحوض من المنشآت الاسلامية فيبقى على الرغم من تاريخه الحديث نسبيا مؤشرا لنجاح الجهود الانسانية في تسخير الطبيعة لخدمة الاغراض الانسانية المتعددة •

وفي المنطقة الشمالية للمملكة العربية السعودية وعند « قريات الملح » يواجهنا بناء على شكل سور مستطيل مشيد بالحجر غير المهندم يشك في كونه حوض تجميع مياه ، يزيد طوله عن كيلو متر واحد [٢٧] ولاتزال المنطقة

---

(٢٥) لجنة مشروع الصهاريج وادارة الاثار والمتاحف . وزارة الثقافة والسياحة عدن ـ جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية . الطبعة الاولى

(٢٦) مقدمة عن اثار المملكة العربية السعودية ص ٦٦، ٦٨ .

(٢٧) نفس المصدر ص ٩٥

القريبة من خيبر والطائف تشهد بقايا أبنية سدود لتجميع المياه لاغراض الشرب والزراعة ، منها سد الحصين جنوب خيبر[٢٨] وبركة الخرابة شمال شرقي الطائف مسافة (٩٥كم) [٢٩] ، وسد السلقي جنوبي الطائف مسافة (٣٥كم)[٣٠] •

واذا كانت آثار البرك واحواض تجميع المياه وبقايا قنوات الري واثار الحرث تختفي بفعل حركة الرمال وزحفها صوب الاقسام المعمورة ، فان بقايا المدن والاسوار والحصون المنتشرة في مناطق متعددة من جزيرة العرب تقدم صورة اوضح لمعالم الحياة العربية القديمة في هذا الجزء من المعمور •

والمهم في جملة الابنية الاثرية المكتشفة انها تشير الى جهود انسانية عظيمة ومتقدمة من الناحيتين الفنية والمعمارية ، كذلك تتبين منها امكانات مادية هائلة توفرت على تشييد مثل هذه الابنية • واكثر من ذلك ، فان هذه الابنية تنتشر اليوم في مناطق صحراوية قاحلة ، قلما تتوفر فيها شروط حياتية تتناسب مع حجم الابنية القديمة ، مما يدفعنا للشك في وجود ظروف مناخية انسب وجهود انسانية اكبر هيأت فرص الحياة المتطورة في هذه البقاع •

فعند الحافة الشمالية الغربية للربع الخالي وعلى مسافة حوالي (٧٠٠) كم جنوب غرب الرياض ، بالقرب من ملتقى سلسلة جبال طويق مع وادي الدواسر ، تقوم اطلال مدينة « الفأو » الاثرية القديمة • وقد شهدت المدينة اعمال تنقيبات نفذها قسم التاريخ والاثار بكلية الاداب في جامعة الرياض برئاسة الدكتور عبدالرحمن الانصاري في السبعينات ، اسفرت عن اكتشاف العديد من البقايا العمرانية من جملتها مركز سوق كبير يدل على الدور التجاري الهام الذي لعبته المنطقة منذ اكثر من الفي عام سابقة • ومن خلال ثلاثة مواسم

---

(٢٨) نفس المصدر ص ١٢٥

(٢٩) نفس المصدر ص ١٥٧

(٣٠) نفس المصدر ص ١٦١ ــ ١٦٢

تنقيبات شهدتها اطلال المدينة ، تم الحصول على كميات كبيرة من التحف والآثار النفيسة مما يتم عن مستوى حضاري متقدم احرزته المدينة ابان عمرانها ، منها مقابض ابواب صنعت من البرونز على هيئة اسد واوان فخارية يرجع تاريخها الى حدود القرن الثالث ق ٠ م ٠ [٣١] .

ويستدل على هذا التاريخ للمدينة من شكل الاواني الفخارية التي تميز الفترة الحضارية المعروفة بالهلينستية والفرثية[٣٢] .

والنموذج الاخر للابنية الكبيرة الذي تعرضه للقاريء جاءنا من المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية على مقربة من قرية صغيرة تعرف بالثاج تقع الثاج على مسافة نحو (٨٠) كم غرب مدينة جبيل على ساحل الخليج العربي ، وهي قرية صغيرة على اطراف سبخة واسعة تعرف بسبخة الثاج . وعلى اطراف هذه السبخة ايضا كشف عن بقايا سور خارجي ضخم يبلغ طوله حوالي (٩٠٠)م شيد من الحجر بسمك يبلغ (٨)م ٠ وقد اجرت البعثة الدانمركية استكشافا اوليا في اطلال هذه المدينة عثرت اثناءه على بعض اللقى الاثرية التي من ابرزها دمى طينية على هيئة اشكال ادمية وحيوانية تنسب بموجب اشكالها الفنية الى العصر الهلينستي في حدود القرن الثالث ق٠م[٣٣] .

---

(٣١) مقدمة ، المصدر السابق ص ١٨ـ٢١

(٣٢) مقدمة ، ص ٢١ ، يلاحظ على صورة الاواني الفخارية المنشورة على هذه الصفحة من كتاب « مقدمة » اناء يشبه الزمزمية كثيرا والتي عثر على مثيل لها في المواقع السلوقية والفرثية في العراق ، منها موقع « تل اسود » الذي نقبت فيه هيئة قسم الاثار بجامعة بغداد وآثار تل اسود بما فيها « الزمزمية » معروضة الان في متحف قسم الاثار بكلية الاداب ـ جامعة بغداد .

(٣٣) Bibby : op. cit. P. 337 ff.

كذلك وجدت في اطلال المدينة نقوش كتبت بالخط المسند يعود تاريخها الى اواسط الالف الاول ق٠م ٠ ويرجع تاريخ هذه النقوش تاريخ المدينة الى الوراء قليلا ٠ وعموما ، فان بقايا مدينة الثاج كما تكشف عنها الصور الجوية والآثار القليلة المتفرقة التي جاءت منها تؤكد فترة من الازدهار والتقدم عاشتها المدينة ٠ ولايمكن تصور مثل ذلك الازدهار دون توفر الشروط الحياتية المناسبة(٣٤) ونشير في هذا المجال ايضا الى مايقال عن بقايا مدينة اخرى معاصرة للثاج تبعد عنها مسافة (١٥) كم نحو الشمال على مقربة من قرية « الحنا »(٣٥) ٠ والموقعان قريبان من المنطقة التي تنتشر فوقها المستوطنات العبيدية ٠

تنتشر في المنطقة المحصورة مابين حدود الكويت الجنوبية شمالا وشبه جزيرة قطر من جانب الساحل وواحة جابرين من ناحية الارض ، مجموعة من المستوطنات التي ازدهرت في هذه المنطقة في حدود الالف الرابع ق ٠ م ٠ وبموجب الفخار المكتشف في هذه المواقع ، فهي تنسب الى الفترة الحضارية المعروفة في بلاد وادي الرافدين باسم « حضارة العبيد » نسبة الى اسم موقع اثري تل « العبيد » يقع في جنوبي العراق غرب مدينة أور مسافة (١٠) كم ٠ وهي بذلك تؤكد الصلات الوثيقة والقديمة التي ربطت الخليج العربي ببلاد وادي الرافدين ٠ والمهم ان هذه المستوطنات تنتشر على ساحل الخليج العربي مثلما يقوم بعضها في داخل الأرض لمسافة (٧٠) كم من الساحل ، وأنها كانت تمارس نشاطا اقتصاديا يعتمد صيد اللؤلؤ والاسماك ؛ وربما تصديرها الى بلاد وادي الرافدين ٠ والجدير بالانتباه ان معظم هذه المواقع التي يزيد عدد المستكشف منها على (٤٠) موقعا ، يقع معضمها في مناطق تفتقر لشروط الحياة الاساسية وابرزها المياه العذبة ؛ مما يؤكد نوعا من التغير المناخي في المنطقة (٣٦) ٠

---

(٣٤) مقدمة ، المصدر السابق ص ٣٧–٣٨ ، ٥٤– ٥٥

(٣٥) نفس المصدر ص ٥٩

(٣٦) رضا جواد الهاشمي : « وحدة العناصر الحضارية في الخليج العربي في ضوء المكتشفات الاثرية » مجلة « بين النهرين » العدد ١٩٧٩/٢٧ ٠

نعتقد ان الادلة المادية المطروحة سابقا تكفي لتركيب اطار عام واضح لعالم الحياة القديمة في جزيرة العرب • وقد انعكس اثر هذا الواقع واضحا في كل ماتسى الينا من تراث العرب المدون شعرا كان ام نثرا • وفي مقدمة التسجيلات الموثوقة لحياة العرب القديمة آيات القرآن الكريم وبعض مراسلات الرسول محمد (ص) والخلفاء الراشدين ، حيث نتبين منها صورا متعددة للنشاطات الزراعية والاروائية التي بقيت الى عهد الاسلام الاول •

فبالاضافة الى الاشارات الواضحة في القرآن الكريم عن اقوام قديمة عاشت في جزيرة العرب وبادت ، كقوم عاد وثمود ، فان معظم الامثلة والتشبيهات والاستعارات التي يعتمدها القرآن الكريم انما تخلق انطباعا واضحا عن بيئة زراعية تتدفق بالخير والعطاء يقابلها سعي متواصل وجهود كبيرة يبذلها الانسان لاستثمار هذا الخير العميم : تلقى كل الدعم والتبريك في تعاليم الاسلام •

وربما يعترض البعض على محاولة استفادتنا من آيات القرآن الكريم في تتبع الواقع الحياتي للعرب على اساس انه كتاب الله ورسالة سماوية لكل العالمين ، وعليه فيصبح ان تكون الامثلة التي يوردها لاتتفق مع بيئة العرب بل مع بيئات اخرى قد تكون في فارس او الهند او الصين •

ولكن بما ان القران نزل عربيا ، واللغة حالة تنعكس عليها الحياة الاجتماعية للناطقين بها[٣٧] ، وبما ان العرب كانوا لبنة الاسلام الاولى وهم

---

(٣٧) Montgomery Watt: "The Arabian Background of QUR'AN P. 7 First International Symposium on Studies in the History of ARABIA : Sources of the History of Arabia, University of RIYAD 1977.

الذين حملوا لواء الرسالة الى العالمين ، لذلك يكون ضروريا ان تكون جميع الصور التي يوردها القرآن الكريم تجد لها معنى في لغة العرب ، وبالتالي فهي تعكس واقعا عاشه العرب • وقد لا تكون الشواهد التي يذكرها القرآن الكريم عامة بين جميع العرب وفي كل اقسام بلادهم ولكنها على الرغم من ذلك تبقى شاهدا على واقع زراعي وبيئي وحياتي يفوق كثيرا الواقع الحالي •

فمن الثمار التي ذكرها القرآن الكريم الاعناب والرمان والزيتون والتين والحبوب والتمور ، ومن الحيوانات ورد ذكر الماعز والاغنام والابقار والحمير والبغال والخنازير والنحل • ويتردد كثيرا ذكر المفردات ذات العلاقة بعمليات الزرع مثل حرث وحصد وزرع ، وتتكرر لفظة قرية وقرى اما الالفاظ التي تتصل بالماء من مطر وغمام ونهر وعين ووادي وشاطيء فهي كثيرة الورود ايضا • فقد وعد الله المؤمنين في القرآن الكريم « جنات تجري من تحتها الانهار » •

ويمكننا ان نستعين ببعض آيات القرآن الكريم لمعرفة شدة خصوبة الارض وازدهار المواسم الزراعية كقوله تعالى « كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة »(٣٨)

ومن بين مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، وهي التحارير التي بعث بها الرسول (ص) الى القبائل العربية في اقسام مختلفة من جزيرة العرب ، تتوضح منها اهمية الارض الزراعية ومياه السقي من آبار وعيون في حياة العرب •

---

(٣٨) سورة البقرة /٢٦ . ايضا محمد فؤاد عبدالباقي : المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم . مطابع الشعب / ١٣٧٨

فالرســول (ص) والخلفاء الراشدون يؤكدون في رسائلهم هذه موقف الاسلام من الممتلكات الزراعية ، وتبرز من خلال ذلك اهمية الزراعة في الأقـاليم العربيـة التاليـة من جزيرة العـرب ، اليمن وعمـان والبحـرين واليمامة ، وتجمع (٤٣) رساله من تلك الرسائل على تنـاول الموضوعات المتعلقة بالارض الزراعية وثمارها ومياهها ،وتحديد حقوق اصحابها الشرعيين وحقوق الاسلام فيها [٣٩] أماكتب المؤرخين والبلدانيين العرب المسلمـين فتجمتمع فيها معلومات ثرية عن واقع بلاد وحياة العرب القديسين ، تتحدث عن غياض واسعة واراض ذات شجر وماء وفيرين ، وعن حيوانات لاتعيش الا خلال تلك البيئة ، ومنها حيوانات بحالة وحشية مثل بقر الوحش وحمـار الوحش والاسود والنعام وغير ذلك ، وما جنة عدن ومايحوم حولها من اخبار بيعيدة عن الاذهان ، حيث تتكرر صورتها في « أرم ذات العمـــاد »[٤٠] «وجوف» (٤١)

ان بعض هذه المناطق الخصبة والتي تؤشر احوالا طبيعية مغايرة للواقع المعاصر ، شهد الاسلام بقاياها ، مثل ذلك اقليم اليمامه وهي ناحية بين الحجاز واليمن من احسن بلاد الله واكثرها خيرا ونخلا وشجرا ، وكانت في قديم

---

(٣٩) محمد حميدالله : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشده . دار الارشاد ـ بيروت ١٩٦٩ . ارقام الوثائق المعتمدة في الدراسة (٢٣ ، ٣٤ ، ٤٤ ، ٦٦ ، ٦٦ /الف ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٩، ١٠١، ١٠٤، ١٠٩، ١١٠/ج ، ١١١، ١١٣، ١٢٤، ١٢٦، ١٢١، ١٣٣، ١٥١، ١٦٥، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢ ، ٢٥/الف ، ٢٤٦/هـ ، ٣٠٨ ، ٢١٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣١ ، ٣٣٩ ، ٣٤٩ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٥)

(٤٠) القزويني ، المصدر السابق ص ١٥

(٤١) نفس المصدر ص ٤

الزمان منازل طسم وجديس[٤٢] وكان أسمها القديم «جو» وسميت باليمامة نسبة الى اسم المرأة التي كانت تبصر على بعد مسيرة ايام في خبر لحسان بن تبع فيه شعر وضمنه قصة زرقاء اليمامة ، ومارأته من غابة متحركة باتجاه المدينة وحقيقته ان جيش معاد اقتلع الاشجار ليوهم الزرقاء ويخفي تحركه . فلهذه القصة مدلولا هاما في سياق حديثنا عن الواقع البيئي لمنطقة اليمامة فالاشجار من الكثرة اولا مما تساعد على اقتلاع عدد كبير منها دون ان يترك اثرا على صورة المنطقة ، وان الاشجار ثانيا من العلو بحيث انها تخفي ورائها المحاربين .[٤٣] وهي تذكرنا بصورة القتال في مناطق الغابات والاحراش حيث يخفي المقاتلون انفسهم تحت حزم اغصان الاشجار .

وما يتصل بحرب طسم وجديس اشارة لهجرة قبائل طي الى جبلي أجا وسلمى ، اللذان يعرفان بجبلي طي . فطي كانت تسكن الجوف من ارض اليمن ، وكان الوادي مسبعة وهم قليل عددهم ، وكان يمر بهم بعير في اوقات الخريف من كل سنة دون ان يعرفوا وجهته . فقال سيدهم أسامة بن لؤي : ان هذا البعير يأتينا من بلد ريف وخصب وانا لنرى في بعره النوى فأتبعوه حتى هبط على الجبلين فاصابت طي نخلا غزيرا في الشعاب ومواشي كثيرة[٤٤] .

ومهما يكن من امر الاحداث الواردة في هذه الروايات ذات الطابع الاسطوري فهي تحمل في ثناياها ذكرى الاراضي الخصبة والمياه الوفيرة والخيرات المتدفقة ، وربما عكس بعضه بقايا الواقع القديم لمناطق ارض العرب .

---

(٤٢) القزويني ، المصدر السابق ص ١٢١

(٤٣) د . عادل البياتي : ايام العرب . بغداد ١٩٧٦ ص ٢٣٠

(٤٤) نفس المصدر ص ٢٣١

وتشتهر اليمامة في صدر الاسلام بسيلمة الكذاب وماتناقلته كتب التاريخ عن دعواه وبعضا من افعاله واقواله . والذي نستشفه من هذه المعلومات يؤكد ان اليمامة كانت اقليما خصبا واسع الزراعة كثير الخيرات من ذلك مثلا « أن بني حنيفة اتخذوا في الجاهلية صنما من العسل والسمن يعبدونه » [٤٥] ، والعسل والسمن نتاج مرتبط باخصب الاراضي الزراعية والتي يندر ان نجد لها مثيلا في المنطقة ذاتها في الوقت الحاضر . ويمكننا ايضا ان نستنتج نفس الشيء من بعض الكلام المسجوع الذي تثبته كتب التاريخ على انه ـ كما يدعي مسليمة ـ مما انزل عليه .

ان الاستطراد في ذكر المواضع الكثيرة جدا في ارض العرب قد يبعدنا عن صلب الموضوع ، وهي لكثرتها تستحق بحثا منفردا يركز على مناطق تواجدها ويحاول ايجاد الصلة فيما بينهما ، لذلك سأترك للقارىء الكريم مهمة الالتفات الى الاشارات الكثيرة بخصوص الاراضي الخصبة والمياه الوفيرة والثمار المختلفة وانواع الحيوانات في التراث العربي المدون ، وهي من جملة الخصائص البيئية التي تفتقد اليها جزيرة العرب في يومها الحاضر .[٤٦]

---

(٤٥) القزويني ، المصدر السابق ص ١٣٥

(٤٦) نحيل القارىء الى دراسة مسهبة عن المدن التاريخية والمعالم الاثرية مستقاة من الشعر العربي القديم انظر (د . عادل جاسم البياتي : « المدن التاريخية والحصون الاثرية في الشعر قبل الاسلام » مجلة الاداب ـ بغداد ملحق ٢٣ /١٩٧٨ ص ٤٨ فما بعد

العلم التجريبي عند روجر بيكن

د . قيس هادي احمد
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

مقدمة

ظل العلم في اوربا الغربية متسما بالشكلية والعمومية والاطلاق ، منصرفا عن الملاحظة والتجربة العلمية ، الى ان جاء القرن الثالث عشر ، حين بدأ الفكر الغربي يتمثل الفكر العربي ، بما فيه من تأكيد على العلم التجريبي . وقد كان روجربيكن في ميوله التجريبية في تحصيل العلم ، شبيها بالمؤلفين العرب ، الذين اثروا فيه تأثيرا كان ابلغ من تأثيرهم في الكثرة الغالبة من سائر الفلاسفة المسيحيين[١] .

لم يكن يشتغل بالعلم في العصور الوسطى الاوربية الارجال الدين ، الذين وجدوا في منطق ارسطو ضالتهم المنشودة ، حيث خيل اليهم ان الطريقة المنطقية القياسية،تكفي وحدها لمعرفة القوانين التي تخضع لهاالاشياءفي سلوكها ، ولم يضعوا في نظر الاعتبار عيوب هذه الطريقة من الناحية العملية حيث ان الحقائق العلمية لا يمكن الوصول الى معرفتها بالطريقة القياسية وحدها ، بل لا بد من اجراء التجارب والقيام بالملاحظات . وقد كان روجر بيكن اول من اكتشف عيوب الطريقة القياسية في البحث العلمي ، حيث وجه

(١) رايوبرت (ا . س) مبادىء الفلسفة ص ٢٧ ـ ٢٨ .

اليها اعتراضات حاسمة وانتقادات منهجية ، قللت الى حد كبير من سيطرتها على التفكير المدرسي[٢] .

وقد كانت طريقة المدرسيين في البحث تنحصر في وضع القانون ، ثم محاولة تطبيقه على الامور الجزئية ، في حين ان روجر بيكن دعا الى البدء بالامور الجزئية والارتفاع شيئا فشيئا نحو صياغة القوانين الكلية ، وبهذا اكد على اهمية البداية التجريبية في البحث العلمي ، وعدم صياغة القوانين قبل اجراء التجارب ،فاستطاع ان يضع الاساس الصلب للعلم التجريبي الاوربي الحديث[٣]

لقد اثنى كثير من الباحثين في العصور الحديثة على روجربيكن لانه اعلى من شأن التجارب العلمية كمصدر اساسي من مصادر المعرفة وليس من شك في ان اهتماماته ، وطريقة تناوله للموضوعات ، تختلف اختلافا واضحا عما كان سائدا بين المدرسيين ، الذين كانوا لايجدون الا الطرق العقلية ولم تكن التجارب مرتبطة عندهم الا بالشعوذة والسحر[٤] .

وبالرغم من ان روجر بيكن كان متأثرا بطرق التفكير اللاهوتية الى حد كبير ، بحيث اننا لانستطيع ان نشبهه بالتجريبين الاخرين في العصور المتقدمة او المتأخرة ، الا ان هذا لايقلل من اهميته التأريخية على الاطلاق ، بل اننا في الواقع لو قسنا فضلة بمقدار ابتعاده عن الاراء الشائعة في بيئته ــ وهو المقياس الاكثر انصافا ــ لكان دفاعه عن العلم التجريبي في تلك المرحلة التأريخية جديرا بالاعجاب حتى من قبل التجريبيين المعاصرين[٥] .

---

(٢) The New Encyclopedia Britannica : Vol. 2 Article Roger Bacon.

(٣) Ibid :

(٤) رسل (برتراند) : تاريخ الفلسفة الغربية (الجزء الثاني) ص٢٥١، ٢٥٤ .

(٥) رايشنباخ (هانز) : نشأة الفلسفة العلمية ص٧٨ .

حياة روجر بيكـن وثقافـــته : ــ

لانعــرف بالضبط في أي سنة ولد روجربيكن ولا في أي سنة توفي الا ان اغلب المصادر تكاد تجمع على انه ولد في سنة ١٢١٤م وتوفي في ســـنة ١٢٩٢م في انجلترا •

ان حياة روجربيكن التي قضى جانبا منها في اوكسفورد وجانبا اخر في باريس لتستوعب تلك الفترة الحيوية من القرن الثالث عشر باكملها ، مما جعله واحدا من اكثر مفكري القرون الوسطى اثارة للاهتمام لما قدمه ابان حياته الطويلة للعلم والفلسفة من اضافات لايمكن تجاهلها[٦] •

بدأ روجر بيكن دراسته في جامعة اوكسفورد ، فأبدى تفوقا ملحوظا في المــواضيع الاربعــة التي كانت تدرس بصورة رئيسية في جامعات القــرون الوسطى وهي (الحســاب والموسيقى والهندسة وعلم الفلك) • وقد كان يهتم بقراءة مؤلفات ارسطو وسماع المحاضرات التي وكانت تلقى حــول فلسفته • وقد ابدى بيكن منذ تلك المرحلة المبكرة في حياته الفكرية رأيـــا مخالفا لاراء اساتذته في الجامعة ، وخاصة بالنسبة الى ارسطو ، فهو بالرغم من انه كان يحمل له احتراما عظيما ، لكنه ليس احتراما غير محدود • فارسطو عنده الوحيد الذي اجمع الحكماء على انه فيلسوف ، وهو ككل معاصريه تقريبا ، يستعمل كلمة (الفيلسوف) حين يتحدث عن ارسطو ، لكن بيكن ينبئنا بان ارسطو لم يبلغ غاية الحكمة الانسانية[٧] •

(٦) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص١٠٧

(٧) Copleston History of philosophy : Volume II. pp. 442-443.

وبعد ان انهى دراسته في جامعة اوكسفورد في سنة ١٢٤١ م ، ذهب الى جامعة باريس ليلقي المحاضرات هناك ضمن الهيئة التدريسية ، وفي نفس الوقت بدأ دراساته الجديدة في محاولة لبلورة منهجه الخاص . وقد كان معتدا بنفسه للانتقادات المتكررة التي كان يوجهها الى فلسفة ارسطو واساتذة جامعة باريس الذين كانوا خاضعين لهذه الفلسفة خضوعا تاما[٨] .

وفي سنة ١٢٤٧م عاد روجر بيكن الى انجلترا ، فكرس نفسه حوالي عشرة سنوات للدراسات العلمية ، وقد استحوذت الكيمياء وعلم الفلك على تفكير بيكن بصورة رئيسية ابان هذه الفترة حيث ان هذين العلمين كانا في عصره مختلطين بالشعوذة والسحر ، فعلم الفلك كان يعني العرافة والتنجيم وعلم الكيمياء كان يعني (السيمياء) بمعنى محاولة تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب .

وهكذا كرس بيكن نفسه طيلة عشرة سنوات للنهوض بهذين العلمين من وهدة العرافة والتنجيم والسحر الى رحاب العلم والمعرفة التجريبية . وقد قضى بيكن ثلاث سنوات ظل يعمل خلالها لصنع المرآة التي تستطيع ان تحرق من مسافة بعيدة عن طريق عكس وتضخيم اشعة وحرارة الشمس ، وقدم بحثا عن ظاهرة قوس قزح في غاية الدقة . وقد كانت هذه الدراسات تدل بشكل واضح على ان بيكن كان يعد نفسه ليكون الرائد للعلم التجريبي الاوربي الحديث[٩] .

---

(٨) Ibid : P. 4—44

(٩) The New Encyclopedia Britannica : Vol. 2. Article : Roger Bacon.

اثـارت دراسات بيكن العلمية التي اجراها في انجلترا النقمة عليه ، فأبعد الى باريس سنة ١٢٥٧م ليكون اشبه بسجين فيها وحرم عليه النشر ثم اعيد اليه اعتباره بشروط مشددة ، فأخرج في وقت قصير جدا ثلاثة كتب هي السفر الاكبر والسفر الاوسط والسفر الاصغر . والظاهر ان هذه الكتب قد احدثت اثرا طيبا، حتىلقد ابيحله سنة ١٢٦٨م ان يعود الى انجلترا ليلقي المحاضرات في جامعة اوكسفورد[١٠].

ولم يتعظ روجربيكن بتجربة نفيه الى باريس ، فقد عاد الى مهاجمة كل الاساليب غير العلمية التي كان يتبعها معاصروه من العلماء والفلاسفة ورجال الدين ، ووصف المترجمين عن العربية واليونانية بانهم على درجة بشعة مـن العجز، وفي سنة ١٢٧١م الف كتابا اسماه (مجموعة دراسات فلسفية) هاجم فيه جهل رجال الدين . وحدث عام ١٢٧٨م ان استنكر (قائد الطائفة الدينية) كتبه ، وقرر حرقها وتحريم قراءتها ، كما امر بسجن بيكن ،فلبث سجينا اربعة عشر عاما ، ثم اطلق سراحه سنة ١٢٩٢م ، لكنه لم يلبث ان اسلـم الروح[١١] .

كان روجر ذا ثقافة واسعة ، يميل بصفة خاصة الى الرياضيات والعلوم التجريبية ، وقد استعان بالعلم التجريبي عند الفلاسفة والعلماء العرب ، فقد اعتبر ابن سينا للفلسفة وزعيما لها ، وقـد اقتبس منه الشيء الكثير معجبـا به كل الاعجاب ، وخاصة في بحثة لقوس قزح ويتبع بيكن رأي ابن رشد في ان العقل الفعال عنصر مستقل عن الروح والجوهر[١٢]

(١٠) McInerny (Ralph M.) Philosophy from St. Augustine to Ockham : pp. 246 — 247

(١١) رسل (برتراند) : تاريخ الفلسفة الغربية (الجزء الثاني) ص ٢٥١–٢٥٢ .

(١٢) نفس المصدر ، ص ٢٥٣–٢٥٤ .

ويكفي ان نعلم ان روجربيكن افاد من كتاب الفارابي (احصاء العلوم) اجل الفوائد مما جعله يضع الفارابي الى جانب اعلام الفلسفة واللاهوت العظام أمثال اقليدس وبطليموس والقديس توما - الاكويني ويشير الى هذا الكتاب كثيرا في مؤلفاته (١٣) .

لقد كان روجر بيكن ذا نزعة واضحة نحو العلم التجريبي ، وقد كان اول من نادى في العالم الغربي ، بان المقدمة في العلم تكمن في طرح الاسئلة على الطبيعة وترك الطبيعة نفسها تجيب عن هذه الاسئلة ، وذلك عن طريق الملاحظة والتجربة العلمية(١٤) .

اعمالـــه :

كان بيكن يعد العدة لوضع موسوعة ضخمة تضم كل العلوم المعروفة ، يتعاون على وضعها عدد من العلماء والباحثين داخل معهد علمي خاص مزود بكل المعدات والاجهزة العلمية اللازمة للبحث . وقد حاول بيكن نفسه ان يساهم في وضع هذه الموسوعة ، فظهرت له عدة دراسات ، نشرت فيما بعد بكراسات صغيرة تحت عناوين مختلفة منها(المبادىء العامة للفلسفة الطبيعية و (المبادىء العامة للعلم الرياضي) و (مجموعة دراسات فلسفية) وقد كتبت هذه الدراسات بين عامي ١٢٦٨م و١٢٧٢م(١٥) .

غير ان عمل بيكن الرئيسي كان كتاب (السفر الاكبر) ، اما كتاب (السفر الاوسط) و (السفر الاصغر) ، فهما عبارة عن ملخصات وشروح لمواضيع كان بيكن قد تناولها في كتابه (السفر الاكبر) ، ومع ذلك فقد كانت هامة في بعض الاحيان .

---

(١٣) رابوبرت (أ . س) : مبادىء الفلسفة ص١٠٤ .

(١٤) Copleston : History of philosophy Volume II p. 443

(١٥) The New Encyclopedia Britannica : Volume 2. Article : Roger Bacon.

لقد كان بيكن موسوعياً في مؤلفاته ، وهو يختلف عن معظم فلاسفة عصره في طريقة تناوله لموضوعاته ولو انه تأثر بهم من حيث ظهور الكثير من الاستطرادات الفلسفية المطولة في كتبه . انه يحاول وضع الاراء الصائبة من اجل وضع الطريقة التي ينبغي ان تتبع في تقصي الحقائق وقد اكد مرارا وتكرارا على اهمية الملاحظة والتجربة في هذه الطريقة[١٦] .

وقد كان اهم ما يحفز بيكن في تاليف كتبه ، هو ما كان يحلم به من زعامة سياسة ستؤول الى الغرب ، وهي ــ عنده ــ لاتأتي الا عن طريق تقدم العلم والمعرفة . لقد اقتنع تماما بما للدراسة الوضعية والعلمية من اهمية في مجال التطبيق[١٧] .

ما ان ظهرت اعمال روجر بيكن العلمية والفلسفية حتى قامت دعوة جديدة لم تكن مألوفة عند المدرسيين قبل القرن الثالث عشر ، هذه الدعوة تتمثل في الاتجاه الى التجربة ، واستقاء العلم من معينها ، وعدم الركون الى الكتب والمراجع ، والثورة على الجهل ، والتمرد على تحكم السلطات ، والنفور من طريقة الجدل الارسطية ، ومهاجمة الاعتماد على التأمل العقلي وحده لقد كانت اعمال بيكن تشير بشكل واضح الى انه لابد من التوحيد بين الاستقراء والاستدلال والاستعانة بهما جنبا الى جنب في عملية البحث العلمي وبهذا كان بيكن اول من ادرك الاسس السليمة التي يرتكز عليها منهج البحث العلمي[١٨] .

---

(١٦) Copleston : History of philosophy : Volume 12. p. 4444

(١٧) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص١٠٧ .

(١٨) الطويل (د . توفيق) : قصة النزاع بين الدين والفلسفة ص٩٠ ـــ ٩١

السفر الاكبر : ـ

كتب روجر بيكن كتاب (السفر الاكبر) في فترة من افضل واخصب فترات حياته الفكرية ، فقد كان خلالها في اوج قوته ، حيث استطاع ان يجري الكثير من البحوث التي جعلته متمكنا في الكثير من العلوم والمعارف ، وقد جاء كتاب (السفر الاكبر) معبرا افضل تعبير عن فلسفة روجر بيكن وجوهر طريقته في البحث[١٩].

لقد كان بيكن يعتقد بانه يؤلف هذا الكتاب ليكون مقدمة او برنامج عمل يتم من خلاله تقييم ما تم انجازه وما ينبغي ان ينجز في مجال العلم والمعرفة وقد قسم بيكن الكتاب الى سبعة اقسام ، كتبت كلها باسلوب قوي ومؤثر ومباشر ، وكأن روجر يصدر في كتابته عن رغبة شخصية ملحة[٢٠].

في القسم الاول من كتاب (السفر الاكبر) عرض بيكن اربعة علل رئيسية تؤدي الى جهل الانسان ، هي اتباع السلطة والاستسلام للعادة ، ومسايرة رأي الجمهور غير المتعلم ، واتباع اناس جهلة يخفون جهلهم وراء ستار من الحكمة الظاهرية . ومن هذه الاوبئة الاربعة ـ كما يسميها بيكن والوباء الرابع افضعها جميعا تنبثق شرور الانسانية[٢١] .

وفي هذا القسم من الكتاب يؤكد بيكن على ضرورة عدم الاعتماد على حجج اسلافنا من الحكماء لتأييد فكرة او دحضها ؛ فاسلافنا كانوا حكماء في عصرهم ، ولكن حكمتهم لا يمكن ان تكون صالحة لكل العصور ، فالشاب اليافع من هذا العصر ربما كان اعرف بكثير من حكماء العصور السالفة ـ كما يقول بيكن ـ .[٢٢]

---

(١٩) McInerny(Ralph M.) philosophy from St. Augustine to Ockham : P. 248.

(٢٠) Ibid : pp. 248, 249.

(٢١) Ibid : p.p. 248. 249

(٢٢) Ibid : p. 249

وقد خصص بيكن القسم الثاني من كتاب (السفر الاكبر) للحديث عن العلاقة بين الفلسفة واللاهوت ، وهنا نجد اثر ابن سينا وابن طفيل واضحا فهو بالرغم من تأكيده على اهمية واسبقية الكتاب المقدس والشريعة الكنسية الا انه لا يرى اي تعارض بين الوصول الى الحقائق عن طريق الكتاب المقدس والشريعة الكنسية او الوصول اليها عن طريق الفلسفة والبحث العلمي . وفي هذا يقول بيكن (ليس كل باحث هو في حاجة دائما للاعتماد على الكتاب المقدس من اجل الوصول الى الحقيقة ؛ فليست هناك حقيقة تتعارض مع الكتاب المقدس ، لان كل حقيقة يمكن ان تكتشف انما هي تعود الى السيدالمسيح) .(٢٣)

وفي القسم الثالث من كتابه تناول بيكن موضوع اللغة ، وقد اكد فيه على الاهمية العملية في الدراسة العلمية للغة ، فاذا لم تكن لدينا معرفة حقيقية باللغة العبرانية واللغة اليونانية تأتي عن طريق الممارسة الفعلية ، فاننالن نستطيع تفسيرا وترجمة الكتب المقدسة بصورة صحيحة ، ونحتاج لنفس الشيء اذا ما اردنا الحصول على ترجمات سليمة للفلاسفة الاغريق والعرب(٢٤) .

أما في القسم الرابع فيقدم بيكن دراسة عن الرياضيات من حيث منزلتها وقيمتها واهميتها العلمية ، فيعتبرها من حيث الوظيفة بمثابة الباب او المفتاح لكل العلوم الاخرى . فعلم المنطق وعلم النحو ــ مثلا ــ يعتمدان الى حد كبير على الرياضيات ، وقد اصبح ــ كما يقول بيكن ــ من الواضح ان علم الفلك لايمكن ان يتقدم دون الاستعانة بالرياضيات . ويذكر بيكن امثلة متعددة عن فوائد هذا العلم بالنسبة للعلوم الاخرى(٢٥) .

---

(٢٣) Ibid : PP. 249 — 250

(٢٤) Ibid : P. 250

(٢٥) Arthur Hyman & James J. Walsh : Philosophy in the Middle Ages : PP. 440 — 445

وفي القسم الخامس عرض بيكن لعلم البصريات ، حيث عالج فيه تركيب العين ، وعناصر حاسة البصر ، وكيفية الرؤية ، والانعكاس ، والانكسار ، واخيرا التطبيق العلمي لعلم البصريات ، فقد اقترح وضع مرايا في مكانات مرتفعة بحيث يمكن مراقبة الخطط والتحركات التي تجري داخل معسكرات الاعداء . وعن طريق استخدام ظاهرة الانكسار يمكننا رؤية الاشياء الصغيرة كبيرة جدا ، كما يمكننا رؤية الاجسام البعيدة جدا عنا وكأنها بالقرب منا . وبالرغم من انه لا يوجد دليل قاطع على ان بيكن كان قد اخترع التلسكوب الا انه ليس من المستبعد انه حاول اختراعه او اختراع شيء مشابه له على الاقل [٢٦].

وفي القسم السادس تناول بيكن العلم التجريبي بالبحث ، فرأى ان الملاحظة هي المقدمة الاولى لاحراز المعرفة ، وان الاستدلال والتجربة هما الوسيلتان الاساسيتان في البحث العلمي ، ولا يمكن الاستغناء عن اي من هاتين الوسيلتين ، فاذا كان الاستدلال يساعد الذهن ويهديه الى النتيجة ، فان هذه النتيجة تبقى موضع شك ما لم يتم التحقق منها عن طريق التجربة .

ويقسم بيكن التجربة الى نوعين رئيسيين : تجربة حسية (وهي التجربة التي نشعر من خلالها شعورا واحدا عندما نحس بما هو موجود في العالم الخارجي) ، وتجربة باطنية (وهي التجربة التي يشعر بها كل فرد على حدة شعورا مختلفا حسب المرحلة التي يمر بها من مراحل تطوره الروحي) وموضوع التجربة الحسية الاشياء الارضية ، بينما يكون موضوع التجربة الباطنية الاشياء الروحية [٢٧].

---

(٢٦) McInerny (Ralph M.) : philosophy from St. Augustine to Ockham : P. 251

(٢٧) Ibid : pp. 251 — 252

وبالرغم من هذا التقسيم للتجربة عند بيكن ، الا انه اكد بشكل قاطع على ان العلم التجريبي هو الفيصل والحكم الاول والاخير في معرفة الاشياء الارضية ، كما انه اكد على ان التطور الروحي للانسان لا يمكن ان يتم مالم يتمثل ويستوعب تماما كل مايتعلق بالتجربة الحسية(٣٨).

وفي القسم السابع والاخير من كتاب (السفر الاكبر) يعالج بيكن الفلسفة الاخلاقية ، فيضعها مع الفلسفة والرياضيات والعلم التجريبي من حيث الاهمية . فاذا كانت الفلسفة والرياضيات والعلم التجريبي تختص بدراسة ومعالجة انواع مختلفة من الاعمال ، فالفلسفة الاخلاقية تختص بدراسة ومعالجة الاعمال من حيث كونها صحيحة او غير صحيحة ، كما انها ترشد الانسان وتهذبه وتساعده في توطيد علاقته بالله.(٣٩)

تاثير فلسفة روجر بيكن :-

احتوت كتابات بيكن الفلسفية الكثير من النظريات التي قدمها في كثير من المواضيع مثل الفيزياء وعلم النفس والميتافيزياء وعلم الاخلاق ، الا ان تاثير بيكن الاعظم كان في العلم التجريبي .

لقد كان سبب الاعجاب الذي احرزه روجر بيكن تأكيده على ان المعرفة لا يمكن ان تكتسب ، الا عن طريق الملاحظة الحسية واجراء التجارب المختلفة بغية ادراك النظام او القانون الطبيعي الذي تخضع له الظاهرة الطبيعية قيد الدرس ، كل ذلك من اجل السيطرة عليها واخضاعها لمنفعة الانسان . لقد دعاه احد معاصريه بـ (سيد التجريبيين) ، كما قال عنه (جورج سارتون) مؤرخ العلم المشهور بعد أن عرض بحثه في المغناطيسية (بانه صاحب المنهج الحي والفريد من نوعه في العلم التجريبي) كما اعتبره واحدا من ابرز الذين قاموا في البحث التجريبي طيلة القرون الوسطى.(٣٠)

---

(٢٨) Ibid : P. 252

(٢٩) Copleston : History of Philosophy : Volume II. p. 447

(٣٠) Maurer (Armand A.) : Medieval Philosophy : PP. 132-134

كان من تأثير دعوه روجر بيكن الى التجربة والاختبار ، ان استجاب لها العلماء والفنانون ونشأت الجمعيات العلمية صدى لهذه الدعوة ومهد هذا لنشأة العلوم الطبيعية على اسس تجريبية ، وبدأت المختبرات الحديثة وانساق الناس الى الكشف الجغرافي التماسا لحقيقة تسفر عنها مشاهداتهم وكان هذا تحت تأثير مؤلفات روجر بيكن الجغرافية ، التي كان كريستوف كولمبس من بين المهتمين بها ، فقد قرأها وتأثر بها[٣١] •

لقد اتفق رواد الفكر الجديد ـ بعد بيكن ـ على استهجان الكتب القديمة والسلطة الدينية كمصدر لعلمنا بالطبيعة ، مما اتاح ظهور روح النقد ، فأدى ذلك الى رد فعل ضد فلسفة ارسطو • وقد ساعد هذا على ظهور فكرة المنهج القائم على الملاحظة والتجربة بدل الاستدلال العقلي وحده • وبدأ العلماء يتجهون الى الطبيعة يحاولون دراستها ومعرفة قوانينها ، حيث هجرت الفكرة القائلة بوجود الانسان في هذه الطبيعة للتكفير فقط عن خطيئة آدم وما ان حل عصر النهضة واشرق العصر الحديث ، حتى ظهر الترويج لفلسفة روجر بيكن التجريبية واضحا ، فقد تبنى رواد الفكر الحديث معظم اراء بيكن في العلم واخذوا يطورونها ويتوسعون بها ويدافعون عنها ، وقد ظهر هذا بشكل واضح عند خلفه وسميه في الاسم فرانسيس بيكن •[٣٢]

---

(٣١) رسل (برتراند) : تاريخ الفلسفة الغربية (الجزء الثاني) ص٢٥٢

(٣٢) Copleston : History of philosophy Vol. II. p. 443

المراجع العربية :

١ ـ الطويل (د. توفيق) : قصة النزاع بين الدين والفلسفة : الطبعة الثانية مكتبة مصر ـ القاهرة ١٩٥٨ .

٢ ـ رابوبرت (أ . س) : مبادىء الفلسفة : ترجمة احمد امين : الطبعة السادسة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر : القاهرة ١٩٦٤ .

٣ ـ رايشنباخ (هانز) : نشأة الفلسفة العلمية . ترجمة د . فؤاد زكريا : دار الكاتب العربي ١٩٦٧ .

٤ ـ رسل (برتراند) : تاريخ الفلسفة الغربية : ترجمة د . زكي نجيب محمود الكتاب الثاني ـ الطبعة الثانية ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٨ .

المراجــع الاجنـبية : ـ

1. Arthur Hyman & James J. Walsh : Philosophy in the Middle Ages : Harper & Row, Publishers : New York, Evanston, and London : 1967.
2. Copleston (F) : History of Philosophy : Burns Oates & Washbourse Ltd. Publishers to the Holy see : London, 1959.
3. Maurer (Armand A.) : Medieval Philosophy : Random House: New York : 1962.
4. McInerny (Ralph M.) : Philosophy from St. Augustine to Ockham : University of Notre Dame Press : London 1970.

دوائـر المعارف : ـ

١ ـ الموسوعة الفلسفية المختصرة : ترجمها فؤاد كامل (وآخران) ، راجعها واشرف عليها واضاف شخصيات اسلامية د. زكي نجيب محمود (الألف كتاب ـ مكتبة الانجلو المصرية . القاهرة ١٩٦٣) .

2. The New Encyclopedia Britannia : William Benton, Publisher, London, Geneva, 1974.

تدجين الحيوان
استنادا الى الآثار المكتشفة في المواقع الاثرية

بقلم : الدكتور تقي الدباغ
استاذ بكلية الآداب ــ جامعة بغداد

مقــــدمة :

انتهى العصر الحجري القديم الذي كان يعتمد بالدرجة الاولى على صيد الحيوانات والاسماك بتراجع الجليد الى خطوط العرض الحالية وبدأ عصر جديد توسط العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث وتميز هذا العصر الحجري المتوسط بخصائص تختلف عن خصائص عصور سبقته ومع ذلك يعتبر بعض الباحثين هذا العصر امتداداً للعصر السابق او عهد زوال له ولهذا لايميلون حتى الى مجرد ذكره . والحقيقة هي ان هذا العصر هو عصر تمهيدي بين الاقتصاد المستهلك للطعام المعتمد على صيد الحيوانات والاسماك وعلى جمع الفواكه وبذور وجذور النباتات البرية وبين الاقتصاد المنتج للطعام بالزراعة والرعي ففي هذا العصر اعتدل المناخ ومال الى الدفء والجفـــاف النسبي بعد ان كان جليديا في بعض المناطق ومطيرا في مناطق اخرى وتغيرت علاقة الانسان بالبيئة بالتدريج واختفت حيوانات الصيد الكبيرة التي اعتاد الصيادون قتلها بتعاون مجموعات منهم في اكثر المناطق وحلت محلها الحيوانات التي تعيش في الوقت الحاضر وظهرت مجالات جديدة للاستيطان في مواقع مفتوحة على شواطيء الانهار ومصباتها وعند العيون والينابيع وفي السهول الرملية بعد ان انتفت الحاجة الى الكهوف والملاجيء الصخرية والغابات وحصل تقدم كبير في صناعة الالات والادوات الحجرية لتلائم الظروف الجديدة

فاصبحت الالات شظايا دقيقة الحجم والصنع وبدأت المحاولات الاولى لزراعه النباتات البرية وتكييف الحيوانات للتدجين في الالف الثاني عشر قبل الميلاد واستمر هذا العصر حتى حل محله في ازمنة مختلفة تختلف باختلاف الاقاليم العصر الحجري الحديث الذي اعتمد على انتاج الغذاء ففي اقاليم جنوب غرب آسيا تتضح آثار هذا العصر اكثر مما في غيرها من حيث القـدم والتطور وخصوصا في فلسطين والعراق حيث وجدت مخلفاته في وادي النطوف في كهف شقبة الواقع شمال غرب مدينة القدس كما وجدت في مغارة الوادي بمنطقة الكرمل.[1] وتتميز الالات الحجرية الصغيرة التي وجدت في هذا الموقع بشكل الهلال ومن المحتمل ان الانسان استخدم بعضها في صنع المناجل التي تدل على ممارسة نوع من الزراعة البدائية الى جانب جمع المواد الغذائية والصيد في البر والبحر غير ان هذه المناجل قد لا تكون دليلا قاطعا على الزراعة فلربما كانت تستخدم لحصد ثمار نباتات برية كما ان المدقات والهاونات الحجرية التي وجدت في بعض مواقع هذا العصر قد لا ترتبط بانتاج الطحين . وفي العراق يبرز من مواقع العصر كريم شهر[2] الذي يبعد قليلا عن مدينة السليمانيـة والآثار التي استخرجت من هذا الموقع احتوت مناجل ورحى ومقدارا كبيرا من عظام الحيوانات وقد تبين ان نصف تلك العظام يعود لحيوانات مدجنة . وفي ايران وجدت اثار هذا العصر في كهف الحزام[3] الذي يقع على السواحل الجنوبية لبحر قزوين وهي على العموم تشبه تلك التي وجدت في فلسطين والعراق ويعود تاريخها حسب اختبار الكربون الرابع عشر الى ١٠٥٦٠ ــ ٦١٠ سنة مضت وفي مصر وجدت آثار تعود لنفس العصر في حلوان[4] .

ان البحوث القلية التي تناولت طبيعة العصر المكدليني والعصر الحجري الحديث لم تسفر بعد عن تعيين الاسباب الكاملة لقيام الزراعة في اقاليم معينة دون سواها . ويظهر ان الصيادين كانوا منذ زمن بعيد سبق العصر الحجري الحديث يستوطنون المواقع المجاورة للانهار في مواسم الصيـد لاصطيـاد

الحيوانات الكبيرة واخذ صغارها الراكضة وراء الامهات لتربيتها من اجل لحومها او لمجرد المتعة والاستئناس • وقد لاحظ هؤلاء الصيادون نمو النباتات من بذور ونوى الثمار التي يجمعونها للاكل فيما جاور اماكن سكنهم غير انهم استمروا على جمع المواد الغذائية ولم يتعلموا الزراعة ورعي الحيوانات الا عندما أحدثوا التحسينات على طرق صناعة الآلات الحجريةلقلع الاشجار في الغابات وتحويل الاراضي الى مزارع ولبناء الزرائب لحماية الحيوانات الاليفة من الوحوش الضارية ولحفظها من الهرب ولصنع الآلات الخاصة بالزراعة •

لقد بنى اهل العصر الحجري المتوسط جسرا للانتقال من الجمع والصيد القديم الى الاقتصاد الزراعي فيما بعد بعدة طرق وفي مقدمة تلك الطرق تبرز مقدرتهم على تكييف الحيوان والنبات للتدجين وكانت عملية التدجين تدريجية بحيث يصعب تتبعها في مراحلها المبكرة ولكنها ادت بالتالي وبعد مرور عدة قرون الى قيام اقتصاد اصبح الصيد فيه مسألة ثانوية بالمقارنة مع الرعي والزراعة التي اصبحت قاعدة راسخة لاقدم الحضارات في العالم القديم • ان المتأخرين من أهل العصر الحجري المتوسط هم الذين مهدوا لحدوث الانقلاب الاقتصادي الذي برز في الاساس من الاستزراع • ويظهر ان الزراعة والرعي قد حدثت تحت ضغط حالات الجفاف النسبي التي عقبت الفترة المطيرة الاخيرة • ومن الضروري ان نؤكد بأنه لايوجد عندنا حتى الان دليل على طبيعة الحبوب الغذائية التى حصدها اهل النطوف في فلسطين ولانعرف ماذا كانت تلك الحبوب قد زرعها الانسان ام انها نمت نموا طبيعيا كما ان مناجل الحصد والمدقات التي تركها اهل النطوف في مستوطناتهم تحمل نقوشا لرؤوس حيوانات على مقابضها مما يدل على ان الصيد كان لايزال المصدر الرئيسي للطعام • وتتاكد هذه الحقيقة اذا علمنا بعدم وجود عظام حيوانات مستأنسة في انقاض الطبقات السفلى من مواقع عصر النطوف •

التدجين :

ان تاريخ تدجين الحيوان يقدم صورا مختلفة للتدجين من عدة نواحي وبالرغم من ان الحيوان كان من العناصر الاساسية في الاقتصاد المنتج للطعام في جميع انحاء العالم القديم الا ان تدجينه اخذ وقتا طويلا بعكس النباتات التي زرعها الانسان اذ نجد نباتات معينة زرعت بشكل مستقل في منطقة معينة بينما نجد بعض حيوانات العالم القديم دجنت بعيدا عن المنطقة التي ظهر فيها التدجين لقوة انتشار فكرة تدجين الحيوان كما ان عدد الحيوانات التي استأنسها الانسان اقل بكثير من عدد النباتات التي زرعها والحيوانات المدجنة الان تمثل نسبة قليلة جدا في المملكة الحيوانية ٠ وبالرغم من ان الصيادين قد تمكنوا من استثمار الحيوان لاقصى حد من اجل لحومها فقد كان هؤلاء يعتمدون في تدجينهم على جملة امور منها سلوك الحيوان الطبيعي الذي يجعله قابلا للتكييف في علاقاته مع الانسان والحيوانات القابلة للتدجين هي تلك التي تعيش بشكل طبيعي على هيئة قطعان وقادرة على التناسل والتكاثر وهي في الاسر وهذا الاسر يتطلب الاستقرار ولذلك بقي التدجين مدة طويلة من الزمن ينتظر بلوغ الانسان مستوى معينا من الاستقرار وقد تضافرت العوامل الحياتية والتدخل المقصود من قبل الانسان على تحقيقه(٥) ٠

وتشير الدلائل المتيسرة الى ان الحيوانات التي استأنست كانت في الاصل حيوانات صيد اعتاد الصيادون قنصها في المناطق الخاصة بها وكان الانسان يحفظ اصنافا منها او من صغارها في منزله كالمعز والاغنام والخنازير البريه والدافع الرئيسي للاحتفاظ بها كان في بداية الامر اللحم والمتعة اما فوائدها الاخرى للنسيج والالبان والنقل فقد حصلت فيما بعد ٠

لم يكن لدى الانسان البدائي في المراحل الاولى من الصيد سلوك نفعي مقصود تجاه التدجين ويبدو معقولا ان التدجين بـدأ بغرض الاسـتمتاع بالحيوان فالنساء والاطفال كانوا يحتفظون بصغار الحيوانات الوحشية في منازلهم للمتعة وبمرور الزمن تروضت هذه الحيوانات في الاسر بعد ان كبرت وقد استمرت هذه العملية فترة طويلة من الزمن الى ان حصل التدجين لاغراض اقتصادية في المجتمعات الزراعية التي ظهرت فيها الحياة المستقرة وكثر السكان فالحيوانات التي دجنت في الادوار الاولى من العصر الحجري الحديث كانت متكيفة لبيئة الانسان قبل هذا العصر والعلاقة التي برزت بين الانسان وبين تلك الحيوانات التي سبق لها ان تكيفت للتدجين في ظل تلك الظروف الطبيعيه كانت نتيجة الانتخاب الطبيعي • ان الدراسات الحديثة تشير الى التكييف السابق للبيئة قبل التدجين الفعلي فهنـاك بحوث فيزيولوجية تدل على ان الحيوانات التي تميل الى تكوين علاقة اجتماعية مع الانسان تفرز غدتهـا النخامية مادة الادرنالين اكثر من مادة اللاادرنالين بينما الحيوانات الآكلة اللحوم التي يصيدها لانسان تفرز مادة اللاادرنالين اكثر من مادةالادرنالين[٦] ان هذه الخلفية البايولوجية تلقي بعض الضوء على منشأ التدجين وان كانت حتى الان غير مجدية للتمييز بين عظام الحيوانات المدجنة وغير المدجنـة المستخرجة من المواقع الآثرية •

ان الثورة الزراعية في العصر الحجري الحديث هي من اكثر التحولات الاقتصادية والاجتماعية أهمية في تاريخ تطورات المجتمع البشـري القديم ولكنها بنفس الوقت اقل التحولات وضوحا وقد فسر المعنيون بدراسة الآثار والحضارات القديمة هذا التحول بظهور الاقتصـاد المنتج المعتمد على تربية الحيوانات وزراعة النباتات قبل عشرة آلاف سنة أو اكثر بقليل وعلى الباحث في منشأ هذا التدجين الذي كان الاصل الضروري والقاعدة الاساسـية للثورة الزراعية ان يعتمد على الدلائل التي تقدمها مختلف الاختصاصات المتعددة

وفي مقدمة تلك الاختصاصات تبرز الاستعانة بعلم دراسة شكل الحيوانات وبنيتها (مورفولوجي) وكذلك الدراسات الخاصة بالاصول الوراثية التي يقدمها علم الاحياء وأخيرا الدراسات الخاصة بتتابع الازمان وتوزيع الآثار التي يهتم بها علماء الآثار وكل حقل من هذه الحقول العلمية له طرقه الخاصة واصطلاحاته الخاصة ولكنها بتعاونها مع بعضها تستطيع ان تقدم الحلول لصعوبات ومشاكل عامة لها صلة بمنشأ التدجين •

ويعرف الحيوان المدجن بأنه الحيوان الذي يربى في الاسر وله فوائد للانسان كالبقر مثلا وهذا التعريف لايشمل بعض الحيوانات التي استأنست لاغراض معينة فالفيل لايربى في الاسر الا في حدائق الحيوانات ولكنه مفيد للانسان عند استخدامه له • والتدجين بهذا الاعتبار يمكن التدليل عليه اثاريا من خلال الكشف عن الالات والادوات التي كان الانسان يستخدمها في علاقته مع الحيوان ومن خلال اعمال الانسان الفنية التي تمثل الحيوانات المسخرة لخدمة الانسان في أعمال النحت البارز والمجسم وأخيرا من خلال عظامه التي بقيت مدفونة في المواقع الاثرية فالتدجين حسب المفهوم الاثاري يشمل الحيوان الذي يسيطر عليه الانسان للافادة من لحمه وجلده وصوفه وشعره ووبره ولبنه وفي خدماته في النقل والركوب • اما التعريف الذي يعتمد على علم العظام (اوستولوجي) الذي يهتم به علماء الحيوان فيعتبر الحيوان مدجنا بعد ان يربى جيلا بعد جيل تحت رعاية الانسان حتى تظهر منه سلالة مدجنة تختلف عن السلالة البرية غير المدجنة الذي انحدرت منه [٧] فالتدجين حسب هذا التعريف يوضح على اساس شكل العظام وبنيتها ومهم جدا ان ندرك ان هذا الوضوح للتدجين يتبع بالضرورة التطور الحضاري عبر الزمن • والمفروض ان يوجد نوع من التطابق والتوافق بين النقاط التي يتناولها هذان التعريفان ولكننا نجد في كثير من الاحيان ان عالم الحيوان يقول لعالم الاثار

ان العظام التي اكتشفها اثناء التنقيبات الاثرية يمكن ان تكون لحيوانات مدجنة لا على اساس الدلائل العظيمة المكتشفة بل لارتباط تلك العظام بمواد اثرية من صنع الانسان وعالم الاثار يقبل هذا الراي ظنا منه انه يستند على دراسة العظام مع العلم ان وجود عظام الحيوان مع المواد الاثرية المصنوعة في موقع الاثار لا يمكن اعتباره دليلا على استئناس الحيوان في اغلب الاحوال ويتضح هذا الامر من سجل التنقيبات الاثرية في مواقع عصور قبل التاريخ وتصعب معرفة بداية التدجين اذا انعدم وجود الآثار المصنوعة ذات العلاقة بدرجة كافية واذ كان مرور الوقت الذي يستلزمة تحول الحيوانات من حالتها الوحشية الى حالتها الاليفة غير كاف ايضا •

والطريقة المستخدمة في الوقت الحاضر هي اعتماد الاحصاء اي تسجيل عدد عظام الحيوانات التي كانت تعيش في زمن معين في الموقع الاثري • وتحليل مثل هذا الاحصاء يمكن ان يشير الى بعض نقاط التحول من الاعتماد الكامل على حيوانات الصيد في عصور سبقت التدجين بزمن طويل الى الاعتماد على حيوانات الصيد التي سبقت التدجين مباشرة اي الحيوانات التي يمكن تدجينها أو الحيوانات التي دجنت في أزمنة لاحقة • وبهذه الطريقة يمكن تعيين عمر الحيوانات القابلة للتدجين عند ذبحها فاذا كانت نسبة عظام هذه الحيوانات القابلة للتدجين نسبة عالية في المجموع العام من العظام المكتشفة فان هذا يعتبر دليلا معقولا على استنتاج نوع من سيطرة الانسان على الحيوان ومع ذلك ينبغي استخدام هذه الطريقة بتحفظ وتفضل دراسة نماذج احصائية كثيرة من العظام المكتشفة في عدد من المواقع في منطقة واسعة بشرط ان تكون النماذج المعدة للدراسة متوفرة بدرجة كافية في كل حالة •

هناك دراسات كثيرة عن الحيوانات المدجنة وعن اصلها ولكن هناك قليل من الدراسات الجيدة عن تدجين الحيوان في اقطار الشرق الادنى • ومعظم الدراسات الموجودة بين ايدينا تعتمد على الدراسات القديمة ومعظم التمييز

لعظام لحيوانات لتي وجدت في المواقع الاثرية لم يكن مضبوطا لانه لم يتوفر لدى المختصين سوى القليل من مجموعات العظام للمقارنة وافتقرت تلك الدراسات الى الدقة التي لم تدرك اهميتها في السابق • والتمييز القديم الذي كان يعتبر جيدا لم يعد الان كذلك لان تغييرات كثيرة حدثت في تقنية علم تصنيف الحيوانات • ولايمكن تمييز عظام الحيوانات على اساس الحس للتفريق بين المدجنة منها وبين غير المدجنة لان عملية التمييز تدعو الى دراسة تشريحية دقيقة وتتطلب مجموعة كبيرة من العظام تكون موجودة تحت تصرف الخبير للمقارنة هذا اضافة الى ضرورة توفر قدر عالي جدا من الخبرة •

ان معظم المنقبين في المستوطنات الاثرية لم يلتفت الى اهمية عظام الحيوانات ولذلك كانت ترمى بعيدا في انقاض التراب واذا حفظوها للدراسة كانوا يواجهون مشكلة الحصول عمن يستطيع تمييزها او يقبل بذلك • ان مهمة باحث الآثار هي توضيح حضارات الماضي وبيان تأثير القديمة منها على الحديثة ولتحقيق هذا الغرض يحتاج باحث الاثار الى خدمات معظم المختصين بالعلوم الطبيعية مثل علماء الحيوان والنبات والبيئة والتربة والمناخ وعلى هؤلاء ان لا ينظروا الى الموضوع من الناحية الاحيائية او الطبيعية فقط بل من ناحية علاقته بالحضارات البشرية القديمة والحديثة • وعالم الاحياء على وجه الخصوص يجب ان يدرس بيئة المنطقة التي تطورت فيها الحضارة ويجب ان يعرف الحيوانات والنباتات التي عاشت في تلك البيئة ويجمع نماذج كثيرة منها لاغراض المقارنة بحيث تساعده في عملية تمييز بقايا الحيوانات والنباتات التي تستخرج من المواقع الاثرية ويجب ان لايقف واجب الاحيائي عند مجرد تمييز العظام او النباتات بل عليه ان يميز الانواع القديمة المدجنة وغير المدجنة اي ان يفرق بين عظام حيوانات الصيد وعظام حيوانات الرعي ويضع جدولا احصائيا بذلك واذا كان الموقع الاثري سليما من حيث تعاقب طبقات الاثار دون ارتباك فمن الممكن تتبع الاصول الوراثية للحيوانات •

وبما ان تتابع لادوار الحضارية وتاريخ تلك الادوار بعد العصر الحجري المتوسط معروف الى حد كبير في أقطار الشرق الادنى وان تواريخ نفس الادوار في أقطار العالم القديم الاخرى مخمنة بالنسبة الى تواريخ أدوار حضارات اقطار الشرق الادنى فمن الافضل والمعقول ان يكون اهتمامنا منصبا اولا على اقطار الشرق الادنى • ففي جميع هذه الاقطار نجد في اقدم الطبقات المتعاقبة بقايا عظام أربعة حيوانات ذات فوائد اقتصادية مباشرة هي المعز (CAPRA) والغنم (Ovis) والبقر (BOS) والخنزير (SUS) • اما عظام الكلب التي وجدت في بعض مواقع هذه الاقطار فتعود لتاريخ اقدم •

وجدت بقايا عظام هذه الحيوانات الاربعة في قرية زاوي جمي[٨] في شمال العراق وفي قرية جرمو[٩] في شمال العراق ايضا وفي منطقة الفيوم[١٠] بمصر وفي قرية آناو[١١] في التركستان الروسية وفي جميع هذه المواقع الاثرية وجدت بقايا عظام الحيوانات مع المناجل المصنوعة من الحجارة ومع حبوب القمح والشعير وعثر على اثار ومخلفات مماثلة في تل حسونة[١٢] في شمال العراق وفي موقع النطوف[١٣] بفلسطين • وفي تل جديدة[١٤] بمنطقة العمق في سورية عثر على تماثيل لبعض الحيوانات لم تميز انواعها • ووجدت عظام هذه الحيوانات في اريحة[١٥] في فلسطين وفي قرية تبة سيالك الاولى[١٦] في ايران • ان هذه المكتشفات تدل على ممارسه الاقتصاد المنتج المعتمد على الزراعة وعلى هذه الحيوانات الاربعة ابتداء من الالف الثامن قبل الميلاد والامتداد الجغرافي لهذا التدجين في الغرب ظهر في تركيا في طبقات العصر الحجري الحديث في قرية جاتال اويوك[١٧] وفي طبقات العصر الحجري المعدني في قرية عليشار اويوك[١٨] • اما في الشرق فقد ظهرت في قرية هارابا[١٩] في الهند •

ويتضح من هذا وجود منطقة سهوب تنمو فيها الحشائش كانت ترعى فيها الحيوانات وتنمو النباتات ولكن الدلائل المستقاة من المستوطنات الاثرية لاتشير الى كون عظام الحيوانات المكتشفة تعود فعلا لحيوانات مدجنة في بعض تلك المستوطنات • واذا صرفنا النظر عن حضارة هارابا المتأخرة في الهند فان لدينا احصاءات كافية من منطقتين مهمتين الاولى في شمال العراق حيث تم احصاء بقايا عظام الحيوانات المستخرجة من موقع بله كورا الذي يعود تاريخه الى اواخر العصر الحجري القديم الاعلى ومن موقع كريم شهر الذي يعود تاريخه الى العصر الحجري المتوسط ومن قرية جرمو التي يعود تاريخها الى العصر الحجري الحديث وتدل الارقام على تغيير نسبة عظام المعز والاغنام المدجنة من ٣٠٪ الى ٥٠٪ الى ٩٥٪ على التوالي[٢٠] والمنطقة الثانية هي ايران حيث وجد فوق الطبقة العاشرة في كهف الحزام[٢١] التي تمثل بداية العصر الحجري الحديث ان نسبة عظام الحيوانات المدجنة الى المجموع العام من عظام الحيوانات هي اكثر من ٥٠٪ وكانت نسبة عظام الاغنام والمعز غير المدجنة ٤٠٪ بينما كانت نسبة عظام الحيوانات المدجنة اسفل الطبقة العاشرة وهي الاقدم زمنا أقل من ٥٠٪ وكانت نسبة عظام المعز والاغنام غير المدجنة في نفس المكان هي ٨٠٪ واذا قورنت هذه النسب بمثيلاتها في مواقع العصر الحجري الحديث في اوربا [٢٢] نجد نسبة عالية جدا من عظام الحيوانات غير المدجنة ونسبة عالية من عظام الحيوانات غير المدجنة الى المدجنة ايضا.[٢٣] واذا اخذنا هذه الاحصاءات بنظر الاعتبار يتضح لنا بأنها تشير الى زمن تمت فيه سيطرة الانسان على قطعان الحيوانات ذات الاهمية الاقتصادية • ان بداية الاعتماد على الحيوانات الاربعة وهي المعز والغنم والخنزير والبقر تقترن بالاستقرار الزراعي وخير دليل على ذلك نتائج التنقيبات الاثرية في قرية جرمو اذ تبين من الاحصاءات المنشورة عن عظام الحيوانات المكتشفة في هذه القرية ان نسبة عظام الحيوانات غير المدجنة بلغت ٥٪ فقط ومن الجدير بالذكر ان تاريخ قرية جرمو قد تحدد باختبار الكربون الرابع عشر الاشعاعي بحدود ٩٠٤٠ ± ٢٥٠ سنة مضت اي حوالي عام ٧٠٠٠ قبل الميلاد •

الكلب :

الكلب هو اول حيوان آلفه الانسان في العصر الحجري المتوسط ليكون رفيقا في الصيد وربما لاكل لحمه والسلف البري للكلب الاليف قد يكون الذئب او ابن الآوى او الثعلب وسواء كان هذا ام ذاك فان اقدم كلب بقيت عظامه في المواقع الاثرية هو الكلب الذي وجدت بقاياه العظيمة في كهف الحزام(٢٤) في ايران ويستنتج من هيكله العظمي انه كان كبير الحجم وثقيل العظم وقد حدد الكربون الرابع عشر المشع تاريخه بحدود ١١٤٨٠ ∓ ٥٠ سنة مضت ان العظام المكتشفة في هذا الموقع الاثري هي بالتأكيد لكب ولكن حقيقة هذا الكلب الوحشية او المدجنة تبقى غير مؤكدة الى أن تتوفر دراسة بقاياه دراسة تشريحية وافيـــة •

اما كلب النطوف(٢٥) بفلسطين فقد قورنت جمجمته المتحجرة مع جمجمة ابن آوى وجدت في موقع النيوم في مصر وربما كانت تلك الجمجمة المتحجرة لابن آوى كان يعيش آنذاك في فلسطين ايضا وقد صيغت اوصافه بشـــكل يفهم القارىء منها ان كلب النطوف ربما كان في الواقع ابن آوى • اما الكلب الذي وجدت عظامه في موقع شقبة(٢٦) بفلسطين فقد ظن انه مدجن علـــى اساس عظام فكه واكبر تلك العظام عظمة الفك الاسفل التي لم تكن موجودة بين عظام كلب النطوف في الكرمل ولذلك تتعذر مقارنتهما ومن الضروري مقارنة تلك البقايا العظمية بعظام ابن آوى • وفي مغارة الوادي بفلسطين وجدت عظام كثيرة للكلاب ولكن عظام الذئب وابن آوى لم تذكر بينها وبما ان هذين الحيوانين والكلب البري كانت بدون شك تعيش في فلسطين في العصر النطوفي فان بقايا اي مخلوق يشبه الكلب من تلك الفترة ينبغي ان تنسب لاحد الانواع البرية المذكورة الى ان يستدل على كونها عظام الكلب المدجن •

ان أقدم بقايا الكلب الاليف حقيقة في الشرق الادنى وجدت في الطبقات السفلى في اريحة في تل السلطان وقد تميز هذا الكلب على اساس الاسنان وبقايا الفك وتبين ان تلك الاسنان وبقايا الفك لا تعود لذئب ولا لابن آوى بل لكلب بالتأكيد[٣٧] .

وفي جرمو في شمال العراق عثر على بقايا عظام حيوانية وصفت بانها قد تكون لكلاب أليفة[٢٨] كما وجدت في هذه القرية عظام الثعلب أو الذئب ان افضل الدلائل التي تشير الى تدجين الكلب في قرية جرمو هي دلائل ليست احيائية بل فنيةفقد وجدت بين الاصنام المكتشفة فيهذا الموقع تماثيل لحيوانات تبدو وكأنها لكلاب لها ذيول منحنية الى الاعلى مما يدل على انها ليست ذئاب ولا ثعالب ولا ابن آوى .

اما بدايات تدجين الكلب في مصر فلا تعرف بالرغم من افتراضات كثيرة ترى العكس . ومن المحتمل ان يصعب أمر التمييز بين عظام ابن الآوى الكبير الذي كان منتشرا في شمال افريقيا وبين عظام الكلب لدى المنقبين . وذكر أن عظام ثلاثة كلاب وجدت في مرمدة بني سلامة[٢٩] ولكن لاتوجد لدينامعلومات عنها ولاصور ولااوصاف لها . ولم تدرس عظام الحيوانات التي استخرجت من طبقات العصر الحجري الحديث في الفيوم ودير طاسة وبداري بمصر بالتفصيل ولم يذكر احد ان عظام الكلب كانت بينها . ان اقدم دليل على تدجين الكلب في مصر عثر عليه في موقع العمرة[٣٠] ويتمثل هذا الدليل كما في جرمو بالاثار الفنية حيث وجدت رسوم لاربعة كلاب مخيفة المنظر ولها انياب وفكوك مبالغ في كبر حجمها منقوشة على اناء فخاري ولكل كلب ذيل ملتوي الى الاعلى والكلاب الاربعة تبدو مربوطة بحبل يجره شخص واحد مما يؤكد حالتها غير المدجنة . وهناك أواني فخارية أخرى مزخرفة برسوم للكلاب وجدت في موقع العمرة وربما كانت لعهد اقدم . وفي العراق وجدت جمجمة لكلب سلوكي مدجن في موقع تبة كورا[٣١] ويعود تاريخ هذا الكلب الى عصر العبيد . ويظهر مما تقدم ان علينا ان نتحفظ تجاه المعلومات المنشورة

عن تدجين الكلب في جنوب غرب آسيا وشمال افريقيا حتى تنشر تقارير مفصلة اخرى عن عظام حيوانات فصيلة الكلب التي وجدت في كهف الحزام بايران وعن كهوف جبل الكرمل بفلسطين • ان القول بان الكلب هو اول حيوان ألفه الانسان يبدو أكيدا بالنسبة الى سكان أقطار غرب اوربا ويبدو هذا القول معقولا في اي مكان اخر ايضا • وفي الشرق الادنى دجن الكلب بالتأكيد في اريحة بالاردن وربما كان تدجينه قد حدث بعد ثلاثة آلاف أو اربعة آلاف سنة من تاريخ تدجينه لاول مرة • ولو كانت عظام الكلب المستخرجة من المواقع الاثرية محفوظة من قبل المنقبين ومدروسة دراسة جيدة من قبل المختصين لكان موضوع منشأ تدجين الكلب وتاريخه اوضح بكثير مما هو عليه الان •

المعز :

ان صعوبة التمييز بين الهيكل العظمي للمعز والغنم هي اهم معوقات دراسة منشأ وانتشار الانواع المدجنة للمعز في عصور قبل التاريخ فعظام الحيوانين متشابهه تشابها كبيرا جدا باستثناء بعض الفروق في عظام سلاميات الاقدام واقسام من الجمجمة ولباب القرون • وفي كثير من الاحيان يخلط معهما عظام حيوانات أخرى كالوعول والغزلان•ان عظام تيس الجبل IBEX يمكن تمييزها عن عظام المعز المدجن من الجمجمة والقرون اما تمييز عظام هذا الحيوان عن الغنم المغربيBarbary Sheep الذي كان يتجول في معظم جبال وهضاب شمال افريقيا من المحيط الاطلسي الى البحر الاحمر في العصور التاريخية المبكرة فصعب جد ولما كان تمييز السلالات اساسا عملية معقدة فان الصعوبات تشتد عند تمييز الانواع البرية عن الانواع المدجنة وخصوصا اذا توفر القليل من العظام المكسورة التي يجدها منقب الآثار في المستوطنات القديمة • وافضل مايستطيع باحث الاثار فعله فيحالة عدم العثور على الجماجم والقرون هو حفظ مايتيسر جمعه من عظام الغنم والماعز لتقديمها الى احد المختصين بعلم الحيوان للتفريق بينها ولتمييز الانواع البرية والمدجنة •

ان الماعز هو ثاني حيوان دجنه الانسان بعد الكلب وهناك من يعتقد ان الماعز الفارسي غير الاليف وماعزوسط آسيا غير الاليف هو السلف الوحشي للماعز المدجن[٣٢] المعروف Capra Hircus وهناك من يرى ان كل معزى مدجنة في جنوب آسيا انحدرت من سلالة واحدة من الماعز البري المعروف Bezoar او Pasang ولا يوجد دليل على تدجين الماعز المعروف Capra Ibex الذي عاش في جنوب غرب آسيا أيضا٠وافترض ان بقايا العظام التي وجدت في الطبقة الثالثة والربعة من موقع الخيام في وادي الخريطم القريب من بيت لحم هي لاقدم معز مدجن غير ان هذا الافتراض لم يستند على العظام نفسها بل على حقيقة ظهور هذه البقايا العظيمة فجأة في النطوف اذ لم يعثر عليها قبل هذا الوقت في اي مكان اخر ويظهر ان هذا المعز دخل هذه المنطقة مدجنا لانه لم يعثر على عظام الماعز البري في هذه المنطقة ولذلك فان المعلومات القليلة المتوفرة عن توزيع الماعز المدجن والماعز البري فيفلسطين في الزمن النطوفي لا تصلح لتكون اساسا للجدل ٠ أما عظام الماعز التي وجدت في اريحة في الطبقات التي سبقت صناعة الفخار فهي بلا شك تعود لنوع مدجن ويستند هذا الجزم على شكل لب القرن الذي يبدو لوزيا في مقطعه العرضي ٠[٣٣] اما بقايا عظام الماعز التي وجدت في قرية جرمو بشمال العراق فان معظمها يعود للنوع المدجن ويستند هذا الاستنتاج على دراسة القرون التي تبدو في مقطعها العرضي اللوزي الشكل مماثلة لتلك التي وجدت في اريحة ويضاف الى ذلك ان السطوح الداخلية لقرون هذا المعز مستوية وتشبه مثيلاتها في قرون المعز الكردي الحديث المدجن[٣٤] كما ان كثيرا من قرون المعز التي وجدت في جرمو مبرومة مما يدل على انها تعود لانواع اليفة لان هذه الصفة لاتظهر في قرون المعز البري عادة ٠ وفي كهف الحزام الواقع في النهاية الجنوبية لبحر قزوين في ايران وجدت عظام لمعز يحتمل أن يكون من النوع المدجن[٣٥] وقد عرف تاريخه بحساب الكربون الرابع عشر الاشعاعي بحدود

٧٧٩٠ ∓ ٣٣٠ سنة مضت[٣٦] ووجدت عظام المعز المدجن في بوس مردة في علي كوش بايران ويعود تاريخه لنفس الفترة[٣٧] ووجدت عظام الماعز المدجن في تل مفش[٣٨] في سورية في زمن متأخر يعود الى عصر حلف •

اما في شمال افريقيا فقد وجدت عظام المعز في مواقع العصور التي سبقت العصر الحجري الحديث وتبدو تلك العظام قريبة من عظام المعز غير المدجن او عظام الوعول الصغيرة وهذا التفسير يشير الى ان المعز المدجن دخل اقطار شمال افريقيا من الخارج في العصر الحجري الحديث • ان استيراد المعز والغنم الى شمال افريقيا وعدم تعيين بداية العصر الحجري الحديث في هذه المنطقة لاتشجع اعتبار هذه المنطقة منشأ للتدجين فاختبارات الكربون الرابع عشر الاشعاعي تؤرخ اثار العصر الحجري الحديث القفصية في تونس بحدود ٢٨٩٨ قبل الميلاد[٣٩] مما يجعلها احدث عهدا من مثيلاتها في الشرق الادنى وخاصة العراق حيث كان المعز المدجن يعيش في جرمو في الالف الثامن قبل الميلاد كما كان يعيش في اريحة بفلسطين في نفس هذا الوقت ولكن لا يعرف متى واين دجن الماعز لاول مرة ولايمكن العلم بذلك في الوقت الحاضر •

الغنم :

ان اقدم الاغنام المدجنة في الشرق الادنى كان لها صوف غزير ووجدت نماذجها الاولى في العراق[٤٠] ومصر[٤١] وتكشف الاثار الفنية في جنوب العراق من عصر فجر الكتابة في اواخر الالف الرابع قبل الميلاد عن نوعين من الاغنام النوع الاول له صوف غزير والثاني له الية وقد دخل النوع الاول الى مصر في عهد المملكة الحديثة كما ان النوع الثاني استورد الى القارة الافريقية آما الغنم غير المدجن فقد وجدت بقايا عظامه في منطقتين الاولى الى الشرق من نهر الجيحون في شمال سبريا واواسط آسيا والثاني الى الغرب من نهر الجيحون في ايران وتركية وقبرص وكورسيكا وسردينية • وفي قرية اناو[٤٢]

في التركستان الروسيه وجدت عظام نوع وسط يربط بين غنم الاهوار Ovis Palustris المدجن والغنم البري Ovis Viegenei وافترض بأن النوع المدجن انحدر من النوع البري وهناك من يرى انغنم الاهوار المدجن انحدر من الغنم الشرقي Ovis Orientales • والرأي القائل ان الغنم غير الاليف من نوع Ovis Viegenei هو سلف الغنم المدجن الذي ظهر شرق ايران وشمال غرب ايران يدعمه اكتشاف عظامه في هارابا [٤٣] ورانا غندي[٤٤] في الهند والقرية لاولى في تبة سيالك[٤٥] في ايران والقرية الاولى في اناو[٤٦] في التركستان • وعلى كل حال يبدو ان اقدم الاغنام المدجنة ظهرت في الشرق الادنى •

ولايوجد دليل احيائي او فني يستشف منه ان عظام الاغنام التي اكتشفت في قرية جرمو هي لانواع مدجنة فالعظام التي اشير اليها في تقارير المنقبين وصفت بعظام الغنم او الماعز المدجن واغلب الظن انها تعود للماعز المدجن بدليل وفرة قرون الماعز بالنسبة الى العدد القليل من قرون الاغنام وحتى هذه القرون والعظام القليلة التي تعود للاغنام يمكن ان تكون لانواع برية غير اليفة ويتوهم الكثيرون بان الاغنام البرية هي حيوانات جبلية وان عظام الاغنام التي يعثر عليها في القرى المجاورة للجبال هي لانواع أليفة بينما نجد في الواقع عدة اصناف من الاغنام البرية عاشت في سهول وهضاب اسيا ولاتزال هناك اغنام ومعز برية تعيش قريبا من قلعة جرمو وتعود لصنف الغنم الشرقي المعروف Ovis Orientalis وهي آخذة في الانقراض في الوقت الحاضر ولكنها كانت تقترب من قرية جرمو قبل ٩٠٠٠ سنة • ومما لاشك فيه ان تدجين الغنم قد تم في اسيا لان الغنم البري لم يكن معروفا آنذاك في افريقيه بعد

عصر البلايستوسين أما في اوربا فكان وجوده مقتصرا على سردينة وكورسيكا وفي شمال افريقيا دخل الغنم المدجن مع الماعز المدجن من اقطار الشرق الادنى في العصر الحجري الحديث وفي المناطق الممتدة في جنوب الصحراء دخل الغنم المدجن مع الابقار والماعز المدجنة من وادي النيل او من شبه جزيرة العـــــرب •

الخنزير :

يعتقد الكثيرون ان الخنزير البري في العالم القديم كان يعيش في الاهوار والمستنقعات غير اننا في الواقع نجد هذا الخنزير يعيش في مناطق الغابـات النفضية والسهوب والهضبات ذات الاعشاب والاشجار الصغيرة وفي المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية حيث تتوفر العيون والجداول • والخنزير البري هو من الحيوانات التي يسهل تدجينها فاذا ربي في الاسر وقدم له الطعـام فسيكون بالتأكيد مهيئا للتدجين مثل باقي الحيوانات الوحشية •ان هـذا الاستعداد الكامن في الخنزير للتدجين وانتشاره الواسع في مناطق متعددة توحي بأن الخنزير دجن عدة مرات وفي اقسام مختلفة من مناطق ارتيــاده وتواجده الامر الذي يدعو الى اعادة النظر في الرأي الشائع بان كل الخنازير المدجنة قد انحدرت من اصل بري وحد[٤٧] هو Sus Scrofa Vittatus الـــذي كان يعيش في جنوب اسيا واذا كان هذا الراي صحيحا فان التدجين ينبغي ان يكون اقدم عهدا من الدلائل التي تشير اليها الاثار المكتشفة في الوقت الحاضر•ويرى البعض ان الخنزير اتجه من غرب آسيا غربا نحو مصر في عصور قبل التاريخ عبر صحراء سيناء او حضرموت وبما ان الخنزير البري كان يعيش آنذاك في مستنقعات النيل فمن المعقول ان نفترض ان الخنازير الاليفة قد انحدرت من أصل بري محلي في هذه المنطقة ذات المستنقعات •

ان الغموض يكتنف اصل تدجين الخنزير ولايوجد دليل واضح لتعيين زمان ومكان اقدم تدجين له بسبب اهمال المنقبين للعظام التي استخرجوها من مواطن الاثار والاحصاءات الوحيدة الموجودة لدينا هي من العراق وتشير الارقام الى ان ١٪ فقط من العظام التي اكتشفت في موقع كريم شهر و١٠٪ فقط من عظام الحيوانات التي استخرجت من قرية جرمو في العراق هي عظام تعود للخنزير[٤٨] والمعروف ان الموقع الاول يعود تاريخه الى العصر الحجري المتوسط او الى بداية العصر الحجري الحديث والموقع الثاني هو من مواقع العهد الزراعي في العصر الحجري الحديث وبالرغم من ان عظام الخنزير المكتشفة في جرمو كانت اكثر من عظام الابقار الا انه لم يعثر على دليل مقنع على كونها تعود لنوع اليف واضافة الى ذلك فان كبر حجم العظام يشير الى وجود الخنزير البري[٤٩] .

وفي تل حسونة[٥٠] وفي نينوى،[٥١] (طبقات عصر حسونة وعصر حلف) وفي تل اسود[٥٢] وبانا هلك[٥٣] وكلها مواقع عراقية عثر على كميات لابأس بها من عظام الخنزير ولكن المعلومات المذكورة في تقارير التنقيب لايستنتج منها أية حالة للتدجين[٥٤] ولم يعثر على دليل احيائي على تدجين الخنزير في العراق في عصر العبيد اما الدليل الفني المتمثل بتماثيل الحيوانات التي وجدت في مواقع هذا العصر فهو غير مقنع ويفهم من هذا ان الاستدلال على تدجين الخنزير في العراق في عصر العبيد ليس قويا مثلما هو في حالة تدجين الكلاب والمعز والاغنام ولكن هذا لا يعني ان الخنزير المدجن لم يكن موجودا في هذا الوقت فلو كانت عظام هذا الحيوان المكتشفة في مواقع الآثار قد درست دراسة وافية من الناحية التشريحية لالقت ضوءا واضحا على موضوع التدجين .

ان ماوجد من بقايا عظام الخنزير في موقع الخيام في وادي النطوف بفلسطين لم يكن سوى سلامية قدم واحدة[٥٥] وهذه العظمة لاتكفي لتكون دليلا على تدجين الخنزير في هذه المنطقة كما ان بقايا عظام الخنزير لم يعثر عليها في طبقات النطوف المبكرة واضافة الى ذلك فان الخنزير البري كان يعيش على بعد عدة أميال في غابات الهضاب المجاورة •

وفي ايران عثر على بقايا عظام الخنزير في القرية الثالثة في تبة سيالك[٥٦] ولكن لاتوجد اشارة اكيدة على تدجينه •

ان الدليل على اقدم حالة تدجين للخنزير يتضح من بقايا عظام هذا الحيوان التي وجدت في طبقات المرحلة الاولى من وادي العمق بسورية ويرجع تاريخ هذه المرحلة الى سنة ٥٧٥٠ قبل الميلاد[٥٧] والمعروف ان هذه المرحلة توازي عصر حسونة في العراق •

ويظهر ان الخنازير المدجنة كانت تعيش في القرية الثانية في انـــاو بالتركستان والمعروف ان تاريخ هـــذه القرية يوازي عصر الوركاء في العراق تقريبا وفي القرية الثالثة في شادتبه[٥٨] بايران وجدت عظام الخنزير الاليف ويظهر ان هذا الخنزير انحدر من نوع محلي كان يعيش في جنوب آسـيا ويقترن تاريخ هذه القرية بتاريخ القرية الثانية في آناو أي في عصر الوركاء •

ومما تقدم نستطيع ان نقول ان تربية الخنازير بدأت في الشرق الادنى في الالف السادس قبل الميلاد وانها كانت منتشرة في جنوب آسيا في النصف الثاني من الالف الرابع قبل الميلاد •

اما في مصر فقد وجدت كميات كبيرة من عظام الخنزير في مرمدة بني سلامة[٥٩] ومعادي[٦٠] في مصر السفلى في طبقات الازمان التي سبقت عصر السلالات بالمقارنة مع ندرة وجود عظامه في طبقات المواقع الاثرية في الازمان اللاحقة لان الخنزير اعتبر حيوانا غير نظيف في عبادة الاله حوريس وبالنظر لكثرة المستنقعات المنتشرة في منطقة الدلتا التي تعتبر بيئة نموذجية صالحـة

لتواجد الخنزير فمن الصعب افتراض حالة برية للخنزير هنا غير انه لا يوجد دليل على تدجينه اذ لايعرف عدد العظام المكتشفة ولاعمر الحيوانات التي تعود لها تلك العظام ولاتتوفر دراسة تشريحية عنها • اما مصر العليا فكانت في هذا الوقت تفتقر الى تربية الخنازير •

ويظهر مما تقدم ان الخنازير الاليفة ربما كانت تربى في مصر في عصور قبل التاريخ ولكن الادلة المتوفرة على تدجينها هي تلك التي ذكرتها السجلات المكتوبة في عهد السلالة الثالثة(٦١) •

اما في الهند فقد وجدت عظام كثيرة لنوع من الخنزير ربما كان مدجنا يعرف Sus Cristatus في موهنجودارو (٦٢) • أما عظام الخنزير التي وجدت في هارابا(٦٣) فهي بالتأكيد لنوع أليف بدليل وجودها مع مخلفات حضارية•

البقر :

في عصور قبل التاريخ كانت الثيران البرية ذات القرون الطويلة منتشرة في غابات أوربا وجنوب آسيا وشمال افريقية وكانت موجودة في وادي النيل في اواخر عصر البلايستوسين (٦٤) اما الابقار البرية ذات القرون القصيرة التي عاشت في هذه المناطق فكانت اناثا لتلك الثيران •

وفي العراق وجدت عظام لابقار برية صغيرة الحجم تعود لاواخر عصر البلايستوسين في مواقع المنطقة الجبلية في شمال القطر وكان اهل كهف شانيدر يصيدونها ولسوء الحظ لم تكشف التنقيبات (٦٥) عن جمجم اوقرون تلك الابقار ولم يعثر في كهف شانيدر على عظام أبقار كبيرة الحجم ومن المحتمل ان تكون هذه الابقار الوحشية السلف الذي انحدرت منه الابقار المدجنة فيما بعد •

ان تنسيب عظام الابقار الكبيرة الحجم التي تستخرج من المواقع الاثرية لانواع برية وتنسيب العظام الصغيرة الحجم لانواع مدجنة رأي مرفوض من الناحية الوراثية كما ان مبدأ تخصيص القرون الطويلة لابقار غير مدجنة والقرون القصيرة لانواع مدجنة او بالعكس غير مقبول ايضا •

وفي قرية جرمو وهي من قرى العصر الحجري الحديث بشمال العراق وجدت بقايا عظام ابقار كبيرة الحجم ولكن خلافا لما ذكره المنقب(٦٦) كانت قليلة العدد فمن بين مئات الالوف، من عظام مختلف الحيوانات وجد عدد قليل جدا من العظام التي تعود لابقار غير مدجنة • وفي تل حسونة(٦٧) وهو من مواقع العصر الحجري الحديث بشمال العراق ايضا وجد عدد قليل من اسنان الابقار وتبين انها لا تعود لنوع أليف • وكانت الثيران بالتأكيد مهمة في حياة اهل عصر حلف من الناحية الدينية بدليل وجود رسومها في فنونهم(٦٨) ولكن الدلائل التشريحية على تدجينها ليست واضحة ومما يؤسف له أن عظام الحيوانات التي استخرجت من تل حلف لم تحفظ • وفي طبقات عصر حلف في نينوى(٦٩) وجد قرن واحد لثور مع قليل من عظام الخنزير ولكن هذه البقايا العظمية لم تحسب ولم ترسم ولم توصف ولم تذكر لها قياسات• وفي تل اسود(٧٠) وجدت عظام لثيران والابقار ولكن لايوجد دليل على تدجينها • ان احسن دليل على الابقار المدجنة في العراق في عصر حلف يتمثل برأس حيوان ربما كان لبقرة عثر عليه في تل اربجية(٧١) وتبدو القرون في الصورة الواضحة لهذا الرأس قصيرة ومنحنية الى الامام مثل قرون الابقار المدجنة في الوقت الحاضر • وفي فلسطين عثر على عظام لابقار كبيرة الحجم في المغارة الكبيرة(٧٢) التي يرجع تاريخها الى العصر الحجري المتوسط مما يدل على انها لا تعود لنوع اليف وكان الاعتقاد سائدا حتى وقت قريب ان اقدم تدجين للابقار قد حدث في موقع الخيام بوادي النطوف بفلسطين وذلك استنادا الى قطعة واحدة من الفك الاسفل والى سنين لبنيين والظاهر ان هذا الاكتشاف لايكفي ليكون دليلا على التدجين حتى لو ثبت ان هذه البقايا العظمية تعود فعلا لبقرة •(٧٣)

وفي سورية وجدت بقايا عظام الابقار البرية في مواقع المرحلة الاولى من الادوار الاثرية في وادي العمق(٧٤) من زمن يعود تاريخه الى سنة ٦٥٠٠ قبل الميلاد •

وفي ايران عثر على سنين فقط لبقرة في القرية الاولى في تبة سيالك[٧٥] وعلى هذا الاساس ظن ان تربية الابقار كانت ممارسة في هذا المكان غير ان هذا الاساس نفسه يدل على ندرة الابقار وبالاضافة الى ذلك لم يكشف عن عظـام الابقار في الطبقات العليا من هذا المستوطن مما يدل على ان التدجين لم يستمر في العهود اللاحقة وليس من المعقول ان يألف سكان المنطقة تربية الابقار ثم يتوقفون عن ذلك فيما بعد • اما عظام الابقار التي وجدت في الطبقة الخامسة من كهف الحزام[٧٦] بشمال ايران فلم يتبين منها اي أثر للتدجين وخصوصا اذا علمنا ان الابقار والثيران البرية كانت تعيش منذ زمن بعيد في هذه المنطقة • ووجدت عظام الابقار ذات القرون القصيرة بنوعيها البري والاليف في القرية الثالثة بشاه تبة[٧٧] في ايران ويعود تاريخ النوع المدجن منها الى نهاية الالف الربع قبل الميلاد ووجدت بقايا هذا النوع المدجن في حدود نفس الزمن في عليشار اويوك[٧٨] في اسيا الصغرى •

وفي مصر تتعقد مشاكل البحث عن عظام الابقار المدجنة في عصور قبل التاريخ بسبب اختلاطها بعظام الجاموس ففي طبقات عصر البلايستوسين العليا في موقع الطوخ اكتشفت عظام نـوع من الجاموس الافريقي الجنوبي كمـا وجدت عظام نوع أخر من الجاموس في السودان[٧٩] ووجدت ايضا عظام لابقار ذات قرون طويلة وابقار ذات قرون قصيرة مع آلات حجرية سبيلية الطراز في وادي النيل في طبقات اواخـر عصر البلايستوسين[٨٠] وبمـا أن الثور البري كان يعيش في مصر منذ اواخر عصر البلايستوسين وحتى العهود التاريخية الاولى فان مجرد ادراك وجود عظام الابقار في التجمعات السكنية المبكرة لا يعتبر دليلا على التدجين الا اذا توفرت دراسـة تشريحية تثبت عكس ذلك فعظام الابقار التي وجدت في مواقع عصور قبل التاريخ[٨١] في العمرة وطوخ ومرمدة بني حسن ومعادي وبداري والنقاد والمحسنة لا تمت الى التدجين بصلة •

وفي السودان وجدت عظام الابقار ذات القرون الطويلة في كوم امبو في القاض العصر الحجري الحديث • اما المنطقة الممتدة الى الجنوب من الصحراء الافريقية فقد وصلتها الابقار المدجنة من وادي النيل او من شبه جزيرة العرب •

اما الأبقار ذات السنام فغير معروفة لا في حالتها الوحشية ولا في حالتها المتحجرة ويعتقد ان تدجينها تم خارج الهند(٨٢) وادخلت الى الهند مدجنة اذ وجدت عظام أنواعها المدجنة في هارابا(٨٣) وموهنجودارو(٨٤) والقرية الاولى في رانا غندي(٨٥) • ووجدت الابقار ذات السنام والقرون بين التماثيل التي عثر عليها في العراق في مواقع عصر حلف وعصر العبيد(٨٦) ووجدت عظام هذه الابقار في مصر في مواقع السلالة الثامنة عشرة فصورة الثور ذو السنام المنقوشة على جدران معبد رمسيس الثاني في ابيدوس(٨٧) تدل على وجود هذا الحيوان في مصر في القرن السادس عشر قبل الميلاد ولكن تاريخ دخوله الى مصر غير معروف •

يظهر مما تقدم ان الادلة المتوفرة لدينا لا توحي باستنتاجات واضحة الا من حيث توفر الابقار الكبيرة والصغيرة وذات القرون الطويلة والقصيرة وذات السنام والعديمة السنام في أقطار الشرق الادنى أثناء العصر الحجري الحديث كما يظهر ان تعيين زمان ومكان تربية الابقار لاول مرة لاغراض اقتصادية أمر صعب تحديده بسبب اهمال المنقبين الذين لم يحتفظوا بعظام الحيوانات التي استخرجوها ومن المحتمل أن يكون الانسان قد بدأ يهتم بتدجين الابقار في الالفين أو الثلاثة آلاف سنة التي سبقت الدليل الذي نعرفه الآن على تدجينها اي قبل ٨٠٠٠ سنة مضت • ونستطيع القول على وجه التأكيد ان تربية الابقار كانت واسعة الانتشار في حدود سنة ٣٥٠٠

قبل الميلاد في شمال العراق وفي ايران وحتى التركستان الروسية .
ان نقوش الاختام الاسطوانية من الوركاء ومن المدن السومرية المبكرة تشهد على أهمية دور البقرة وكذلك الغنم والمعز في حضارات العراق القديم كما ان آثار القرية الثانية في آناو في تركستان والقرية الثالثة في شاه تبة في ايران تثبت صحة تدجين الابقار في هذه المناطق. وبعد مرور خمسمائة سنة على تاريخ تدجين البقرة في اقطار الشرق الادنى بدأ التدجين في مصر وعند قيام السلالات الحاكمة في مصر كانت تربية الابقار ممارسة ولكن الدلائل الاحيائية على هذا التدجين قليلة بسبب اهمال المنقبين للعظام التي استخرجوها من مواطن الاثار .

وهنالك عدة فرضيات تفسر تدجين الابقار اذ يرى البعض انها دجنت لتكون مصدر ثروة ويرى اخرون انها دجنت لاغراض الطقوس والاحتفالات الدينية اولا ثم استخدمت لاغراض اقتصادية في مناطق معينة ومن الممكن الافتراض بان الابقار الوحشية صيدت واسرت وحفظت لاغراض دينية مدة من الزمن ضعفت مقاومتها اثناء ذلك ودجنت والرموز الدينية ذات العلاقة بالثور التي وجدت في بعض مواقع أقطار الشرق الادنى والجزر الايجية قد تفسر هذا الغرض الديني وهنالك من يرى ان الحقول الزراعية استقطبت الابقار الوحشية فدجنت في الاسر .والرأى الاخير يفترض ان البقرة مثل باقي الحيوانات كانت حيوان صيد دجنها الانسان من اجل لحمها اول الامر وبمرور الزمن استفيد من لبنها وجلدها وخدماتها في حمل الاثقال وجر العربات والحرث . ويظهر ان جميع الابقار المدجنة انحدرت من سلالة واحدة او اكثر للثور البري المعروف بالارخص الذي كان منتشرا في اوربا واسيا .

الخيل :-

ان عظام الحيوانات الاربعة ذات الاهمية الاقتصادية التي سبق ذكرها غالبا ما كان يعثر عليها في المواقع الاثرية مع عظام الحصان Equus من نوع **الاخدر** Onager ففي فلسطين وجدت عظام نوع من الاخدر الكبير الحجم في كهف شقبة ووادي الضباعي وام القطافة[88] والمغارة الكبيرة[89] وكلها تعود للعصر الحجري القديم أو العصر الحجري المتوسط كما وجدت في طبقات العصر الحجري المعدني في مجيدو[90] . وفي العراق وجدت عظام الاخدر في جرمو[91] وفي سورية وجدت في طبقات عصر العبيد في تل مفش[92] وفي مصر وجدت في انقاض موقع بداري[93] ومعادي[94] التي تعود لعصور قبل السلالات . وفي تركستان وجدت عظام الاخدر في القرية الاولى باناو[95] . وفي ايران وجدت في كهف الحزام[96] وفي القرية الثانية في تبة سيالك[97] والقرية الثالثة في شاه تبه[98] وفي الهند وجدت في هارابا[99] وموهنجودارو[100] .

وهناك شبه اتفاق بين الباحثين على انه لايوجد دليل على تدجين الحصان الحقيقي قبل عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد[101] ولذلك يمكن الاستنتاج بأن الحيوان الذي كان يجر العربات ذات العجلات في الوركاء وجمدت نصر هو الاخدر[102] وتكشف لنا فنون العراق القديم عن استخدام نوع من السروج صمم اصلا للثيران ولم يعرف اللجام الحقيقي الا في عهد الكاشيين في الالف الثاني قبل الميلاد .

وفي مصر لم يظهر الحصان الحقيقي المدجن الا في القرن الخامس عشر قبل الميلاد[103] غير ان العربات الحربية كانت معروفة بعد جيل أو جيلين من غزوة الهكسوس[104] وفي منطقة الجزر الايجية وجدت عظام الحمار في مدينة طروادة الرابعة بينما وجدت عظام الحصان الحقيقي في مدينة طروادة السادسة[105] ويشير كلارك الى اضافة نوع صغير ورشيق من الخيول المدجنة

بين عظام الحيوانات التي اكتشفت في مواقع نهاية العصر الحجري الحديث في انكلترا أي في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد[١٠٦] وهو الوقت الذي ظهر فيه تدجين الخيول في طروادة السادسة • ولم تكن الخيول المدجنة كثيرة في عددها قبل العصر البرونزي الاخير في منتصف الالف الاول قبل الميلاد •

يظهر مما تقدم ان الخيول الحقيقية دجنت في سهول شمال اوربا ووسط اسيا في بداية الالف الثاني قبل الميلاد ويعتقد بانها دجنت من اجل لحومها في جنوب هذه المنطقة • ودخلت هذه الخيول المدجنة اقطار الشرق الادنى في الالف الثاني قبل الميلاد وكانت تستخدم لحمل الاثقال وجر المحراث في اول الامر وبمرور الزمن برزت اهميتها الحقيقية في الحروب وقد احدثت العربات التي تجرها الخيول ثورة في الشوءون الحربية لسرعة حركتها ولايوجد دليل على استخدام الخيل للركوب قبل منتصف الالف الثاني قبل الميلاد وكان من نتائج استخدامها للركوب في السهول الاوراسية الشمالية ظهور الفرسان المحاربين الذين حلوا محل العربات الحربية في القتال ولذلك كانت الخيول في كثير من الاحيان تربك توازن القوى الحربية وظلت كذلك الى ان حلت محلها الاسلحة النارية الحديثة •

الجمـل :

ان الموطن الاصلي للجمل غير المدجن بنوعيه ذي السنام وذي السنامين هو امريكا الشمالية ومن هذه القارة دخل الجمل الى شمال شرق القـــارة الاسيوية التي لم تكن منفصلة عن قارة امريكا الشمالية في معظـــم الزمن الجيولوجي الحديث لوجود جسر أرضي كان يحل محل مضيق بهرنج ومن هناك وجد الجمل طريقه الى الهند حيث وجدت عظامه المتحجرة التي لانعود لنوع مدجن في هارابا[١٠٧] • ومن الهند دخل الجمل الى جنوب غرب آسيا حيث عثر على بقايا هيكله العظمي في شمال شبه جزيرة العرب •

ومن العصر الحجري المتوسط الذي شهد المحاولات الاولى في تدجين الحيوان وزراعة النبات وصلنا أقدم رسم لهذا الحيوان من كلوة(١٠٨) في جبل الطويق في الحدود الجنوبية الشرقية لشرق الاردن ولا يثبت هذا الرسم تدجين الجمل بل يشير الى حالة وحشية لان الجمل يظهر في هذا النقش يسير خلف وعل •

وفي سورية وجدت بقايا الهيكل العظمي للجمل في طبقات العصر الحجري الحديث من موقع الشعار(١٠٩) بهضبة الجولان ولكن لا توجد لدينا دراسة تشريحية تثبت ان العظام المكتشفة تعود لجمل مدجن •

وفي العراق عثر على تمثال من الطين المشوي لرأس جمل في الوركاء(١١٠) يعود زمنه الى عصر العبيد ولا يتضح من هذا الدليل الفني أي شيء يتعلق بالتدجين •

وعثرت بعثة دانمركية في جزيرة أم النار الواقعة في أقصى جنوب الخليج العربي في الزاوية الجنوبية الشرقية لجزيرة ابوضبي على بقايا عظام حيوانات منها عظام مواشي وأبل وغزلان ولكن البعثة لم تستطع تشخيص عظام الأبل المدجنة ومع ذلك فهي ترجح ان تكون هذه الاقسام من شبه جزيرة العرب من مناطق التدجين الاولى(١١١) ولا يبدو هذا الترجيح مستندا على اساس قوي لان الدليل الاحيائي غير موجود •

أما عظام الجمل التي اكتشفت بمصر في موقع الفيوم(١١٢) والتي يرجع تاريخها للفترة ما بين ٢٤٠٠ ـ ٢٠٠٠ قبل الميلاد وكذلك رسوم وتماثيل الجمل التي عثر عليها في ابيدوس(١١٣) من عهد السلالة الاولى للمملكة القديمة فلايتبين منها انها جمال داجنة •

ان اقدم دليل يؤكد وجود الجمل كحيوان للحمل في الشرق الادنى وجد في جبيل(١١٣) حيث عثر على تماثيل مصرية صغيرة من عهد المملكة القديمة تعود لمنتصف الالف الثالث قبل الميلاد وتعتبر هذه التماثيل دليلا واضحا على الافادة من الجمل لاغراض اقتصادية اخرى غير اللحم •

والدليل الاخر الذي يشير الى تدجين الجمل يتمثل بالنقش البارز في الطين المشوي الذي عثرت عليه بعثة المعهد الشرقي لجامعة شيكاغو في طبقات أور الثالثة في تل أسمر[١١٤] بمنطقة ديالى • ان هذا النقش يمثل رجلا راكبا على ظهر جمل ويرجع تاريخه لسنة ٢١٠٠ قبل الميلاد • ويتضح من هذا الرسم رغم التلف الذي اصاب اقسامه العلوية ان الجمل اصبح يستخدم في اواخر الالف الثالث قبل الميلاد للركوب ونقل المسافرين بعد ان كان حيوان صيد في العصور الحجرية ثم حيوان نقل بعد ذلك بزمن طويل •

وتبدو حالة تدجين الجمل اكثر وضوحا من تمثال رجل يركب جملا وجد في تل تعنق[١١٥] بفلسطين ويعود زمن هذا التمثال لمطلع الالف الثاني قبل الميلاد •

اما قلب الجزيرة العربية فيخلو تماما من اي اثر لمتحجرات الابل سواء كانت وحشية ام داجنة غير ان رسوم الجمل وجدت منقوشة مع كتابات ثمودية في مواقع كثيرة مثل جبل برمة الذي يقع شرق الرياض وجبل المليحة في الحائل ورواقة بالقرب من تبوك وهي على العموم تعود لازمان تسبق التاريخ الميلادي بقرون قليلة[١١٦] •

يتضح مما تقدم وبضوء الدلائل الاثرية المكتشفة المتيسرة لدينا في الوقت الحاضر ان الجمل انتقل من حالته الوحشية في مرحلة الصيد الى حالته المدجنة في اطراف شبه جزيره العرب ثم ادخل مدجنا الى قلب الجزيرة العربية •وتبقى هذه الحقيقة ماثلة امامنا الى ان تتوفر ادلة احيائية او فنية تثبت عكس ذلك • غير اننا نعلم ان مناطق شبه الجزيرة العربية الداخلية على عكس الاقطار العربية في الهلال الخصيب لم تتناولها التنقيبات الاثرية بدرجة كافية ومن المحتمل ان يكون العكس هو الصحيح أي أن الجمل دجن في المناطق الداخلية من شبه جزيرة العرب وادخل مدجنا مع الاقوام التي هاجرت من شبه الجزيرة واستوطنت العراق وسورية والاردن وفلسطين

والشمال الافريقي ومن المحتمل ان تكون هناك مواقع اثرية كثيرة لاتزال تنتظر معاول المنقبين بحثا عن الاسرار التي تخفيها في بطونها عن بدايات تلك الاقوام الجزيرية . ومن المؤمل أن تتولى الجامعات والمؤسسات الآثارية وخصوصا تلك التي تأسست حديثا في شبه جزيرة العرب مهمة هذا الكشف ببذل المزيد من الاهتمام بالاثار والتراث .

ويظهر من الدلائل المتوفرة لدينا الان ان اقتصاد العصر الحجري الحديث المنتج المعتمد على الزراعة وتدجين الحيوان قد تطور لاول مرة في اقطار الشرق الادنى منذ الالف الثامن قبل الميلاد ومن هذه المنطقة انتشرت تجربة التدجين الى بقية انحاء العالم القديم كفكرة طبقت على الحيوانات البرية القريبة من الحيوانات التي سبق تدجينها كالماعز والاغنام والابقار والخنازير وكحركة للحيوانات الى مناطق لم تسكنها من قبل مثل جنوب افريقيا او الى مناطق كان يسكنها اقرباوءها غير المدجنين مثل اوربا وقد حدث في الحالة الثانية تهجين مع الاصناف المحلية وقد وجدت نتيجة لهذه العملية تنوعات مختلفة للحيوانات بتأثير البيئات الطبيعية المختلفة .

ولا يصح القول بان جميع الحيوانات الداجنة في العالم القديم قد انحدرت من اسلافها في اقطار الشرق الادنى بصورة مباشرة او غير مباشرة فالجاموس دجن في الشرق الاقصى ومن المحتمل ان يكون الحصان الحقيقي قد دجن أصلا في وسط آسيا أو شرق اوربا ولا يمكن رفض اعتبار شمال أفريقية مركزا مبكرا آخر لتدجين الحيوانات ما لم يثبت تاريخ العصر الحجري الحديث في هذه المنطقة بوضوح .

ملابس الخلفاء في الآثار الاسلامية

الدكتور عبدالعزيز حميد
كلية الآداب ــ جامعة بغداد

لم يتميز خلفاء رسول الله (ص) الاوائل عن سائر المسلمين في شيء ان لم يكونوا اكثر تواضعا واشظف عيشا واخشن ملبسا ، حتى ليذكر ان احدهم كان « يلبس الثوب من الكرباس الغليظ [1] وفي رجله نعلان من ليف وحمائل سيفه ليف ويمشي في الاسواق كبقية الرعية »[2].

ويروي ان ابا بكر الصديق (ر) (١١ــ١٣هـ / ٦٣٢ــ٦٣٤م) كان ازهد الناس واشدهم تواضعا في لباسه فلم يكن يرتدي وهو خليفة « الا الشملة والعباءة »[3]. وكان في بعض الاحيان يجمع طرفي عباءته في صدره فيخلها بخال من عود او حديدة كي لا تسقط [4] . ويروي المسعودي انه قدم عليه زعماء العرب واشرافهم وملوك اليمن وهو خليفة وعليهم التيجان والثياب المثقلة بالذهب « فلما شاهدوا ما عليه من اللباس والزهد ... ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم »[5].

---

(١) الكرباس : هو ثوب من القطن الابيض معرب عن الفارسية . الفيروز ابادي ، باب السين فصل الكاف .

(٢) ابن طباطبا ، الفخري ، ص ٣٧ .

(٣) اليعقوبي ، مشاكلة الناس لزمانهم ، ص ١٠ .
المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ٣٠٥ .

(٤) ابن الجوزي ، صفوة الصفوة ، جـ ١ ، ص ٢٤٩ .

(٥) المسعودي ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٠٥ .

اما عن عمر بن الخطاب (ر) (١٣-٢٣هـ/ ٦٣٤-٦٤٣م) فقد كان هو الآخر متواضعا خشن الملبس اذ لبس الجبة الصوف وتشتمل مثل سلفه بالعباءة[٦]. كما روي انه شوهد يخطب وعليه قميص فيه اثنتاعشرةرقعة[٧]. ويذكر انس ابن مالك رحمه الله انه شاهد عمر (ر) وهو خليفة وقد رقع بين كتفيه برقاع ثلاث لبد بعضها فوق بعض[٨].

ويروى عن ولاته في الامصار انهم تشبهوا به فلبسوا غلاظ الثياب[٩]. من هؤلاء أبو عبيدة بن الجراح عامله على الشام الذي كان يقتصر في لباسه على الصوف الخشن . كذلك سلمان الفارسي الذي كان يلبس الصوف ويركب الحمار. أما عامله سعيد بن عامر فقد كان لايخرج يوما واحدافيالشهر الى الناس وذلك ليغسل فيه قميصه الوحيد ويجففه[١٠].

ومما يؤسف له انه ليس بين ايدينا معلومات وافية عما كان يرتديه الخليفة الثالث عثمان بن عفان (ر) (٢٣-٣٥ هـ / ٦٤٣-٦٥٥ م) . فاذا استثنينا القميص الشهير الذي قتل فيه وارسل ملطخا بدمائه الى الشام ليعلق على منبر مسجدها الجامع فان الاشارات التاريخية الى ما كان يرتديه قليلة جدا . ومن الاشارات التاريخية القليلة التي وصلتنا انه كان احيانا يلبس الخميصة[١١] . والخميصة كما جاء في المعاجم القديمة ثوب مربع اسود مزين

---

(٦) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص ١١ .

(٧) الاصبهاني ، محاضرات الادباء ، جـ٤ ، ص ٣٦٦ .

(٨) الليثي ، موطأ الامام مالك ، ص ٦٥٨ .

(٩) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص ١١ .

ومما يذكر بهذا الخصوص ما يرويه زياد بن ابيه عن مقابلة له مع عمر ابن الخطاب(ر) قوله : فاتيته وعلي ثياب كتان وخفان ساذجان . وفي يده مخصره (عصا) على رأسها حديدة فغمزها في خفي حتى خرقه . . فلما كان من الغد رجعت اليه في خفين غليظين ، وعلي ثياب من قطن فلما رآني قال هكذا يا زياد هكذا يا زياد . ثم قال / بكم ابتعت هذين الخفين (قلب بوافٍ (يريد درهما وافيا) فاعطاني درهما وقال اشتر لي مثليهما (الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ص ١٩) .

(١٠) المسعودي ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣١٤ ـ ٣١٥ .

بحاشيتين مختلفتي اللون • وقد ترك رسول الله (ص) فيما ترك حين وفاته واحدة منها[12]• ويبدو ان الخميصة كانت لباسا ثمينا بدليل الحديث النبوي الشريف « تعس عبد الدينار والدرهم وعبد القطيفةوالخميصة»[13]• وقد كان للخليفة أيضا مطرف[14] خز قوّم ثمنه بمئة دينار[15] • ويبدو ان عثمان لم يسر على نهج الخليفتين الاولين في الزهد والتواضع في حياة الدنيا اذ يذكر في هذا الشأن ان داره التي بناها في المدينة كانت دارا مترفة حقا فقد « شيدها بالحجر والكلس ، وجعل ابوابها من الساج والعرعر[16]واقتنى أموالا وقيانا وعيونا بالمدينة »[17] ويذكر انه ترك عند وفاته مئة ألف دينار ومليون درهم عدا الضياع والقرى والخيل والابل[18] •

اما بالنسبة للخليفة الرابع الامام علي بن ابي طالب (ر) (٣٥ـ٤٠هـ/ ٦٥٥ـ٦٦٠ م) فلم يكن يختلف عن الخليفتين الاولين في الزهد والتواضع سواء كان ذلك في مأكله ام في ملبسه • فقد شوهد هو الاخر وهو يرتدي القمصان والازر المرقعة والاكسية الخليطة وما شابه[19]• ويذكر المسعودي انه لم يلبس في ايام خلافته ثوبا جديدا ولا اقتنى ضيعه ولا ربعا »[20]وتوفي ولم يترك الا سبعمائة درهم[21]•

---

(١١) ابن سعد ، الطبقات ، جـ٣ ، ص ١ .

(١٢) دوزى ، المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب ، ص ١٤٣ .

(١٣) البخارى ، كتاب الجهاد ، ص ٧٠ .

(١٤) المطرف : رداء خز مربع ذو اعلام (الفيروز ابادى ، فصل الطاء باب الفاء) .

(١٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، جـ ٥ ، ص ٣ .

(١٦) العرعر ضرب من ضروب الخشب الجيد .

(١٧) المسعودي ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٤١ .

(١٨) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(١٩) ابن سعد ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٨ .

(٢٠) المسعودي ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٤٣١ .

(٢١) ابن سعد ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٣٦ .

وما ان انتهى العصر الراشدي وانتقلت الخلافة الى بني امية حتى تغيرت الامور ، فاقبل بنو امية على الترف بجميع اشكاله فلبسو الحرير بانواعه ، واقبلوا منذ عصر سليمان بن عبدالملك (٩٦-٩٩ هـ/ ٧١٤-٧١٧ م) على الوشي[٢٢] من الثياب اقبالا عظيما ، وان كان هذا لا يعني انهم لم يعرفوا تلك الثياب قبل عصر سليمان[٢٣].

ومع ذلك فقد كانت للخلفاء الامويين رغبة صادقة في الحفاظ على الاصالة العربية ، فظلوا يلبسون العمائم ويعلقون السيوف على العواتق ، وهما عادتان عربيتان اصيلتان في الملبس ، حتى انه روى عن الاحنف بن قيس وهو سيد من سادات العرب المخضرمين قوله « لا تزال العرب عرباً ما لبست العمائم وتقلدت السيوف »[٢٤].

ومن غربلة النصوص التاريخية يمكننا القول ان (الجبة) كانت لباسا رئيسا للخلفاء الامويين في الشتاء[٢٥] . كما ان الرداء والازار ، كان لباس الصيف الرئيس عندهم . وبالاضافة الى هذين اللباسين مال الامويون الى القمص باختلاف انواعها كما عرف عنهم الميل الى استعمال الملاءة المعطرة بكثرة[٢٦]، وقد بلغ الترف ببعضهم انهم كانو يعطرونها بمختلف انواع العطور[٢٧] .

ويمكنا القول بشكل عام ان خلفاء بني امية لم يميزوا انفسهم عن غيرهم في اللباس اللهم الا في نفاستها وكثرتها . حتى ليروي ان ابا حمزة ـ الخارجي عندما دخل المدينة خطب في اهلها يذم يزيد الثالث ويصفه بانه « يأكل الحرام ويلبس الحرام ويلبس بردتين قد حيكتا له وقومتا على اهلها

---

(٢٢) هي الثياب المطرزة بالذهب وغيره .

(٢٣) ابن بكار ، جمهرة انساب قريش ، ص ٢٧٧ .

(٢٤) المبرد ، الكامل ، ص ١٠٠ .

(٢٥) المسعودي ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٨٥ .

(٢٦) الملاءة : من لباس الرجال يشبه المعطف اليوم وقريب من الجبة القديمة. (دوزي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٠) .

(٢٧) الاصفهاني ، الاغاني ، جـ ١ ، ص ٥٢ .

بالف دينار »[٢٨]. كما يروى انه كان لهشام بن عبدالملك (١٠١-١٢٤ هـ / ٧١٩-٧٤٢م) اثنا عشر الف قميص اضافة الى قطع الملابس الاخرى[٢٩]. ولا شك ان ما يذكره الجاحظ، ان صحت روايته ، في ان «عبدالملك بن مروان كان اذا لبس الخف الاصفر لم يلبس أحد من الخلق خفا اصفر حتى ينزعه»[٣٠] كان ذلك يقتصر على من يحضر مجلس عبدالملك من الناس ولم يكن لينطبق على غيرهم. بالاضافة الى ان المنع كان ينحصر في المجلس الذي كان ينتعل فيه الخليفة خفه الاصفر وليس في المجالس التي كان يستعمل فيها ألوانا أخرى من الخفاف. ومن ذلك القليل أيضا ما يذكره لنا القاضي الرشيد في ان «هشام بن عبدالملك وبني مروان كلهم عندما كانوا يكسون الناس الخز يحتفظون بالاصفر والاحمر منه لانفسهم ويكسون ما سوى ذلك من الالوان غيرهم »[٣١]. وبديهي ا هذا لا يعني انه قد حرم على الناس استعمال ذينك اللونين من الخز وانما كان مقتصرا على ما كان يجلب او يشتري مه لخزانة الكسوة لغرض لاستعمال الشخصي او لتقديسه في شكل خلع .

ومن الخلفاء الامويين من كان لا يلبس القميص اكثر من مرة واحدة الا اذا كان الثوب نادرا معجبا وغريبا ، ومن هؤلاء يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد[٣٢]. ولا يستثنى من خلفاء بني امية في الاسراف في الملبس غير عمر بن عبدالعزيز[٣٣]. حتى يذكر ان ثيابه وهو خليفة قد قومت باثني عشر درهما فقط وقد كانت قميصا وخفا وعمامة[٣٤].

---

(٢٨) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٠٦ .
(٢٩) ابن الزبير . القاضي الرشيد . الذخائر والتحف ، ص ١١
(٣٠) الجاحظ ، المصدر السابق ، ص ١١ .
(٣١) ابن الزبير ، المصدر السابق ، ص ٢١١ .
(٣٢) الجاحظ ، المصدر السابق ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .
ومن الخلفاء العباسيين الذين اتصفوا بتلك الصفة المهدي والهادي والرشيد والمعتصم والواثق (نفس المصدر والصفحة) .
(٣٣) ويروى عنه انه كان يشتري له قبل الخلافة الحلة بالالف دينار فاذا لبسها استخشنها ، وعندما اتته الخلافة كان يشرى له القميص بعشرة دراهم فاذا لبسه استلانه . (المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ١٩٦) .
(٣٤) ابن عبدالحكم ، سيرة عمر بن عبدالعزيز ، ص ٤٨ .

وليس بين أيدينا من النصوص ما يؤيد ان الشعار الرسمي للخلفاء الامويين كان لباس البياض فهناك كثير من الروايات التاريخية تتبين منها ان الخلفاء استعملوا الالوان المختلفة ولم يقتصروا على البياض في لباسهم(٣٥) . وربما جاء ذلك بعد سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية والتي كان شعارها السواد وذلك على ايد بعض الثوار الامويين . من ذلك ما يكتبه لنا الطبري في حوادث سنة ١٣٢ هجرية (٧٤٩ م) عندما خلع ابو الورد ابا العباس السفاح بقنسرين ، فبيض وبيضوا معه . وكان ابو الورد من اصحاب مروان بن محمد اخر خلفاء بني امية وقائدا من قواده وفارسا من فرسانه(٣٦) .

واذا تركنا النصوص التاريخية وانتقلنا الى فحص ودراسة المخلفات الاثرية فلا نجد بين ايدينا الا النزر اليسير والذي لا يمكننا الركون اليه باطمئنان . من ذلك رسم بالالوان المائية وجد بين عشرات الرسوم الجدارية التي كانت تزين الجدران الداخلية لقصر اموي صغير شيد للاستجمام والصيد والنزهة ربما على يد الخليفة الوليد بن عبدالملك وذلك بين عامي ٩٢و٩٦ هجرية (٧١٠-٧١٤ م) . وتسمى خرائبه اليوم بقصير عمره والتي تقع على بعد خمسين ميلا شرقي عمان(٣٧) . وقوام هذا الرسم شخص يعتقد الكثير من المختصين في الاثار الاسلامية انه ربما يمثل الخليفة الاموي الوليد ابن عبدالملك نفسه (٨٦ ــ ٩٦هـ / ٧٠٥ ــ ٧١٤م) او امير آخر من الامراء الامويين(٣٨) . ونجد في الرسم الخليفة او الامير جالسا على عرشه وحول

---

(٣٥) الاصبهاني ، المصدر السابق جـ٤ ص ٢٦٦ .
ويذكر ايضا ان معاوية بن ابي سفيان كان يخرج للناس في ملابس مختلفة الالوان منها مطرف خز اخضر (ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٦ ، ص ١٣٣) .

(٣٦) الطبري ، جـ٩ ، ص ٤٤٣ .

(٣٧) وكان الفضل في الكشف على هذا البناء للمستشرق النمسوي البويس موزيل سنة ١٨٩٨ .

(٣٨) احمد تيمور ، التصوير عند العرب ، التعليقات ، ص ٣٩ .

رأسه هالة وفوقه مظلة يحملها عمودان حلزونيان ويحف به شخصان : احدهما يقف الى يمينه ويحمل عصا او صولجانا او مذبة والثاني سيدة وهي تقف الى يساره • ومما يؤسف له ان اجزاء كبيرة من الرسم تلفت نتيجة العوامل الطبيعية او البشرية حتى لم يبق شيء واضح من الملابس ما يمكننا الافادة منه في هذا البحث[٣٩] •

غير انه توجد في المخلفات الاثرية من العصر الاموي دراهم ضربت سنة ٧٥ (٦٩٤ م) منها درهم تزين مركز الوجه فيه صورة لملك قبل الاسلام • بينما يحمل الوجه الثاني من المسكوكة صورة للخليفة عبد الملك بن مروان • لقد مثل الخليفة بهيئ وقوف متقلدا سيفا مستقيما[٤٠] • والى يسار الصور كتابة تقرأ « أمير المؤمنين » • والى يمينها عبارة « خلفت الله » • وفي الجهة الثانية من المسكوكة توجد كتابة تقرأ « ضرب في سنة خمس وسبعين » • ونحن نعلم ان سنة خمس وسبعين تقع ضمن حكم الخليفة عبدالملك بن مروان • ويلاحظ في الصورة ان الخليفة ملتح يضع على رأسه كوفية تتدلى الى كتفيه ربطت الى رأسه بما يشبه العقال • وهو يرتدي جبة مفتوحة الوسط تحتها قميص ظاهر وطويل يصل اخمص القدمين وله طيات وتعرجات مما يدل انه قد خيط من قماش رقيق ربما كان من الحرير أو الخز (شكل ١)[٤١] •

وهناك ايضا مجموعة من المسكوكات النحاسية اكتشف بعضها في الحفائر الاثرية التي قامت بها دائرة الاثار في المملكة الاردنية الهاشمية في وسط مدينة عمان • لقد ضربت تلك المسكوكات قبيل الزمن الذي عربت فيه السكة الاسلامية تعريبا كاملا فلا يزال يظهر عليها ما يقربها الى النمط البيزنطي في الضرب • ويلاحظ في وجه هذه الفلوس النحاسية صورة للخليفة عبدالملك

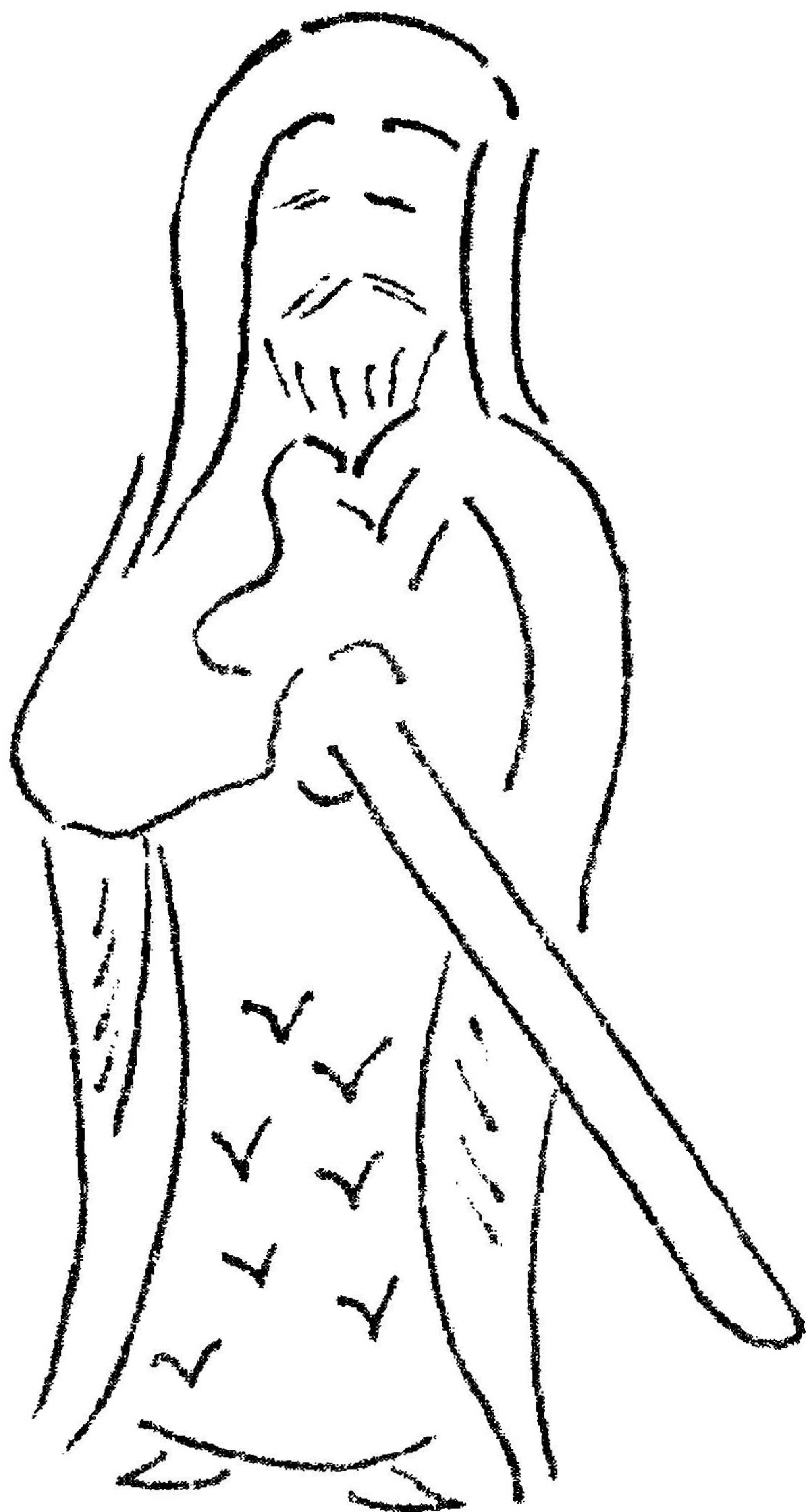
---

(٣٩) زكي محمد حسن ، اطلس الفنون الزخرفية ، شكل ٨٠٣ .

(٤٠) عيسى سلمان ، اقدم درهم معرب للخليفة عبدالملك بن مروان • مجلة سومر ، مجلد ٢٧ ، سنة ١٩٧١ ، ص ١٥٠ .

(٤١) المصدر السابق ، الشكل ٣ ــ ب .

بن مروان يبدو فيها منتصب القامة قابضا بيده على سيفه مرتديا جبة موشاة ويضع على رأسه كوفية • وقد نقشت في تلك المسكوكات عبارة « لعبدالله عبدالملك امير المؤمنين »[٤٣]• ومما يؤكد ان ـ الصورة تمثل الخليفة فعلا هو ما يذكره المقريزي في كتابه « شذور العقود في ذكـــر النقود » من ان معاوية بن أبي سفيان كان قد ضرب دنانير عليها تمثاله متقلدا سـيفا • ففي ذلك اشارة واضحة الى ان المقصود بتلك الصور هم الخلفاء فعلا •



شكل رقم (١)

(٤٣) عدنان الحيدري • فلوس نحاسية اموية من عمان ؛ مجلة المسكوكات العدد ٦ ؛ ١٩٧٥ • ص ٤٠ ـ ٤١ •

وإذا ما تركنا العصر الاموي وانتقلنا الى العصر العباسي نجد ان الاشارات التاريخية الى ملابس الخلفاء تزداد الى درجة كبيرة . حتى اننا لا نجد خليفة من خلفاء بني العباس تقريبا الا وهناك اشارات الى ما كان يرتديه في بعض المناسبات وذلك ابتداء من خلافة ابي العباس السفاح (١٣٢هـ-١٣٦هـ /٧٥٠-٧٥٤ م) الذي شوهد عندما اخذت له البيعة في الكوفة بشكل علني انه يرتدي ثيابا موشاة قوامها جبة ورداء لم ير صاحب الخبر « احسن منهما قط »[٤٣].

ويظهر لنا بشكل عام ان خلفاء بني العباس قد اقبلوا اقبالا كبيرا على الملابس الفاخرة الثمينة ، ولا يستثنى من ذلك الا خليفتان . الاول ابو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ /٧٥٤-٧٧٤ م) الذي روى انه كان « يلبس الخشن من الثياب وربما رقع قميصه »[٤٤]. ولم يكن المراد بذلك اضفاء طابع التقشف عليه من باب الورع ، وانما أرادوا التعرض لبخله وهي صفة عرف بها وعابوه عليها[٤٥].

وكان المنصور قبل ان يتولى الخلافة قد عرف « بصاحب القباء الاصفر » . وذلك بسبب قباء معين كان يكثر من ارتدائه[٤٦].

اما الخليفة الثاني فهو المهتدي بالله (٢٥٥-٢٥٦هـ /٨٦٨-٨٦٩ م) الذي عرف اثناء فترة خلافته القصيرة بالتقشف والورع الشديدين ، حتى ليقال انه وجد له عند وفاته سفطا فيه جبة صوف وكساء كان يلبسهما في الليل ويصلي فيهما[٤٧].

---

(٤٣) المسعودي . المصدر السابق . جـ ٢ . ص ٢٧٣ .

(٤٤) ومما يؤيد هذا الرأي ما تكتبه الطبري من انه اشترى له ثوبين لينين . . بعشرين وستة درهم . . . فقطع احدهما قميصا وجعل الآخر رداء . فلبس القميص خمسة عشر يوما لم يلبس غيره (الطبري . جـ ٨ . ١٩٨ — ١٩٩ .

(٤٦) الفخري . ص ٢٢٣ .

(٤٧) الاربلي . خلاصة الذهب المسبوك . ص ٢٣١ .

ويبدو مما ورد في النصوص التاريخية ان خلفاء بني العباس قد فاقوا اسلافهم الامويين في الاكثار من الثياب الفاخرة وربما حدث ذلك بشكل تدريجي . ففي الوقت الذي خلف فيه أبو العباس السفاح بعد وفاته تسع جباب وخمسة سراويل ـ وأربعة طيالسه وثلاثة مطارف خز[٤٨] ، نجد انه وجد في خزائن الثياب عند وفاة الرشيد في سنة ١٩٣ هجرية (٨٠٨ م) الاف من قطع الملابس النفيسة[٤٩]. فكان من جراء اقبال الخلفاء على اقتناء اللباس وكثرتها ان اصبح لها موظف خاص يدعى (صاحب الكسوة) تنحصر مهمته في اخراج وتسجيل كل ما يرد الى قصور الخلفاء من اللباس[٥٠].

ومع كل ذلك فلم يكن للخلفاء في بادىء الامر ثياب تتميز بشيء ما عن ملابس الموسرين من الناس . ليس هذا فقد نستنتج مما بين ايدينا من نصوص ان بعض الاوائل منهم كانوا ميالين الى ان يشاركهم المقربون لهم في ارتداء ملابس مشابه لما كانوا يرتدون ومن هؤلاء المنصور الذي مال الى لبس القلانس الطوال ثم فرضها على افراد حاشيته والمقربين له حتى ليذكر ان الشاعر ابا دلامه قد هزأ بها وشبهها بالدنان ، وقال في ذلك :

وكنا نرجى من امام زيادة

فجاد بطول زيادة في القلانس

---

(٤٨) الطبري ، ٩/١٧١ .

يذكر القاضي الرشيد انه وجد في خزائن الخلافة لما خلف الامين من جملة ما وجدوا : اربعة آلاف جبة خز مبطنة بسمور وفنك وسائر الوبر وعشرة آلاف قميص وغلالة وعشرة آلاف خفتان والف سروال من اصناف الثياب واربعة الاف عمامة والف طيلسان والف رداء من أصناف الثياب وخمسة آلاف منديل (الذخائر والتحف ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥) .

(٥٠) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، جـ١ ، ص ٨١ .

تراها على هام الرجال كأنها
دنان يهود جللت بالبرانس[٥١]

وعلى الرغم مما جاء في بعض المصادر العربية من ان هذا الخليفة قد ابطل لبس تلك القلانس فيما بعد فيبدو ان استخدامها ظل حتى اواخر عصر المنصور نفسه،اذ يكتب الطبري انه عند وفاته في(عين ميمون) عمد حاجبه الربيع « فالبسه الطويلة والدراعة وسنده واوهم الناس انه حي ... »[٥٢] ويذكر ايضا ان هرون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨ م) كان اول خليفة يرتدي ضربا معينا منها وهي القلنسوة المعروفة بالطويلة الرصافية[٥٣]. كما يذكر ايضا ان الامين ثم المأمون قد سارا على نهج والدهما في ذلك[٥٤].

وعلى الرغم مما يذكر من ان المستعين بالله (٢٤٨-٢٥٢هـ/٨٦٢-٨٦٦م) احدث تغييرا اساسيا في الزي كان منها تصغير القلانس وتقصيرها[٥٥]، فانه يبدو ان القلانس الطويلة ظلت قيد الاستعمال من قبل الخلفاء العباسيين لامد طويل بعد ذلك التاريخ[٥٦]، ربما حتى نهاية عصر تلك الاسرة في سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)[٥٧].

---

(٥١) الاغاني ، جـ٩ ، ص ١٦٤ .

ولاشك في انه اشتق من الدنان تسمية (الدنية) وهي ضرب من القلانس الضخمة والتي كان يرتديها القضاة بشكل خاص في العصر العباسي ، وهي محدودة الاطراف طولها نحو شبرين تتخذ من الورق وتلف على قصب تغشى بالسواد وقد اصبحت الدنية وكأنها جزء لا ينفصل عن القاضي حتى بات يضرب المثل في الامور التي لا تجوز « مثل قاضي بلا دنية » (ميخائيل عواد ، دنية القاضي في العصر العباسي ، الرسالة ، ١٩٤٢ ، العدد ٤٨٦ ، ص ٩٧٩ — ٩٨١) .

(٥٢) الطبري ، جـ٨ ، ص ١١٤ .

(٥٣) مشاكلة الناس ، ص ٥٦ .

(٥٤) الطبري ، جـ٨ ، ص ٤٨٢ .

(٥٥) مشاكلة الناس ، ص ٣٤ .

(٥٦) الخطيب ، تاريخ بغداد ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(٥٧) الصابي ، رسوم دار الخلافة ، ص ٨١ .

ومما تجدر الاشارة اليه ان احمد بن طولون عندما استقل باقليم مصر نقل استعمال القلانس الطوال اليها حيث لبسها هو نفسه ايام الجمع والاعياد[٥٨] .

ومع كثرة استعمالها في العصر العباسي يظهر ان القلانس الطوال لم تكن من ابتكار العباسيين أنفسهم اذ يكتب البلاذري انها دخلت الى العالم العربي من الهند ايام حكم الاسرة الاموية على يد القائد العربي عباد بن زياد الذي وجد عند فتحه لمدينة قندهار ان قلانس اهلها كانت طويلة فراقته تلك القلانس فلبس على شاكلتها فسميت بالعبادية[٥٩] .ويذكر أيضا ان الحجاج بن يوسف الثقفي كان يستعملها أحيانا عند جلوسه للناس أيام ولايته على العراق[٦٠] .

وعلى اية حال فانه لم تصل الينا رسوم لخلفاء او امراء او سلاطين يتزينون بالقلانس الطويلة . غير ان هناك الكثير من الصور لاشخاص عاديين يلبس اصحابها مثل تلك القلانس ، منها واحدة مزينة بما يشبه الوشي على رأس رجل في منمنمة من منمنمات مخطوطة النجوم الثابتة للصوفي والمحفوظة في مكتبة (بودليان) في اكسفورد (شكل ٢)[٦١] .

ومن المعروف ايضا ان القلانس الطوال لم تكن الضرب الوحيد من كانت تستعمل في مجالس الخلفاء[٦٢] . ومن القلانس ايضا ما هو مصنوع من الفراء الثمين ، وخاصة من فراء السمور ، وهو نوع من انواع الثعالب النادرة

---

(٥٨) البلوي ، سيرة احمد بن طولون ، ص٣١٧ .

(٥٩) البلاذري ، فتوح البلدان ، ق ٥ ص ٦١ .

(٦٠) يروى ان الحجاج بن يوسف كان اذا وضع على راسه القلنسوة الطويلة لم يجترىء احد من خلق الله ان يدخل عليه وعلى راسه مثلها ، الجاحظ التاج ، ص ٥٦ .

(٦١)

(٦٢) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ١٩٢ .

الصغيرة الحجم[٦٣] • ولا شك في أن قلانس السمور والتي كانت غالبيتها تصنع وفراءها الى الداخل ، ولو ان بعضها كانت تطوق من الخارج بالسمور والتي عرفت قديما بالقلانس المحددة[٦٤] • منها واحدة لاحظها الرحالة ابن جبير على رأس الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٦-٦٢٢هـ/١١٨٠-١٢٢٥ م) عند زيارته لبغداد في سنة ٥٩٠ هجرية فقد شاهده صاعدا في زورق بدجلة « وعلى رأسه



شكل رقم (٢)

(٦٣) يقول فيه الزبيدي انه « حيوان بري يشبه ابن عرس لكنه اكبر منه لونه احمر مائل الى السواد . ومنه ما يكون اسود لماعا . يتخذ من جلده فراء ثمين (تاج العروس ، باب الراء فصل السين) .

(٦٤) مروج الذهب ، ج٤ ، ص ٢٥٥ .

قلنسوة مذهبة مطوقـة بوبر اسـود من الاوبار الغاليـة المتخذة للباس الملوك ...»[٦٥]

وإذا ما انتقلنا الى المخلفات الاثرية فاننا نجد عـددا لا يستهان بـه من القلانس ذوات الفراء في رسوم منمنمات مدرسة بغداد في التصوير الاسلامي وربما من أهمها غرة مخطوطة مقامات الحريري التي نسخها وزوق منمنماتها يحي بن محمود الواسطي في سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٧م) محفوظة في المكتبة الوطنية في باريس . ففي غرة هذا الكتاب تصويرة[٦٦] تمثل رجل يعتلي عرشا ، يرتدي جبة وقباء مطرزا وعلى رأسه قلنسوة فراء داكنة اللون تتصدرها لؤلؤة او جوهرة كبيرة ، قد رسم بحجم اكبر من الاشخاص المحيطين به في المنمنمة . ومما يؤسف له ان الطمس والتشويه قد لحق ببعض اجزاءها دون غيرهما مـن منمنمات المخطوطة[٦٧] . ويضفي الدكتور ثروت عكاشة اهمية كبيرة على هذه المنمنمة والتي تليها في المخطوطة فهو يرجح ان المقصود بالشخص الرئيس فيها هـو السلطان بدر الدين لؤلؤ (٦١٥–٦٥٨هـ/١٢١٨–١٢٥٩م)صاحب الموصل[٦٨] . في حين يرى ان الشخص الرئيس في المنمنمة الثانية هو الخليفـة نفسه ، اى المستنصر بالله (٦٠٣–٦٤٠هـ/١٢٢٦–١٢٤٢م) .والذي يلاحظ ان الشخص في المنمنمة يتربع على عرش لا يختلف في شيء عن العرش الظاهر في المنمنمة الاولى ويحيط به كذلك عدد من الاتباع[٦٩] .ومما لاشك فيه ان الذي حمل الدكتور عكاشة على هذا الاعتقاد هو أن الشخص الرئيس في المنمنمة الاولى حليق الوجه يضع على رأسه قلنسوة في حين ان الثاني ملتح ومعتم بعمامة بيضاء وتحيط برأسه هالة[٧٠] .

---

(٦٥) ابن جبير ، ص ٢٢٨ .

(٦٦) مرسومة في ظهر الورقة الاولى من المخطوط .

(٦٧) ثروت عكاشة . فن الواسطي ، ظهر الورقة (١) ، ص ٢٢ .

(٦٨) نفس المصدر ، ص ٢٢ .

(٦٩) ظهر الورقة (٢) من المخطوطة .

(٧٠) Ettinghausen, R., Arab Painting, p. 58.

ومن المخطوطات المزوقة الاخرى التي تتميز برسوم اشخاص يضعون على رؤوسهم قلانس سمور نسخة ناقصة من مخطوطة كتاب الاغاني لابي فرج الاصفهاني وصلتنا منها خمسة اجزاء فقط ، ثلاثة محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة واثنان في مكتبة فيض الله باستانبول . ان اهمية تلك النسخة من المخطوطة تتجلى في انه تتصدر كل جزء من اجزائها الخمسة منمنمة فريدة موضوعها منظر ملكي قوامه رجل ذي هيبة واجلال يحيط به من جوانبه المختلفة عدد من الاتباع يظهرون بحجم اصغر . ويرى معظم اخصائي التصوير الاسلامي انها تمثل السلطان بدر الدين لؤلؤ يحيط به بعض افراد حاشيته ، وذلك بسبب الشريط الكتابي الذي يحيط باعلى كمية في اثنتين من تلك المنمنمات والتين وتقرآن : (عبدالله لولو)[٧١]. ومما تجدر ملاحظته ان قلنسوة بدرالدين لؤلؤ في كل واحدة من تلك المنمنمات محددة بالفراء على النمط نفسه الذي يلاحظ في القلنسوة الظاهرة في غرة مخطوطة مقامات الحريري سابقة الذكر .

وفي منظر اخر تبدو عليه الابهة الملكية وهو ما نجده في مخطوطة كتاب (الترياق) المنسوب الى جالينوس والمؤرخ من سنة ٥٩٥ هجرية (١١٩٩ م) المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس . يلاحظ ان الملك او الامير الذي تحف به مجموعة من التابعين والجواري يضع على رأسه قلنسوة محددة تشبه تماما القلانس الملكية في غرر الاجزاء الخمسة لمخطوطة كتاب الاغاني التي تطرقنا اليها قبل قليل[٧٢]. ونجد كذلك قلنسوة فراء مشابه في منظر ملكي ممثل في منمنمة من منمنمات نسخة ثانية من مخطوط (الترياق) يرتقي تاريخ نسخه وتزويقه

---

(٧١) زكي محمد حسن ، اطلس الفنون الزخرفية ، الاشكال ٨٦٨ و ٨٦٩ و ٨٧٠ .

(٧٢) Ettinghausen, Op. Cid., p. 91.

الى منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) وهو محفوظ في المكتبة الوطنية بفينا (شكل ٣) [٢٣]. ولما كان كلا المخطوطين منسوبين الى الموصل والى الفترة الزمنية التي كان يحكم فيها السلطان بدرالدين لؤلؤ فان هناك احتمال كبير في ان المقصود بالشخص الرئيس الـذي يتوسط تلك الرسوم والذي يحيط به دوما عدد من الاتباع والجواري هو بدر الدين لؤلؤ نفســـه .



شكل رقم (٣)

---

(٢٣) Ibid., p. 92.

واذا تركنا القلانس وانتقلنا الى العمائم فليس بين ايدينا من الاشارات التاريخية ما يدل انه كان للخلفاء عمائم خاصـــة متميزة ، اللهم تلك الاشارة المقتضبة والتي جاءنا بها الجاحظ وهي انه كان للخلفاء عمه مصنفة متميزة[٧٤] . وربما المقصود بذلك ما كتبه الجاحظ نفسه في موضوع آخر من مصنفـــه (البيان والتبين) هو ان الخلفاء العباسيين كانوا يتميزون بشـــد العمائم على القلانس[٧٥] .ونحن لا ندري ان لم يشارك المواطنون حقا الخلفاء في تلك الصفة ابان عصر الجاحظ الا انه من دراســـة المخلفات الاثريـــة ، خاصة تصاوير المخطوطات ، يبدو ان قليلا من الناس في القرن السادس او الســـابع للهجرة (١٢-١٣١٣ م) كانوا يشـــدون العمائم على القلانس . ويمكن ببساطة ان تتحقق من ذلك اذا ما تفحصنا رسوم الجموع البشريـــة التي مثلهم لنا في منمنماته يحي بن محمود الواسطي وغيره من اساتذة مدرسة بغداد العربية في التصوير (شكل ٤)[٧٦] . غير انه يمكن القول بشكل عام ان العمائم كانت تشد في العادة على (شاشية) او (عرقية) وهي طاقية خفيفة لحماية العمامة من الاتساخ بالعرق ، والتي تسمى في ايـــران ـ اليوم (العرقجين) وتعريبها (مصاصة العرق)[٧٧] . وقد تلبس الشاشية من غير عمامة او منديل خاصة

---

(٧٤) البيان والتبيين ، جـ ٣ ص ١١٤ .

(٧٥) نفس المصدر والجزء والصفحة .

وربما يفسر لنا نصا للجهشياري وصف فيه مجلسا عاما لهرون الرشيد قبيل وفاته بانه كانت على راسه قلنسوة طويلة وعمامة خز سوداء (الوزراء والكتاب ، ص ٢٧٤) .

(٧٦) ثروت عكاشة ، المصدر السابق ، ظهر الورقتين ٣ ، ٣١ .

(٧٧) ومما يؤيد ان الشاشية كانت تلبس تحت العمامة ما يكتبه الرحالة ابن بطوطة : ضربوه بالايدي والنعال ضربا كثيرا حتى سقطت عمامته وظهر على راسه شاشية حرير فانكروا عليه لباسه .

(دوزي ، المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب ، ص ٢٠١) .



شكل رقم (٤)

أيام الصيف القائض ، وهو امر لا يزال شائعا في شبه جزيرة العرب واليمن وبعض مناطق العراق • ويروى ان المعتصم بالله (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢ م) استعمل أحيانا شاشية من غير عمامة حيث يذكر انه لبس واحدة ذات شكل مربع «نسبت اليه وسميت بالشاش المعتصمية فلبسها الناس تشبها به »[٧٨] •

ومن العمائم التي وردت اشارات اليها ضمن لباس الخلفاء ، عمائم خز كانت تستعمل عادة في المجالس العامة[٧٩] • أما في المجالس الخاصة فكانوا يرتدون عمائم وشي مذهبة[٨٠] وتزيوا في الشتاء احيانا بعمائم مصنوعة من جلد السمور • كما عرفنا عن المعتصم بالله انه استعمل عند غزوة لعمورية عمامة خاصة بالغزو لم يتطرق المؤرخون الى وصفها وباعتقادي انها كانت من النوع الخفيف تثبت على الرأس بطريقة التحنك ، اي مد طرف منها من تحت الحنك ليرتبط بالعمامة من جهتها الثانية •

واذا تركنا لباس الرأس جانبا وانتقلنا الى ملابس البدن نجد انه لم يكن هنالك ملابس مميزة للخلفاء ومع ذلك فيمكن القول ان الخلفاء كانوا يميلون الى استعمال ضروب معينة من الملابس أكثر من غيرها • من ذلك كثرة استعمالهم للدراعة خاصة الاوائل منهم • والدراعة ، كما يصفها دوزي تشبه الجبة غير انها مشقوقة المقدم اى انها مفتوحة من جهتها الامامية حتى اعلى القلب ومزودة بأزرار[٨١] • لقد لبس الخلفاء الدراعة في مناسبات مختلفة سواء كان ذلك في اوقات العمل الرسمي او في ساعات اللهو والراحة • وقد عرف عن الرشيد انه كان يرتدي في مجالسه العامة دراعة خز مبطنة بالفراء[٨٢] • كما يذكر ايضا ان الرشيد كان يحج سنة ويغزو في سنة تالية وكان يلبس دراعة عند غزوه وجهه كتب من خلفها (حاج) ومن امامها (غاز)[٨٣] •

---

(٧٨) اليعقوبي : مشاكلة الناس ، ص ٣٢ •
(٧٩) التنوخي : الفرج بعد الشدة ، ص ٢٥٧ •
(٨٠) البيهقي : المحاسن والاضداد ، جـ٢ ، ص ٣٦١ •
(٨١) دوزي : المصدر السابق ، ص •
(٨٢) الطبرى ، جـ٧ ، ص ١٩٨ •
(٨٣) المصدر السابق ، جـ٦ ص ٤٤٧ •

ويذكر المؤرخون عند تطرقهم لحصار بغداد ان الامين (١٩٣-١٩٦هـ / ٨٠٨-٨١١ م) كان يلبس ثياب الخلافة وهي دراعة وقلنسوة وطيلسان[٨٤] ويروي ايضا ان المعتصم بالله عندما خرج لفتح عمورية كانت عليه دراعة صوف •

ومع ذلك فلم يحصر الخلفاء لبس الدراريع بانفسهم اذ شاركهم في لبسها الشعراء والظرفاء والشيوخ والقضاة[٨٥] •

في العصر العباسي الثاني أصبح القباء من قطع الملابس الرسمية للخلفاء • والقباء ، كما هو معروف ، رداء طويل ذي ازرار مفتوح من الامام ومقور عند الرقبة[٨٦] • كان يلبس في العادة فوق القميص • ومما يؤكد أهمية القباء عند خلفاء بني العباس في عصرهم الثاني ما يرويه ابن الجوزي عند تطرقه لسيرة المعتضد بالله (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠١م) انه انسحب من مجلس سرور ليحسم قضية عاجلة فلبس قباء واخذ بيده حربة قبل ان يجلس في مجلس عام[٨٧] • ومع كل ذلك فقد شارك الوزراء وكبار رجال الدولة والموظفون العموميين الخلفاء في لبس القباء •

لقد غلب على لبوس الخلفاء العباسيين في الشتاء المبطنات كالجباب المبطنة بالفراء والاقبية المبطنة وغيره • كما غلب على لبوسهم في الصيف الاقبية الرقيقة والقمص والدرايع والمطارف والطيالس •

اما عن شكل تلك الملابس فلم تكن لتختلف في شيء عن ملابس بقية الناس ليس هذا فقط بل حتى ان الخاصة من الناس كانت تقلد الخلفاء في بعض من الاحيان فيما كانوا يرتدونه ، فنجد انه عندما ضيق المعتصم بالله اكمال الثياب ضيق الناس اكمامهم ،[٨٨] وعندما وسعها المستعين فجعلها ثلاثة اشبار او نحوها حذى الناس في ذلك حذوه •

---

(٨٤) الخطيب البغدادي ، جـ ١٠ ، ص ١٩٨ .

(٨٥) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ٦٠ .

(٨٦) دوزي ، المصدر السابق ، ص ٢٨٥ .

(٨٧) ابن الجوزي ، جـ٥ ، ص ١٢٩ .

(٨٨) مشاكلة الناس ، ص ٣١ .

ولم يتحرج الخلفاء عن استخدام الالوان المتنوعة فيما كانوا يرتدونه من ملابس في مجالسهم الخاصة ، فقد عرف عن المهدي مثلا انه كان يلبس الثياب الموردة[٨٩] ، كذلك ارتدى المتوكل الدراريع الحمر[٩٠] . غير أن لباسهم في المجالس الرسمية والعامة ، باستثناء حالات قليلة ونادرة ، كان هو السواد[٩١] . لقد جرت العادة ان يرتدي الخلفاء قباء أسود أو جبة سوداء وعمامة او قلنسوة سوداء . وكانت الجبة والقلنسوة السوداء اخر ما لبسه الخليفة هرون الرشيد عندما جلس اخر جلوس عام للناس قبيل وفاته[٩٢] . وقد كتب بعض المؤرخين القدامى من العرب انه كان من المستحسن جدا ان يرتدي الخليفة المصمت من الثياب اى ذو لون شديد السواد لا يخالطه لون اخر ، او لونا مولدا اى الثوب ذى اللون القريب جدا من السواد ، وان لا يظهر في المجالس العامة بالملابس الحريرية كالديباج والسقلاطون او الملابس المنقوشة[٩٣] .

---

(٨٩) الجهشيارى ، ص ١٦٠ .

(٩٠) مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ١٢٠ .

(٩١) ان من تلك الحالات النادرة انه شوهد المعتضد بالله لما خرج الى قتال وصيف الخادم عليه قباء اصفر (التنوخي ، نشوار المحاضرة ، جـ٢ ، ص ٢٤٨) كذلك نجد ان المقتدى بامر الله لما بويع بالخلافة سنة ٤٦٧ هجرية جلس في دار الشجرة بقميص ابيض وعمامة لطيفة بيضاء وطرحة قصب درية (المنتظم ، جـ٨ ، ص ٢٩٢) . وشاهد الرحالة ابن جبير الخليفة الناصر لدين الله عند زيارته لبغداد لابسا ثوبا أبيضا شبه القباء برسوم ذهب فيه (رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٨) .

(٩٢) الجهشيارى ، ص ٢٧٤ .

(٩٣) السقلاطون نسيج من حرير مخلوط بغزول الذهب (الفيروز ابادى ، حرف النون باب السين) .

لقد اصبح من الامور التقليدية جدا بالنسبة للخلفاء في العصر العباسي الثاني ان يتقلد في مجلسه العام سيف النبي صلى الله عليه وسلم وان يجعل بين مخدتي الدست عن يساره سيفا اخر ، وان يجعل على كتفيه وصدره وظهره بردة النبي (ص) وان يمسك بقضيبه . البردة والقضيب قد اصبحا شعار الخلفاء العباسيين الذين لا ينازعهم فيه احد[٩٤].

والواقع ان السواد من اللباس فوقه البردة كان الزي الذي لم يشارك الخلفاء العباسيين فيه احد من الناس .

والبردة ، كما هو معروف ، هي تلك التي وهبها الرسول الكريم الى الشاعر المخضرم كعب بن زهير بعيدة فتح مكة ، وذلك عندما امنه النبي الكريم بعد جفوه فانشده قصيدته المشهورة التي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

متيم اثرها لم يفد مكبول

ومن المعروف ان معاوية بن ابي سفيان (٤١-٦٠هـ/٦٦١-٦٧٩ م) قد اشتراها من ورثته بعشرين الف درهم وبقيت في خزائن الامويين ثم الت بعد ذلك الى العباسيين في سنة ١٣٢ هجرية (٧٤٩ م) . وهناك رواية ثانية هي ان بردة النبي التي انتقلت الى الاسرة العباسية هي غير البردة التي اشتراها معاوية ، بل بردة اخرى لرسول الله اشتراها ابو العباس السفاح من اهل (آيله) بفلسطين وكان رسول الله (ص) قد اعطاها لهم مع كتابه الذي امنهم فيه[٩٥] . ومهما يكن من أمر فان البردة أو البرد ، كما جاء في المعاجم

---

(٩٤) ادم متز : الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري ، جـ١ ، ص٢٥٥ .

(٩٥) ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ١٩٥ .

العربية القديمة ، كساء من نسيج صوفي مخطط مربع الشكل او مستطيل[٩٦]، كان شائع الاستعمال الى درجة كبيرة عند عرب شبه الجزيرة قبيل الاسلام • كان كثير منها ينسج في اليمن وفي حضرموت ثم يصدر الى مدن وقبائل شبه الجزيرة •

لقد كان الخلفاء يتوارثونها ويطرحونها على اكتافهم في المواكب جلوسا وركوبا ، وبات الخليفة يضعها على كتفه في اليوم الاول من ايام عيد الفطر • كما كانوا يستعملونها عند خروجهم للحروب وفي الازمات المختلفة من ذلك ما يذكره ابن الاثير في حوادث سنة ٢٥١ هجرية من ان المستعين بالله (٢٤٨-٢٥٢هـ/٨٦٢-٨٦٦ م) قد خرج الى سطح دار العامة وعليه البردة فكلم الناس واقسم عليهم بحق صاحب البردة ان ينصرفوا[٩٧]ويذكر ايضا ان البردة كانت على كتف المقتدر بالله حين قتل في سنة ٣٣٩ هجرية (٩٥٠ م) فتلوثت بالدم • ويكتب ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٥٠ هجرية (١٠٥٨م) ان الخليفة القائم بامر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣٠-١٠٧٤ م) خرج لابسا السواد على كتفه البردة وعلى رأسه اللواء وبيده سيف مجرد وحوله زمرة الهاشميين[٩٨] وذلك عندما اضطربت الاحوال ببغداد نتيجة عصيان القائد البساسيري في تلك السنة •

وفي الرسوم على بعض المخلفات الاثرية التي ترجع الى العصر العباسي صورتان للبردة • الاولى ظاهرة في رسم للمتوكل على الله على مسكوكة صلة فضية محفوظة في متحف تاريخ الفن بفينا[٩٩] •والمسكوكة هذه قد ضربت على

---

(٩٦) الفيروز ابادى ، القاموس المحيط ، (برد) •

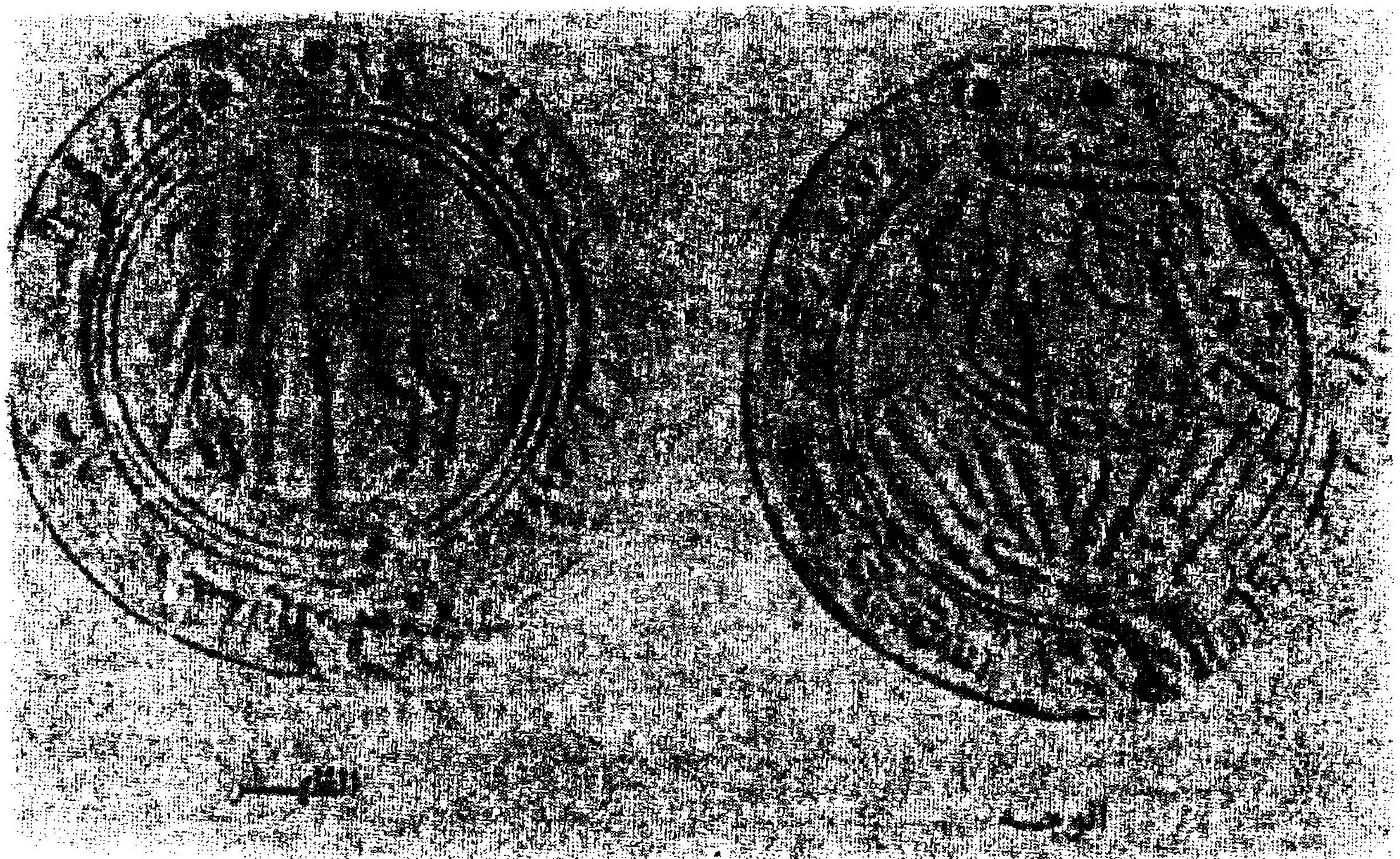
(٩٧) مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ١٦٣ •

(٩٨) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٨ ، ص ١٩٣ •

(٩٩) Arnold, T. W., Painting in Islam, p. 125.

الارجح لتؤرخ لنتصارا مهما للمسلمين على مجموعة من القبائل الحاميــه كانت تسكن مصر العليا أخذت تغير على أرض مصر أيام خلافة المتوكل على الله (٢٣٢ ــ ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ ــ ٨٦١ م)[١٠٠] •

وتبدو والبردة الظاهرة على كتف المتوكل انها من قطعة واحدة مــن قماش سميك النسيج يغطي كتفيــه وصدره وقد جمع في الجهة الأماميــة بواسطة خال من معدن او خشب او عظم (شكل ٥) •



شكل رقم (٥)

والصورة الثانية للبردة ظاهرة على كتف المقتدر بالله (٢٩٥ــ٣٢٠هـ ٩٠٨ــ ٩٣٢ م) في مسكوكة صلة يحتفظ المتحف العراقي بنسختين منها[١٠١] •

---

(١٠٠) ناهض عبدالرزاق دفتر ، راى جديد لمسكوكة المتوكل على الله ، مجلة المسكوكات ، العدد ٧ ، ١٩٧٦ ، ص ١٠١ •

(١٠١) الاولى تحت رقم ٩٢٨ س ، والثانية ضمن مجموعة عبدالله شكر الصراف تحت رقم : ٢٨٨

ويلاحظ في صورة المقتدر بالله[١٠٢] : انه يمتطي جوادا ، كامل اللباس يمسك بيده اليمنى لجام جواده ويضع يده اليسرى على قبضة سيفه المتدلي ويضع على كتفه بردة رسول الله صلى الله عليه وسلم (شكل ٦) .



شكل رقم (٦)

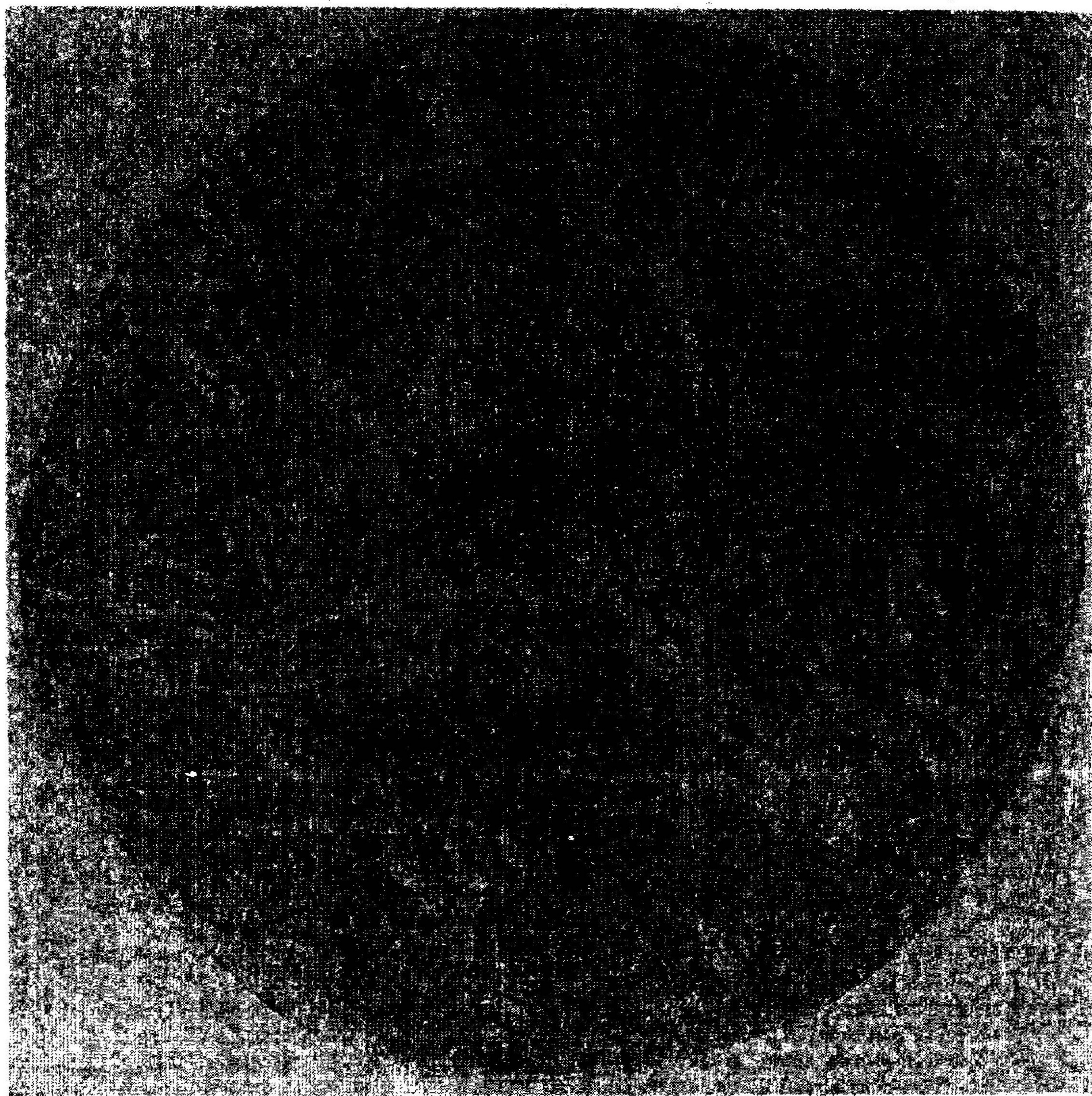
ويبدو من وصف غريب له عند خروجه لقتال مؤنس المظفر سنة ٣٢٠هـ (٩٣٢ م) انه هذا الخليفة كان يرتدي مثل هذا الزي عند خروجه في مهام عسكرية فقد كتب : اخبرني جماعة من اهل بغداد ممن عاين المقتدر خارجا من داره وقد شق المدينة يريد رقعة الشماسية فقالوا كان عليه خفتان فضي تستري وعليه عمامة سوداء مصمت والبردة التي كانت للنبي صلى الله عليه وسلم على كتفيه وصدره وظهره وهو متقلد بذي الفقار سيف رسول الله (ص) وحمائله ادم احمر وفي يده اليمنى الخاتم والقضيب وتحته الفرس

---

(١٠٢) عيسى سلمان ، صور من حياة الخليفة العباسي المقتدر بالله ، مجلة المسكوكات العدد ٤ ، ١٩٧٣ ، ص٢ .

المعروف بالاقبال ويعرف بالقابوس لان ابا قابوس اهداه اليه وعلى الفرس سرج مغربي احمر بحلية جديدة وتحت فخذه الايسر سيف للركاب[103] .

ويلاحظ في البردة التي تغطي كتف وصدر المقتدر بالله في المسكوكة انها مخططة بما يشبه المربعات ، والواقع ان الصورة بشكل عام تتميز بشيء من التحوير ، فهي بعيدة بعض الشيء عن صدق تمثيل الطبيعة في النسب والتشريح (شكل ٧) .



شكل رقم (٧)

---

(١٠٣) عريب بن سعد القرطبي ، صلة تاريخ الطبري ، ص ١٢٣ ، طبعة القاهرة ١٩٣٦) عيسى سلمان ، المصدر السابق ، ص .

ولا شك ان البردة قد مثلت في عدد اخر من مسكوكات الصلة والدعاية الخاصة بالخلفاء العباسيين غير ان ما وصلنا منها ، كما هو معروف ، قليل نــادر .

ومهما يكن من امر فقد ظلت البردة رمزا للخلافة العباسية وشعارا لهم لا ينازعهم فيه منازع . فكانوا يتوارثونها متبركين بها وبقيت في حوزتهم حتى نهاية عصرهم في سنة ٦٥٦ هجرية (١٢٥٨ م) . وهناك قــول في انها نقلت بعد ذلك الى مصر في عصور دولة المماليك ، ثم الى اسـطنبول ايام الدولة العثمانية . ويقال ان اجزاء منها محفوظة اليوم في بعض متاحـف استنبول والله اعلم .

ثبت بمصادر البحث

(١) ابن بكار ، الزبير ، جمهرة نسب قريش واخبارها ، لبنان ١٩٦٦ .

(٢) ابن جبير ، محمد بن احمد ، رحلة ابن جبير ، لايدن ١٩٠٧ .

(٣) ابن الجوزي ــ صفة الصفوة ، حلب ١٩٦٩ ــ ١٩٧٣ .

(٤) ابن الجوزي ــ المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، حيدر آباد ، الهند ١٣٥٧ هـ .

(٥) ابن الزبير ، القاضي الرشيد ، الذخائر والتحف ، الكويت ١٩٥٩ .

(٦) ابن سعد ، الطبقات الكبير ، طبعة بريل ١٩١٢ .

(٧) ابن طباطبا ، الفخري في الاداب السلطانية اوالدول الاسلامية ، طبع شالون ١٨٩٤م .

(٨) ابن عبدالحكم ، عبدالله ، سيرة عمر بن عبدالعزيز ، مصر ١٩٢٧ .

(٩) احمد تيمور ، التصوير عند العرب ، القاهرة ، ١٩٤٢ .

(١٠) أدم متز ، الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريده .

(١١) الاربلي ، عبدالرحمن ، خلاصة الذهب المسبوك ، بغداد ١٩٦٤ .

(١٢) البلاذري ، احمد بن يحيى ، فتوح البلدان ، دار النشر للجامعيين ١٩٥٧ .

(١٣) البلوى ، محمد بن محمد ، سيرة احمد بن طولون ، دمشق ١٣٥٨ هـ .

(١٤) البيهقي ، المحاسن والاضداد ، مصر ١٩٦٧ .

(١٥) التنوخي ، القاضي ابو علي ، نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة ، بيروت ١٩٧١ ــ ١٩٧٣ .

(١٦) التنوخي ، الفرج بعد الشدة .

(١٧) ثروت عكاشة ، فن الواسطي ، مصر ١٩٧٤ .

(١٨) الثعالبي ، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، مصر ١٩٦٥ .

(١٩) الجاحظ ، البيان والتبيين ، مصر ١٩٤٨ .

(٢٠) الجاحظ ، التاج في اخلاق الملوك ، لبنان ١٩٧٠ .

(٢١) الجهشياري ، محمد بن عبدوس ، الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨ .

(٢٢) الجيلدي ، عدنان ، فلوس نحاسية اموية من عمان ، مجلة المسكوكات العدد ٦ سنة ١٩٧٥ .

(٢٣) الخطيب البغدادي ، احمد بن علي ، تاريخ بغداد ، مصر ١٩٦٥ .
(٢٤) دوزي ، المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب ، ترجمة اكرم فاضل بغداد ١٩٧١ .
(٢٥) زكي محمد حسن ، اطلس الفنون والتصاوير الاسلامية ، بغداد ١٩٥٦ .
(٢٦) الراغب الاصبهاني ، حسين بن محمد ، محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء بيروت ١٩٦١ .
(٢٧) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، مصر ١٩٦٣ — ١٩٦٨ .
(٢٨) الصابي ، هلال بن محسن ، رسوم دار الخلافة بغداد ١٩٦٤ .
(٢٩) عريب ، بن سعد القرطبي ، صلة تاريخ الطبري ، القاهرة ١٩٣٩ .
(٣٠) عيسى سلمان ، اقدم درهم معرب للخليفة عبدالملك بن مروان ، مجلة سومر ، م٢٧ سنة ١٩٧١ .
(٣١) صور من حياة الخليفة العباسي المقتدر بالله ، مجلة المسكوكات ، العدد ٤ سنة ١٩٧٣ .
(٣٢) الليثي ، يحيى بن يحيى ، موطأ مالك ، شرح احمد راتب عرموش ، بيروت ١٩٧٠ .
(٣٣) المسعودي ، علي عبدالحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مصر ١٩٥٨ .
(٣٤) ناهض عبدالرزاق ، راي جديد لمسكوكة الصلة للخليفة العباسي المتوكل على الله ، مجلة المسكوكات ، العدد ٧ سنة ١٩٧٦ .
(٣٥) اليعقوبي ، احمد بن اسحق ، مشاكلة الناس لزمانهم ، بيروت ١٩٦٢ .
(٣٦) Arnold, T.W. Painting in Islam, New York, 1965.
(٣٧) Ettinghausen, R., Arab Painting, Skira, 1962.

اسباب ونتائج التصنيع في العراق

الدكتور احسان محمد الحسن

مدرس علم الاجتماع في كلية الاداب بجامعة بغداد

ان مفهوم التصنيع هو من المفاهيم الاقتصادية والاجتماعية الذائعة الصيت والمتداولة بكثرة في الابحاث والدراسات الاجتماعية والطبيعية والتطبيقية على حد سواء • فقد يعني توسع القاعدة الصناعية وزيادة الانتاج الصناعي في مجتمع كان بالاساس يعتمد على المهنة الزراعية ، وما يترتب على هذا التوسع والنمو الصناعي من تحولات مادية واجتماعية وحضارية وفكرية تنتاب بنية المجتمع ومؤسساته الوظيفية • لذا فالتصنيع الذى هو عامل اقتصادي فعال غالبا ما يؤثر في بناء المجتمع الفوقي ويترك آثاره وأنعكاساته عليه وهذا بالتالي سينقل المجتمع برمته الى مرحلة حضارية وأجتماعية متطورة ونامية تختلف عن المرحلة السابقة التي كان بها قبل تحوله الصناعي •

وهذه الحقيقة يمكن لمسها ومشاهدتها في المجتمعات النامية التي في طريقها نحو التصنيع والانقلاب الصناعي •

وقد يستعمل مفهوم التصنيع احيانا في وصف تبدل انماط الانتاج الصناعي كتحول الصناعات الخفيفة الى صناعات ثقيلة معقدة تعتمد عملياتها الانتاجية والتكنولوجية على استثمار رؤوس الاموال الكبيرة ، الخبرات العلمية والتكنيكية ، تقسيم العمل والتخصص فيه ، الانتاج الموحد والانتاج الكبير(١) •

غير ان مفهوم التصنيع هذا يختلف عن مفهوم الثورة الصناعية ، اذ قد تكون الثورة او لا تكون السبب المباشر في ظهور التصنيع ، في حين لا يمكن اعتبار التصنيع سببا من اسباب قيام الثورة الصناعية نظرا لكونـه مظهراً مهما من مظاهرها • لكن ظهور الثورة الصناعية يعتمد على مجموعة عوامل معقدة اهمها الحاجة المتزايدة للانتاج الصناعي الكبير بعد زيادة الطلب على السلع الصناعية ، وجود الجو الاجتماعي والسياسي المشجع لأرساء قواعد الانتاج والتنظيم الصناعي ، توفر رؤوس الاموال والمواد الاولية والخبرات اللازمة لتحويل مكونات الطبيعة من اشياء غير نافعة الى اشياء نافعة ، وأخيرا وجود الرغبة والارادة الصادقة في بناء اسس الصناعة الحديثة •

والثـورة الصناعيـة بمعناهـا العلمي هي ذلك التغيير الاقتصـادي والتكنولوجي الذي ينتاب اسس وعمليات الانتاج ويترك آثاره العميقة في الظروف الاقتصادية والاجتماعية والايديولوجية للمجتمع الذي يتعرض لتياره وفاعليته •

بينما التصنيع هو تعميم وتطبيق قواعد الانتاج الصناعي الحديث على جميع المؤسسات الانتاجية في المجتمع وبناء مؤسسات صناعية حديثة تكفل زيادة حجم الانتاج الصناعي المطلوب •

ولقياس درجة تصنيع المجتمع ينبغي علينا النظر الى معدل نمو مدنه ، ومدى استفادته من الكفاءات والخبرات التكنولوجية التي تعرفها المجتمعات الصناعية ، درجة تحديثه الشامل ونسبة العمال العاملين في القطـاع الصناعي الى نسبة العمال العاملين في القطاعات الانتاجية الاخرى •

لذا فالتصنيع هو ظاهرة اقتصادية عقلانية لها نتائجها الاجتماعية والحضارية ، وتعتمد على مبدأ تقسيم العمل والتخصص فيه ، استعمال المكائن الالية ، والاعتما دعلى الطاقة الميكانيكية والفنون العلمية والتنظيمية ، والغاية الرئيسية من اعتماد برامج التصنيع تكمن في خفض تكاليف الانتاج للوحدات المنتجة من البضائع والخدمات اذ ان انخفاض تكاليف الانتاج يعتمد على مبدأ الانتاج الكبير الذي لا يمكن تحقيقه دون انتهاج القواعد التكنولوجية للتصنيع[٣] ، والانتاج الكبير يوفر البضائع للمستهلكين ويرفع من نوعيتها ويمكن المواطنين من ذوي الدخول الواطئة والمحدودة من الحصول عليها بأسعار واطئة ،

وهذا ما يؤثر في مستواهم المعاشي والاجتماعي تأثيرا ايجابيا ويبدل المستويات المادية والحضارية لمجتمعهم ،

وظاهرة التصنيع التي شهدها العراق منذ عام ١٩٥٥ تشبه الى حد كبير ظواهر التصنيع التي شهدتها المجتمعات الصناعية الحديثة كاليابان والاتحاد السوفيتي وجيكوسلوفاكيا والمجتمعات شبه الصناعية كالهند ومصر وايران وهونك كونك والصين الشعبية ... الخ غير ان ظروف وأسباب ومشاكل التصنيع لهذه المجتمعات تختلف بعضها عن البعض الاخر نظرا لتباين مراحلها التأريخية وبيئاتها الجغرافية ومستوياتها الحضارية ، وتشابه تجارب هذه المجتمعات في ميادين التصنيع تنعكس في مرورها في نفس المراحل التصنيعية وشروعها في نفس الصناعات ومجابهتها لنفس المشاكل والتحديات ، فاول صناعة اعتمدتها هذه المجتمعات هي صناعة المنسوجات القطنية والصوفية ، ثم بعد استقرار هذه الصناعة اتجهت نحو تطوير نظام مواصلاتها السلكية واللاسلكية الذي يساعدها في بناء صناعتها الثقيلة ،

وبعد تطوير طرق مواصلاتها اخذت بتأسيس المشاريع الكبيرة للصناعات المعدنية والكيمياوية والكهربائية • وفي الوقت الذى انشغلت فيه هــذه المجتمعات بتشييد مشاريعها الصناعية الكبيرة التفتت نحو زيادة حجــم انتاجها الزراعي وتوسع حجم تبادلها التجاري مع الدول الاخرى ، ومسيرة هذه المجتمعات بأتجاه تطوير انتاجيتها الزراعية وحجم تبادلها التجاري تحت ظروف التصنيع الشامل كانت ترجع الى وجود عاملين اساسيين هما : زيادة الحجم الكلي للسكان وتركز السكان في البيئات والاقاليم الحضرية خصوصا المــدن الكبيرة •

الادلة الموضوعية التي تشير الى تصنيع العراق :ـ

منذ عام ١٩٥٥(*) لاحت في الافق عدة ادلة ومؤشرات موضوعية توضح درجة تصنيع العراق ومدى اهتمــام شعبه بمظاهره وآثاره الايجــابية والسلبية • وهذه الادلة والمؤشرات تنعكس في النمو السريع للمشــاريع الصناعية والقوى العاملة التي تشتغل فيها ، مكننة الزراعة ، زيادة حجــم التجارة الداخلية والخارجية بفضل تقدم طرق المواصلات وتوفر الاســواق التجارية ، استعمال الاجهزة والمكائن التكنولوجية في الدوائر البيروقراطيــة وبيوت العوائل التي سهلت العمل لعمــال الياقات البيض وربات البيوت ، وأخيرا النمو المطرد للسكان وأزدحــام السكان في المــدن (التحضر) ومن الضروري هنا شرح هذه الظواهر التي سيطرت على العراق وأثرت في تأريخه الاقتصادي والاجتماعي المعاصر •

(*) اعتبر الباحث سنة ١٩٥٥ سنة اســاس (Base Year) لتصنيع العراق وذلك بعد تأسيس وزارة الاعمار العراقية في عــام ١٩٥٠ وتنفيذ الخطة الخمسيــة الاولى للتنميــة الاقتصادية والاجتماعيــة بعد تأسيس الوزارة وللحصول على معلومات اكثر حول هــذا الموضــوع ارجع الى اسباب التصنيع في هذا البحث •

بعد قيام الدولة بتخطيط الاطر العريضة لهيكل الصناعة في العراق وتشييد مختلف المشاريع الصناعية استطاع القطر انتاج شتى انواع السلع الصناعية كالمنسوجات القطنية والصوفية ، المكائن الثقيلة ، وسائل النقل والمواصلات كالوريات والساحبات مثلا ، الثلاجات ، المبردات اجهزة الراديو والتلفزيون ••• الخ •

وانشاء مثل هذه المشاريع ساعد في زيادة نسبة الايدى العاملة التي تشتغل في القطاع الصناعي ، فقد ازدادت الايدى العاملة في هذا القطاع من ٥٪ في عام ١٩٥٥ الى اكثر من ١٨٪ في عام ١٩٧٥[٣] •

كما ارتفعت كمية رؤوس الاموال والاستثمارات الحكومية التي خصصتها الدولة للقطاع الصناعي ، اذ ارتفعت من ٤٠ مليون دينار في عام ١٩٥٥ الى اكثر من ٤٠٠ مليون دينار في عام ١٩٧٥[٤] •

ومنذ عام ١٩٦٥ استطاعت وزارة الصناعة انشاء (٤٠) مصنعا كانت كلفتها حوالي (٥٠٠) مليون دينار ، وهناك (٦٣) مصنع تحت الانشاء والتنفيذ تبلغ قيمتها الكلية حوالي (٦٥٠) مليون دينار • ومن بين هذه المصانع مصنع الفولاذ في البصرة ومصنع منسوجات الغزل والنسيج الكردي في دهوك ومحطة توليد الغاز في النجف ، ومصنع السمنت في الفلوجة ، ومصنع الخشب المضغوط في القادسية ، ومصنع القطع الكونكريتية في بغداد ، ومصنع الانابيب الكونكريتية في ابي غريب ، ومصنع المصابيح الكهربائية في التاجي ومصنع الكابلات الكهربائية في البصرة • وفي عام ١٩٧٥ بدأ العمل بأنشاء (٣٦) مصنعا في كافة ارجاء البلاد لصناعة مختلف البضائع الصناعية الخفيفة والثقيلة • ومن اهم هذه المشاريع الصناعية مصنع الورق في العمارة ، ومصنع البتروكيمياويات في بغداد ، ومصنع السمنت في الكوفة وهنالك العديد من المشاريع السكنية ومحطات توليد الطاقة الكهربائية ومصافي النفط[٥] •

وبجانب اهتمام العراق المتزايد في تنمية واستقرار الصناعة يولي اهتمامه ويكرس جهوده وأمكانياته نحو تطوير الزراعة والانتقال بها الى المستويات الرفيعة • فقد تغيرت مهنة الزراعة من مهنة تقليدية متخلفة تعتمد على وسائل الانتاج البدائية والطرق غير العلمية الى مهنة متطورة تعتمد على المكننة الحديثة والطرق العلمية في كافة مراحل الانتاج الزراعي •

ومما ساعد على التغيير السريع في انماط ووسائل الزراعة وقابليتها على الانتاج الكبير لمختلف المحصولات الزراعية والحقلية الغاء النظام الاقطاعي لملكية الاراضي وما صاحبه من علاقات اجتماعية اقطاعية غير متكافئة بين الشيوخ الاقطاعيين والفلاحين[٦] •

فشيوخ الاقطاع قبل صدور قانون الاصلاح الزراعي التي شرعتها ثورة يمتلكوا الاراضي فحسب بل امتلكوا جميع وسائل الانتاج في حين لم يستلك الفلاحون اى شيء ماعدا الجهود والطاقات البشرية التي كانوا يعرضونها للشيوخ بأجور واطئة جدا لا تتناسب مع قيمة عملهم • ولكن بعد قوانين الاصلاح الزراعي لعام ١٩٥٨ وقوانين الاصلاح الزراعي التي شرعتها ثورة السابع عشر من تموز عام ١٩٦٨ ، امست اراضي الشيوخ وقسمت الى اراضي زراعية صغيرة ثم وزعت على الفلاحين الصغار اما مجانا او بأسعار واطئة جدا •

لذا أصبح الفلاح في عهد الثورة يمتلك ارضه الزراعية ويمتلك وسائل الانتاج وهذا ما شجعه على مضاعفة الجهود وبذل الطاقات المتيسرة لاستغلال الارض ، استغلالا كاملا • وفي نفس الوقت قامت الدولة باصلاح ملايين الايكرات من الاراضي وجعلها صالحة للزراعة بعد توصيل المياه لها عن طريق فتح العديد من مشاريع الرى او بعد غسل املاحها والتخلص من صبوختها عن طريق مشاريع البزل[٧] •

وقد حولت الاراضي المستصلحة الى مزارع حكومية او مزارع جماعية وتعاونية نظرا لسياسة الدولة الحالية المشجعة لتكوين المزارع الحكومية والجماعية والتعاونية . ان تشجيع الدولة لمزارع القطاع العام وعدم تشجيعها لمزارع القطاع الخاص يرجع الى حقيقة تبني مزارع القطاع العام مسألة توفير المنتجات الزراعية للسكان بأسعار واطئة او معقولة وأهتمامها بزيادة طاقتها الانتاجية طيلة فصول السنة وعدم مبالاتها بالارباح .

في حين تهتم المزارع الخاصة بجني اكبر كمية من الارباح وأحتكار الاسواق التجارية وأستغلال المواطنين وعدم اهتمامها بمسألة توفير المواد الغذائية للمستهلكين بالكمية المطلوبة وبالسعر المعتدل .

وتحولت الزراعة في العراق الى زراعة آلية ميكانيكية خصوصا بعد توقف المزارع الحكومية والتجريبية وحتى المزارع الخاصة عن اعتماد الطرق والاساليب البدائية وتطبيق الطرق والاساليب الحديثة والعلمية . فقد استعملت المكائن والآليات المتطورة في جميع مراحل العملية الزراعية وأنتهجت الخبر والتجارب الزراعية الحديثة في معالجة سلبيات ومشاكل الانتاج الزراعي وهذا ما ساعد على زيادة انتاجية الارض من المحاصيل الزراعية والحقلية . وعين الخبراء الزراعيون والمفتشون الفنيون في مديريات وزارة الزراعة والاصلاح الزراعي ليزودوا الفلاحين بمعلومات تتعلق بالمحاصيل الزراعية المطلوب زراعتها ، مواعيد البذر ، مواعيد الحصاد ، مكافحة امراض التربة والمحاصيل الزراعية والعناية بالانتاج الزراعي .

كما عين موظفو الخدمة الاجتماعية لتطوير الحياة الاجتماعية في المجتمع الريفي وتهيئة سبل العيش السعيد لابناء المجتمعات القروية . فقد تولى هؤلاء الموظفون مسؤولية توجيه العوائل الفلاحية حول اساليب تربية اطفالهم وأزالة الامية عنهم وتقوية علاقاتهم الاجتماعية بأقاربهم وحثهم على العمل المتواصل لزيادة طاقة انتاجيتهم ، وتوصيتهم بمحاربة مشاكلهم وأمراضهم الاجتماعية الموروثة كالعصبية القبلية ، الثأر ، المنازعات العشائرية ، الغزو والسرقة ، الطائفية ... الخ .

اما التجارة الداخلية التي تطورت ونمت بعد دخول العراق في مراحل التصنيع الاولى فقد ساهمت مساهمة فعالة في انجاح مشاريع التصنيع التي قدم العراق عليها وفي توطيد اركان القاعدة الصناعية التي اعتمدها القطر في تحوله الاقتصادي والمادي • وتظهر الاحصائيات التجارية التي اصدرها المصرف المركزي العراقي بأن ميزان التبادل التجاري خلال الفترة (١٩٥٩ ـ ١٩٧٥) كان في صالح العراق اي ان صادرات القطر المنظورة وغير المنظورة كانت اكثر من وارداته • وتحسن وضع ميزان المدفوعات هذا قد اثر تأثيرا كبيرا في تطوير اسس التجارة الداخلية وتنمية حجم التجارة الخارجية • فمجموع قيم صادرات القطر خلال الفترة ١٩٥٩ ـ ١٩٧٥ كانت حوالي ٥٠٠ر١٠ مليون دينارا بينما بلغت مجموع قيم وارداته خلال الفترة ذاتها حوالي ٥٢٠٠ مليون دينار والفرق بين مجموع الصادرات والواردات كان ٣٠٠ر٥ مليون دينار •

وقد استغل معظم هذا المبلغ في تطوير اقتصاد القطر بصورة عامة وتطوير التجارة ذاتها بصورة خاصة[٨] •

الا ان سبب زيادة الصادرات على الواردات يرجع الى الزيادة المستمرة في تصدير البترول الى الدول الاجنبية خصوصا بعد قيام الدولة بتأميم البترول من الشركات الاحتكارية في عام ١٩٧٢ •

فخلال الفترة الآنفة الذكر بلغت قيمة صادرات العراق من البترول الخام حوالي ٨١٠٠ مليون دينارا بينما لم تتجاوز قيمة واردات العراق خلال الفترة ذاتها عن ٥٣٠٠ مليون دينار •

ومن الضروري ان نشير هنا بأنه لولا صادرات العراق من البترول لكان ميزان التبادل التجاري ضد العراق اى زيادة قيمة وارداته على صادراته •

وقد بلغت نسبة صادرات العراق من البترول خلال الفترة تحت الدراسة ٨٩٪ من مجموع صادراته ، بينما بلغت نسبة صادرات البضائع الاخرى عدا البترول ١١٪ [٩] • أما السلع التي يصدرها العراق للخارج فهي المواد الاولية ، منتجات الصناعات الخفيفة ، المنتجات الكيمياوية والمواد الغذائية •

وهناك ادلة اخرى تشير الى تصنيع العراق وهي انتشار استعمال المكننة الحديثة في الدوائر البيروقراطية وفي البيوت ، هذه المكننة التي تهدف الى توفر الجهود والطاقات البشرية المبذولة في اداء الاعمال التي تحتاجها هذه المنظمات • ولا يمكن استعمال هذه المكائن الموفرة للجهود والطاقات البشرية الا اذا كان القطر يتمتع بقسط وافر من الرفاهية الاقتصادية ودرجة عاليــة من الثقافة والتعليم •

ان اغلب الدوائر الحكومية والخاصة التي تعتمد اداراتها على المبادىء والتعاليم البيروقراطية تستعمل في الوقت الحاضر مكائن العمل "Business Machines" في تنظيم شؤونها الادارية والفنية •

وقد ارتفعت اهمية مكائن العمل كالحاسبات الالكترونية ، الآت الطابعة الكهربائية ، الساحبات الاتوماتيكية ، العدادات والمفرقات ••• الخ بالنسبة لعمال الياقات البيض (White-Collar Workers) بحيث اصبحت جزءا لا يتجزأ من حياتهم المهنية ، اذ لا يستطيعون تأدية وظائفهم اليوميــة دون استعمالها والاعتماد على خدماتها •

ولعبت هذه المكائن والاجهزة ايضا الدور الكبير في توطيد الدور المهني والاختصاصي الذي يشغله عامل الياقة البيضــاء وساهمت في رفع منزلته الاجتماعية وتسهيل مهمة اداء عمله[10] •

وتدخلت مكائن توفير العمل (Labour Saving Devices) في البيوت وانتشر استعمالها بسرعة فائقة بحيث اصبحت شيئا ضروريا لا يمكن الاستغناء عنه بأية صورة من الصور •

وسهلت مكائن توفير العمل مثل الغسالة ، المنظفة الكهربائية ، طباخ الغاز ، سيارة العائلة ، المبردة ، المدفئة الكهربائية ، الثلاجة والمجمدة ••• الخ مهمــة اداء الاعمال المنزلية لربات البيوت كافة وساعدتهن على توفير الوقت المصروف على اداء واجباتهن المنزلية بحيث اتسع لهن الوقت الكافي لتربيــة والعناية بأطفالهن أو الانغمار في أنشطة الفراغ والترويح وهذا ما ساهم في تطوير نوعية العائلة ورفع كفائتها الاجتماعية والتربوية[11] •

تشير احصائيات الجهاز المركزي للاحصاء بأن ½ العوائل العراقية تستعمل على الاقل ثلاثة انواع من مكائن توفير العمل المذكورة اعلاه •

ومن الادلة والمستمسكات الموضوعية الاخرى التي تشير الى تصنيع العراق زيادة عدد نفوسه ونمو مدنه خصوصا بعد الهجرات السكانية من الارياف الى المدن •

شهد سكان العراق زيادة مستمرة منذ عام ١٩٥٠ ، فقد ازداد حجم السكان من (٥) ملايين نسمة في عام ١٩٥٠ الى اكثر من ١١ مليون نسمة في عام ١٩٧٥ •

وهذه الزيادة السكانية ترجع الى عاملين رئيسيين هما :

١ ــ ارتفاع معدلات الولادات •

٢ ــ انخفاض معدلات الوفيات •

ان ارتفاع معدلات الولادات منذ عام ١٩٥٠ كان يعزى الى عوامل جوهرية اهمها تقدم المجتمع في العلوم والمعارف الطبية خصوصا علم الولادة ، استقرار وأنتشار مؤسسات الخدمة الاجتماعية كخدمات الضمان الاجتماعي والضمان الصحي وخدمات التقاعد ••• الخ ، وأمتناع العوائل العمالية والفلاحية عن استعمال طرق تحديد النسل ووجود المواقف الاجتماعية المشجعة على انجاب الاطفال الكثيرين •

اما انخفاض معدلات الوفيات فكان يرجع الى العوامل التالية :ــ

تطور العلوم الطبية ومشاريع الصحة العامة ، تقدم الخدمات الصحية الوقائية والعلاجية ، وأنتشار الثقافة والتعليم بين الجماهير(١٢) •

وظاهرة زيادة السكان قد رافقتها ظاهرة أخرى وهي تحضر السكان فقد كان ½ سكان العراق في عام ١٩٥٠ متحضرا ، غير ان نسبة السكان المتحضر ارتفعت الى ⅔ مجموع السكان في عام ١٩٧٥ •

وما تضخم سكان مدن العراق الكبيرة مثل بغداد ، الموصل ، كركوك ، البصرة ، كربلاء ، والنجف الا دليلا ملموسا على استفحال ظاهرة التحضر في العراق . وأزدحام السكان في المدن هو وليد العوامل المغرية المتواجدة في المدينة والتي تشجع سكان الارياف على الهجرة اليها كوجود فرص العمل والربح المادي ، توفر الخدمات الصحية والاجتماعية والثقافية ، استتباب الامن والنظام ... الخ . كما انه وليد العوامل البيئية السلبية التي كانت تسيطر على الريف العراقي قبل الثورة الزراعية والاصلاح الزراعي كعدم وجود فرص العمل والكسب المادي لتردى الاحوال الزراعية وعدم مقدرة الفلاح على استغلال الارض زراعيا ، عدم توفر الخدمات الثقافية والصحية والاجتماعية وأخيرا وجود المنازعات العشائرية والقبلية بين سكان الارياف[١٣]

لجميع هذه العوامل ازدادت وتعاقبت موجات الهجرة السكانية من القرى والارياف الى المدن بحيث ارتفعت كثافة سكان المدن وانخفضت كثافة سكان الارياف الى درجة خطيرة[١٤] .

فلم تتمكن الارياف من الحصول على الايدى العاملة الكافية لاستغلال الارض استغلالا زراعيا ولهذا اضطرت الحكومة الى استيراد الفلاحين المصريين لتلافي العجز في الايدى العاملة .

وفي نفس الوقت تضاعفت نسبة السكان الحضرى في العراق وأزداد سكان المدن زيادة لم يشهدها العراق في تأريخيه المعاصر ولم تشهدها حتى المدن الصناعية الكبيرة في اوربا التي تضخم سكانها خلال القرن التاسع عشر .

فقد ارتفع حجم سكان مدينة بغداد من (٨١٧ر٣٠٥) نسمة في عام ١٩٤٧ الى حوالي (٠٠٠ر٥٢٤ر٣) نسمة في عام ١٩٧٥ وارتفع سكان مدينة كركوك من (٠٠٥ر٢٨٦) نسمة في عام ١٩٤٧ الى (٠٠٠ر٦٠٠) نسمة في عام ١٩٧٥ وأرتفع سكان مدينة البصرة من (٣٦٨ر٧٩٩) في عام ١٩٤٧ الى حوالي (٠٠٠ر٩٤٧) نسمة في عام ١٩٧٥ .

ان توسع سكان هذه المدن يرجع بالاساس الى عوامل الهجرة السكانية من الارياف الى المــدن[١٥] •

غير ان هناك عوامل اخرى تشترك في تضخم سكان هذه المدن كتوسع المدينة افقيا على حساب الاقاليم الريفية والزيادة الطبيعية لسكان المدن اى زيادة معدل الولادات على معدل الوفيات •

اســباب التصــنيع :ــ

ان العوامل التي تساعد على التصنيع وتضمن نجاحه وأستمراريته هي كثيرة ومعقدة اهمها توفر الايدي العاملة الفنية وغير الفنية ، توفر الاسواق التجارية الداخلية والخارجية التي تمتص البضائع المصنعة والجاهزة ، وجود المواد الاولية المحلية أو المستوردة من الخارج ، توفر رؤوس الاموال ومصادر الاستثمارات المالية ، وأخيرا وجود الخبرات العلمية والتكنولوجيــة التي تساعــد على بناء المشاريع الصناعية وتضمن تسخيرها في عمليات الانتــاج الصناعي •

اضافة الى توفر العوامل الاقتصادية والتكنولوجية يجب ان تتوفــر ايضا العوامل الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تساعــد عمليات التصنيع في وضع الاسس الايدولوجية والقيمية والسيكولوجية التي يحتاجها •

فالبيئة الطبيعية التي يخلقها التصنيع ويصب قالبهــا تحتاج الى قيــم ومقاييس ومعتقدات وأديولوجية جديدة تنسجم معها وتتفاعل مع ظروفها ، وأذا ما فشل المجتمع في تحضير مثل هذه القيم والمقاييس والمعتقدات التي تتلاءم مع الايكولوجية الصناعية فأن هــذا سيؤثر تأثيرا سلبيا على طبيعتهــا وسير عملها وفاعليتها بحيث لاتنجح عمليات التصنيع والانقلاب الصنــاعي في المجتمع •

اما العوامل التي ساعدت العراق في بدأ ثورته الصناعية والمضي قدمــا نحو المراحل الاولى للتصنيع فيمكن تقسيمها الى صنفين رئيسيين هما :ــ

١ ــ صنف العوامل الطبيعية والاقتصادية والمساعدة على التصنيع كتوفر المواد الاولية مثل البترول والكبريت وبقية المحاصيل الزراعية الداخلة في الصناعة ، وتوفر رؤوس الاموال الانتاجية والنقدية خصوصا بعد انتاج وتسويق كميات كبيرة من البترول الخام الى الدول الصناعية . اضافة الى توفر الاسواق التجارية المحلية والاجنبية لامتصاص البضائع الصناعية الجاهزة وتأمين المواد الاولية التي تحتاجها المصانع[١٦] .

واخيرا توفر ورخص الايدى العاملة وأمكانية استخدام العناصر الخبيرة والمتدربة على اصناف الخبرات العلمية والتكنولوجية .

٢ ــ صنف العوامل الحضارية غير المادية التي تنعكس في عامــل الهدوء والاستقرار السياسي وأستتباب الامن والنظام في الداخل خصوصــا بعد ثورة السابع عشر من تموز عام ١٩٦٨ .

وعامل رغبة الدولة وابناء الشعب على حد ســواء في تصـنيع القطر بأسرع وقت ممكن خصوصا بعد انتشــار الافكار والمفاهيــم الاشتراكية والتقدمية التي تحبذ قيام التصنيع وســيطرته على الحياة الاقتصادية والاجتماعية .

اما المفاهيم الاشتراكية التي تبناها المجتمع واعتمدتهــا الدولة في مسيرتها نحو تصنيع المجتمع فتهدف الى نقل ملكية وسائل الانتاج من القطاع الخاص الى القطاع الاشتراكي ، تطوير وتحــديث وســائل الانتاج في جميع القطاعات الاقتصادية ، محاربة الاحتكار والاستغلال الاقتصادي والاجتمــاعي في جميــع صوره وأشكاله ، تحقيق سياسة الاكتفاء الذاتي الاقتصادية من خلال تطبيق مبــدأ تقسيم العمل بعــد التعاون الاقتصادي مــع الاقطار العربية الاخرى او تحقيق الوحــدة الاقتصادية العربية[١٧] .

وبجانب العوامل السياسية هذه هناك العوامل الاجتماعية والقيمية المشجعة على التصنيع ، فأغلب ابناء الشعب يعتقدون بأن تصنيع البلاد هو علامة تشير الى التقدم والتطور في الميادين المادية وغير المادية وان العراق يجب ان يصنع نفسه ويقطع اشواطا كبيرة في عمليات التحول الصناعي لكي يلحق بركب الدول المتقدمة صناعيا وعلميا •

ومثل هذه المعتقدات والقيم التي يحملها الشعب تشجع حكومته على التعاون معه في سبيل المضي قدما نحو توفير مستلزمات الانقلاب الصناعي والتقدم الاقتصادى •

هذه هي العوامل العريضة والعامة التي مهدت لتصنيع العراق وتقدمه الاقتصادي •

وقد تكون هذه العوامل ذاتها او قسم منها مسؤولة عن نجاح عمليات التصنيع التي شهدتها المجتمعات الصناعية وتشهدها الان المجتمعات النامية التي في طريقها نحو التصنيع ، غير ان ظروف ومشاكل المجتمعات تختلف بعضها عن البعض الاخر ، وهذا ما يستوجب ظهور بعض العوامل الخاصة التي تمهد لقيام التصنيع فيها • فقد وجدت بعض العوامل والمسببات الخاصة التي ساعدت العراق في الانطلاق نحو التصنيع ومن هذه العوامل ما يلي :ـ

١ ـ تأسيس وزارة الاعمار في عام ١٩٥٠ التي تولت مهام كثيرة منها تصميم وتنفيذ المشاريع الصناعية الحديثة وتهيئة المشاريع المساعدة لبناء القاعدة الصناعية التي يحتاجها تصنيع القطر كتأسيس الطرق والجسور والقنوات بناء السدود المولدة للطاقة الكهربائية ، تطوير طرق المواصلات بأنواعها المختلفة وانشاء المصارف والمؤسسات المالية وشركات التأمين(١٨) •

٢ ـ زيادة مدخولات البترول المصدر للخارج ساعدت القطر في الحصول على الأموال الكافية لشراء المصانع والمكائن والمواد الاولية واستخدام الايدي العاملة على اختلاف انواعها ودرجاتها • كما ان البترول المستخرج من باطن الارض بكميات كبيرة ساعد على توليد الطاقة المحركة للمصانع والمؤسسات الانتاجية الوطنية •

٣ ـ المنافسة السريعة والحادة بين القطاعين العام والخاص في تأسيس المشاريع الصناعية المختلفة الحجوم مكنت القطر من انتاج مختلف البضائع الصناعية التي كانت سابقا تستورد من الخارج • فقد اصبحت الان مصانع السمنت والنسيج والسكر والصابون والخشب والمعادن والطابوق والورق والجلود والمطاط والعقاقير الطبية تسد اكثر من نصف احتياجات الاسواق المحلية •

٤ ـ توفر نسبة كبيرة من الايدي العاملة الخبيرة والفنية خصوصا بعد رجوع عدد كبير من طلبة البعثات الذين ارسلتهم الدولة الى دول اوربا للتدريب والتخصص في مختلف المواضيع الهندسية والفنية والتكنولوجية الى الوطن وبعد قيام الدولة بالاستعانة بالخبراء الاجانب في حقول الصناعة والهندسة والزراعة والطب والتكنولوجيا •

٥ ـ ادخال برامج الخطط الخمسية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية التي شاركت مشاركة فعالة في بناء القاعدة الصناعية للعراق • وقد خصصت الاموال الطائلة لتنفيذ هذه الخطط علما بأن اغلبها كان يستهدف انشاء المشاريع الصناعية الانتاجية التي يحتاجها القطر في تقدمه الاقتصادي والمادي • وفي عام ١٩٧٥ استطاعت هذه الخطط انهاء الاعداد الكبيرة من المشاريع الصناعية ذات الطاقة الانتاجية الكبيرة في جميع ارجاء القطر • وتعمل الان هذه المشاريع بكامل طاقتها الانتاجية لسد حاجات القطر من البضائع الصناعية •

نتائج التصنيع :ــ

ان نتائج وانعكاسات التصنيع البعيدة والقصيرة الامد على المجتمع العراقي يمكن ان تقسم الى قسمين اساسيين هما النتائج الايجابية والنتائج السلبية •

بالنتائج الايجابية نعني الفوائد والارباح التي يجنيها الافراد والمجتمع من التحولات الاقتصادية والمادية التي تطرأ على المجتمع نتيجة تصنيعه •

فمن النتائج الايجابية المهمة لظاهرة التصنيع تحسن الوضع المعاشي والمادي للافراد ، اذ ان الانتاج الصناعي الذي يعتمد على الطرق العلمية والتكنولوجية الحديثة يسبب زيادة انتاجية العمل[١٩] • وزيادة انتاجية العمل تعني ارتفاع كمية العرض للسلع الصناعية ثم انخفاض اسعارها • ثم ان انخفاض اسعار السلع يساعد الطبقات العمالية وفئات الدخول المحدودة من الحصول عليها الامر الذي يقود الى رفاهيتها وتحسين احوالها المعاشية والاجتماعية • وارتفاع معدل دخل الفرد الواحد في العراق من ٦٠ دينار في عام ١٩٥٠ الى ٣٠٠ دينار في عام ١٩٧٥ هو مؤشر من مؤشرات التقدم الاقتصادي الذي احرزه القطر بعد استغلال ثرواته المعدنية والزراعية استغلالا علميا وتكنولوجيا •

وساعد التصنيع في تسريع عملية التحضر التي شهدها العراق منذ عام ١٩٥٠ والتحضر هو ظاهرة اجتماعية تنعكس في عملية الانتقال الجغرافي لسكان القرى والارياف من الاقاليم الريفية الى الاقاليم الحضرية خصوصا المدن الكبيرة بغية استغلال الفرص الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والصحية الموجودة هناك ثم الاستقرار والتطبع بالعادات والتقاليد والقيم والمقاييس وأسلوب الحياة لسكان المدن[٢٠] •

ومن الاسباب المهمة التي ساعدت سكان الارياف على الهجرة الى المدن توفر الاعمال الاقتصادية المربحة خصوصا بعد حاجتها الماسة للايدي العاملة وذلك لزيادة كمية الاعمال والمصالح فيها .

ولما هاجر سكان الارياف بأعداد كبيرة الى المدن لاشغال هذه الاعمال والمصالح تضخم سكان المدن الى درجة مخيفة ادت الى ظهور حالة عدم التوازن السكاني في المجتمع .

ومع هذا لم تخل الهجرة السكانية من الارياف الى المدن من بعض الفوائد التي ظهرت في قدرة المدينة على الحصول على الايدى العاملة التي احتاجتها مصانعها ومؤسساتها الوظيفية ، وفي استعمال هذه الايدى في بناء ضواحيها وتوسعها الافقي[٢١] .

كما ان تركز السكان في المدن ساعد على زيادة الطلب الفعال على البضائع والخدمات وهذا ما شجع رجال الصناعة والاعمال على توسع الطاقة الانتاجية لمؤسساتهم الصناعية او بناء المزيد منها لمقابلة حجم الطلب .

وجميع هذه الاجراءات طورت الاقتصاد القومي تطورا لم يشهده جتمع من قبل وسببت الرفاهية لمجموع السكان .

ومن الجدير بالاشارة هنا ان انتشار التصنيع واستمرار عمليات التحضر وسيطرتها على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للسكان قد سببت اختفاء الخط التقليدى الذى كان يفصل المدينة عن الريف خصوصا بعد توغل ضواحي المدن مسافات كبيرة داخل الارياف والتقاء ضواحي المدن الكبيرة واحتكاكها بالاخرى وظهور المدن الصغيرة هنا وهناك واختلاط سكان الارياف بسكان المدن .

ومما ساعد على تقليل الفوارق بين المدينة والريف قيام الدولة بأنتهاج سياسة نقل اماكن العمل الى العمال اى بناء وتشييد المصانع في الاماكن التي يزدحم فيها السكان ، ولما كان عدد كبير من السكان يزدحم في المناطق الريفية والقروية فأن الدولة قامت ببناء مشاريعها الصناعية هناك ٠

وهذا مادفع بعدد كبير من سكان المدن الى التوجه نحو الاقاليم الريفية للعمل فيها وساعد ايضا سكان الارياف على الدخول الى المصانع التي شيدت في مناطقهم(*) ٠ وهناك استطاع سكان المدن من الاختلاط والتمازج مع سكان الارياف بحيث تقلصت الفوارق الاقتصادية والاجتماعية والحضارية بينهم وأستطاع القطر ان يخفف من ظاهرة ازدحام السكان في المدن الى درجة معينة ٠

اذن التوسع الافقي للمدن اضافة الى ميل الحكومة في تشييد المصانع الحديثة في المناطق الريفية قد خفف من تفاقم مشكلة عدم التوازن السكاني وانقذ الريف من مشكلة الفقر والحرمان الاقتصادي ٠ غير ان سياسة تصنيع الريف التي انتهجتها الحكومة مؤخرا لم تطبق في الوقت الحاضر الا على اجزاء محدودة من العراق ، وبالمستقبل ربما سوف تطبق على اجزاء متعددة من القطر ٠

ومن الفوائد الاخرى للتصنيع زيادة حجم التجارة القومية والدولية(٣٢) ٠

ان خبرات المجتمعات الصناعية تشير الى ان تصنيعها ساعد على تضخم وارداتها للمواد الاولية التي تدخل في سلعها المصنعة ولما كانت هذه المجتمعات تستورد موادها الاولية من المجتمعات غير المصنعة (الدول النامية) فأن صادرات المجتمعات الاخيرة من المواد الاولية ازدادت زيادة مطردة وأرتفعت

(*) من اهم المصانع التي شيدت في الاقاليم الريفية من العراق والتي جلبت اليها بعض سكان المدن والارياف على حد سواء مصنع السمنت في الكوفة ومصنع الورق في العمارة ومصنع منسوجات الغزل والنسيج في دهوك ومصنع السجاد في الكوت ومصنع العقاقير الطبية في سامراء ومصنع النسيج في الاسكندرية ... الخ ٠

معــدلات مدخولاتهــا الســنوية • وعندما تزداد الموارد القومية للدول غير المصنعة نتيجة تصديرها لمواردها الاولية فأن قابلياتها على استيراد البضائــع الجاهزة من الدول الصناعية تأخذ بالزيادة •

وهنا يتضاعف حجم التجارة الدولية ويزداد نشــاطها •

ان تصنيع العراق سبب في تنشيط عمليات تجارته الداخلية والخارجية • فتكوين رؤوس الاموال الانتاجية (المصانع ، وسائل النقل والمواصــلات ، المواد الاولية) وخلق البضائع الصناعية الجاهزة يتطلب الحصول على المكائن والمعدات الانتاجية التي غالبا ما تســتورد من الخارج • كما ان البضائــع الصناعية الفائضة عن الحاجة المحلية يجب تصديرها الى الاماكن والاسواق التي تحتاجها في داخل وخارج القطر ، وهنا تظهر الحاجة للتفتيش عن الاسواق التجارية التي يكون بمقدورها امتصاص السلع الجاهزة •

لذا يسبب التصنيع زيادة عمليات التبادل التجاري بين العراق والدول الاجنبية الاخرى وهذا ما يؤثر تأثيرا ايجابيا في انتعاش التجارة الدولية •

وأخيرا استطاع العراق من خلال تصنيعه ونجاحه في بناء العديد من المشاريع الصــناعية الكبيرة من القضاء على الاحتكارات الامبرياليــة التي سيطرت على اقتصاده لفترة طويلة من الزمن حاولت خلالهــا عرقلة تصنيعه وتطور اقتصاده واستغلال خيراته وموارده الطبيعية بنفسه •

ان تصنيع العراق يعني قدرته على سد حاجاته بنفسه من البضــائع الصناعية التي يحتاجها ، خلق العمل وعرضه على السكان ، التوقف عن بيع المواد الاولية الى الدول الصناعية بأسعار واطئة وهذه المظاهر جميعها تتناقض مع المصالح الامبريالية وتتحدى نوايا ومخططات الشــركات الاحتكاريــة والاستغلالية[٣٣] • لهذا لم تستطع الشركات الرأسمالية الاحتكارية ومن ورائها الدول الاستعمارية بعد تصنيع العراق من شراء المواد الاولية بأسعار واطئــة وبيع منتجاتها الصناعية في الأسواق العراقية بالاسعار العالية التي فرضــتها على المستهلكين •

ومن هنا تتبلور الفوائد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يجلبها التصنيع للقطر •

ولكن في نفس الوقت يترك الانقلاب الصناعي والتحول الاقتصادى المعتمد على التصنيع آثاره السلبية في الافراد والجماعات والمجتمع • وفي هذا البحث سنشير الى بعض آثار التصنيع السلبية في البناء الاجتماعي والطبقي ، الاستقرار الاسرى والتوازن السكانى للمجتمع العراقي •

كما وضحنا سابقا بأن التصنيع دائما ما يقود الى التحضر ، والتحضر السريع لايخلو من الاضرار والسلبيات التي تؤثر في فاعلية وتطور المدينة والريف •

فالتحضر هو النقلة الجغرافية لقسم من سكان الارياف الى المدن وتكييف هؤلاء مع اسلوب الحياة وطراز المعيشة لابناء المدن •

لكن دافع الهجرة لسكان الارياف الى المدن هو دافع اقتصادى بالدرجة الاولى اذ يتجلى في رغبة سكان الارياف الهجرة الى المدينة لاستغلال فرص العمل الموجودة هناك •

الا ان هجرة السكان من الارياف الى المدن غالبا ما تسبب ظاهرة ازدحام السكان في المدن ، هذه الظاهرة التي تضر بالمصالح الاقتصادية والاجتماعية للقطر بالرغم من فوائدها القصيرة الامد •

فهجرة السكان من الارياف الى المدن تسبب قلة الايدى العاملة الزراعية التي تستطيع استغلال الارض وهذا ما يعرض الانتاج الزراعي الى الهبوط المستمر كما حدث في العراق خلال الفترة ١٩٦٠ ــ ١٩٧٤ عندما اضطر القطر الى استيراد المواد الغذائية التي يحتاجها السكان من الخارج ودفع قيمتها بالعملات الصعبة •

ومن جهة اخرى تسبب الهجرة السكانية من الارياف الى المدن ازدحام السكان في المدن ، هذه الظاهرة التي ينتج عنها عواقب اقتصادية واجتماعية خطيرة اهمها ارتفاع الاسعار وشحة المواد الاستهلاكية وظهور مشـــاكل الاسكان والمواصلات مع استفحال معضلة الاحياء المختلفة وما يصاحبها من ازمات اجتماعية واخلاقية لسكان المدن .

وتتعرض ايضا الخدمات الاجتماعية والثقافية والصحية والامنية في المدن الى التردي وعدم القابلية على تأدية واجباتها وأعمالها نتيجة زيادة الطلب عليها وعدم مقدرتها على التوسع السريع(٢٤) .

فمعظم هذه الخدمات صممت لمقابلة متطلبات نسبة معينة من الســـكان ولكن عندما تضاعف حجم سكان المدن نتيجة الهجرات السكانية من الارياف اصبحت غير قادرة على مقابلة الطلب عليها وهنا تعرضت كفاءتها وأمكانياتها الوظيفية الى الهبوط والضعف .

ويسبب التصنيع تعقد الاختلافات والفوارق الطبقية بين ابناء الشعب ويزيد من عدد المراكز والدرجات الاجتماعية المتباينة من ناحية الادوار التي تشغلها والامتيازات التي تستحقها .

فهنالك المدراء والموظفون ، المخترعون والمنفذون ، العمال واصـــحاب العمل ، الحاكمون والمحكومون ... الخ .

وهؤلاء يختلفون الواحد عن الاخر بواجباتهم واعمالهم ومقـــدار مدخولاتهم ودرجة قوتهم ونفوذهم الاجتماعي . غير ان الاختلافات والفوارق في الامتيازات المادية والاجتماعية التي يتمتعون بها غالبا ما تسبب ظهور الوعي الطبقي والتضارب في الاهداف والمصالح خصوصا اذا كان المجتمع بعيـــدا عن تطبيق الفلسفة الاشتراكية وهذا ما يقود الى اضطراب المجتمع وتعرضه الى التناقضات والانقسامات الفكرية والايديولوجية الخطيرة(٢٥) .

وتسبب زيادة عدد المهن والاختصاصات الوظيفية المختلفة التي يخلقها التصنيع انقسامات خطيرة بين الطبقة الاجتماعية الواحدة كتقسيم الطبقة المتوسطة الى ثلاث طبقات فرعية او تقسيم الطبقة العمالية الى ثلاث طبقات فرعية هي الطبقة العمالية العليا والطبقة العمالية المتوسطة والطبقة العمالية الواطئة •

وهذا ما يزيد حدة الاختلافات والتناقضات الفكرية بين الافراد والجماعات ويشق الوحدة الوطنية للمجتمع ويعرض افراده للانقسامات الجانبية التي لاتخدم مصلحة تحقيق اهدافه القومية والمصيرية •

وتظهر الاثار السلبية للتصنيع جلية في نظم العائلة والقرابة وذلك للفروق بين العوائل التقليدية (العوائل الممتدة) التي تتميز بتماسك علاقاتها العائلية والقرابية ووحدة اديولوجيتها والعوائل الصناعية (العوائل النووية) التي تتميز بتفكيك وضعف علاقات افرادها وتبعثر اديولوجيتهم •

فالتصنيع دائما ما يضعف العلاقات الاجتماعية والقرابية للعائلة ويعرضها الى الاضطراب وعدم الاستقرار حيث ان تيارات التصنيع تفقد العائلة علاقاتها المتماسكة مع اقاربها نتيجة انتقالها الجغرافي او المهني او الاجتماعي وتعرض اديولوجيتها الى الضعف وعدم التماسك وذلك لتعرض افرادها لعوامل بيئية واقتصادية وثقافية مختلفة[٢٦] •

وهذه العوامل مجتمعة تسبب ضعف علاقة افرادها الواحد بالاخر وضعف علاقتها بأقاربها خصوصا بعد تحولها من عائلة ممتدة الى عائلة نووية[٢٧] •

ولكن ضعف علاقات افراد العائلة وتعرض العائلة لتيار الصراعات الفكرية والاديولوجية لم تصب العائلة العراقية بقدر ما اصابت العوائل الاوربية التي تقطن البيئات الصناعية نظرا لعدم ترسيخ واستقرار التصنيع في المجتمع العراقي بقدر ترسيخه وأستقرار في المجتمعات الاوربية •

فالعلاقات الاجتماعية والقرابية بين افراد العوائل العمالية في العراق لاتزال قوية ومتماسكة ، وأنها لازالت مسيطرة على عدد كبير من العوائل المتوسطة بالرغم من مزاولة افرادها المهن والاعمال المختلفة وبالرغم من تباين خبراتهم وتجاربهم الثقافية والبيئية .

الا ان علاقات العائلة تتعرض للضعف والتفكك وتتناقض افكارها واديولوجيتها عندما ينتقل ابناؤها اجتماعيا الى الطبقات الاخرى كما في حالة انتقال بعض افراد العوائل العمالية الى الطبقة المتوسطة بعد انجازاتهم الاكاديمية او الاقتصادية او عندما ينتقل افرادها جغرافيا كما في حالة هجرة ابناء العوائل الفلاحية الى المدن لاستغلال فرص العمل الموجودة هناك .

اذن غالبا ما يسبب التصنيع للعائلة ضعف روابطها الاجتماعية والقرابية وتناقض اديولوجيتها وتغيير تركيبها ووظائفها وعدم استقرارها .

كما يترك التصنيع اثاره السلبية والمخربة في الجماعات التقليدية ذات العلاقات المتماسكة كالقرى والارياف والمجتمعات المحلية .

فقد تتغير قيم ومقاييس وممارسات الجماعات التقليدية من قيم ومقاييس وممارسات جماعية تعتمد على روح الالفة والمحبة والايثار والوداعة الى قيم ومقاييس وممارسات فردية تعتمد على المصالح الذاتية والتطلعات الانانية والرغبة الجامحة في الكسب المادي[٣٨] .

ويشاهد المرء بأن التصنيع سبب للمجتمعات المحلية في العراق ضعف ارادتها الطبيعية ، هذه الارادة التي لعبت الدور الكبير في وحدتها وتماسكها وتعاونها . وبعد ضعف الارادة الطبيعية ظهرت الارادة العقلانية التي اعتمدت على مبدأ التعاقد والتضامن الشخصي بين الافراد والمجتمعات لتحقيق طموحات ومطاليب الفرد في المجتمع .

وتظهر الارادة العقلانية المعتمدة على الروح التعاقدية جلية في البيئات والاقاليم الحضرية التي تتميز بعلاقاتها الاجتماعية الرسمية وبتغلب العقل والحكمة على سلوكية افرادها وتقدمها في المجالات العلمية والتكنولوجية وأعتمادها مبدأ تقسيم العمل والتخصص فيه[٣٩] .

ومن الجدير بالاشارة هنا ان التصنيع ساعد في تحول الحياة الاجتماعية للمجتمع العراقي من حياة ريفية تقليدية زراعية الى حياة تتميز بالطابع الحضري والصناعي والديمقراطي ٠

وخلال تحول المجتمع هذا ظهرت عدة مشاكل اجتماعيـــة وحضاريـــة نتيجة لعدم انسجام تقدم الحياة الاقتصادية مع الحياة المثالية للمجتمع وعـــدم مقدرة عدد كبير من ابنائه بتكييف ارائهم وقيمهم ومقاييسهم مـــع متطلبات وحاجات البيئة الاقتصادية المتغيرة ٠

ومشاكل التصنيع الاجتماعية والحضارية التي يمر فيها العراق نتيجـــة تحوله المادي والتكنولوجي من مرحلة الى مرحلة أخرى يفسرها البروفسور فيردنانز تونيز (Tonnies) تفسيرا منطقيا عندما يقول في كتابـــه المجتمع المحلي والمنظمة (Community & Association) تمر مدينتنا الصناعية (المجتمع البشري) من سيطرة وجبروت المجتمـــع المحلي (المجتمع الريفي) الذي يتميز بالارادة الطبيعية الى سيطرة وجبروت المنظمة (المجتمع الحضري) الذي يتميز بالارادة العقلانية ، وجميع مشاكلنا الحضارية التي نلمسها في الوقت الحاضر ترجع الى هذا التحول التأريخي[٣٠] ٠

وأخيرا لابد من دراسة العلاقة بين التصنيع وظهور المشاكل الاجتماعية في المجتمع ، فقد شهد العراق خلال المراحل الاولى من تصنيعه جملة مشاكل اجتماعية معقدة هددت رفاهية وطمأنينة الفرد والمجتمع ٠

ومن هذه المشاكل مشكلة ازدحام السكان في المدن ، جنوح الاحداث ، الجرائم ، تناول المسكرات ، الطلاق ، الانتحار ، عدم استقرار الاسرة ••• الخ٠ ولكل من هذه المشاكل اسبابها ونتائجها وعلاجها ٠ غير ان تشخيص اسـباب هذه المشاكل لايمكن ان يتم الا عن طريق اجراء البحوث الميدانية والنظريـــة التي تستهدف جمع الحقائق والمعلومات عن العوامل والمتغيرات التي تســبب نشوؤها وبلورتها ثم سيطرتها على البيئة الاجتماعية التي تتواجد فيها ٠

وتهتم معظم العلوم الاجتماعية بدراسة المشكلات الاجتماعية ، فالاقتصاديون والنفسيون والاجتماعيون يهتمون بدراسة البطالة والجريمة والبغاء والأحياء الاجتماعية المختلفة والطلاق وغيرها[٣١] .

ويعتبر علم الاجتماع من اهم العلوم التي تهتم بدراسة المشكلات الاجتماعيه سواء في الماضي حيث كان المشتغلون بعلم الاجتماع اسبق من غيرهم في الاهتمام بها او في الوقت الحاضر حيث تولي البحوث الاجتماعية اهتماما بالغا بدراسة المشكلات الاجتماعية في البيئات المختلفة وخاصة البيئات الحضرية منهـا .

وليس معنى ذلك ان علم الاجتماع هو علم المشكلات الاجتماعية كما يظن البعض احيانا ، ولكن عالم الاجتماع يتعرض لهذه المشكلات بأعتبارها من الظواهر الاجتماعية الوثيقة الصلة بالثقافة عامة والنظم الاجتماعية خاصة[٣٢] . فهدف علم الاجتماع ومنهجه يحتمان عليه ان يتجه في دراسة المشكلات الاجتماعية فيقوم بوصفها وتحليلها ودراسة اسبابها وعلاجها ونتائجها تماما كما يفعل العلم الفلكي او الكيميائي او الطبيعي في دراسته للظواهر الطبيعية التي يهتم بهـا .

وهناك تفسيرات مختلفة لظهور المشكلات الاجتماعية في المجتمع اهمها التفسير الاجتماعي والتفسير التأريخي والتفسير السيكولوجي . لكن التفسير التأريخي للمشكلة الاجتماعية سيفيدنا هنا في شرح طبيعة التحولات المادية والمثالية التي يشهدها المجتمع خلال فترة زمنية محددة ، هذه التحولات التي ينجم عنها ظهور مشاكل اجتماعية معقدة يجب دراستها وتشخيصها اولا ثم اتخاذ الاجراءات النظامية والعلمية لحلها والقضاء عليها ثانيا .

ينص التفسير التأريخي للمشكلة الاجتماعية بأن المجتمع الانساني هو كائن متغير وغير مستقر .

فهو قد يتغير من مجتمع رأسمالي الى مجتمع اشتراكي[٣٣] ، او يتغير من مجتمع عسكري الى مجتمع صناعي او يتغير من مجتمع ريفي الى مجتمع حضري[٣٤] .

وتغيير المجتمع يعني تحوله من الناحية الفكرية والمثالية اى تحول عاداته وتقاليده وقيمه ومقاييسه ، وتحوله من الناحية المادية والصناعية والتكنولوجية[٣٥] • ومثل هذا التحول في المجالين المثالي والمادى لابد ان يسبب مشاكل اجتماعية للمجتمع •

فعند تحول المجتمع من مجتمع بدائي بسيط الى مجتمع نام تظهر فيه مجموعة مشاكل اجتماعية تسمى بالافات الخمسة وهي الجهل والفقر والمرض والامية وأزدحام السكان في المدن •

وعند تحول المجتمع من مجتمع نام الى مجتمع متقدم تظهر فيه مجموعة اخرى من المشاكل الاجتماعية كالطلاق والانتحار والتحلل الاجتماعي والخلقي وجنوح الاحداث والبغاء والجريمة كالقتل والسرقة والاغتصاب والغش[٣٦] •

اذن كلما تقدم المجتمع من النواحي الصناعية والمادية والتكنولوجية كلما ازدادت وتعقدت فيه المشاكل الاجتماعية وكلما اصبح المجتمع بحاجة ماسة الى جهود جماعية ومنظمة للقضاء على مشاكله التي تتحدى كيانه ووجوده •

ان التغير الاجتماعي كما ذكرنا اعلاه هو تبدل المجتمع من النواحي المادية والعلمية والتكنولوجية وتبدله ايضا في النواحي المثالية والحضارية والفكرية ، لكن هناك حقيقة شاخصة تتعلق بطبيعة انماط هذا التغيير •

فتغير المجتمع ماديا يكون اسرع من تغيره فكريا وحضاريا ، اى ان المجتمع يتغير بسرعة في النواحي الاقتصادية والتكنولوجية ويتغير ببطء في النواحي الثقافية والفكرية[٣٧] •

وسرعة التغير المادى على التغير الفكرى تسبب مشاكل اجتماعية وحضارية كثيرة للمجتمع ، هذه المشاكل التي تعيق وتمنع تطوره وتقدمه في شتى المجالات والميادين الحياتية[٣٨] •

ففي حالة المجتمع العراقي مثلا استطاع هذا المجتمع احراز التقدم الكبير والسريع في النواحي الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية منذ عام ١٩٥٠ ، ولكنه لم يحرز نفس الدرجة من التقدم في النواحي الفكرية والاخلاقية والقيمية • فقد استطاع المجتمع بناء المصانع والمستشفيات والمدارس والكليات والجامعات ، واستعمال الاجهزة العلمية والمختبرية الحديثة ، التقدم في المجالات التخطيطية والادارية والاقتصادية ، الا انه لم يتقدم تقدما سريعا في المجالات المثالية والروحية والقيمية •

فلا تزال بعض الفئات والعناصر السكانية تتمسك بالعصبية القبلية وتعتقد باستعمال اسلوب الواسطات في حسم وانهاء القضايا والامور الشخصية ، ولاتقدم الاحترام الكافي للعامل والفلاح والكاسب ولا تحترم المرأة ولا تعتقد بأهمية مساواتها مع الرجل •

علما بأن حكومة الثورة في العراق بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي حققت منذ عام ١٩٦٨ مكاسب وانتصارات كثيرة للطبقة العمالية الكادحة وللمرأة العراقية من اجل القضاء على السلبيات والامراض الاجتماعية التي ورثها المجتمع من العهود الاستعمارية والرجعية والديكتاتورية التي مر بها •

ومع هذا لاتزال الرواسب والمخلفات التأريخية للامراض الاجتماعية والحضارية باقية اذ يستغرق اختفاؤها وزوالها وقتا طويلا[٣٩] •

وأمور اجتماعية وحضارية معقدة كهذه لابد ان تؤثر تأثيرا سلبيا في مسيرة المجتمع وتقدمه الاقتصادي والتكنولوجي والحضاري وتضع امامه شتى انواع المصاعب والاخطار والتحديات[٤٠] •

لكن جهود السلطة الثورية في العراق التي تبذلها في شتى المجالات والميادين المادية وغير المادية ستمحي هذه السلبيات والمعوقات عاجلا ام اجلا •

الا اننا نستطيع القول في هـذا البحث بأن المجتمع العراقي يستطيع احراز التقدم في شتى المجالات الحضارية والمادية والتكنولوجية فيما اذا نجح في تغيير قيمه وممارساته الضيقة والمتحيزة والرجعية خصوصا ما يتعلق منها بالمشكلات الانسانية والحضارية التي تجابه المجتمع في الوقت الحاضر • كما ينبغي على المجتمع العراقي تشريع المزيد من القوانين الاجتماعية الجديدة التي تتلاءم مع روح العصر وروح الثورة والتحول الاجتماعي ومـع ايديولوجية حزب البعث العربي الاشتراكي المتمثلة بأهداف الوحدة والحرية والاشتراكية •

وهذه القوانين والتشريعات ينبغي ان تعالج المسائل الجوهرية التالية :ـ

التخلص من اسلوب الواسـطات •

منح المرأة حقوقهـا كاملة •

احترام الطبقـة الكادحـة •

القضاء على الاقليمية والتعصب بجميع اشكاله ومظاهره •

قبول وأعتماد مظاهر التقـدم والتحضـر والتصنيع والتحديث الشامل ••• الخ •

وتشريعات كهذه لابد ان تغير القيم والمقاييس الاجتماعية والحضارية عند الافراد على اختلاف خلفياتهم الاجتماعية والطبقية •

ونشر القيم والممارسات الانسانية والاشتراكية وترسـيخها في نفوس الافراد لابد ان يعجل عملية تغيير العامل الفكري والقيمي في المجتمع بحيث يصبح تقدمه منسجما مع تقدم العامل المادي والتكنولوجي ، وهنا يسـتطيع المجتمع العراقي التخلص من الهوة او الفجوة الحضارية (Cultural Gap) بين التقدم المادي والتكنولوجي والتقدم المثالي والقيمي •

هذه الفجوة التي يمكن ان تكون مسـؤولة عن معظـم المشـكلات الانسانية والحضارية التي تجابه المجتمعات النامية في الوقت الحاضر بضمنها العـراق •

نشوء واثر الطبقة الوسطى في عملية البناء السياسي للمجتمع العراقي

الدكتور صبيح عبدالمنعم احمد
قسم الاجتماع
كلية الآداب ــ جامعة بغداد

مفهوم الطبقة الاجتماعية :

لقد اختلف الباحثون والمشتغلون في ميادين العلوم الاجتماعية بدراستهم لظاهرة الطبقة الاجتماعية في المجتمع • ويرجع السبب الى طبيعة الدراسات النظرية والميدانية التي اجراها الكتاب بخصوص هذه الظاهرة ، والمدارس الفكرية التي ينتمون اليهـا • فلقد ذهب كل واحد منهم في تفسيرها بطريقـة تكاد تختلف عن الاخرين او قد تلتقي هذه الدراسات في بعض الاحيان في بعض التفسيرات لها • ولاجل توضيح هذه الاختلافات بين الباحثين لمفهوم الطبقة نود ان نشير الى ابرزها وخاصة الاجتماعيون منهم ، لان الطبقة ظاهرة تعلق فيها المصلحون الاجتماعيون ، والسياسيون والاقتصاديون وغيرهم قديما وحديثا • فلها دور مهم ــ في معظم المجتمعات في عملية التحول والبنـاء للمجتمع من حيث مساهمتها في هذه العملية بصورة مباشرة او غير مباشرة • والمجتمع العراقي كغيره من المجتمعات الاخرى ضم قديما ويضم حديثا فئات وشرائح اجتماعية مختلفة لعبت ادوارا ، ومارست وظائف مختلفة عبر تاريخه الاجتماعي وحتى ثورة ١٧ــ٣٠ تموز سنة ١٩٦٨ التي قادها حزب البعث العربي الاشتراكي • وسوف لن نتطرق الى مـا بعد هذه الفترة لان المجتمع

العراقي يمر بمرحلة تكاد تختلف عن بقية المراحل التاريخية السابقة من حيث ان لحزب البعث العربي الاشتراكي نظرية خاصة في البناء والتحول الاجتماعي وخاصه في معالجته للطبقات وقد بدأ الحزب يطبق نظريته منذ تسلمه السلطة والى الوقت الحاضر •

لقد درج قسم كبير من الكتاب في تقسيم المجتمع الى ثلاث طبقات رئيسية ،وهي الطبقة الغنية جدا ، والطبقة الفقيرة جدا ، والطبقة الوسطى التي تحتل مكانا بينهما •[1] اما البعض الاخر فحاول ان يقسم المجتمع الى طبقات فرعية اخرى بالاضافة الى هذه التقسيمات كالطبقة دون العليا وفوق الوسطى ودون الوسطى وفوق الدنيا وذلك كل حسب اجتهاده • وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر هذه بين جمهرة الكتاب في التقسيم الطبقي الا اننا نجد في البحوث التي اجراها علماء الاجتماع شبه اجماع بينهم على وجود ثلاث طبقات رئيسية في المجتمعات وخاصة المعاصرة منها والتي انصبت معظم بحوثهم عليها وهذه هي : الطبقة العليا ، والوسطى ، والدنيا ، ولو انهم اختلفوا في تحديد طبيعة هذه التقسيمات • ان هذا الاختلاف بينهم قد لا يشكل خطورة بقدر الخطورة المتعلقة باختلافهم حول مفهوم الطبقة نفسها ومحاولة تحديده لاجل ان لا يلتبس مع المفاهيم الاخرى التي قد تقترب منه • فهناك مصطلحات تداخلت معه كالمنزلة الاجتماعيه Social Status والمكانة الاجتماعية Social Rank والطائفة Caste ،والفصيلة Category والطبقية الاجتماعية Social Stratification الى غير

---

(1) (Aristeotle, Theories of class structure: A classical view), (1974) ed., Bendix, Reinhard & Lipset, Seymour Martin., in class status and power., Routledge & Kegan Paul., London., p. 1.

ذلك من المفاهيم الاخرى • ان الطبقة تشير الى الافراد الذين يربطهم اطار مجتمع أو مجتمع محلي ولديهم نفس القوة power والدخل والثروة والهيبة Prestige •[1] فالبحث في مضمون الطبقة يتعلق بصورة جوهريه بطبيعة الاختلافات الاجتماعية للجماعات • فقد تميزت المجتمعات في العصور القديمة باختلافات الافراد فيما بينهم في المنزلة والمكانة كما وارتبطت العضوية بالجماعة والمجتمع في الامتيازات التي يحصل عليها الافراد في ضوء القانون العام Public Law والخاص Private Law[2] • فالمجتمعات البشرية عبر تاريخها اعطت امتيازات معينة لفئات اجتماعية خاصة دون اخرى وذلك لطبيعة الادوار التي احتلتها هذه الطبقات والوظائف التي مارستها داخل المجتمع • لذا نستطيع القول ان لكل طبقة اجتماعية وفي كل مرحلة زمنية كان للطبقة دور ووظيفة تؤديها بصرف النظر عن الامتيازات التي تتمتع بها •

فالطبقة تعني بصورة عامة جماعة من الناس لها مميزات خاصه ومشتركه[3] تختلف عن بقية الفئات الاجتماعية الاخرى في المجتمع • وينطبق هذا المفهوم ايضا على الوضعيات المتدرجة في النظام الاجتماعي Social Order والتوزيعات المختلفة للمنزلة التي بدورها تعتمد على الوضعيات الاجتماعيه كما وينطوي مفهوم الطبقة الاجتماعية ايضا على النقلة الاجتماعية من الاعلى

---

(1) Gould, Julins & Kolb, William L., (1964) A dictionary of the Social Sciences, The Free-Press, N. Y., p. 643.

(2) Seligman, Edwin R. A. & Johnson, Alven (1959) Encyclopaedia of the social sciences, The Macmillan Company, N. Y., pj. 531-532.

(3) Ibid., p. 532.

الى الاسفل او العكس[1] • وهذا بعكس الطائفة التي تمتاز بالجمود وصعوبة نقلة الافراد من وضع الى اخر او تغيير مكاناتهم الاجتماعية فيها • فالطبقة ظاهرة اجتماعية لها شخصية اجتماعية Social Entity مميزة يمكن ملاحظتها في المجتمع ، كما ولها تركيب اجتماعي عضوي Social Organism ومستوى معاشي معين ، وتمثيل فعلي داخل المجتمع • وقد يعاني افرادها نتيجة لوضعهم الطبقي وبنفس الوقت هم بحاجة الى فهم[2] من قبل الاخرين • وبعبارة اخرى ان الطبقة الاجتماعية ما هي الا جزءا مميزا من المجتمع بواسطة المكانه[3] والمنزلة والهيبة التي يمتلكها الافراد داخل المجتمع والامتيازات التي يحصلون عليها بالمقارنة مع بقية الفئات الاجتماعية الاخرى •

وغني عن البيان ان الكتاب النظريين بصورة خاصة قد اختلفوا في وجهات نظرهم حول مفهوم الطبقة الاجتماعية وذلك بسبب اختلاف بناءها عبر العصور التاريخية • فالتحولات التي مرت بها الطبقة تاريخيا كانت ذات طبائع خاصة ومختلفة[4] قد تتباين عن المرحلة التي بعدها او المرحلة التي قبلها • فكل باحث حاول التركيز على عامل معين واجتهد بطريقته الخاصة على بناء ايديولوجية او تفكير خاص للبرهنة عليه دون العامل الاخر ، او التاكيد عليه في فترة زمنية معينة دون الاخرى لذا فان معظم هذه البحوث جاءت قاصرة في بعض الاحيان في تفسير هذه الظاهرة الاجتماعية فهي ــ تمتاز بالنظرة الشمولية والعمومية •

---

1) Coser, Lewis A. & Rosenberg, Bernard, (1966) Sociological Theory; A book of readings; Second edition, The MacMillan Company, N. Y.

2) (Shmpter, J., The problem of classes) in Bendix, Reinhard & Lipst, Symour Martin, (1974), Op. Cit., p. 42.

3) Cuber, John F. (1951) Sociology, Second edition, The MacMillan Company, N. Y. p. 409.

4) Seligman, Edwin R. A. & Johnson, Alven, (1959) Op. Cit. p. 532.

ان الباحث في موضوع الطبقة لايستطيع ان يهمل الكتابات التي جاء بها كارل ماركس Karl Marx بالنظر لاهميتها وقيمتها العلمية التي انتشرت في اوساط علمية واسعة ، وراجت في فترات زمنية مختلفة . اضافة الى ان اراءه في الطبقة اتخذها بعض الكتاب ـ ممن تاثروا بالمذهب الماركسي اساسا لتفسير التحولات التي تصيب المجتمع . ان كارل ماركس حاول ان يبني نظرينه على التغير التاريخي للمجتمعات ، مستوحيا اراءه من هيجل Hegel وريكاردو Ricardo بالدرجة الاولى[1] . وهذه المراحل على حد رايه ذات طبيعة تطورية تبدأ بالحضارات القديمة Ancient Civilization ثم النظام الاقطاعي Feudalism ،ومن ثم النظام الراسمالي Capitalism ولقد تميزت كل مرحلة من هذه المراحل بسيادة نمط معين من الانتاج يعتمد على بناء طبقي يتضمن الطبقة الحاكمة ، والطبقة المضطهدة . والصراع الطبقي بين هاتين الطبقتين يعتمد على العلاقة بينهما من حيث سيطرة الطبقة الحاكمة على وسائل الانتاج ،ويرى ان القانون والحكومة ، والفن ، والادب ، والعلم ، والفلسفة، كلها في خدمة الطبقة الحاكمة .[2]

ان ماركس يرى ان الطبقة اي حشد من الناس يقومون بوظيفة واحدة في العملية الانتاجية . فهناك جماعة مسيطرة وجماعة مسيطر عليها وتتميز كل طبقة عن غيرها باختلاف وضعها الاقتصادي وكلما كان الفرق شاسعا بين هاتين الطبقتين كلما اشتد الصراع الطبقي بينهما .

---

(١) Kahl, Joseph A., (1967) The American class structure, Holt, Reinhart and Winston, N. Y. p. 2.

(٢) (Bendex & Lipset, Karl Marx's theory of social classes), in Bendix, Reinhard & Lipset, Symour Martin (1974), Op. Cit., p. 6.

اما ماكس ڤيبر Max Weber فهو الاخر الذي خصص من حياته الى دراسة البحوث التاريخية في السنوات الاولى للقرن العشرين مركزا على العامل الايديولوجي ، والبناء الاجتماعي ، والعمليات الاجتماعية ، وحاول ان يعمل تمييزا حاسما بين الطبقة والمكانة والحزب[١] ، وسعى الى بناء نظرية لفهم ودراسة الطبقة الاجتماعية . فقد اعتبر ماكس ڤيبر Max Weber الطبقة الاجتماعية جماعة من الناس متشابهه في مصادر الدخل ، ويرى ايضا ان الاتجاه الاقتصادي Economic Interests له تأثير كبير على خلق اتجاه ايديولوجي مشترك بين الجماعة ، بالاضافة الى زيادة الشعور بالتماسك بين افرادها[٢] .

فالطبقة من وجهة نظره هي ليست مجتمع محلي وانما تعتمد على فعل مشترك Communal Action وهذا الوضع الطبقي يستند على خصائص رئيسية وهي

١ ـ مجموعة من السكان لهم خصائص متميزة ومشتركه تؤلف حياتهم .

٢ ـ ان هذه الخصائص والميزات المشتركة في الاعم الاغلب تتمثل في طموحاتهم الاقتصادية .

٣ ـ كما وان هذه الخصائص التي يشتركون بها تعتمد على اوضاع حاجة سوق العمل[٣] .

فالطبقة عند ماكس ڤيبر Max Weber جماعه من الناس يشاركون في حياة متشابهه ينظر اليها من وجهة نظر السوق[٤] . اما التقسيم الطبقي فقد

---

(١) Joseph A. (1967), Op. Cit., p. 56.

(٢) Seligman, Edwen R. A & Johnson, Alven (1959), Op. Cit., p. 532.

(٣) (Weber, Max, Class, Status and party) in Bendix & Lipset, Op. Cit., p. 6.

(٤) Kahl, Joseph A., Op. Cit., p. 6.

يعتمد على ثلاثة خصائص مهمة ورئيسية وهي الثروة Wealth ، والهيبة Prestige ، والقوة Power .[1]

ومما لاشك فيه ان ماكس فيبر قد اكد على الجانب الاقتصادي كثيرا في دراسته للطبقة ، واعتبره مهما لانه يخلق اتجاهات فكرية بين الجماعة كما وله قوة داخل المجتمع وقدرة على خلق روح التماسك بين افراد الجماعة فالطبقة تعني اي جماعة من الاشخاص يشغلون نفس المكانة الطبقية Class status وان ما يميز الطبقة عن المكانة الطبقية هو الاختلاف او التشابه في الوضعية التي يحصل عليها الافراد من خلال الاتجاهات التي يشاركون فيهـــا .[2]

من هذاالعرض السريع لبعض الاراء الاجتماعية لمفهوم الطبقة الاجتماعية نجد ان هناك اختلافا واضحاً وفي بعض الاحيان كبيرا بين الباحثين .

وهناك بحوث كثيرة ومختلفة نظرية وتطبيقية ، ركزت اهتماماتها حول الطبقة ، وقد استخدم اصحابها متغيرات متنوعة لاجل فهم وقياس الطبقة الاجتماعية .فمن هذه البحوث من اعتمدت على الهيبة الشخصية Personal Prestige كمقياس للطبقة في المجتمع وخاصة المجتمعات المحلية او الصغيرة على اساس ان لها علاقة فيتوجيه سلوك الافراد . ويرى البعض الاخر من الباحثين ان الحرفة Occupation هي الاساس المهم في البناء الطبقي فالناس ينظرون الى بعض الحرف بطريقة اعلى من بقية الحرف الاخرى ، وقد

---

(١) Goldthorpe, J. E., (1974) An Introduction to sociology, Second edition, Cambridge University Press London, p. 133.

(٢) Weber, Max, (1947), The theory of social and economic organization, The Free Press., N. Y. p. 424.

تكون اهم من غيرها بالاضافة الى ان المجتمع في كثير من الاحيان يضفي هيبة الى مهنة معينة دون اخرى ، وذهب الفريق الاخر ينظر الـــى الحيازة possession وما يمتلكه الفرد عامل مهم في فهم وتفسير البنيـان الطبقي اما القسم الأخر فقد وجد في درجة الشعور الطبقي degree of class consiousness ودرجة الانتماء اساسا مهما في فهم الطبقة[1] .

ان هذا الاختلاف بين وجهات نظر الباحثين في موضوع الطبقة ربما يرجع الى طبيعة المجتمعات التي تناولوها في دراساتهم او الى تباين المـراحل الزمنية التي درسوا فيها هذه الظاهرة اضافة الى تعدد المدارس الفكرية التي ينتمي اليها هؤلاء الباحثون ، واهداف دراساتهم التي وضعوها من حيث توجيهها او دعمها لمدرسة معينة دون اخرى .

ان الظواهر الاجتماعية تتمتع بالنسبية المكانية والزمانية ، والطبقيـــة لاتستثنى من هذا المعيار ، فهي ظاهرة لازمت المجتمعات البشرية في جميع المراحل التطورية لتاريخها ، والمجتمع العراقي كبقية المجتمعات الاخـرى لايخلو من التفاوت الاجتماعي بين الجماعات الاجتماعية التي يضمها اي مجتمع قديما وحديثا . لذا فان الاعتماد على مدرسة دون اخرى او تفسير الطبقة بعامل دون الرجوع الى العوامل الاخرى قد لاينسجم مع الموضوعية العلمية المتوخاة من الباحث أن الطبقة الاجتماعية في المجتمع العراقي تأثرت وتتأثـر في وقتنا الحاضر بعوامل متعددة تكمن في بنية المجتمع ومرتبطة بالبنيـــان السياسي والايديولوجيات المختلفة التي توجهها او لها تاثير كبير في عملية التغير ككل .

---

(1) Kahl, Joseph A. Op. Cit., pp. 8-9.

ان دراستنا هذه اتخذت من الطبقة الوسطى موضوعا للبحث والاستقصاء على اعتبارها شريحة مهمة في المجتمع لعبت دورا كبيرا في عمليـــة التغيير الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للمجتمع وقد لايختلف دورها عن بقية الطبقات الاخرى التي لها دور مهم واهم في بعض الاحيان من هذه الطبقة • ولكن اردنا في هذا البحث ان نعرف القاري بالدور المهم الذي لعبته هذه الطبقة في مسيرة المجتمع التاريخية • ان المجتمع العراقي ذو طابع ثقافي يختلف عن بقية المجتمعات الاخرى فالبداوة وتأثيرها على المجتمع ، والثقافة الجديدة وانتشار التعليم وزيادة التحضر ، وزيادة شدة الاتصال الثقافي ، وتنوع وسائل الاتصال وانتشارها في المجتمع كلها لعبت دورا مهما في تطور حياة المجتمع العراقي •

ماهية الطبقة الوسطى :

على الرغم من اختلاف وجهات نظر الكتاب في اعطاء مفهـــوم محـــدد للطبقة الوسطى middle class الا اننا نجد بعض التعاريف التي تعتبر اكثر قبولا لدى الباحثين • فقد تعني الطبقة الوسطى جماعة من الناس تتشابه من الناحية الاجتماعية والاقتصادية التي يمكن ان تميزها عن بقية الشرائح الاجتماعية الاخرى وتعتمد بالدرجة الاولى على الحرفة occupation والمكانة status ، وهذه الطبقة تضم الجماعات المهنية والادارية والفئات الاخرى التي تعتمد على رواتبها في معيشتها •[1] ان المجتمع عندما يضم الطبقة الوسطى من المواطنين فهو عملية طبيعية لنسيج الدولة وقد تحس هذه الطبقة بالطمأنينة في وجود الدولة • والاعتقاد السائد ان وظيفة هذه الطبقة هي باستطاعتهـــا

(1) Huther, Patrick (1976), The Decline and Fall of the Middle Class and how it can fight back, Associated Business programms, London, p. 3.

ان تمنع أي طبقة من الطبقات الاخرى من السيطرة على المجتمع[1] • وعلى هذا الاساس فقد ينظر البعض الى ان هذه الطبقة هي توفيقية وانتهازية لانها تحاول ان توفق بين مصالحها ومصالح الطبقة الحاكمة •

كما وان كارل ماركس يعتقد ان الطبقة الوسطى تحاول ان تلقي ثقلها على الطبقةالعاملة في الوقت الذي تدعم فيه امن الطبقة العليا وقوتها[2] • بهذا فان هذه الطبقة لايمكن ان تعطي الثقة الكاملة لانها لاتريد الا ان تدعم مصالحها وتثبت اركانها داخل المجتمع ولايمكن الاعتماد عليها في كفاحها بجانب الطبقة المحرومة •والاكثر من ذلك ان هذه الفئة من السكان تسعى في الوصول الى مراكز القوى واشغال المواقع العليا لمراكز القوى بعد تقويض الطبقة الحاكمة وتثبيت مصالحها في المجتمع •

ان بحثنا هذا يهدف الى اظهار دور شريحة واحدة من الطبقة الوسطى الا وهي الطبقة المهنية Professional class التي اعتاد بعض الباحثين اطلاق لفظ الطبقة الوسطى عليها • فقد نعني بهذه الفئة الجماعة التي ينضوي تحتها فروع التعليم المختلفة من الحرفيين الذين تميزوا بخصائص معينة[3] جعلتهم يختلفون عن بقية الفئات الاجتماعية الاخرى في المجتمع • فالمتتبع لتاريخ الفكر الاجتماعي يجد ان علماء الاجتماع لم يحاولوا ان يغطوا في دراساتهم كل المهن professions بالرغم من ان البعض منهم حاول ان يدرسها من زاوية معينة قد تختلف عن الاخرين وخاصة الدور الذي لعبته في عملية التحول

---

(1) (Aristoile, Theories of class structure; A classical view) (1974) op. cit., p. 1.

(2) بوتومور ، تمهيد في علم الاجتماع ، ترجمة د. محمد الجوهري واخرون دار الكتب الجامعية الاسكندرية ١٩٧٢ ، صفحة ٣١٦ .

(3) Ben-David, Joseph, (1964) Professions in the class system of present day socities, Current sociology, (1963-64), p. 247.

الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.وفي هذا المجال نود ان نشير الى الدراسة التي قام بها ماكس فيبر التي تناولت وظائف وشرعية المهن ، والبحوث التي قام بها ماركيز Marquis وكذلك شابمان Chapman والتي تركزت على الاصل الاجتماعي لمالكي واداري صناعة القطن في انكلترا[1] . الى غير ذلك من البحوث الاخرى التي اجريت حول هذه الفئة الاجتماعية .

ولقد اعتقد مارشال Marshall بان المهن تشكل طبقة متميزة في المجتمع واطلق عليها الطبقة المهنية التي تميزت بطموحات جديدة تختلف عن الفئات الاجتماعية الاخرى من حيث انها تفردت في اعتمادها على الكفاءة الاجتماعية Social efficiency واصبح في استطاعتها ان تجد الحلول للمشكلات التي يعاني منها افراد المجتمع[2] . اما كارل مانهايم Karl Manheim فقد حدد مفهوم هذه الطبقة بالمجموعة التي تشكل جماعة مميزة في البناء الطبقي . لها خصائصها التي جعلتها تختلف عن الطبقات الاخرى .

هذا واشار بعض العلماء بصورة مسهبة في مجالات بحوثهم الى الطبقة المهنية مثل « ميد » G. H. Mead وميرتن Metron واضرابهم من علماء الاجتماع . واول دراسة منهجية اجريت في هذا الميدان هي دراسة كارسندرز Carr-saunders ودراسة « ولسن » Wilson وكذلك فلكسنر Flexner ،[3] حيث حاولوا في بحوثهم هذه دراسة المهن في اطار نظري وابراز دورها في حركة المجتمع .

---

(١) Ibid., p. 247.

(٢) Ibid., p. 248.

(٣) Ibid., p. 249.

فالبحوث التي قام بها علماء الاجتماع للمهن كانت بصورة او باخرى قد عالجت هذه الفئة من ناحية ان الافراد او الجماعات الذين يؤدون مهنة معينة يشتركون بخصائص ويدخلون في روابط متميزة اذا ماقورنوا بالفئات الاجتماعية الاخرى ، وان المؤشر لوجود هذا الوضع الطبقي هو المشاركة الفعلية بين الافراد من خلال التعبير عن المساواة وبالتعالي ، ومما تجدر الاشارة اليه ان هذا المفهوم ينسجم مع ماجاء به « مارشال » حيث نظر الى الطبقة بانها طريقة الافراد الذين يعاملون بواسطتها اتباعهم وبالمقابل الطريقة التي يعاملونهم بها[1] ، فعلى هذا الاساس يجوز لنا استخدام الطبقة المهنية بدلا من استعمالنا لاصطلاح الطبقة الوسطى ، وتعتبر هذه الفئة الاجتماعية الشريحة المهمة من الطبقة الوسطى لانها اعتمدت العلم والمعرفة والمهارة والكفاءة اساسا لبناءها.
ان تركيزنا على هذه الفئة جاء من اعتقادنا في ان نمو المهن في المجتمع العراقي ادى الى نشوء الطبقة الوسطى التي لعبت دورا مهما في عملية التحول الاجتماعي والسياسي والاقتصادي عبر تاريخه القديم والحديث ، وامتد هذا النمو الى تغيير النظام الحرفي Occupational system نفسه حيث نشأت مهن جديدة وبنفس الوقت اضمحل دور بعض المهن الاخرى ، اضافة الى بروز تفكير جديد بين الجماعة التي تنضوي تحت مهنة واحدة ويعتقد « بارسنز Parsons » بان المهني هو شخص لا راسمالي ولا عامل ولا هو كليا موظف حكومي او اداري او عضو في الجهاز الاداري وانما[2] هو شخص يتمتع بنوع من الاستقلال الجزئي او الكلي وتعتمد درجة الاستقلال هذه على طبيعة التدريب والتلقين التي حصل عليها من خلال العملية التربوية لهذا السبب يستطيع المهني التعبير عن رايه وممارسة النشاط على اختلاف وجوهه اكثر من غيره في المجتمع .

---

(1) Ibid., p. 250.

(2) Barber, Bernard, (1957), Social Stratification: A Comparative analysis of structure and process, Harcourt, Brace and world., N. Y. p. 121.

ان تأكيدنا على دور هذه الطبقة في عمليات التغير التي شهدها المجتمع العراقي جاء من اعتقادنا في أن المهنيين لهم عقائد وقيم وتقاليد ومعايير سلوكية ، وتعبيرات عاطفية في بعض الاحيان .(١) لايشترك معهم غيرهم من السكان بنفس الدرجة لان هذه المميزات استندت على اسس تكمن في خاصية هذه الجماعة وتبلورت نتيجة مرورهم بوضعيات وعمليات اجتماعية مختلفة انفردت بها هذه المجموعة او تلك ، ونتيجة لعملية التنشئة هذه خلقت منهم فئة مميزة في المجتمع . كما وان طبيعة التدريب والتعليم لهذه الفصيلة اوجد نمطا معينا من العلاقات الاجتماعية المتماسكة بين افرادها ، كما واعطاها سلطة وقوة لدخول النظام الاجتماعي Social order (٢) فالمهن بطبيعتها ترغب من ممارسة سلطة مهنية مستندة على اسس تكنيكية من اجل تأكيد هويتها وايجاد مستوى معين من التدريب لها لخلق الثقة بها واضفاء صفة التفرد والاصالة عليها ، وهذا واضح في بناء موديلات الى التمهن ومحاولة تطبيعها في وجهة نظر العوام والجماعة(٣) ، بغية اعطاء تصورات جيدة وانطباعات خاصة لاجل تثبيت مركزها في المجتمع .

ولقد اثبتت البحوث الاجتماعية ان المجتمعات البشرية تتغير وتتطور وان تفاوتت سرعة عملية التحول من حيث تأثرها بعوامل مختلفة ، فقد يسرع جزء في عملية التغير دون الاخر ويترك الاجزاء الاخرى الى جانبه ، الا ان العملية هذه موجودة في طبيعة تكوين المجتمع . وعلى العموم ان البناء

---

(١) Parsons, T., (1968) Profession, I. E. S. S., Free Press, Vol. 2. N. Y. p. 536.

(٢) (Bendix & Lipset, Vertical Mobility) (1974) ed. Bendix & Lipset., Op. Cit., p. 562.

(٣) Ibid., p. 563.

الاجتماعي يتعرض الى الخلخلة حيث تسرع بعض اقسامة في عملية التغير اكثر من غيرها ولو ان المجتمع يحاول توزيع اعضائه في مواقع اجتماعيـة وحثهم على انجاز واجبات لهذه المواقع[١] • لاجل المحافظة على عملية التوازن والانسجام بين اجزائه •

ان نمو وتطور التعليم في العراق وبخاصة الحقول المتخصصة منه ادى الى نمو المهـن وبلورة طبقة جديدة في المجتمع العراقي هذه الطبقة التي ندعوها بالطبقة المهنية او الطبقة الوسطى • وفي الحقيقة ان هذه الطبقة لم تكن مميزة وواضحة في المجتمع العراقي لافي دورها الاجتماعي او السياسي او الاقتصادي منذ وقوع العراق تحت الاحتلال العثماني • ولقد كان للتعليم دورا مهما في تكوينها والذي بدأت معالمه تظهر في المجتمع منذ اوائل تكوين الدولة العراقية • ان دور الطبقة لايمكن اهماله مهما اختلف تقييم الباحثين له ، لان في اعتقادنا ان لهذه الطبقة نظرة الى المستقبل في المرحلة التاريخية التي تبلورت بها تختلف عن الفئات الاجتماعية الاخـرى وهي تختلف عن الطبقة الوسطى التقليدية التي تعتمد على ثروتها او انحدارها العائلي او غير ذلك من الاعتبارات الاخرى • فهي اعتمدت بالدرجة الاولى على تدريبهـــا وتعليمها الذي اصبح اساسا مهما لكفاحها وديمومتها هذه هي الطبقة المتعلمة او المتنورة او طبقة اصحاب الرواتب ، وقد لا يقل دور واهمية هذه الفئة عن بقية الطبقات الاخرى في مرحلـــة تاريخية ولاجل ان لايهمل هذا الدور اردنا ان نلقي الضوء عليه عبـر حقب زمنية معينة من حياة مجتمعنا المعاصر •

---

(١) (Davis & Moore, Some Principles of stratification) (1974) ed. Bendix & Lipset., Op. Cit., p. 47.

وضع الطبقة الوسطى في العهد العثماني :

قبل نمو الطبقة الوسطى المهنية كان السكان في العراق وخاصة سكان المدن يقسمون الى طبقتين،الطبقة الثرية وهي الحاكمةوالطبقةالعامة الفقيرة وكانت الفجوة بينهما واسعة جدا وذلك بسبب غياب الطبقة الوسطى،[1] او انها كانت صغيرة جدا وليس لها تأثير ملموس على حركة المجتمع وتعتمد بالدرجة الاولى على الملكية الصغيرة • لذا نستطيع القول بان نمو الطبقة الوسطى في العراق بدأ بعدما اهتمت الدولة في تنمية التعليم وتوسيع قاعدته في المجتمـع •

فالتعليم خلال الفترة العثمانية ــ على العموم ــ كان خاضعا للنظام الديني وكانت العلوم الدينية هي المسيطرة على مناهج التعليم • وقد اولت الدولة العثمانية اهتماما ملحوظا للمدارس في سنة ١٨٦٠ الا ان مناهجهـا بقيت مركزة على الدراسات الدينية • وكان وضع هذه المدارس لايقل شأنا عن المدارس التي تأسست في القرن الثالث عشر وفشل الحكم العثماني في توحيد الشعب المتشتت من خلال توصيله للتعليم ،[2] فسيطرة الدين علـى المؤسسات التربوية لاتثير استغرابا لدينا لان البنية الاجتماعية للمجتمـع العثماني كانت تعتمد على الدين الاسلامي لـذا نجـدهم قـد ركـزوا على توجيه المناهج بطريقة تخدم الاطار الايديولوجي الديني الذي اهتموا فيه في تلـك الفترة •

---

(١) Khadduri, Majid, (1951), Independent Iraq; A study in Iraqi Politics since 1932, Oxford University Press, London, p. 11.

(٢) Lerner, Daniel (1958), The passing of traditional society Modernizing.

وبقي العراق خاليا من وجود اي مؤسسة تربوية حديثة ذات تعليم عال حتى سنة ١٩٠٨ حيث تاسس اول معهدين للدراسة العالية وهما كلية الامام الاعظم الذي تدرس فيه العلوم الدينية والاداب ، ومكتب الحقوق وتدرس فيه العلوم القانونية الحديثة التي ادخلت ايام حكم ناظم باشاه [١] واستمر هذين المعهدين في تزويد احتياجات الدولة من المؤهلين في هذه الحقول الى ان تاسس اول قسم للتعليم ومستقل في العراق في سنة ١٩٢٠ وبعد ذلك ادمج هذا القسم مع وزارة الصحة ومن ثم فصل عنها ،[٢] واصبح مستقلا مرة ثانية ، وكان هدف هذا المعهد هو تطوير التعليم بصورة عامة في العراق ، ولكن قد نجد ان هذين المعهدين قد لايتناسبان مع حجم السكان انذاك وسد احتياجات الدولة من المتخصصين والكوادر الفنية الاخرى التي بدأت الدولة تحس باهميتها ، اضافة الى ان هذين المعهدين لم يسدوا طلبات السكان الذي اصبح طموحا في الدخول الى المراكز التعليمية وخاصة العالية منها .

ان البناء السياسي للدولة العثمانية كان ذا طابع ديني واضح ونقلة الافراد الى البناء الفوقي كانت محددة ومستحيلة في معظم الاحيان ، وعلى العموم من الناحية النظرية هناك ثلاثة مؤهلات رئيسية للذين لهم طموحات في المساهمة بالسلطة ، الاول منها هو ان يكون الشخص عضوا في الطبقة الحاكمة ، وثانيهما ان يكون مواليا للسلطان ودولتـه وان يخصص حياته لخدمتهم ، وثالثهما ان يكون ممارسا للدين الاسلامي ونظامه ، فضلا عن ممارسة الفرد

---

(١) الهلالي ، عبد الرزاق ، (١٩٣٩) ، تاريخ التعليم في العراق خلال العهد العثماني ١٩١٧ـ١٩٣٨ ، الدار القومية للطباعة والنشر بغداد ، صفحة ٢١٤ ـ ٢١٥ .

(٢) Iraq, Government of., (1932) Report on the educational inquiry commission survey directed and report, Pual Monroe, Baghdad. p. 83.

النظام المعقد والسلوك واللغة بالطريقة العثمانية[1] • فالفرد الذي يطمح في النقلة الاجتماعية وخاصة السياسية وجب عليه ان يكون ملما بتدريب وخبرة في العلوم الدينية والادارية بما فيها المالية والسكرتارية ، والقانون العثماني لم يميز بين المسجد والدولة حيث كانت الشريعة الاسلامية هي الاساس[2] • وعلى هذا الاساس فان تغيير المكانة الاجتماعية في ظل النظام العثماني محددة وذلك لقساوة القوانين التي حددت فيها النقلة الاجتماعية • والبناء الاجتماعي للمجتمع العراقي لا يختلف عن نظيره العثماني لانه جزء منه والدولة واحدة • اما التعليم الذي تميز بالطابع الديني فقد كان بطيئا في نموه لان الدولة العثمانية لم تشجع زيادة عدد المدارس في العراق اضافة الى انها لم تعط تسهيلات للطلبة وخاصة لابناء الطبقة العامة التي تشكل غالبية المجتمع العراقي انذاك • اما البناء الطبقي فقد كان يشمل على الطبقة الحاكمة القليلة العدد والطبقة المحكومه الكثيرة العدد ، ولقد كان الاستغلال للفئة الاخيرة واضحا في استخدامها كاداة للانتاج وتحقيق رغبات الطبقة الحاكمة • لهذا كانت الحكومة العثمانية في العراق غير شعبية فضلا عن انها غير كفوءة[3] في تنظيم وادارة الدولة والمجتمع على حد سواء • فالفساد كان منتشراً ، والجهل والمرض كان متفشيا والفقر والجوع ضارباً في الريف

---

(١) (Show, Steanford Jay, Some aspects of the aims and achievement of the nineteenth century Ottoman reform) (1968), ed. Polk, William R. & Chambers, Richard L., in Beginings of Modernization in the Middle East, University of Chicago Press, Chicago.

(٢) (Parry, Vernon J.,Elite elements in the Ottoman Empire) (1969), ed. Wilkinson, Rupert, in Governing elites studies in training and selection, Oxford University Press, N. Y. p. 54.

(٣) Somervell, D. C., (1945), The British Empire, Sixth edition Christophers, p. 334.

والمدينة والمجتمع العراقي كان ساكناً ومتخلفاً من الناحية الاجتماعية والاقتصادية[1] ولم تترك الدولة العثمانية شيئاً يستحق الذكر في العراق لانها كانت منصرفة الى جمع الضرائب اكثر من اهتمامها بالتقدم الاجتماعي والاقتصادي ٠ أما هيكل النظام في هذه الفترة فكان اقطاعيا[2] ٠

والى نهاية هذه الحقبة الزمنية لم تكن هناك طبقة وسطى مهنية لها دور ملحوظ في حركة المجتمع ٠ ويمكن ان يرجع السبب الى التخلف الذي كان سائدا ، وعدم الاهتمام بالتعليم الحديث ، وطغيان الطابع الديني على مناهج التعليم ، وتخلف الطريقة التعليميةالتي كان يلقن بها طلبة المدارس ٠ كما وان الدولة العثمانية نفسها لم تكن راغبة في تعليم السكان خوفا من زيادة الوعي بين صفوف المجتمع او خلق طبقة متعلمة واعية قد تخلق جوا معرقلا الى الطبقة الحاكمة وبالتالي قد تخلق اضطرابا وخلخلة للنظام والدولة العثمانية ٠

اوضاع الطبقة الوسطى في ظل العهد الملكي

لقد كان العراق قبل الحرب العالمية الاولى جزءا من الدولة العثمانية ونصيبه من التخلف في اوضاعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لايقل شانا عن بقية الدول العربية الاخرى التي كانت تحت ظل هذه الدولة ٠ وفي سنة ١٩١٦ عندما حدثت الثورة العربية ضد الحكم العثماني ساندها الانكليز لانهم كانوا يريدون استغلالها وبنفس الوقت كانوا يهدفون الى تهديم الدولة العثمانية التي كانت تدعى بالرجل المريض ٠ وقد رحب العرب بهذه الخطوة

---

(١) Mansfield, Peter, (1973). The Ottoman Empire and its successors, Hazell Watson and Viney, Great Britain pp. 17-18.

(٢) Abboushi, W. F. (1974), The Angry Arabs, Philadelephia Westmenister Press, N. Y. p. 100.

اعتقادا منهم ان هذه المساعدة سوف تمكنهم من الاستقلال[١] وتكوين دولتهم المنشودة والتخلص من السيطرة العثمانية • وفي ابريل عام ١٩٢٠ : وبموجب معاهدت سانت ريمو التي عقدت في ايطاليا اصبح العراق تحت الانتداب البريطاني[٢] • وظل هذا الانتداب تحت وطأة التأزمات النفسية بين العراق والانكليز الى ان اجريت مفاوضات بين الجانبين وحصل العراق على الاستقلال سنة ١٩٣٢[٣] واصبح بعد ذلك عضوا في عصبة الامم League of Nations[٤] الا ان هناك انتفاضات وطنية قد وقعت بعد هذه الفترة من قبل ابناء الشعب وبمساندة بعض رؤساء القبائل لان الشعب ادرك ان هذا الاستقلال اسميا وليس فعليا حيث ظل الانكليز محتفظين بقسم كبير من امتيازاتهم ولهم دور في ادارة شؤون البلاد • والطبقة الوسطى المهنية لم تتبلور بعد ولازالت صغيرة لان التعليم بقي بطيء النمو في هذه الفترة •

ولقد نشط التعليم العالي في العراق بعدما ازدادت احتياجات البلاد الى كادر مؤهل لتسيير شؤون الدولة لذا ارادت الحكومة في تلك الفترة ان تدرب جهازا اداريا كفؤ من ابناء الشعب ويحمل ثقافة جديدة وحديثة غير الثقافة التركية ولقد ازداد الطلب على التعليم من ابناء الشعب لانه وسيلة مهمة للنقلة الاجتماعية وتغيير مكانات الافراد • والجدير بالذكر ان الاسرة العراقية تمتاز بالتماسك والتكاتف كما وانها من النوع الكبير لذا فان نقلة اي فرد منها بعد حصوله على التعليم الى موقع طبقي جديد سوف يؤثر على جميع ابناء الاسرة الواحدة • ولقد كان للاحداث التي شهدها العراق

---

(١) Ibid., p. 101.

(٢) Mosley, Leonard, (1973), Power play; the tumultuous world of Middle East Oil 1890-1973, Weidenfeld and Nicholson, London., p. 34.

(٣) Abboushi, W. F. Op. Cit., p. 123.

(٤) Somervell, D. C., Op. Cit., pp. 335-336.

خلال الحرب العالمية الاولى ومابعدها من انتفاضات ونشاطات سياسية واحداث دولية هامة حافزا مهما في زيادة وعي الناس في التعليم

فالتعليم العالي بدأ ينمو ويتطور ، ففي سنة ١٩٢١ تاسست او كلية عصريه للحقوق ، وفي سنة ١٩٢٣ انشأت كلية التربية وبعدها باربع سنوات افتتحت كلية الطب[١] وفي سنة ١٩٣٠ تأسست كلية الصيدلة والكيمياء وي سنة ١٩٥٠ كلية الهندسة ، وكلية الملكة عالية (كلية البنات) ، وكلية العلوم والاداب ، والتجارة والاقتصاد[٢] وتبعتها كلية طب الاسنان سنة ١٩٥٢ ، وكلية الطب البيطري في سنة ١٩٥٥ وعلى هذا الاساس نجد ان خلال فترة الحكم الملكي قدنست حقول جديدة من المعرفة والتدريب حيث اصبح الفرد باستطاعته ان يحصل على مؤهل علمي ومهني يؤهله من ممارسة نشاطه داخل المجتمع وان يغير مكانته ووضعه الاجتماعي ويصبح عضوا في طبقة جديدة هي الطبقة الوسطى المهنية ، ان هذه المؤسسات التربوية تختلف في طبيعة علومها ومعارفها عن المؤسسات التعليمية التقليدية التي نمت تحت الحكم العثماني ، ان هذه المؤسسات بدأت تجهز المجتمع بجماعات تختلف في تفكيرها ومعارفها عن الطبقة التقليدية التي ورثت الزعامة وتدربت على القيادة في العهد العثماني وثبتت كيانها في العهد الملكي فالبنية السياسية للعهد الملكي وبخاصة في بدايته كانت امتدادا للبنية السياسية للعهد العثماني ، فبعدما كان السلطان هو الذي يختار الافراد ويفرضهم في مراكز القوى اصبح الملك هو الذي يختار الجماعات الذين يراهم ملائمين له ليلعبوا الدور في عملية التحول

---

(١) Qubain, F. I., (1966), Education and Science in the Arab World Baltimore, John Hopkins Press, p. 223.

(٢) Badre, Albert Y. & Siksek, Simon G., Manpower and oil in Arab Countries American University of Beirut, 1959, p. 125.

الاجتماعي والسياسي[1] • وفي أحيان أخرى كان الملك نفسه يجتهد ليصبح القوة الاساسية في عملية التحضر أو انه يستطيع ان يستخدم قوته في تأسيس اطار سياسي الى الآخرين المسؤولين عن القرار السياسي[2] • الا أن هذا الأختيار كان يكاد محصور في أُسَر معينة قليلة العدد او في الجماعات التي تحاول التقرب من السلطة او الى العائلة المالكة • وعلى العموم ان الطبقة الوسطى بدأت تنمو وتتطور وتتسع قاعدتها في المجتمع هذه الطبقة كانت لاتريد الدفاع عن مصالحها بقدر ماكانت تريد ان تدافع عن مصالح الطبقات الاخرى التي مادونها في السلم الهرمي للمجتمع • وكانت مدفوعة بعوامل عدة منها انها تنتمي في اصولها الاجتماعية الى الطبقات الفقيرة ، ولهذا فهي تدافع عن مصالح هذه الفئة واتخذتها مادة لكفاحها • هذه الطبقة بدأت تدرك ان طموحاتها لايمكن ان تتحقق في ظل بناء سياسي يعتمد في اختيار رجاله على اسر محددة ووفق اسس لا تنسجم مع تطلعاتها •

الصراع بين الطبقة الوسطى والسلطة الحاكمة

لقد اكدنا على ان التعليم العالي بدأ ينمو ويتطور في العراق وكنتيجة لذلك بدأت تنمو الطبقة البيروقراطية التي يرتكز عليها البناء السياسي للمجتمع • ان هذه الطبقة اصبحت لاتقل اهمية عن الحكومة نفسها حيث اصبح منها المدراء والاداريون ، والمهندسون والصحفيون ، والمدرسون والأطباء والمحامون وآخرون متخصصون بفروع المعرفة الاخرى[3] • وقد

---

(١) Halpern, Manfred; (1963), The politics of social change in the Middle East and North Africa, Princeton University Press, New Jersey, p. 41.

(٢) Ibid., p. 43.

(٣) Ibid., p. 52.

تختلف الجذور الاجتماعية لافراد هذه الطبقة ولكن في الاعم الاغلب يمكن ان نقرر ان اصولها ترجع الى الطبقة الدنيا وذلك لغياب الطبقة الوسطى او صغر حجمها ــ على وجه الدقة ــ في المجتمع العراقي • كما وان الطبقة العليا التقليدية كانت هي الاخرى صغيرة في حجمها لاتستطيع تجهيز البناء الاداري وفي بعض الاحيان السياسي للبلاد، وان تسد الفراغ الذي يحدث في هذا البناء نتيجة لتوسع اجهزة الدولة •

ولهذه الطبقة (المهنية) الجديدة دور مهم في توجيه كفاح وطموحات الفئة المتعلمة من المجتمع • فهي تنظر الى الطبقة العليـــا الحاكمة على انها جماعة صغيرة لاتزيد على عشرين او ثلاثين اسرة من الذين يحكمون البلد فعليـا ومرتبطين مع بعضهم البعض الاخر بروابط قربى او مصاهرة او صداقة قوية لغرض المشاركة في المنافع • ولقد كان لصغر هذه الفئة ميل قوي للتوحيـــد والتساند لتنفيذ اغراضهم في تقاسم مـراكز القـوى[1] • وبالمقابل بـدأت الطبقة المهنية تميل الى التوحيد والتعاون وهذا واضح في مطالبتهم بانشاء الجمعيات المهنية والنوادي الخاصة بهم ومطالبتهم من خلال هذه التنظيمات بحقوق مهنية بغية تأكيد حقهم في المجتمع والاعتراف بثقلهم الاجتماعي الذي بدأوا يشكلونه بعد زيادة الاعداد المتخرجة من الجامعات •

ان الطبقة الحاكمـــة بدأت تدرك خطورة الطبقـــة الجديدة المتناميـــة والمتصاعدة الا انها لم تستطع دائما من كبح جماح مطاليبها لانها اصبحت ذات قاعدة واسعة في المجتمع ولها وزن اجتماعي وسياسي • والواقع ان هناك صراعا قائما بين هذه الطبقة والطبقة الحاكمة ذلك ان كل منهما له ثقافتـــه وتعليمه وتدريبه • ان هذا الصراع يمثل جماعتين الاولى تلقت علومها وتدريبها تحت

---

(1) Harris, George L., (1958), Iraq its people its society its culture;. Hraf Press, p. 306.

ظل العهد العثماني في (استانبول) وبين جماعة تلقت ثقافة مختلفة [1] تعتمد على العلوم الحديثة ومتأثرة بالتيارات الفكرية العربية والعالمية ولقد كان هذا الصراع يمثل جيلين الاول محافظ يميل الى ادامة واستمرارية الوضع القائم والنظر الى عملية التغير نظرة تخريبية لبنية المجتمع ، وبين جيل هدفه عمليـة التغير الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لانه يعتقد بان النظام القائم لايتناسب مع طموحاته • فهو صراع بين فئة تريد المحافظة على مراكزها التي ورثتها من العهد العثماني واقرها العهد الملكي وبين جماعة جديدة تريد ان تثبت كيانها ومركزها داخل السلطة والمجتمع •

ان الطبقة الوسطى المهنية بدأت تنظر الى الطبقة العليا الحاكمة كجماعة لاتستطيع ان تقود عملية التحول والتغير وليس باستطاعتها بناء دولة عصرية وذلك بحكم المناخ الاجتماعي والسياسي الذي خلقت فيه ، لذا فان الطبقـة الوسطى بدأت تطالب هذه الطبقة بالتخلي عن مسؤوليتها التي هي ليست اهل لها • ان النخبة الحاكمة في العراق فشلت في بلورة النقلة الجديدة التي شهدها المجتمع للطبقة الوسطى فهي لم تستطع من أن تؤلف بين طموحات الجيل الجديد وبين طموحاتهم ، هذا ما شجع الطبقة المهنية على البحث عن قنوات جديدة ووفق تصميماتهم لانها كانت تريد ربط المستقبل مع التحول الحضاري الذي لايمكن اهماله •[2]

ولقد اخذ دور الطبقة الوسطى المهنية يتعاظم واصبحت تشكل قـوة لايستهان بها في المجتمع وخاصة بعدما اصبحت جزءا مهما من بناء الدولة

---

(١) Seto-Williams, M. V. (1948), Britain and the Arab States; A survey of Anglo-Arab relations 1920-1948. London, p. 36.

(٢) Lerner, Daniel; (1958), Op. Cit., p. 410.

وجهازها الاداري ، والاداة المهمة في تمشية شؤون البلاد • وعلى الرغم من ان النخبة الحاكمة كانت متأثرة بافكار الغرب التي اعتبرتها وسائل مهمة لتنشيط القطر وخاصة النظام القانوني الذي يعتمد عليه النظام السياسي الا ان التوجيه هذا كان غير منفصلا عن تيار القومية العربية[1] الذي تأثرت به كثيرا هذه الطبقة والذي اصبح فيما بعد يشكل محور كفاحها ونشاطها في المجتمع •

ان هذه الطبقة كانت تطمح في تغيير النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي بصورة جذرية لانها كانت تعتقد بعدم صلاحية البنيان القائم فمن الناحية السياسية ان مراكز القوى كانت مسيطر عليها من قبل فئة قليلة ، ومن الناحية الاقتصادية كان هناك تفاوت طبقي كبير بين هذه الطبقة والطبقة الغنية ، واجتماعيا كانت الالقاب والانحدار العائلي والرباط القرابي له دور كبير في الحصول على المناصب والمراكز في البنيان الاداري للدولة بالاضافة الى ان العهد الملكي اعطى نصيبا اوفر الى الشيوخ والاقطاعيين ودعم قوتهم في السلطة اكثر مما اعطته لهم الدولة العثمانية •[2]

ولقد حاول العهد الملكي من ان يحفظ ديمومته بامتصاص بعض افراد هذه الطبقة • فحاول ان يقيم احزابا سياسية موجهة من قبله وان يشجع الشباب والمثقفين في الدخول اليها ، وبنفس الوقت منعت الاحزاب التي لم تكن موالية اليه من مزاولة النشاط السياسي[3] • الا ان هذه الاحزاب

---

(١) Harris, George L.; (1958), Op. Cit., p. 306.

(٢) Warriner, Doreen, Land and poverty in the Middle East, Royal Institute of International Affairs, London, 1948. p. 23.

(٣) (Molansky, Olesm S. Qasim and the Iraqi communist party; A study in Arab politics (1972), in man, State, and Society in the contemporary Middle East, ed. London, Jacob M, Praeger publishers, N. Y. p. 152.

لم تلق ترحيبا قويا من الطبقة المهنية لان هذه الطبقة شعرت بان ليس بامكانها ان تساهم في السلطة وعملية التغيير داخل المجتمع الا بتغيير الهيكل السياسي فمن الواضح ان النخبة الحاكمة التي تقلدت مراكز القوى من سنة ١٩٢٠ – ١٩٥٨ قد تغيرت ٥٨ وزارة وكانت هذه التغيرات تضم رجال الدين والاقطاعيين والشيوخ وكبار ملاكي الاراضي •(١) ولم تفسح الطبقة الحاكمة المجال للطبقة الوسطى المهنية لتساهم في البناء السياسي الا بعض المهنيين ممن تربطهم علاقة وثيقة بهـــم •

كما ان لبرامج التنمية التي بدأت تنشط في هذه الفترة اثر فعال في عملية التغير الاجتماعي وهذا واضح في خلق فرص جديدة للطبقة الوسطى والتي لم يكن لها موقع فعلي من قبل فقد اصبح منهم المدراء ومالكي الالـة كما ونست علاقات جديدة امتدت الى الريف • فالطبقة الوسطى الحضرية كانت صغيرة وان خلال عملية التصنيع وحيث الفرص الاقتصادية الجديدة سهل على هذه الطبقة من الحصول على مكانات اجتماعية وبالتالي زيادة نقلة الافراد الرأسية والعمودية كمـا وان معظم المثقفين من الشباب كانـوا مركزين على المستقبل ومنشغلين في حل مشاكل المجتمع ومعظمهم متعلق بتأسيس وتشييد نوع جديد من المجتمـع يساعدهم في الوصول الى معيشة افضـل وملائمـة للقـرن العشرين(٢) •

وكنتيجة للضغوط التي بدأت تعانيها الطبقة الوسطى المهنية بدأت تضاعف نشاطها السياسي وبخاصة في اواسط واواخر العهد الملكي في المدن الرئيسية ومنها بغداد التي كانت محلا ملائما وخصبا لنمو الافكار والاحزاب السياسية

---

(١) Ellis, Howard S. (1970), Private enterprise and socialism in the Middle East, American Enterprise Institute for public policy, Washington, p. 27.

(٢) Qubain, Fahim I. (1958), The Reconstruction of Iraq 1950-1957. Atlantic Books, Stevens & Son, London pp. 259-260.

وبالرغم من ان وسائل الاتصال الرئيسية كالصحف والمجلات والاذاعة كانت موجهة من قبل الحكومة [1] ، الا ان هـذه الطبقة ساهمت مساهمة كبيرة في بناء الاحزاب السرية التي نشطت في تنبيه الناس على فساد الوضع القائم وتأكيد الدعوة الى تغيير هيكل المجتمع ، والجدير بالذكر أن النشاط السياسي لهذه الطبقة يرجـع امتــداده الى المؤسسات التربوية التي تعلموا ودرســوا فيها حيث كانت الجامعات والمدارس مسرحا نشيطا للحركات السياسيةوتبادل الآراء حول الوضع القائم واصبح شبه اجماع عندها لتغيير النظام ،

تبلور الطبقة الوسطى كاداة للثورة :

لقد بدأت الطبقة الوسطى المهنية تزداد وعيا في بلورة اهدافها والتعبير عنها سواء من خلال مساهمتها بالاحزاب السياسية السرية او من خـــلال تنظيماتها المهنية والنقابية في توجيه النقد الى الهيكل العام للمجتمع وتركيبه والتركيز على عيوبه وفساده ، ان هذه الفئة بدأت تتدخل في عملية التحضر والتبدل وتدعى ان لها دورا اضافيا في المجتمع ، فلقد نشأت وترعرت علــى التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تحدث في المجتمع العربي، ولم تعتمد في كفاحها هذا على التجانس الاجتماعي والاقتصادي بل انها كانت علمانية لها قوتها وبدأت تتوجه نحو مراكز القوى في المجتمع[2] ، ولقد كان للتعليم الذي حصلت عليه عاملا مهما في ترسيخ هذا الاعتقاد لديها ،

ان هذه الفئة من المجتمع لاتشبه في تركيبها الطبقة الحاكمة التقليدية من اصحاب الاقطاعيات كما لاتشبه البرجوازيين التجاريين بل انها كانت اول طبقة تنشغل في عملية تحول المجتمع وهي مملوءة بالقوة وشاعرة بنفسها ان

---

(1) Atiyyah, H. (1973), The Iraqi Development Board 1950-58, unpublish M. A. thesis, American University of Beirut, Beurut p. 4.

(٢) Halpern, Manfred, (1963) Op. Cit., p. 58.

لها واجب رئيسي هو اعادة بناءالمجتمع(١) على اسس تحفظ بها عدالة المجتمع وتضمن حقوق جميع الفئات الاجتماعية • ان الطبقة الوسطى المهنية لاتشبه الطبقة الوسطى التقليدية التي تداخلت مصالحها مع الاقطاع والتي كانت تملك الاراضي وتمارس الربا في الريف والمدينة وتلعب دورا استغلالياً وطفيلياً في المجتمع(٢) • كمـا وان الطبقة المهنية لا تشبه الطبقةالبرجوازية التقليدية التي لعبت دورا كبيرا في التجارة الداخلية والخارجية في العهد الملكي والتي تميزت بالنزعة الاستهلاكية(٣) • اكثر من النزعة نحو الانتاج • وانمـا كانت تريد ان تساهم في عملية تطوير الاقتصاد بمساهمتها في تعليمها وتدريبها في في العملية الانتاجية •

الطبقة الوسطى وثورة تموز ١٩٥٨ :

لقد سعت الطبقة الحاكمة الى فرض قوتها على الطبقة الوسطى المهنية وذلك بكبح جماح افرادها وعرقلة مساعيهم بالمساهمة في السلطة واعطائهم نصيبا يتناسب مع حجم هذه المجموعة وكنتيجة لذلك بدأت هذه الفئة تزداد قوة في أواخر العهد الملكي وخاصة بعدما كسبت الى جانبها تأييدا من الطبقة الكادحة والتي تشكل الطبقة الاكثر عددا في المجتمع والتي هي الاخرى بـدأ يتعاظم نموها وخطرها على الكيان القائم وخاصة بعد حركة التصنيع التي شهدها القطر في العقد الاخير من العهد الملكي وبعد تأسيس مجلس الاعمـار ولقد كان للفساد القائم عامل محفز لهذه الفئات وتجميع قواها مع بعضهـا البعض لتحقيق الثورة وتغيير البنيان القائم •

---

(١) Ibid., p. 58.

(٢) التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي ــ اقطر العراقي ، كانون الثاني ١٩٧٤ صفحة ١٠٤

(٣) المرجع السابق صفحة ١٠٥ •

فبعد عملية التغيير التكنولوجي التي بدأت واضحة المعالم في المدن ونمو الطبقة الوسطى المهنية والعاملة ، ارادت النخبة الحاكمة ruling elite ان تختبر قوتها في السيطرة على هذه المهارات الجديدة وذلك بتشغيلهم لاغراضهم الاجتماعية والسياسية ، الا ان رغبات العمال بدأت تنمو باتجاه مغاير عما تريده النخبة الحاكمة التقليدية(١) • فبدأت نزعة العمال نحو التنظيم المهني والنقابي تقوى وتشتد مطالبة في تنظيم انفسهم وتشكيل منظمات تدافع عن حقوقهم التي بدأوا يتحسسون بها • ولم تكتف الطبقة الوسطى المهنية من تأجيج روح التغيير بين اوساط الطبقة العاملة والفلاحية بل تخطت وبدأت تبحث عن فئة اخرى تملك القوة الا وهو الجيش •

ومما لاشك فيه ان الدولة العراقية عندما اسست وبنيت الجيش كانت في تلك الفترة تطمح في تنظيمه لغرض الحفاظ على الاستقرار والنظام الداخلي للبلاد وخاصة خلال فترة الانتداب • وبذل العهد الملكي جهوداً مضنيه في كسب الجيش وابعاده عن التأثيرات الجديدة ولكن لم يستطع من ايقاف انتشار دعوة القومية العربية التي بدأت تؤثر فيه وتحفزه على الثورة والتغيير وبدأت طموحاتهم تتبلور في تغيير الحكم لاجل تحقيق العدالة الفعلية لابناء الشعب ووجدوا ان واجبهم ليس هو اخماد الحركات الداخلية وحركات القبائل(٢) وانما هناك وظيفة اهم تتعلق في المجتمع والقضاء على هياكل الفساد الذي اصبح منتشرا في البلاد والمطالبة في فسح المجال لكل الشرائح الاجتماعية الى مساهمتها في مراكز القوى في البلاد •

---

(١) Harris, George L., Op. Cit., p. 5.

(٢) Khadduri, Majid., (1951) Op. Cit., pp. 78-79.

والجدير بالذكر ان العسكريين الذين بدأوا يمارسون النشاط السياسي في العراق كانوا يعبرون عن طموحات الجيل الجديد . وكان القسم الاعظم منهم ـ عدا كبار الضباط الذين نالوا تدريبهم تحت العهد العثماني ـ متأثرين بالدعوة القومية قبل دخولهم الى السلك العسكري ، وان معظم العسكريين الذين كثفوا نشاطهم من صغار الضباط[١] الذين انسجمت طموحاتهم مع اهداف الطبقة الوسطى المهنية والطبقة العمالية . ان هذه النخبة الجديدة الثورية من الضباط وجدت ان معظم القياديين في الفترة ما بعد الاستقلال ١٩٢١ كانت تربط بينهم روابط عائلية [٢] وقرابية وصداقة وتقاسموا مراكز القوى والوظائف العليا في البلاد وتمتعوا بالحقوق والامتيازات وبنفس الوقت لم يفسحوا المجال امام الفئات الاجتماعية الاخرى لتحتل مكانها في السلطة والدولة .

ان العناصر القومية من الجيش والتي معظمها من الشباب الذي ينتمي الى الجيل الجديد والمتأثر بالتيار القومي الوطني حاولوا تنظيم انفسهم في جماعات صغيرة وبدأوا يناقشون طموحاتهم في تحسين وضع البلاد والطرق التي يستطيعون تحقيق هذه الطموحات[٣] . وذلك لان الوضع القائم لايتحمل نظرا لتفشي الفساد في معظم اجهزة الدولة وعلى هذا الاساس نجد ان الطبقة الوسطى المهنية مؤيدة من قبل الطبقات العمالية والفلاحية والتي نظمت نفسها

---

(١) Khadduri, Majid., (1969) Republican Iraq; A study in Iraqi politics since the revolution of 1958, Oxford University Press, London, p. 16.

(٢) Johnson, Maxwell Drme, (1974), Iraqi political and military Leadership, A case study of its Formative years in the Great Arab Revolt, American University of Beirut, p. 6.

(٣) Khadduri, Majid, (1951) Op. Cit., p. 80.

وانضوت تحت الحركات السياسية السرية قد تلاقت في اهدافها وهو تغيير النظام • وعلى الرغم من وقوع اضرابات واستنكارات من قبل هذه الفئات الاجتماعية سواء بصورة علنية متمثلة في المظاهرات او الاحتجاجات في الصحف والمجلات السرية منها والعلنية لم تستطع الاستغناء عن قوة الجيش التي تعتبر العنصر المنفذ للثورة • لذا نجد ان جميع هذه القوى تكاتفت مع بعضها وصنعت ثورة تموز ١٩٥٨ التي قوضت جميع ركائز النظام الملكي وقضت على الاقطاع والاسرة المالكة والمتنفذين من رجالاته •وبدأت تقوم بعملية الاصلاح• ولقد تعثرت حركة التغيير والتبديل في البناء الاجتماعي والسياسي والاقتصادي بعد سنة ١٩٥٨ لذا حدثت اضطرابات واحتجاجات منها العنيفة المتمثلة في الانقلابات والثورات كثورة شباط ١٩٦٣ وامتدت هذه الفترة الى سنة ١٩٦٨ حيث استلم حزب البعث العربي الاشتراكي السلطة وبدأ يطبق منهاجه الثوري الذي يمثل طموحات كل هذه الشرائح الاجتماعية التي تحدثنا عنها والى وقتنا الحاضر •

الهمذاني وكتابه تكملة تاريخ الطبري

الدكتور بدري محمد فهد
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

المؤلف :

ابو الحسن محمد بن عبدالملك بن ابراهيم بن احمد بن ابي الفضل الهمذاني الفرضي (ت ٥٢١هـ/١١٢٧م)

تربى الهمذاني على يد أب عالم عد من أئمة الدين وأوعية العلم ، وهو عبدالملك الهمذاني الفرضي المعروف بالمقدسي ، وكان قد سكن بغداد،وتوفي بها سنة ٤٨٩هـ • وقد استشهد هذا الاب ايضا بحفظ مجمل اللغة لابن فارس وغريب الحديث لابي عبيد • واما معرفته بعلم الفرائض والحسابات ، وقسمة التركات فكان قيم عصره بها • ولهذا عرض عليه منصب قاضي القضاة الا انه امتنـــع •

وقد ترجم له ابنه في (تاريخه) واشـــار الى اهتمامه بتربيته واخذه بالشدة لكي تستقيم قناته ،ولكي يتجه نحو العلم فقال : « كان ابي اذا اراد ان يؤدبني يأخذ العصا بيده ، ويقول : نويت ان اضرب ولدي تاديبا كما امر الله ، ثم يضربني ، قال : وربما هربت قبل ان يتم النية »[1] وقد استشهد هذا الاب بالتحديث ايضا[2] •

---

(١) السبكي طبقات الشافعية ٦ : ١٣٥ ط الحلو والطناحي ، الصفدي ٤ : ٣٨

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ١٠ : ٨

اما محمد نفسه فقد سمع من شيوخ عصره ابا الحسن احمد بن محمد بن النقور والنقيب ابا الفوارس طراد الزينبي وغيرهما ؛ وروى عنه ابن عساكر في معجم شيوخه .

وكان فاضلا حسن المعرفة بالتواريخ ، واخبار الدول والملوك ، والحوادث . قال فيه ابن النجار « وبه يختم هذا الفن » [٣] .

وذكر له الصفدي من المؤلفات :

١ ــ كتاب الشوام .

٢ ــ امراء الحج من زمن النبي (ص) الى ايامه

٣ ــ اخبار دولة السلطان محمد ومحمود

٤ ــ طبقات الفقهاء .... سماه ابن خلكان ذيل طبقات الفقهاء

٥ ــ اخبار الوزراء ... وهو ذيل لكتاب ابن الصابي

٦ ــ عنوان السير ...وقد نقل عنه ابن خلكان وسماه (بالتاريخ الصغير)

٧ ــ الذيل على تاريخ الوزير ابي شجاع (التالي لكتاب تجارب الامم لابن مسكويه)

٨ ــ الذيل على تاريخ الطبري .

٩ ــ المعارف المتأخرة ... نقل عنه ابن خلكان وسماه تاريخه الصغير وسيرد الكلام عنه .

---

(٣) الصفدي : الوافي بالوفيات ٤ : ٣٧ ، ٣٨

كتاب تكملة تاريخ الطبري

١ ـ الكتـاب :

يبدو ان هذا الكتاب اشـهر كتبه لانه ذيل لكتاب مشهور هو تاريخ الطبري ، ولهذا وجدنا بعض المؤرخين يعرفون الهمداني بانه (صاحب التاريخ) كابن الاثير[٤] وابن كثير[٥] ولما ترجم له السبكي[٦] ذاكرا اباه قال : وقد ذكر ترجمته ابنه محمـد في تاريخه • وقد مرت بنا الاشارة من قبل • فهذا الكتاب اذن عرف بكتاب التاريخ وان لم يرد اسمه كاملا عند بعض من نقل منه •

ولم يكن ذيل الهمداني هذا اول ذيل لتاريخ الطبري فقد سبقته مؤلفات وصلته واكملته اولها ذيل تاريخ الطبري للطبري نفسه[٧] • وثانيها كتاب ثابت ابن سنان بن ثابت الذي داخل تاريخ الطبري في بعض السنين حيث ابتدأ من سنة نيف وتسعين ومائتين ثم استمر فيه الى بعض سنة ٣٦٣ هـ ، وقد ذيل على تاريخ الطبري ايضا ابو محمد عبدالله ابن احمد بن جعفر الفرغاني (ت ٣٦٢هـ) وقد وصل فيه الى حوادث سنة ٣١٢[٨] • وقد وصف القفطي هذا الذيل بأنه أكثر تفصيلا من كتاب ثابت في بعض الاماكن[٩] • وقد أكمل كتاب الفرغاني ابنه من ابن منصور محمد وقد توفي في مصر سنة ٣٩٨هـ[١٠] • وكان أبو منصور

---

(٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ١٠ :٩٤٨

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ١٢ : ١٩٨

(٦) السبكي : طبقات الشافعية ٥ : ١٦٢-١٦٣

(٧) السخاوي : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ـ ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين لروزنتال ص ٦٧٠

(٨) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ٣ : ١٠٣

(٩) القفطي : تاريخ الحكماء : ١١٠

(١٠) ياقوت الحموي : معجم الادباء ٣ : ١٠٥ ؛ وكرر نفس المعلومات الصفدي : الوافي بالوفيات ٧ : ٨٦،٨٧

هذا يروي عن ابيه تصانيف محمد بن جرير الطبري • أما اسم ذيل الفرغاني الاب فيبدو أنه (صلة تاريخ الطبري)[١١] •

وكذلك وصل تاريخ الطبري عريب بن سعد القرطبي ، وقد نقل منه المؤرخ ابن عذاري مايختص بتاريخ افريقية والاندلس واودعه كتابه (المغرب) واما اخبار العراق فطبعت ملحقة بالتاريخ باسم صلة تاريخ الطبري من سنة ٢٩١ الى ٣٢٠هـ[١٢] •

ولابن النديم رأي في ذيول الطبري بعد ان ذكر من اختصر تاريخه وحذف اسانيده مثل محمد بن سليمان الهاشمي ، وابو الحسين الشمشاطي الموصلي المعلم والسايل بن احمد بقوله (وقد الحق به جماعة من حيث قطع الى زماننا هذا ، لايعول على الحاقهم لانهم ليس ممن يختص بالدولة ولابالعلم •••)[١٣] •

ثم اكملت هذه الذيول جملة تواريخ تداخلت فيما بينها مثل تاريخ الصابي هلال بن المحسن حيث وصل به الى حوادث سنة ٤٤٧هـ وقد وصفه القفطي بقوله : « ولم يتعرض احد في مدته الى ماتعرض له في احكام الامور والاطلاع على اسرار الدولة ••• » وذلك لانه كان حفيد كاتب الانشاء ابراهيم الصابي ولانه هو نفسه كان متوليا للانشاء ايضا [١٤] وقد اكمل ابنه محمد المشهور بغرس النعمة الصابي كتاب ابيه هلال وبناء على وصيته مبتدأ من سنة ٤٤٨ هـ الى ما بعد سنة ٤٧٠ هـ[١٥] فلما جاء الهذاني داخل هؤلاء حيث بدأ تاريخه بسنة ٢٩٦هـ وسماه ذيل تاريخ الطبري ووصل فيه الى حوادث سنة ٥١٢هـ وقد وجد من هذا الكتاب جزؤه الاول •

---

(١١) المراكشي : المعجب في تلخيص اخبار المغرب : ٢٨ ط محمد القاسي

(١٢) محمد ابو الفضل ابراهيم « مقدمة » تاريخ الطبري : ٢٦ .

(١٣) ابن النديم : الفهرست : ٢٤١ حط الاستقامة .

(١٤) القفطي تاريخ الحكماء : ١١٠ .

(١٥) نفس المصدر

وقد نشره البرت يوسف كنعان وطبع مرتين الاولى عام ١٩٥٨ والثانية عام ١٩٦١ بالطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، وهو يبدأ بخلافة المقتدر بالله سنة ٢٩٦هـ كما اشرنا وبعدها فيسلسل الحوادث حتى يصل الى سنة ٣١٨ فينقطع التسلسل حتى يعود ويبتديء مرة اخرى من سنة ٣٢١هـ حتى ينتهي الجزء هذا في اخبار سنة ٣٦٧هـ وفي اخره يعد المؤلف بالجزء الثاني . وهذا الجزء مع فارسه يقع في ٣٠١ صفحة .

٢ ـ مصادره

ذكر الهمذاني في مقدمة كتابه بعض مصادره التي يرجع اليها وهي مؤلفات الصولي والتنوخي والخطيب وابي اسحاق الصابي واولاده وابن سنان وغير هؤلاء واضافة الى ذلك : « ماحفظت من شعر الشعراء وحكايات العلماء تشهد بالحال »(١٦)

ومن خلال قراءة تكملة تاريخ الطبري تعرفنا على مصادره التي ذكرها مسنداً اليها الاخبار وقد شملت مؤلفات المذكورين في المقدمة وغيرهما من المؤلفات المشهورة ، او من المدونات الخاصة ، وكذلك جملة من المصادر الشفوية كما توجد في الكتاب طائفة من الاخبار لم يشأ الهذاني ان يخبرنا بمصدرها واكتفى بالاشارة اليها ولهذا فمصادر كتاب التكملة يمكن تصنيفها على هذا الوجه .

أ ـ مصادر شفوية :

ابن البهلول :(١٧) وذلك في اثناء كلامه عن الخليفة المستكفي حيث قال « قال ابن البهلول : كنا اذا كلمنا المستكفي وجدنا كلامه كلام الجبارين ،

---

(١٦) ابن الهمذاني تكملة تاريخ الطبري : ٣

(١٧) احمد بن اسحاق بن البهلول التونجي المتوفي سنة ٣١٨ فقيه اديب ولي قضاء مدينة المنصور عشرين عاما وله جملة كتب ، الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ٤ : ٣٠

وكان جلدا بعيـدا الغور ... »[١٨] فاهمية هذا المصور نقله المعلومات عن الخليفة مباشرة عن قرب وعن معرفـة .

الزهري : ابو الفضل[١٩] في اثناء ترجمته لابي بكر بن مجاهد المقري الذي توفي سنة ٣٢٤هـ حيث نقل عنه ماروواه عن ابيه من توقعه وفاة احد المشهورين في نفس الليلة التي توفي فيها ابن مجاهـد[٢٠]

السوسي : ابو سعد[٢١] ، ناقلا عنه بعض المعلومات المتعلقة بالامير التركي بجكم . اذ يبدو من الخبر ان السوسي كان كاتب هذا الامير وعلى صلة به حيث يبدا الخبر هكذا قال : « بجكم بحضرة اصحابه معي ... » وكان الخبر اثناء كـلام الهمذاني عن افراد بجكم هذا عام ٣٢٧هـ بأمرة الامراء[٢٢]

عبدالملك الهمذاني : والد المؤلف وقد نقل عنه قصة تتعلق بالزجاج[٢٣]

العلوي : ابو جعفر مسلم بن طاهر ، وقد نقل عنه رايه في كافور حاكم مصر في اثناء سنة ٣٥٦هـ[٢٤]

القطان : ابو سهل بن زياد ، اخذ عنه معلومات تتعلق بحياة وزيرالمقتدر (علي بن عيسي بن داود بن الجراح) في اثناء حوادث سنة ٣٣٥هـ[٢٥] .

---

(١٨) ابن الهمداني ١٢٩ .

(١٩) لعله ابن ابراهيم بن نجيح الزهري المتوفي سنة ٣١٠ الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ٦ : ١٩٨ ، ١٩٩!

(٢٠) ابن الهمذاني ص:٩٥

(٢١) يبدو انه كان كاتبا عند الامير التركي بجكم .

(٢٢) ابن الهمذاني : ١١١

(٢٣) ن ـ م : ١٥٤

(٢٤) ن ـ م : ١٩٧

(٢٥) ن ـ م : ١٥٣

ابن كامل القاضي [٣٦] اخذ عنه معلومات تتعلق بالوزير على بن عيسى المتوفي سنة ٣٣٥ [٣٧] .

ب ـ مصادر مكتوبة

وهي اما ان تكون مؤلفات التي اشار الى اصحابها في المقدمة كما ذكرنا او مذكرات وسجلات خاصة اخرى نقل عنها وهي كما ياتي مرتبة حسب الحروف .

ابن بسام : علي بن محمد البغدادي ـ وكان شاعرا اخباريا الف جملة كتب[٣٨] الا ان الهذاني لم يذكر لنا مصدره الذي نقل عنه عند ايراده بيتين من الشعر في وصف وزارة حامد بن العباس [٣٩]

الاصفهاني : ابو الفرج علي بن الحسن ـ صاحب الكتب المشهورة الاغاني ومقاتل الطالبيين ، وادب الغرباء ، وقد اشار اليه الهمذاني ناقلا عنه قصيدة نسبتها اليه دون ان يشير ان كان قد نقلها من احد كتبه ام عن طريق الرواية الشفوية وكانت في هجاء البريدي عند تقلده الوزارة سنة ٣٢٧هـ[٣٠]

التنوخي : ابو علي المحسن بن ابي القاسم القاضي[٣١] : صاحب كتاب نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة : وقد اشار اليه في احد عشرا موضعا ، ناقلا عنه معلومات تتعلق بالوزراء حامد بن العباس ، وعلى بن الفرات والمهلبي وابن الفضل ، العباس بن الحسن الشيرازي ، وبعض الامراء مثل : طغج

---

(٢٦) ن ـ م : ١٥٣

(٢٧) ن ـ م : ١٥٤

(٢٨) كحالة معجم المؤلفين ٧ ، ٢٣٦

(٢٩) الهمذاني : ص ٢٠

(٣٠) الهمذاني ص : ١١٣

(٣١) لناعنه دراسة منشورة باسم القاضي التنوخي وكتاب النشوار بغداد ١٩٦٦

الملقب بالاخشيد ، وكمعلومات اخرى تتعلق ببعض المشهورين مثل امام الحنفية ابن الحسين الكرخي ، والشاعر المتنبي ، ومعلوم ان كتاب النشوار من الكتب المستفيضة باخبار القرن الرابع الهجري ، المأخوذة عن اصحابها مباشرة، او عن السجلات الرسمية لاسيما ماتعلق منها بالرواتب او المصادرات او واردات ضياع الخلفاء والوزراء والكتاب(٣٢) .

التميمي : نقل الهمذاني عن خطة مباشرة بقوله : « ووجدت بخط التميمي قال ... » والكلام يتعلق بالزاهد ابي عمر غلام ثعلب المتوفي سنة ٣٤٥هـ (٣٣) ، او « نقلت من خط التميمي ... « وهي ثلاث مقطعات من الشعر منسوبة لابن دريد ابي بكر صاحب الجمهرة (٣٤) .

التوحيدي : ابو حيان ولقد نقل عنه في موضعين دون ان يسمى الكتاب الذي نقل عنه ، وذكر الامتاع والمؤانسة في موضع اخر ، وكان نقله في الموضعين الاولين عن الوزير المهلبي والوزير ابي الفضل العباسي بن الحسن الشيرازي(٣٥) وفي الموضع الثاني بعض المعلومات عن احداث سنة ٣٦٤هـ وهي السنة التي عمّت فيها الفوضى ، وظهرت سطوة العيارين والشطار(٣٦) .

الثعالبي : ابو منصور عبدالملك بن محمد صاحب اليتيمة ، وفي اليتيمة نقل الهمذاني عدة قطع من الشعر تكمل بها معلومات عن الاشخاص الذين ترد اخبارهم خلال سن الكتاب كقصة ابن ابكر الخوارزمي التي يرثي بها ركن

---

(٣٢) انظر الهمذاني : الصفحات ، ٣٧ ، ٤٦ ، ١٥٣ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٧٧ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٥ ، ٢٠٨ .

(٣٣) ص ٧٦

(٣٤) ص : ١٧١

(٣٥) ص : ١٨٦ ، ٢١٢

(٣٦) ص : ٢١٧

الدولة البويهي[٣٧] وثلاث قصائد للشاعر ابن الحجاج (١٨ بيتا) [٣٨] و (١٧ بيتا) [٣٩] ، و(٢١ بيتا)[٤٠] ، وكانت القصيدتان الاخيرتان في عز الدولة البويهي كما ورد لابن الحجاج قطعتين اخرين [٤١]

جحظة : وهو احمد البرمكي :[٤٢] وقد نقل عنه الهمذاني قصة وقعت له مع الوزير العباسي بن الحسين ، اكمل بها معلوماته عن هذا الوزير[٤٣] ثم ابيات في نكبة الوزير علي بن الفرات[٤٤] الهمذاني لم يشأ ان يذكر لنا من كتب جحظة واشعاره جمعها (ابو نصر المرزبان [٤٥]

ابن حاجب النعمان رئيس الروءساء ابو الحسن ، نقل من خطه قصة تتعلق بالمقريء ابن مجاهد ابو بكر الذي توفي سنة ٣٢٤هـ[٤٦] .

الخطيب البغدادي : ابو بكر احمد بن ثابت : والمعلومات التي استقاها من تاريخ بغداد او مدينة السلام ، اكمل بها معلوماته عن بعض الاشخاص الذين وردوا في التكملة امثال الفقيه الاديب محمد بن داود الاصبهاني[٤٧] . وابي هاشم عبدالسلام الجبائي المتكلم ، وامام اصحاب ابي حنيفة عبدالله بن الحسين الكرخي [٤٨] .

---

(٣٧) ص : ٢٣٠
(٣٨) ص : ٢٣١
(٣٩) ص : ٢٣١
(٤٠) ص : ٢٣٢
(٤١) ص : ٢٣٥ ـ ٢٣٦
(٤٢) ابو الحسن احمد بن جعفر بن موسى بن يحيى البرمكي ت ٣٢٦ هـ انظر ابن خلكان : وفيات ج١ ص ١٣٣
(٤٣) ص ٨
(٤٤) ص : ١٩ .
(٤٥) انظر ابن النديم : الفهرست : ١٤٥ ابن خلكان وفيات ج ١ص : ١٢٣
(٤٦) ص : ٩٥ .
(٤٧) ص : ١٠
(٤٨) ص : ٧٦ ، ١١٨ ، ١٣٠ ، ١٦٥

ثابت بن سنان بن ثابت ،الذي مرت الاشارة اليه[٤٩] والى اهمية تاريخية الذي داخل الطبري واكمل عليه حتى سنة ٣٦٣هـ والذي كان احد موظفي البلاط العباسي واحد المطلعين على امور الدولة ، ولهذا كان لكتابه اهمية خاصة ، وقد نقل عنه الهمذاني بعض المعلومات عن ابن قرابة صديق والد ثابت بن سنان[٥٠] وعن الحاجب ابي جعفر السجدي[٥١] ومعلومات عن الوزير ابن مقلة قدمها ثابت بن سنان عن معرفته بهذا الوزير حيث ذكر انه كان عائدا له اثناء مرض اصابه [٥٢] ثم معلومات عن مقدار اموال الامير التركي بجكم [٥٣] واخيرا اختيار الامير التركي توزون للمستكفي خليفة [*]

الشيرازي : الشيخ ابو سحاق ، في كتاب الفقهاء ، ومنه نقل الهمذاني حكاية تتعلق بالاديب الفقيه محمد بن داود الاصبهاني صاحب كتاب الزهرة[٥٤]

ابو اسحاق ابراهيم بن هلال[٥٥] وهو كاتب الانشاء وصاحب الرسائل المشهورة وهو جد المؤرخ هلال الصابي الذي ورد اسمه في اول البحث وقد اقتبس الهمذاني من رسائله .

---

(٤٩) انظر فقرة (١ . الكتاب)

(٥٠) ص : ٦٨

(٥١) ص : ٨٥

(٥٢) ص : ٩٤

(٥٣) ص : ١٢٢

(*) الصفدي ، تاريخ الحكماء . ٧٥

(٥٤) ص : ١٤٢

(٥٥) ص انظر ترجمة عند ابن خلكان : وفيات ج١ : ٥٢ . الصفدي ــ تاريخ الحكماء ص ٧٥ .

هلال بن المحسن الصابي ، وقد مرت الاشارة الى كتابه وقد اخذ منه الهمداني معلومات عن لقاء الوزير علي بن عيسى للامير البويهي معز الدولة وكيف ان الاخير طلب راي الوزير في اصلاح البلاد[٥٦] وبعض المعلومات عن الوزير ابن العميد[٥٧]

الصولي ابو بكر محمد بن يحيى ، ولم يشأ ابن الهمداني ان يذكر اسم الكتاب الذي نقل عنه واكتفى بذكر (الصوبي) مجردا ناسبا اليه معلومات عن نسب احد الخارجين بافريقية واسمه عبيد الله بن عبدالله[٥٨] ومعلومات عن منشأ الوزير علي بن الفرات وعن اخوته[٥٩] .

ابو نصر[٦٠] : في كتاب المفاوضة حيث اخذ منه بعض المعلومات عن المحدث العدل دعلج بن احمد بن دعلج المتوفى سنة ٣٥١هـ[٦١] .

ج ــ مصادر غير مذكورة : وهي مصادر لم يشأ ان يذكرها وذلك اما لشيوع المعلومات التي استقاها منها وكثرة ورودها في المؤلفات التاريخية على عهده، واما ان المعلومات كانت مما بقي من ذاكرته من محفوظاته وهو ما اشار اليه في مقدمة الكتاب بقوله : « ما حفظت من شعر الشعراء وحكايات العلماء تشهد بالحال . » ولهذا كان يكتفي بقوله : « قال صاحب الحكاية

---

(٥٦) ص : ١٥٤

(٥٧) ص : ٢٠٧

(٥٨) ص : ١٤

(٥٩) ص : ٤٦

(٦٠) ذكر حاجي خليفة كتاب المفاوضة لابن الحسن محمد بن علي وانه مصنف للملك العزيز جلال الدولة ووصفه بالامتناع ص ٢٥٨ ج ٢ ولاندري ان كان هو نفس الكتاب اعلاه ام غيره .

(٦١) ص : ١٨٢

وكان الكلام عن إملاك القاضي أبي عمر لبعض القادة وحضور الخليفة المقتدر لحفلة الاملاك هذه وسماعه خطبة القاضي بالمناسبة[٦٢] وفي موضع اخر اكتفى بالقول « قال بعض أهل العلم » وكان الكلام عن تشييع جنازتين ابن هشام عبدالسلام بن محمد بن عبدالوهاب الجبائي وجنازة ابن دريد وهما شيخا الكلام والادب[٦٣] واستعمل في موضع ثالث كلمة (حكى) وكان الكلام مرة يدور حول سيف الدولة الحمداني ، ووروده بغداد في اثناء امرة توزون[٦٤] واخرى تدور حول وجود همدان ببغداد سنة ٣٥٨هـ[٦٥] .

٣ ـ منهـج الكتاب

وضع الكتاب ـ كما اشرنا ـ تكملة لتاريخ الطبري ولهذا فهو سير على نهجه أي يؤرخ حسب توالي السنين وقد بدأ بحوادث سنة ٢٩٦/٩٠٧م وكان يبرز عناوين استخلاف الخلفاء او استيزار الوزراء ضمن اماكنها من سلسلة السنين فمثلا تحت عنوان خلافة المقتدر باللهضمن اماكنها من سلسلة السنين فمثلا تحت عنوان خلافة المقتدر بالله ذكر خلافته ، واسمه الكامل وتاريخ ميلاده ، وظروف بيعته ثم بعد ذكره خلافة المقتدر بدأ بذكر الاحداث لسنة ٢٩٦ هـ على سبيل الاختصار . وبشكل متقطع اي انه يورد احداث الوزراء بعدها خبر او جملة اخبار تتعلق بالاطراف وبعدها ذكر قتل قائد خارج على الدولة ... وهكذا اورد اخبار . بشكل تراكمـي .

وقد كشف الهمذاني في مقدمة كتابه عن منهجه هذا من حيث الاختصار وايراد المشهور من الاخبار بقوله « واختصرته بجهدي ولخصته بحسب طاقتي واقتصرت فيه على الامور المشهورة والاحوال السائرة المأثورة ، وختمته ببيعة

---

(٦٢) ص : ٣٠

(٦٣) ص ٧٥

(٦٤) ص : ١٩٨

(٦٥) ص ٢٠٢

سيدنا ومولانا الامام المستظهر بالله امير المؤمنين الذي قضى حق الله في بريته وارتسم امره في رعيته ... » (٦٦)

وذكر في مقدمته هذه السبب الذي حدى به ان يبتدي بسنة ٢٩٦هـ ، ولم يبدأ من حيث انتهى الطبري الى سنة ٣٠٢ هـ وذلك انه راى الطبري قد اشار الى الامور في هذه السنين الاخيرة من تاريخه اشارة خفيفة غير منفصل فيها كشأنه في اول كتابه وذلك بقوله : « ولما ختم ابن جرير تاريخه سنة اثنتين وثلاثمائة وهي السنة السابعة من خلافة المقتدر بالله رضي الله عنه واشار الى الامور اشارة خفيفة ، رايت ان ابتدي بخلافته ووقت بيعته وبالله التوفيق (٦٧)

اما عن المساحة المخصصة لاخباره فلم تكن متساوية انما كانت متعلقة باهمية الخبر او توفير المادة عنه . لهذا فقد نجد اخبار سنة ٣٠٣هـ قد شغلت حوالي الصفحة ، نصفها تقريبا عن احد شيوخ المعتزلة وهو ابو علي الجبائي الذي توفي في هذه السنة ، والنصف الاخر جملة من الاخبار(٦٨) . اما اخبار سنة ٣٠٥ فانها اكثر اختصارا ، حيث لم تتجاوز خمسة اسطر (٦٩) في حين خصص لاحداث بعض السنين مساحات اوسع من ذلك بكثير فقد خصص لكلام الحلاج ست صفحات تتعلق بمحاكمته واستفتاء الفقهاء في امره والقاء القبض على بعض اتباعه اتبعها سبع قطع من شعره(٧٠) .

---

(٦٦) ص : ٣

(٦٧) ص : ٤

(٦٨) ص : ١٦ ــ ١٧

(٦٩) ص : ١٩

(٧٠) ص : ٢٢ ــ ٢٨

كما انه لم يكن يلتزم بطريقة واحدة من حيث الابتداء او الانتهاء في اخبار السنين اي انه قد يبدأ بذكر الاحداث السياسية ثم يورد خلال العام اخبار وفيات المشهورين او يجعلها في اخر اخبار السنة ، وقد يبدأ بها احيانا اخرى كما حصل في عام ٣٢٣ هـ حيث بدأه بذكر من توفي فيه ، ثم ذكر من جملة اخباره معاقبة رجل يقرا بقراءة شاذة واخبار من حج بالناس ، في حين نجد الطبري يجعل اخبار الحج في اخر اخبار العالم(٧١) الا انـه التزم طريقة واحدة بالنسبة للمعلومات المتعلقة بالخلفاء من حيث ذكر اسـمائهم واسماء امهاتهم ، ومدة خلافتهم بالسنين والاشهر والايام وذكر من اجلسهم وبايع لهم من القادة العسكريين او الوزراء وقد مر بنا ، اتباعه هذا النهـج بالنسبة للخليفة المقتدر وكذلك فعل بالنسبة لبقية الخلفاء المذكورين وهم : القاهر بالله ، والراضي بالله ، والمتقي لله ، والمكتفي بالله ، والمطيع لله ، والطائع لله .(٧٢) وعمل على نفس الشيء الامراء بنو بويه فقد جعل للامير عز الدولة ابي منصور يختار عنوانا خاصا ثم ذكر والده ، ومدة امارته ، وما قيل فيخلقه وخلقته وقوة بدنـه(٧٣) .

وكان الهمذاني يختار من المادة المتوفرة لديه الشفوية او المودعة في المؤلفات الغزيرة فيعهده او يختصر منها على قدر حاجته للتمثيل او الاستشهاد فانه مثلا في اثناء تناوله للوزير حامد بن العباس اشار الى سوء اخـلاقه وسـاق قصة كلامـه الى القهرمانة أم موسى التي جاءته تكلمه وتطالبـه على لسان السيدة ام المقتدر بالراتب الشهري المخصص لها، والقصة مذكورة

---

(٧١) ص : ٨٧

(٧٢) ص : ٧١،٨٢،١١٩،١٤٤،١٥٠،٢١٥

(٧٣) ص : ١٩٦

في مروج الذهب للمسعودي ، وفي نشوار المحاضرة للتنوخي وكان من جملة رده قوله .. « .....والتقطي واحذري ان تغلطي » واكتفى بهذه الكلمات حاذفا كلمة مقذعة ، وقد اكتفى بالاشارة الى ان قوته معروفة [٧٤] .

ومن قبيل اختياره للمادة واختصاره لها ماقاله في اثناء كلامه عن ابي السائب عتبة بن عبيدالله قاضي القضاة « ولابن سكرة فيه قصائد تجنب اثباتها » .[٧٥] وكذلك اكتفى بالاشارة الى كثرة اشعار القرمطي صاحب البحرين وشيوعها وانه لم يورد منها سوى قطعة صغيرة باربعة ابيات وردت في آخر رسالة كتبها القرمطي الا الامير مؤنس قائد جيش الخليفة سنة ٣١٦هـ [٧٦] .

وكذلك عمد الى الاخبار المشهورة والمعروفة فلخصها واختار منها ثم ترك الباقي بعد ان اشار اليه كقوله في اثناء كلامه عن الوزير ابن مقلة « وجرى على ابن مقلة من المكاره مايطول شرحه . وضرب بالمقارع ...»[٧٧] وكان الهمذاني يستعرض المادة الموجودة امامه فلا يكتفي بالاختيار فقط بل كان يحيط القاريء علما بامور لها صلة بالاحداث التي يكتب عنها . لهذا نجده في سنة ٣٢٥هـ ينظر الى خارطة الدولة العباسية وقد مزقتها حركات الانفصال والعصيان فيقول : « وغلب على الدنيا الطوائف ، فصارت واسط والبصرة والاحواز في يد البريدي وفارس في يد علي بن بويه ، كرمان في يد ابي على بن الياس والري واصبهان والجبل في يد ركن الدولة ابي علي بن بويه ووشكمير ، والموصل وديار ربيعة وديار بكر في يد بني حمدان ومصر والشام ... ولم يبق في يد الراضي وابن رائق غير السواد »[٧٨] .

---

(٧٤) ص : ٢٠
(٧٥) ص : ١٧٩
(٧٦) ص : ٥٥
(٧٧) ص : ٩٤
(٧٨) ص : ١٠٦

وقد يشير عند كلامه عن احداث القرن الرابع قبلا الى الاحداث المشابهه التي وقعت في القرن الثاني الهجري ، لاسيما اذا كانت الحادثة حكاية او قصة وقعت لاحد الناس[٧٩] ولعله كان يوردها من اجل العبرة او من قبيل تحلية تاريخه . بهذه القطع الادبية شأنها شأن الشعر الذي اورده .

كما انه يشير منبها القاريء الى ماسيتناوله بتفصيل عن الاحداث الكبيرة مثل ظهور البويهيين حيث قال : في سنة ٣١٥هـ « في هذه السنة كان ظهور الديلم » وذلك على اثر ترك قائد الجيش العباسي لمدينة الري وماحصل من نزاع حولها بين الامراء المحليين والقادة الطموحيين .

وكان الهمذاني يربط ما يؤرخه مما وقع قبل عصره وبين ماهو موجود على عهده مثال ذلك ماقاله في اثناء حوادث سنة ٣٣٤هـ وهي السنة التي دخل فيها الامير البويهي ابو الحسن معز الدولة بغداد ، ونزل بدار مؤنس : « ... ومن جملة دار مؤنس المدرسة النظامية اليوم »[٨٠] وكذلك عند كلامه على وفات المحدث العدل دعلج بن احمد بن دعلج . قال : « وله خان بسويقة غالب عند قبر سريج وقف على اصحاب الشافعي رحمه الله الى اليوم.»[٨١]

ويبدو ان الهمذاني كان اديبا الى جانب كونه مؤرخا فان مقدمته التي وصفها الكتاب التكملة تنبيء بقابلياته الادبية وكذلك صياغته لاخباره في ثنايا الكتاب فانك كما يقول المحقق تجد اسلوبه سهل ، كتعبير ،لاحشو فيه ولازخرف صناعة ، لذلك جاءت جملته الاخبارية قصيرة بخلاف جملة ابن الاثير ، وابن مسكويه واضرابهما[٨٢] ولعله قد تأثر بكتابات الادباء والمؤرخين

---

(٧٩) ص : ٣٤

(٨٠) ص : ١٤٨

(٨١) ص : ١٨٢

(٨٢) ص : ٩ المقدمة

الذين رجع اليهم امثال الصابي (هلال) ، والتوحيدي ، والقاضي التنوخي كما يطالعك ولعه الادبي بكثرة اقتباساته لاشعار الجياد فقد كانت في متناول يده طائفة كبيرة من اشهر شعراء القرن الرابع الهجري ، وهذا ما سنتناوله في مادة الكتـــاب •

٤ ـ مادة الكتـــاب :

أ ـ الحياة السياسية :

١ ـ العالم الاسلامي : كما كان كتاب تكملة تاريخ الطبري كتابا عاما يسير وفق نظام الحوليات لذلك أرخ لاحداث العالم الاسلامي الشرقية الممتدة من العراق الى خراسان ومن بلاد الروم واذربيجان والديلم الى اليمن جنوبا ، وارخ لبلاد المغرب الاسلامي حتى افريقية ، ولم يمتد ابعد من ذلك•

لذلك نجد فيه مادار في بلاد فارس من صراع بين المطموحين من القادة المحليين وصلة اولئك بدولة الخلافة[٨٣] ثم سجل لنا الصراع الدائر الرحى بين المسلمين وفي مقدمتهم الحمدانيين وبين البيزنطيين برا وبحرا ولقد سبقت الاشارة الى ان الهمداني لم يورد اخباره بشكل متواز فقد تكون اخبار سنة من السنين مختصرة مقتضبة كما حصل في اخبار سنة ٣١٠هـ حيث اكتفى بهذه الجملة « توالت الفتوح على المسلمين برا وبحرا فقرئت الكتب علـى المنابر بذلك »[٨٤] وقد تخلل اخباره عن الروم ماقام من صلة سلمية حدث فيها تبادل في الرسل والهدايا[٨٥] •

اما اخبار الجنوب العربي فقد سجل حركات القرامطة وتابعها سنويا كمتابعتــه لاخبار الحمدانيين في الشمال سواء منها تحركاتهم داخل نطاق الخليج العربي او داخل الجزيرة العربية او صعودهم الى الكوفة والحديثة[٨٦]

---

(٨٣) انظر بلاد فارس من فهرست الكتاب .

(٨٤) ص : ٢٩، وانظر ص : ٩٧، ١٢٩، ١٦١ ، ١٦٧ .

(٨٥) ص : ١١١

(٨٦) ص : ٤٠، ٤٣، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٦٢، ٩٥، ١٠٢

وكذلك حفل كتابه باخبار مصر والشام[٨٧] وافريقية الا انه لم يتوغل اكثر من ذلك الى المغرب الاقصى او الاندلس[٨٨] .

ب ـ العراق : كان من الطبيعي ان نرى جل اخباره عن العراق فان الهمداني كان يعيش في بغداد مقر الخلافة فهو يسمع ويرى لمن تتلمذ عليهم او حضر مجالسهم كما كان في متناول يده سيلاً من المؤلفات التاريخية والادبية تؤرخ او تحدث عن عصره والعصور السابقة لذا كان الطريق امامه معبدا سهل الارتياد ، ان شاء لخص وان شاء اختصر او هذب وهذا ما عمله لهذا لم نره يظهر رايه فيما تعرض له من ترجيح او رفض او تأييد لان ماقدمه هو مختار من بين اكداس الكتب الموجودة في متناول يده . وعلى كل حال فانه سجل احداث الوزارة وصلتها بالخليفة وبالقادة والجند الاتراك.[٨٩] وقد كان الجيش في هذه الفترة عبئا ثقيلا على كاهل الدولة واداة ارباك لماليتها حتى وصفه بعض المعاصرين بان مساوئه كانت اشبه بمساوىء الجيش الامبراطوري الروماني بالنسبة للدولة الرومانية ، والجيش الانكشاري بالنسبة للدولة العثمانية[٩٠] فقادة الجيش هم الذين يولون الخلفاء او يعزلونهم وهم الذين يختارون الوزراء او يعزلونهم ، واذا حدث الخلاف بين قادتهم حول خليفة او وزير كانت الكارثة وكانت الفتن الداخلية والمؤامرات وما يتبعها من مصادرات واضطراب لاحوال البلاد المالية . اما الجند فعبثهم

---

(٨٧) ص : ١١٧

(٨٨) ص : ١٤ ، ٢١ ، ٢٢ .

(٨٩) انظر عن الوزير علي بن عيسى ص : ١٣ ، وعن حامد بن العباس ص : ٣١ وعن ابن الفرات ص ٣٢ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ والوزير الخاقاني ص : ٤٧ وعن ابن مقلة ص : ٩٤ ، والكلوذاني ص : ٦٣ .

(٩٠) فليب حتي : تاريخ العرب ص ٦٠٢

مرعون بمصالحهم المادية وولائهم لم يكن ثابتا لزعيم معين فهم مع اكثرهم مالا وعطـــاء [91] .

ب ـ الحياة المالية :

في كتاب التكملة معلومات كثيرة عن الاوضاع المالية المختلفة كنزاع الخلفاء والوزراء وقادة الجيش ومدخولاتهم السنوية منها ، والمصادرات المالية ومقدار ماكان يؤخذ من الوزراء بعد تنحيتهم باساليب لم تكن تعرفها دولة الخلافة من قبل [92] كما ان فيه اخبار ضمان بعض البلاد التابعة لدولة الخلافة للولاة وكيفية سداد مقدار الضمان لخزينة الدولة [93] اضافة الـــى المعلومات المتعلقة بغلاء الاسعار وانخفاضها نتيجة استقرار الاوضاع السياسية او عدمها . كما ان في الكتاب اخبار الكوارث المؤدية بحياة النـــاس او الحيوان[94] .

ج ـ الحياة الثقافية

تضمن كتاب لتكملة في جملة ماتضمن معلومات عن الحياة الثقافية من خلال ذكره لوفيات المشهورين خـــلال تسلسله لحوادث التاريخ . ولم يكن الهمذاني يكتفي بايراد تاريخ وفاة احد الادباء او اللغويين او غيرهم بل كان يتطرق لحياتهم ويذكر اسماء مؤلفاتهم مثال ذلك كلامه عن ابي اسحاق ابراهيم بن السري المشهور بالزجاج المتوفي سنة ٣١١هـ فقد خصص له ٣١ ســطرا

---

(٩١) انظر عن مشاكل الجيش الصفحات : ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ١١٠

(٩٢) ص : ١٣ ، ١٧ ، ٢٥ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٦٣ ، ١٥٧

(٩٣) ص : ٢١ ، ٢٢

(٩٤) ص : ٩٣ ، ١٢٠ ، ١٥٢

حوالي صفحة كاملة ونصف[٩٥] . في حين بلغت اخبار الحوادث المختلفة في بعض السنين صفحة واحدة . وممن ذكرهم ايضا ابو بكر بن الانباري مشيرا لعلمه وتصانيفه وكثرة حفظه[٩٦] .

اما ايراده الشعر فقد بالغ في ذلك حتى كاد ان يخرج بكتابه التكملة من نطاق كتب التاريخ الى كتب الادب لكثرة استشهاده بالشعر او ايراده القصائد الطوال التي قيلت في مدح الامراء ولاسيما ابو فراس الحمداني وقد نقل من كتاب (الفسر) لابن جني قصائد المتنبي في مدح هذا الامير لاننا نجد شروح ابن جني في كثير من المواضيع تالية لابيات المتنبي توضح اغراضه، وتفسر ما غمض من تعابيره . وكانت مدائح المتنبي بعد كل غزوة يقوم بها سيف الدولة ضد البيزنطيين سواء كان منتصرا فيها او مدافعا او هاربا[٩٧] .

ومن جملة من نقل من شعرهم سيف الدولة نفسه[٩٨] ، ومن شعراء سيف الدولة ، الشاعر السري الرفاء[٩٩] والببغا[١٠٠] وابي نصر بن نباته السعدي[١٠١] والنامي[١٠٢] . كما انه اورد قطعا في مدح وزراء وامراء تلك الفترة امثال معز الدولة البويهي حيث اورد قصيدة للشاعر ابن نباته السعدي

---

(٩٥) ص : ٣٩

(٩٦) ص : ١١٥

(٩٧) ص : ١٢٩، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٦، ١٩٤، ٢٠٦ .

(٩٨) ص : ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٩

(٩٩) ص : ١٦٩ ، ١٧٤ ،

(١٠٠) ص : ١٨٣ ، ١٩٠ ، ١٩٨ .

(١٠١) ص : ١٦٤ ، ١٨٦

(١٠٢) ص : ١٣٧ ، ١٤٧ ، ١٦٧ ١٩١

في مدحه[١٠٣] وقصيدة لنفس الشاعر في مدح الوزير المهلبي[١٠٤] • وقصيدة للشاعر ابن الحجاج في مدح ابن العميد[١٠٥] • ومن الجدير بالاشارة ان بعض هذه القصائد كانت طويلة تصل ابياتها ١٩ بيتا وان عدد هـذه القصائد الطويلة كبيرة بالنسبة لكتاب تاريخ مختصر ككتاب التكملة وعلى كل حال فان الهمذاني قـد اعلن رغبتـه في تثبيت الشـعر وايراده في كتابه في مقدمته حيث قال « واضفت الى ذلك ما حفظته من شعر الشعراء وحكايات العلماء تشهد بالحال »[١٠٦]

د ـ الحياة الاجتماعية

وفي هذا المجال يظهر كتاب التكملة موقف جماهير العامة في العراق ازاء اضطراب الاحوال المتمثل بمؤامرات الوزراء والحاشية وقادة الجيش قبل السيطرة البويهية • وبعد سيطرة البويهين على مقاليد الحكم بالبلاد واستبدادهم بالخليفة وكف يده عن العمل واعتداءاتهم على الناس سواء كانوا باعة في الاسواق او تجارا او فلاحيين • واقلاقهم للحياة السياسية كتبديلهم للخلفاء والوزراء مما ينتج عنه اضطراب الاسعار وغلائها وفقدان المؤن من الاسواق •وكانت هذه الامور مما تثير العامة وتحفزها للوثوب بوجه الوزراء او القادة ، او الجند الديلم • فلو تتبعنا وثبات العامـة وتحركاتها كرد فعل على تلك الاوضاع السائدة في تلك الفترة خـلال الحقب المتلاحقة لوجدنا العامة سنة ٣٠٧ تضج من غلاء الاسعار وتهجم على المساجد تكسر منابرها وتقطع اقامة الصلاة وتحرق الجسـر • ممـا أدى

---

(١٠٣) ص : ١٩١

(١٠٤) ص : ١٦٤

(١٠٥) ص : ٢٢٤

(١٠٦) ص : ٣

بالوزير حامد بن العباس الى الرضوخ لمطالب الجماهير بتسعير الغلات وبيع مخزون الحكومة منها مما ادى الى تسكين حالهم[١٠٧] الا ان الاسعار عادت الى الصعود سنة ٣٠٨هـ مما ادى الى تحرك الجماهير مرة اخرى[١٠٨] ففي سنة ٣١٢هـ يعبث القرامطة بامن الناس وراحتهم باعتداءاتهم ونهبهم الاموال مما ادى بالعامة الى اعلان غضبها على تخاذل الحكومة برجم سفينة الوزير ابن الفرات ، وقطع الصلاة في الجماعات[١٠٩] . ولما سمعت العامة بتنحية ابن الفرات عن الوزارة وقفت له مترصدة على دجلة حتى اذا مرت السفينة حاملة الوزير رجمته بالحجارة[١١٠] .

كما ان العامة قاتلت في البر وفي دجلة في سنة ٣٢٩، ٣٣٠هـ جند البريدي الذي كان يثير ضد دولة الخلافة وينوي السيطرة على امور البلاد حسب مشيئته[١١١] . وقد كان الخليفة يستنفر العامة للوثوب الى جانبه ضد العصاة من الامراء او القادة والطموحين للسيطرة كما حدث سنة ٣٣٥هـ[١١٢] . وجاء في حوادث سنة ٣٣١هـ ان الجند الديلم اخذوا الدقيق من الدكاكين في منطقة (قطيعة ام جعفر) مما ادى بالعامة الى الوثوب بوجههم[١١٣] . وفي سنة ٣٤٥ هـ ضجت العامة من احد القادة الديلم وهو روزبهان الذي اعلن عصيانه فرجمته بالحجارة عند مروره

---

(١٠٧) ص : ٢١

(١٠٨) ص : ٢٢

(١٠٩) ص : ٤٣

(١١٠) ص : ٤٤

(١١١) ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ .

(١١٢) ص : ١٢٦

(١١٣) ص : ١٣٤

بدجلة[١١٤] . اما في سنة ٣٦٢هـ فان العامة ثارت ضد خمار صاحب الشرطة وقتلته واحرقت جثته لانه كان قد قتل رجلا من العامة . ولما تولى الجيش مكان خمار عهد الى قتل احد العيارين في سوق النخاسين مما اثار العامة مرة اخرى ودفعها لقتال صاحب الشرطة فكان من جراء هذه الثورة وقوع الحرائق في جملة من الاسواق من النخاسين الى سوق المساكين . وذهب ضحيتها بعض الرجال والنساء الذين ماتوا حرقا داخل الدور او الحمامات الموجودة في تلك المنطقة[١١٥] .

ومما ورد من امور الحياة الاجتماعية في ثنايا الكتاب اخبار الجواري سواء المغنيات منهن مثل سريرة الواثقية[١١٦] تجني جارية الوزير المهلبي[١١٧] او القهرمانات[١١٨] وما قمن به من ادوار سياسية[١١٩] او اخبار بعض الزهاد[١٢٠] ومدعي الربوبية [١٢١].

وكذلك اخبار اللصوص[١٢٢] . وقطاع الطرق امثال عمران ابن شاهين الذي اعتصم بالبطائح جنوب العراق مدة طويلة[١٢٣] ــ

---

(١١٤) ص : ١٧١

(١١٥) ص : ٢١١

(١١٦) و (١١٧) ص : ١٢٩ و ١٧٧

(١١٨) ص : انظر بحثنا عن القهرمانات مجلة المناهل

(١١٩) ص : ٣١،٣٤،٤٢،١٤٣ .

(١٢٠) ص : ٤٩

(١٢١) ص : ٨٦

(١٢٢) ص : ٢٢

(١٢٣) ص : ١٦٢ ، ١٦٥

هـ ـ امور اخرى

ولقد حوى تاريخ الهمذاني امورا اخرى لاتندرج تحت العناوين السابقة سجلها لنا في اوقات حدوثها كاخبار الحرائق[١٢٤] ، وبناء مارستان[١٢٥] او ظهور حيوان غريب[١٢٦] ،او زيادة الماء في نهر دجلة والفرات وقت الفيضان[١٢٧] او سقوط القبة الخضراء التي بناها الخليفة ابو جعفر المنصور[١٢٨] • او تغير احوال الطقس [١٢٩] •

٥ ـ النقول من مؤلفاته

يبدو ان ابن خلكان كان اكثر من غيره اطلاعا على كتب الهمذاني واستفادة منها حيث اشار الى عدة كتب كما ياتي :

١ ـ كتاب المعارف المتأخرة : وقد نقل منه بعض مايتعلق بترجمة تميم ابن المعز الفاطمي محدداً تاريخ وفاته بسنة ٣٧٥هـ[١٣٠] •

وكذلك نقل منه بعض مايتعلق بترجمة ابن العلاق الشاعر ابي بكر الحسن بن علي النهرواني المتوفي سنة ٣١٨ او ٣١٩هـ الذي رثى الوزير المحسن بن الفرات ايام محنته وكنى عنه بالهر لانه لم يجسر ان يذكره في مراثيه[١٣١] •

---

(١٢٤) ص : ٩٧ •

(١٢٥) ص : ١٢١

(١٢٦) ص : ١٧

(١٢٧) ص : ٢٢ ، ٢١ ، ١٢٦

(١٢٨) ص: ١٢١

(١٢٩) ص : ٢٢

(١٣٠) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ج١ ص : ٣٠٢ ط احسان عباس

(١٣١) ن • م ٢ : ١٨

وفي اثناء ترجمة ابي المكارم مسلم بن قريش الملقب سيف الدولة العقيلي نقل من هذا الكتاب مايتعلق بالحرب التي دارت بين الامير العقيلي وبين سلطان دولة الروم السلاجقة سليمان بن قتلميش عند باب انطاكية في خامس عشر صفر سنة ٤٧٨هـ(١٣٢) •

٢ ــ كتاب عنوان السير : وقد سماه ابن خلكان عيون السير ،ولعلها الاصوب ، ناقلا عنه في اثناء ترجمته لناصر الدولة بن حمدان ابي محمد الحسن بن عبدالله ليكمل بهذا النقل معلوماته عنه حيث جاءت في اخر الترجمة متناولة اخريات حكم ناصر الدولة ، وكيف قبض عليه ابنه الغضنفر سنة ٣٥٦هـ بعد ان كان اميرا على ديار الموصل وما جاورها مدة اثنين وثلاثين سنة • وذكر وفاته في سنة ٣٥٧هـ ، وذكر مقتل ابنه ببغداد وهو يدافع عن الامام القاهر بالله سنة ٣١٧ واكتفى بالاشارة الى انها قصة مشهورة •

ثم تناول بعد ذلك الغضنفر بن ناصر الدولة مختصرا اخباره وما جرى له مع عضد الدولة بقوله : « قضايا يطول شرحها ، وحاصلها ان عضد الدولة •••» قصده بالموصل فهرب منه الى الشام ثم توجه الى الرملة فقتل هناك في ذي القعدة سنة ٣٢٨هـ (١٣٣) ويبدو واضحا ان الهمذاني كان في امكانه التطويل والتفصل في سرد الاحداث وانه كان يملك المصادر عن هذه الاحداث التي اشار اليها الا انه فضل الاختصار والاكتفاء بالاشارة لانها متداولة بايدي الناس ومصادرها متوفرة • وهذا يعطي ثقة بكتب الهمذاني اولا ويوضح عنوان الكتاب ثانيا حيث جعله مختصرا مختارا اذ اختار من الاخبار عيونها •

---

(١٣٢) ن • م ٥ : ٢٦٨

(١٣٣) ن • م ج ٢ : ١١٦

ومن هذا الكتاب ايضا وقد اكد ابن خلكان تسميته (بعيون السير) كما سماه بالتاريخ الصغير نقل معلومات عن ابي بكر محمد بن طغج الاخشيد ذاكرا عدد جيشه اربعمائة الف رجل ، وانه كان جبانا ، وان له ثمانية الاف مملوك يحرسونه في كل ليلة الفان منهم ويوكل بجانب خيمته الخدم اذا سافر ثم لايثق حتى يمضي الى خيم الفراشين فينام فيها . وانه لم يزل على ملكه حتى توفي ٣٣٤هـ بدمشق ، وحمل تابوته الى بيت المقدس فدفن به (١٣٤) .

كما نقل منه في اثناء ترجمته لابي الفضل ابن العميد ، محمد ابن العميد ابي عبدالله الحسين الكاتب ، وكيف ان الشاعر ابا الطيب المتنبي قصده مع جملة شعراء الى ارجان ومدحه هناك بقصائد . وكيف ان ابن العميد اعطاه ثلاثة الاف دينارا (١٣٥) .

ثم اخيرا نقل من هذا الكتاب بعض ترجمته ابن بقيه الوزير ابي طاهر محمد بن محمد الذي وزر لعز الدولة بختيار بن بويه بعد ان كان يتولى المطبخ حتى قال الناس : من الغضارة الى الوزارة . وان كرمه ستر عيوبه (١٣٦) .

ومن هذا الكتاب نقل ابن الفوطي وسماه (عنوان السير) في اثناء ترجمته لابي طاهر باتكتين بن عبدالله النشاري الامير الملقب بالمختص الذي تقلد واسطا حربا وخرابا كما تقلد معها الكوفة سنة ٤٣٦هـ . وكان حسن السيرة يخرج من ماله ويتصدق به . وان وفاته كانت بارجان سنة ٤٤١هـ (١٣٧)

---

(١٣٤) ن . مج ٥ : ٥٩

(١٣٥) ن . م : ٥ : ١٠٥

(١٣٦) ن . م : ٥ : ١١٩

(١٣٧) ابن الفوطي تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب ٤ ق ٢ ص ٤٥١

وقد اورد الكتاب شمس الدين السخاوي وسماه ايضا (عنوان السير)[138]

٣ ـ كتاب الذيل على تاريخ الوزير ابي شجاع :[139] (التالي لكتاب تجارب الامم لابن مسكوية) وقد سماه ابن خلكان ذيل تجارب الامم على سبيل الاختصار اذ عنوان الكتاب هو الصحيح لان الوزير ابي شجاع الروزراوري هو الذي ذيل على تجارب الامم لمسكويه ثم جاء بعده الهمذاني فذيل كتاب الروزراوري وقد نقل منه ابن خلكان بعض مايتعلق باخبار الكاتب ابي الفوارس ابن الخازن الحسين بن علي المتوفي سنة ٥٠٢هـ[140] .

٤ـ كتاب ذيل طبقات الفقهاء : وهو الكتاب الذي ذيل به على طبقات الفقهاء للشيخ ابي اسحاق الشيرازي (ت هـ) وقد نقل منه ابن خلكان **بعض ما يتعلق بترجمة ابي سعيد المتولي عبدالرحمن بن محمد الفقيه** النيسابوري الشافعي المتوفي سنة ٤٧٨هـ[141] . ولعل من هذا الكتاب نقل السبكي (ت ٧٧١هـ) بعض ما يتعلق بفقهاء الشافعية الذين ترجم لهم في طبقاته وان اكتفى بذكر اسم الهمذاني دون اسم كتابه كما هو الحال عند ترجمته محمد بن المظفر الحمري القاضي الشافعي المتوفي سنة ٤٨٨[142] . وكذلك عند ترجمته الوزير نظام الملك الحسن بن علي الطوسي[143] .

---

(١٣٨) السخاوي : الاعلان بالتوبيخ ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين ص: ٦٧٠ .

(١٣٩) نشرت قطعة منه مع تجارب الامم اعتناء امدروز . والروزراوري هو محمد ابن الحسين من وزراء الخليفة المستظهر بالله (ت ٤٨٧ هـ

(١٤٠) ابن خلكان : ٢ : ١٩٨

(١٤١) ن ٠ م

(١٤٢) السبكي طبقات الشافعية الكبرى ٤ : ٢٠٢

(١٤٣) ن ٠ م : ٣٦١

٥ ـ كتاب تكملة تاريخ الطبري : او ذيل تاريخ الطبري

وقد نقل من هذه التكملة او الذيل جملة مؤرخين هم على الترتيب

أ ـ ابن الجوزي : عبدالرحمن بن علي (ت ٥٦٧هـ) في كتابه المنتظم في تاريخ الملوك والامم)

نقل عنه بعض مايتعلق بسيرة الخليفة القادر بالله وكيف انه كان يتزيا بزي العوام تخفيا عن عيون الناس ويرتاد مقابر الاولياء مختلطا بالناس يسمع شكواهم ولا يعرفونه(١٤٤) .

ب ـ ونقل عنه في ترجمته لعبيد الله بن محمد المعروف بابن بطة المتوفي سنة ٣٨٧هـ قولا في ابن برها (عبدالواحد الاسدي) الذي جرح ابن بطة كان يميل الى المرد الملاح ويقبلهم(١٤٥) وكرر نفس النقل عندما ترجم لعبد الواحد الاسدي في حوادث سنة ٤٥٦هـ (١٤٦) .

ج ـ ونقل عنه في اثناء حوادث عام ٤٢٦هـ ماجاء عن الماوردي من منع جواز استعمال لقب شاهان شاه الاعظم ملك الملوك لجلال الدولة البويهي وكيف ان جلال الدولة استدعاه واكرمه لانه جاهر بالحق ولم يماري (١٤٧) .

د ـ ونقل عنه في اثناء حوادث سنة ٤٥٠ عند ترجمته لعلي بن الحسين ابي القاسم ابن المسلمة الوزير(١٤٨) .

---

(١٤٤) ابن الجوزي : المنتظم ٧ : ١٦١

(١٤٥) م ن م : ١٩٥

(١٤٦) ن . م : ٨ : ٢٣٧

(١٤٧) ن . م : ٨ : ٩٧ .

(١٤٨) ن . م : ٨ : ٢٠١

هـ ــ ونقل عنه في اثناء حوادث سنة ٤٥١ هـ بعد عودة الخليفة القائم من حديثة الى بغداد على اثر انتهاء عصيان البساسيري[١٤٩]

و ــ ونقل عنه في اثناء حوادث سنة ٤٧٤ خبرا عن محاولة قتل شرف الدولة مسلم بن قريش في الحمام من قبل احد خدمه[١٥٠]

ب ــ ابن الدبيثي : محمد بن سعيد (ت٦٣٧هـ)

في كتابه ذيل تاريخ بغداد ــ وقد نقل عنه في اثناء ترجمته لعماد الدين ابي نصر احمد بن عبدالله بن احمد بن رضوان البغدادي الرئيسي . وكان الهمذاني قد ذكره باعتباره من المحدثين ومن شيوخه هو [١٥١] .

ج ــ ابن خلكان ابو العباس احمد بن محمد (ت ٦٨١) في كتابه وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ــ نقل معلومات تتعلق بترجمات

١ــ السلطان طغرلبك ابي طالب محمد السلجوقي المتوفي سنة٤٥٥هـ في مدينة الري [١٥٢] .

٢ ــ والسلطان محمد بن ملكشاه[١٥٣] .

٣ ــ والسلطان ملكشاه بن الب ارسلان [١٥٤] .

٤ ــ والوزير نظام الملك [١٥٥]

---

(١٤٩) ن . م : ٨ : ٢١١

(١٥٠) ن . م : ٨ : ٢٢١ ، وانظر ج ٧ ص ١٠٥

(١٥١) ابن الدبيثي ــ ذيل تاريخ بغداد عن تلخيص مجمع الاداب ج ٢ ق٢ ص ٦٦٣

(١٥٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٥ : ٦٧

(١٥٣)ن . م ٥ : ٧٢

(١٥٤) ن . م : ٥ : ٢٨٥ ، ٢٨٦

(١٥٥) ن . م ٥ : ٢٨٧

٥ ــ والوزير ظهير الدين ابي شجاع محمد بن الحسين الروزراوري المتوفي سنة ٤٨٨هـ [١٥٦]

٦ ــ وابي الحسن علي بن اسماعيل الاشعري[١٥٧]

د ــ ابن الفوطي : كمال الدين عبدالرزاق بن احمد (ت ٧٢٣هـ) في كتابه تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب ــ وكان نقله حول التراجم التالية :

١ ــ عزالدين ابو سلطان بدران بن بركه بن سلطان الخفاجي الامير وكان من اكابر بني عقيل[١٥٨] .

٢ ــ عزالدين ابو الحسن سعادة بن عبدالله الرومي المستظهري الخادم الرسائلي المتوفي سنة ٥٠٠[١٥٩] .

٣ ــ عماد الدولة ابي المظفر ابراهيم بن ايلك نصر المعروف بطنغاج التركستاني المتوفي سنة ٤٧٠هـ [١٦٠] .

٤ ــ فخر الدولة شرف الوزراء ابو نصر محمد بن محمد بن جهير الموصلي نزيل بغداد المتوفي سنة ٤٨٣هـ [١٦١] .

٥ ــ كريم الملك ابو غالب هبة الله بن زيد بن القاسم الاصفهاني نائب الوزراء المتوفي سنة ٤٩٥هـ[١٦٢] .

---

(١٥٦) ن . م : ٥ : ١٣٥

(١٥٧) ن . م ٣ : ٢٨٣

(١٥٨) تلخيص مجمع الاداب جـ ٤ ق ١ ص ٤٣ .

(١٥٩) ن . م ١٥٨

(١٦٠) ن . م ق ٢ ص : ٦٥٠ .

(١٦١) ن . م ق ٣ ص : ٣٦٣

(١٦٢) ن . م ج ٥ ق ١ ص : ٨٩ ــ ٩٠

٦ ــ كمال العراقين ابو العزابق بن عبدالله الجلالي الحاجب[١٦٣]

٧ ــ كهف الاسلام والمسلمين يمين الدولة ابو القاسم محمود بن سبكتكين الغزنوي السلطان[١٦٤] .

٨ ــ المتوسم بسيف الله جمال الدولة ابو المظفر عبدالرشيد بن يمين الدولة محمود بن سبكتكين الغزنوي[١٦٥] .

٩ ــ مجد الوزراء الامين ابو الفتح منصور بن الامين احمد الشيرازي وزير الامام القائم بامر الله العباسي[١٦٦] .

١٠ ــ معتمد الدولة ظهير الدين ابو منصور طغتكين بن عبدالله اتابك التركي والى دمشق[١٦٧] .

١١ ــ معز الدولة ابو عبدالله محمد بن محمد بن محمد الديزقي الفقيه الوزير[١٦٨]

١٢ ــ معين الدولة ابو نصر سقمان بن ارتق بن الب التركماني صاحب ديار بكر[١٦٩] .

١٣ ــ ملك العرب سيف الدولة بن الحسن صدقة بن منصور بن دبيس الاسدي صاحب الحلة[١٧٠] .

---

(١٦٣) ن ٠ م : ١١١

(١٦٤) ن ٠ م ٢١٢

(١٦٥) ن ٠ م ق ٢ ص : ٥٩

(١٦٦) ن ٠ م ص : ٢٦٢

(١٦٧) ن ٠ م ص : ٦٢١

(١٦٨) ن ٠ م ص : ٦٣٦

(١٦٩) ن ٠ م ص : ٦٦٥

(١٧٠) ن ٠ م ص : ٧٥٨

١٤ ـ مناصح الخاصة ابو العز اقبال بن عبدالله الحبشي استاذ الدار[١٧١]

١٥ ـ المناصح فيروزتكين بن عبدالله الديلمي الامير[١٧٢] .

هـ ـ الذهبي : شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمد (ت ٧٤٨هـ) في كتابه (سير اعلام النبلاء ـ ترجمة الوزير ظهير الدين ابي شجاع محمد بن الحسين الروزراوري المتوفي سنة ٤٨٨هـ[١٧٣] .

وكذلك ترجمة قاضي القضاة ابي عبدالله محمد بن علي الدامغاني الشافعي[١٧٤] .

---

(١٧١) ن . م ص : ٧٦٤

(١٧٢) الذهبي : سير اعلام النبلاء ج١٢ ورقة ٦

(١٧٣)

(١٧٤) ن م ج : ١١ ورقة ٢٥٩ (أ)

جريدة المصادر والمراجع

١ ــ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ــ بيروت ١٩٦٦م

٢ ــ جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ــ مراجعة الدكتور حسين مؤنس دار الهـــلال

٣ ــ ابن الجوزي : المنتظم ــ الهند ١٣٥٨هـ

٤ ــ حاجي خليفة : كشف الظنون ،ط : ٣ همدان ١٣٧٨ هـ.

٥ ــ حتي : فليب خوري : تاريخ العرب ــ ترجمة محمد مبروك نافع ــ القاهرة ١٩٥٣

٦ ــ ابن خلكان : وفيات الاعيان ــ ط احسان عباس .

٧ ــ ابن الدبيثي : ذيل تاريخ بغــداد ــ مخطوطة مصورة في مكتبة الدراسات العليا بكلية الاداب جامعة بغداد .

٨ ــ الذهبي : سير اعــلام النبلاء ــ مخطوطة مصورة .

٩ ــ السبكي : طبقات الشافعية الكبــرى ــ تحقيق الحلــو والطناحــي القاهرة ١٠٦٨

١٠ــ السخاوي : الاعــلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ــ ضمن كتاب علم التاريخ عند العرب لروزنتال .

١١ــ الصفدي : الوافي بالوفيات ــ ط فيسبادن

١٢ــ الطبري : تاريخه المقدمة التي كتبها محمد ابو الفضل ابراهيم

١٣ــ ابن الفوطي : تلخيص مجمع الاداب . نشر الدكتور مصطفى جواد .

١٤ــ القفطي : تاريخ الحكماء ، ليبزك ١٩٥٣

١٥ــ ابن كثير : البداية والنهاية ــ نشر مكتبة المعارف ومكتبة النصر ١٩٦٦م

١٦ــ كحــالة : عمر رضا : معجم المؤلفين ــ بيروت دار احياء التراث العربي

١٧ــ المراكشي : المعرب في تلخيص اخبار المغرب ــ ط محمد الفاسي

١٨ــ ابن النديم الفهرست مطبعة الاستقامة

١٩ــ ابن الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري ــ بيروت طبعة ٢ سنة ١٩٦١

٢٠ــ ياقوت الحموي : معجم الادباء باعتناء احمد الرفاعي .

دراســات في الحضــارة والمدنية

بحث السيد/احمد عيسى القطان
كليــة الاداب ــ جامعة بغــداد

١ ــ ماهية الحضارة والمدنية :

تضاربت الاراء حول معنى الحضارة والمدنية ، فلا يوجد معنى واحــد لهاوحتى في العلوم الاجتماعية نفسها لايوجد اتفاق بين العلماء على معاني محددة لهذه الالفاظ • ومع كل هذا نستطيع اذا ما استعرضنا المعاني المختلفة لهذه المصطلحات في العلوم الاجتماعية ان نعطيها مفهومين :ــ

المفهوم الاول :

وهو الاكثر اهمية ، هو ان المدنية بحد ذاتها ماهي الاشكل من اشكال الحضارة ، وفي طيها نجد ثلاثة اشكال لاستخدام كلمة مدنية :

آ ــ استخدام كلمتي حضارةومدنية بمعنى واحد اي كمرادفين •

بـ المدنية هي الحضارة حين تتعقد هذه وتتميز بخصائص معينه •

جـ ــ المدنية هي الحضارة اذا ما وصلت الى درجة واضحة من الرقي • وامكن قياسها بمقاييس خاصة •

المفهوم الثاني :

ويستند على مقابلة المدنية بالحضارة ، فالحضارة تتجرد حتى تصبح معبرة عن مجرد افكار ومبتدعات انسانية متعلقة بالاساطير والدين والفن والادب ،

في حين ان المدنيـــة تـــدل على المبتدعــات الانشائيـة المتعلقـة بالعلـــوم التكنولوجية[1] •

اما عن علماء الانثروبولوجية الحضارية الاوائل فكانوا يعتبرون المدنية والحضـــارة ذات معنى واحد من حيث المســاواة ، فالعـــالم الاجتماعي الانثروبولوجي الانـكيزي ادورد تايلـر (E. Tylor) كان مترددا في مدلولهما فاحيـانا يقـــرر ان المدنية او الحضـارة في معناهـــا الاثنوكرافي (Ethnography) الواســع هي : ذلــك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والاخلاق والقانون والعادات واية قدرات اخرى يكتسبها الانسان من حيث هو عضو في المجتمع[2] •

وعند العالم الاجتماعي الفرنسي اميل دوركهايم (E. Dorkheim) وتلاميذه او ضحوا بأن ليس هناك فرقا بين مصطلحي الحضارة والمدنية فلفظ المدنية والحضارة متحدان عند الانثروبولوجين وعلماء الاجتماع الاوائل ، وان اختلف بين العلماء الانكليز والفرنسيين •

بعد هذا بدأت مرحلة جديدة في استخدام اللفظين ، ففريق من العلماء يذهب قائلا الى ان المدنية شكل من اشكال الحضارة يختلف نوعا وكيفا عن الاشكال الاخرى وهذا المفهوم لايزال قائما حتى يومنا هذا • وهذا بطبيعة الحال يرجع الى القرن الثامن عشر الميلادي حين كان العلماء متأثرين بما احدثته الاكتشافات العلمية في القرن السابع عشر والثامن عشر الميلادي من تقدم وتطور في مجال الحياة الاجتماعية وكانت المدنية عندهم تعني التحضر والتمدن •

---

(١) معجم العلوم الاجتماعية ص٢٣٢ــ٢٣٤ تصدير ومراجعة ، ابراهيم مذكور سنة ١٩٧٥

(٢) Edward Tylor, Primitive Culture, London, p. 246 1871.

فالمدنية عند العلماء في القرنين السابع عشر والثامن عشر هي (مجموعة من القيم والنماذج التي تحققها الانسانية في تطوورها ،ومجموعة من الانماط الاجتماعية والاخلاقية والصناعية التي يحققها المجتمع للوصول الى السعادة الانسانية) .

فالعالم الاجتماعي الفرنسي كوندرسيه (١٧٤٣ ـ ١٧٩٤) يقول :

ان المدنية عبارة عن اختفاء الحروب والاستعمار والبؤس ، ثم يأتي العالم الاجتماعي جيزو : بقوله ان المدنية : عبارة عن سيادة امبراطورية العقل الخالد على العالم .

وكان يعتقد بعض مفكري القرن التاسع عشر بأن المدنية خاصة بالمجتمعات الغربية حيث اعتبروا ان التقدم العلمي والتطور التكنولوجي هو المعيار للتفرقة بين الشعوب المتحضرة والشعوب غير المتحضرة ، وهذا ما يمكننا الرد على هذا القول المتعصب والصيغة الفحوى جعل علماء القرن التاسع عشر الميلادي ان يأخذوا مثل هذا المعيار وهو معيار العلم والتقدم التكنولوجي اكثر من اتخاذهم معايير اخلاقية كأساس لتلك التفرقة .

فالعالم شبنكلر (Spengler) في فلسفته للتاريخ يعرف المدنية بأنها مرحلة تفسخ الحضارة . تلك المرحلة تفقد فيها الحضارة حيويتها الخلاقة ، ومن ثم تتحول الى شيء ميكانيكي جامد[٣] . في حين ذهب العلماء في تعريفهم للحضارة بأنها المجموع الكلي لما يتعلمه الفرد في مجتمعه من سلوك [٤] .

---

(٣) د . احسان محمد الحسن . علم الاجتماع ـ ص١٥١ـ١٥٣ مطبعة اوفسيت بغداد١٩٧٦ .

(٤) E. Adamson Hoebel "The Nature of Culture", In Ed. by Herry Shapiro, **Man, Culture & Society** (New York Oxford univ. Press 1971) p. 208.

اما علماء القرن العشرين فقد فرقوا بين المدنية والحضارة دون اصدار احكام قيمية على شعوب متحضرة أو غير متحضرة ، اذ لكل شعب حضارته بدائيا كان أم متطورا فله معايير علمية وتكنولوجية خاصة به • بينما يرى آخرون : أن مصطلح الحضارة Culture يستعمل على الاقل في مفهومين مختلفين Different Senses المفهوم الاول : يشير الى أن الحضارة هي مظهر مركب فوق البشر ، أو ربما هي تخص طريقة حياة جماعيه معينة •

المفهوم الثاني : وهذا ما يشير اليه علماء الانثروبولوجي حيث يصفون الحضارة بأنها أساليب منجزه وتقتبس من قبل الفرد Individual كأي شيء وراثي[٥] •

ان الحضارة تهتم بالنواحي الاخلاقيـة والروحيـه في حياة المجتمع الى جانب المظاهر المدنية • ويتعلق بتلك المعايير الخاصة بالمدنية اكتظاظ المدن المزدحمة بالسكان ، ووجود صناعات وحرف معقدة تقـوم على التخصص الدقيق •

ان العالم كروالبيه (Kroelier) يربط فكرة المدنية بتطور المجتمع العلمي والتكنولوجي ، وان كان لاينكر مالهذا التطور من اثر في المجـال الحضاري او الاخلاقي ، ففي انتشار العلم والتكنولوجيا مثلا مايصرف الناس عن التعديل على السحر والشعوذة ، وهناك علماء آخرون يفرقون بين المدنية والحضارة على اساس الكم لا الكيف • فالمدنية شكل معقـد من اشـكال الحضارة • يقول بيلز (Beals) وهويجر (Hoiser) ان المدنيات كلها قديمها وحديثها والسائد منها اليوم ليست الا حالات خاصة من الحضارة

---

(٥) Mischa Titiev, Inroduction to Cultural Anthropology (New York Henry Holt and Co. 1959) p. 11.

تتميز بكمية مضمونها ونقد انماطها ، ولكنها لا تختلف عن الناحية الكيفية والنوعية عن حضارات من يسمون بالشعوب غير المتحضرة[٦] .

وهنالك بعض العلماء يفصلون مجال المدنية عن الحضارة نهائيا ، فهم يقصرون كلمة حضارة على النظم والمعايير التي تعبر عن حياة الجماعة الروحيه كالدين والادب والفن والغايات الأخلاقيه العليا .

اما المدنية فتنصب على المظاهر المادية والميكانيكية التي ابتدعها الانسان في محاولة لضبط ظروف حياته . وهذا المعنى الذي ساد عند العلماء الالمان وعلى رأسهم الفريد ڤيبر (A. Weber) الذي استقى منه العالم الاجتماعي الاميريكي مكيفر أفكاره (R. M. Maciver) ويتضح أن اغلب من فصلوا المدنية عن الحضارة تأثروا جميعا بعلماء الاجتماع الالمان .

هذا وقد انشأ العالم الاجتماعي الالماني الفريد فيبر علما خاصا لدراسة المدنية والحضارة واطلق عليه علم الاجتماع الحضاري (Sociology of Culture) وبرهن فيه على ان المدنية تستند على العقل بالاضافة الى انها لا وطن لها ، وذلك لان نماذجها تنتقل بسهولة من مجتمع الى اخر . اما الحضارة فأساسها العاطفة والقيم الروحية وهي تقوم على الكمال الروحي والفلسفي للانسان ، واخذ عنه في هذا ـ كما قدمنا ـ من الامريكيين العالمين الاجتماعيين مكيفر و اودم (R.M. Maciver & H. W. Odum) غير ان معظم العلماء الامريكيين يعتقدون ان المدنية هي جزء من الحضارة .

اما علم الحضارة عند العالم الاجتماعي العربي التونسي (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) ابن خلدون هو ... علم العمران البشري والأجتماع الانساني .

---

(٦) A. L. Beals & Hoiser. The Macmillan Co, New York 1959. In Introduction to Anthropology, Third Edition p. 271, 272.

وفي الحقيقة فان ابن خلدون نظر الى تطور المجتمع البشري من خلال مروره في اربع حالات تتدرج من البساطة الى التعقيد : وهي حالة البداوة ، وحالة الملك وحالة الحضارة ، وحالة التمدن •

فمفهوم الحضارة اذن عند ابن خلدون هو ذلك النمط من الحياة المناقض للبداوة والمتصف بالاستقرار في الحضر اي المدن ، والقرى وما تنشأ من زراعة للارض وانتظام في الأدارة والصنائع والعلوم ومكاسب العيش ومن وسائل الرفاه الاخرى •

فالتعريف الحديث للحضارة حسب البحوث الاجتماعية الحديثة تعني مستوى معينا للحياة المادية والروحية والاجتماعية لمجتمع من المجتمعات اي يقصد بها مجموع الحياة التي يحياها شعب واحد او شعوب عدد ، بما تضم من تنظيم في الحكم وسبل في تحصيل المعاش وعلاقات اجتماعية ومعرفة نظرية وقواعد سلوكية وغيرها من المقومات التي تتمثل بها تلك الحياة[٧] •

وبالاضافة للتعاريف المتعددة لمفهوم الحضارة فأن هناك تعاريفا أخرى •

فهناك تعريف العالم الالماني كوستاف كليم (Custav Klemm) (١٨٠٢ ـ ١٨٦٧) حيث قال ان الحضارة هي : مجموعة العادات والمعلومات والمهارات والحياة الخاصة والعامة في الحرب والسلم والدين والعلم • وتتمثل الحضارة في نقل تجارب الجيل الماضي للجيل الحاضر •

ويعرف الاستاذ روبرت لوي (Robert Lowie) (١٨٨٣ ـ ١٩٥٧) الحضارة بأنها (مجموع ما يحصل عليه الفرد من مجتمعه ، أي المعتقدات والتقاليد والنماذج الفنية ، والعادات المتعلقة بالغذاء والحرف ، التي تضاف لا عن طريق فعالياته الابداعية بل كميراث من الماضي ينقل اليه بالتعليم العفوي او المنظم) •

---

(٧) سلطان ناجي مظاهر الحضارة اليمنية القديمة في محاولة تطبيق التفسير التوينبي عليها عن مجلة آفاق عربية . العدد الثاني ، السنة الرابعة ص٨٤ تشرين الاول سنة ١٩٧٨ •

اما الاستاذ رالف بدنكتن (Ralph Piddington) فيأتي بتعريف فريد ، اذ يرى ان مدنية شعب ما تتكون من (مجموعة الادوات المادية والفكرية التي يستطيع بها ذلك الشعب اشباع حاجاته الحياتية والاجتماعية وتكييف نفسه لبيئته) •

ويعرفها الاستاذ فلفل جرسكوفنس (M. Herskovits) بانها (الجزء الذي يخلقه الانسان من البيئة) • ثم يصفها بانها : (تتعلم وتلقن وذات كيانات متميزة وقابلة للتقسيم الى اوجه مختلفة ومتغيرة وتتفرغ من كل حاضر المكونه لوجود الانسان)

ويذهب العالم الاجتماعي ماثيوارنولد (M. Arnold) فيعرف الحضارة بانها دراسة الكمال والبحث عن الجمال والضياء فهي حالة داخلية للعقل والروح لايمكن ان تنعكس في الظروف الخارجية المحيطة بالانسان [٨] •

ان المدنية هي عبارة عن نظام قائم في مجتمع له عقيدة ودين وفلسفة خلقية توحد انماط السلوك المختلفة وتمكن الناس للقيام بعمل جماعي • وخير ما يمثل الحضارة وجود المؤسسات الاجتماعية التي تعين الناس على العمل الموحد وعلى انسجام وجهات النظر والوصول للاجتماع في الرأي وقت الخطر المداهم الذي يحيق بالامه •

من هذا نستطيع القول اذن ان الحضارة تصبح ذات عامل موحد[٩] واخيرا ان الحضارة والمدنية تميز جميع المجتمعات الانسانية ، فحتى المجتمعات البسيطة فيها نوع من الحضارة والمدنية ومثل هذه الحضارة والمدنية تعمل على رسم طبيعة اطارها الحياتي ، وتحدد معالمها الاجتماعية •

---

(٨) د • احسان محمد الحسن ، علم الاجتماع ص١٥٢ لسنة ١٩٧٦ مطبعة اوفسيت بغداد •

(٩) د • عبدالجليل الطاهر • المشكلات الاجتماعيه ص١٤٢-١٤٣ مطبعة دار المعرفة ، بغداد سنة ١٩٥٣ ......

وعندما تقوم شعوب المجتمعات البدائية بتغيير معالم البيئة الطبيعية التي تعيش فيها وتسخر القوى المائية والهوائية لفائدتها وتستغل المياه والتربة واشعة الشمس في الاغراض الزراعية او تمارس طقوسها الدينية وعاداتها الاجتماعية فانها تكون قد تأثرت وأثرت على طابع الحضارة والمدنية في آن واحد[١٠] •

وقد قال البعض من الكتاب بأن المدنية تتصل بنظام الدولة • بينما ترتبط الحضارة بحياة الشعب وفي معنويته •

اشتقت كلمة (مدنية) او (تمدن) (Civilization) من اللغة اللاتينية (Civilitas or civilis) وقد عنت بادىء ذي بدء المجاملات التي اظهرها الرومان للشعوب المغلوب على امرها •

اما في العصور الوسطى فقد شمل استعمال الكلمة معاني جديدة فقد عرفها الفيلسوف دانتي (Dante) في كتابه المشهور De Manarchia بانها وحدة اجتماعية ذات كيان ووجود فوق الفرد ، كالعائلة والامة الا ان المعنى الحديث قد تطور على ايدي الفلاسفة العقليين في القرن الثامن عشر وفي مقدمتهم الفيلسوف الفرنسي فولتير والكتاب الانسكلوبوديون •

اما الكتاب المحدثون فانهم يصرون على التفريق بين الكلمتين ، كما انه ليس من الممكن الاكتفاء في البحث عن الحضارة في المظاهر المادية المحسوسة فقط •

الفروق الاساسية بين الحضارة والمدنية

اذا حاولنا استعمال كلمة (حضارة) Culture للاشارة الى مجتمع يسود فيه نظام خلقي وعقيدة مشتركة ، فأن كلمة (مدنية) Civilization تتصف بالاقليمية وبالروح المحلية ، أو بالمفهوم المكاني الجغرافي ، وهي نتاج الفعاليات المادية والاقتصادية •

---

(١٠) د • احسان محمد الحسن ص١٥١ـ١٥٢ • مطبعة اوفسيت عام ١٩٧٦ •

فالحضارة تستند على اذابة العناصر الغريبة والمختلفة ، بعملية من التمثيل الاجتماعي ، وذلك بتحويل انظمتها الدينية والخلقية الى قوانين دنيوية ففي ظل الأمبراطوريات يعيش الناس من مختلف العناصر والاجناس جنبا الى جنب وبالنتيجة تسود حضارة واحدة في كافة المجتمعات • ولايمكن قيام الحضارة بوجود الانقسامات الطائفية والطبقية حيث أن نشأتها وتطورها وازدهارها يتطلب اجماعا في الرأي لان الاجماع في الرأي يعني وجود تفاهم عام ، وأهداف عامة ـ ومصالح مشتركة حيث ان النقل الفكري عن طريق المساهمة والمشاركة في حياة عامة •

يعتبر العالم الاجتماعي الالماني الفريد فيبر (A. Weber) مؤسس علم الاجتماع الحضاري (Sociology of Culture) حيث اعتبر (الحضارة) ظاهرة روحية أبداعية وحرة •

او هي (المجموعة الحية) في البنية الاجتماعية ؛ بينما وصف (المدنية) بكونها ظاهرة عقلية ؛ وهي نتاج جهد الانسان للسيطرة على المحيط الطبيعي والحضاري عن طريق الذكاء والعلم والصناعة • بينما تتوخى الحضارة (تحقيق الروح) او (النزوة العاطفية) [11] •

ولعل من ابرز الفروق بين الحضارة والمدنية هو (التعاقد) ـ المكانة الاجتماعية ـ • ففي المدنية يرتبط الناس بعضهم بالبعض الاخر عن طريق التعاقد ، بينما يحاول الفرد في الحضارة ان يضمن حاجاته النفسية والمادية بالحصول على مكانة اجتماعية •

ويمكن القول بأن الحضارة ظاهرة فريدة • ((Unique)) اذ تختلف اختلافا كبيرا عن العناصر المكونة للمدنية التي تباع وتشترى •

---

(١١) د • عبدالجليل الطاهر • المصدر السابق ص١٤٣

ثم ان من مقومات المدنية لاتتصف بالقدسية والاحترام كمقومات الحضارة ، لان بأستطاعة كل فرد ان يدخل في حوزته المدنية لغرض التمتع بفائدتها ومنفعتها •

ويعتقد الفيلسوف شبنكلر (Spengler) بأن كل حضارة (Culture) تميل لتصبح في الاخير مدنية Civilization فكلما اتسعت المدنية وتعقدت الحياة اشتدت الهجمات والضربات التي تسددها المدنية ضد الحضارة ، حيث يميل سكان القرى والارياف الى كسر الروابط العائلية المقدسة والنزوح الى المدينة ليشيدوا جزرا حضارية منعزلة ، سرعان ماتتلاشي حدودها وسط مدنية معقدة ومركبة ـ لانها تحررهم من القيود الاولى ولانها مؤسسة على العلاقات الثانوية غير الشخصية •

تضعف المدنية الجذور الحضارية للناس فتقضي على تضامنهم •••• وتعمل على هلهلة النسيج الاجتماعي ، وبناء على ذلك فأن نمو المدن وأدخال التعاقد يؤدي الى زعزعة مكانة الحضارة بالنسبة للمدنية Civilization

يصبح التفريق بين الحضارة والمدنية في قولنا ان الحضارة مؤسسة على العلاقات الاولية التي يسود فيها التجاذب الروحي والتضامن العائلي ، بينما تتحكم العلاقة المكانية والجغرافية في المدنية •

ان الروابط التي تربط افراد الحضارة الواحدة بعضهم مع البعض الاخر هي المشاعر ، والالتزامات الخلقية والروحية والاخلاص والولاء المتبادل بينما تعم في المدنية الروابط المحلية والتجارية • تتصف الحضارة بالعصبية العنصرية •

بينما تتميز المدنية بمحبة الوطن ـ اي الاخلاص لمجتمع يشغل رقعة معينة من الارض ـ يحل الشعور بالحرية في المدنية محل التضامن والانسجام في الحضارة •

لهذا من الممكن اعتبار الحرية نتاجا لفكرة الحدود السياسية والاقليمية حيث توجد الحضارة بوجود النظام العائلي المقدس ، بعكس المدنية التي تنعش المصلحة الفردية • تستند المدنية على فكرة المجتمع الاقليمي القائمة على اساس التعاون التنافسي ، بينما تقوم الحضارة على الاجماع في الرأي • يبنى النظام الاجتماعي في الحضارة على التقاليد والعادات الاجتماعية والاداب الشعبية Folkways بينما النظام الاجتماعي في المدنية على الرأي العام المميز بالانقسام والتبدل وبعدم الاستقرار •

قلنا بأن المدنية قائمة على فلسفة نفعية معيارها الكفاءة والمهارة والتخصص وغاياتها معلومة وقابلة للتنبؤ والقياس ، وهي مجتمعة ومتطورة تنتقل عن طريق التجارة والتبادل ، بينما يتم نقل الحضارة بالمساهمة في الشعور وفي التفكير المتشابهين ولما كانت الحضارة نتاجا للروح الانسانية وتنتقل بالتجاذب الروحي ، وان الحضارة لها تأثيرها الواضح على حياة الافراد منذ الولادة الى الموت سواء كان هذا التأثير شعوريا Conscious أو غير شعوريا Unconscious كما أنها تمارس ضغطها بأنماط وأساليب معينة مؤثرة في سلوكه[١٢] وبالتقدير والاعجاب المشترك وبموجب ذلك يمكن أن تكون المدنية وسيلة من وسائل النقل الحضاري ، عن طريق الراديو والتلزيون في نقل الغناء والموسيقى •

تغير الحضارة والمدنية

يعتقد العالم الاجتماعي الامريكي وليم اوكبرن Wm. Ogburn وغيره من العلماء • أمثال كنزبرك وهوبهوس وويلز بأن الحضارة تقسم الى قسمين : الحضارة المادية ، والحضارة المعنوية • ويؤكد وليم اوكبرن ان الحضارة المادية تنمو بسرعة تسوق الحضارة المعنوية ، ويضيف قائلا ان طبيعة الحضارة تتجلى

---

(١٢) Edited by Richard Kluckhohn, culture & Benhaviour (N. Y. The Free Press 1962). p. 25.

ليس في حياة الموضوع نفسه ، وأنما في طريقة صنعه ، التي تتنقل من جيل الى جيل ـ وعلى اساس التعاون بين قسمي الحضارة ـ صاغ نظريته في التلكوء الحضاري Cultural Lag Theory وقد ارجع وليم اوكبرن التبدل الحضاري الى عامل واحد هو الاختراع ، وخاصةفي القسم المادي من الحضارة •

الا انه في كتاباته الاخيرة يعترف بأن (المدنية) تشير الى المراحل الاخيرة من تطور (الحضارة) ، وعلى كل حال فلو استثنينا العالم الاجتماعي وليم اوكبرن الذي يرغب بأستعمال كلمة الحضارة لانها تتضمن حكما خلقيا ومقاييس ذاتية نجد كثيرين من علماء الاجتماع من يفرق بين المدنية وبين الحضارة ، فليس من المعقول اذن استعمال احدهما بدلا عن الثانية لوجود اختلافات كبرى بينهما •

وهنا لابد من الاشارة الى نظرية التحول الاجتماعي التي نادى بها العالم الاجتماعي وليم اوكبرن لكي نلقي الضوء على عمليات التحول الاجتماعي في المجتمع بصورة اكثر وضوحا •

لقد اشتهر العالم الاجتماعي وليم اوكبرن في نظريته عن التحول الاجتماعي ، وحسب هذه النظرية ان التغيرات التي تحدث في حضارة اي مجتمع من المجتمعات تكون هنالك فجوه GAP يدعوها وليم اوكبرن بالتلكوء الحضاري والتي يعني بها ان التغيرات المادية في الحضارة اسرع في وقوعها من التغيرات التي تطرأ على الحضارة غير المادية ، وتنص هذه النظرية على ان الحضارة شيء عضوي اشتقت من الافكار الكلاسيكية الاغريقية حول المجتمع وتحليله المنطقي • وتعتقد نظرية التلكوء الحضاري ان التغير يسير في اتجاه طولي ثابت ، وهنا تتفق هذه النظرية مع النظرية الحديثة التلقائية للتغير الاجتماعي التي اعتقد بها كل من العالمين الفرنسي اوكست كومت والانكليزي هربرت سبنسر •

ويعتقد وليم اوكبرن ان التقدم في صناعة الالات التكنولوجيه يعطي التغير الحضاري اتجاها طوليا بمرور الزمن ، الا ان التغير هو عملية قابله للزيادة والتراكم ، وعليه فأن الهبات المتراكمة التي تمنحها الاجيال للحضارة تستخرج من الاختراع ، وهذا ينتج من داخل المجتمع او عن طريق الانتشار الذي يأتيه من الخارج

في الحقيقية ان الاختراعات تعتمد على نوعية القاعـدة الحضاريـه الموجودة في المجتمع وعلى القيم الاجتماعية المشجعة للاختراع .

ان المجتمع قد يعارض فكرة قبـول الاختراعات خصوصـا اذا كان الاختراع مفيدا للمجتمع ولم يبرهن نفسه على ان لديه القدرة على تغير المجتمع وقلب نظام حياته ، كما ان الاختراعات تقاوم من ناحية اخرى لكونها تتعلق بزعزعة القطاعات الحضارية الاخرى ، او بسبب تكاليف الاختراع او بسبب ظهور المصالح الشخصية التي تتعارض مع الاختراع لانه يعمل على تغييرها .

ويضيف وليم اوكبرن قائلا : انه في المستقبل البعيد سوف تسير مكونات الحضارة المادية وغير المادية (المعنوية) بدرجة من الانسجام في تقبلها للتغير في المجتمع . وبفضل الاختلافات التي تقع في منظمات المجتمع بشأن مدى سرعة تكيفها للتغير الحضاري بشقيه المادي والمعنوي .

يمكن استعمال وتطبيق نظام التلكوء الحضاري في شرح مصادر بعض المشاكل الاجتماعية التي يمكن معالجتها . وبذلك يمكننا اعادة تأسيس البيئة الاجتماعية عن طريق احداث تغيرات سريعة في المؤسسات الخاصة في المجال الحضاري غير المادي ، وبنفس الوقت ضبط وتقييد سرعة معدل التغير في العلم والتكنولوجيا . ومع هذا فأن وليم اوكبرن يدعي بأن المشاكل الاجتماعية والتوترات النفسية يمكن ان يسيطر عليها عن طريق احداث تغيرات في تركيب المجتمع[١٣] .

---

(١٣) علم الاجتماع احسان محمد الحسن صص٢٩٩-٣٠٢ مطبعة اوفسيت بغداد ١٩٧٦

ولو اخذنا نظرية التلكؤ الحضاري التي جاء بهاالعالم الاجتماعي وليم اوكبرن وطبقناها على المجتمع العراقي لوجدنا بأن هذا المجتمع منذ عام ١٩٥٠ استطاع احراز درجة محسوسة من التقـــدم والتطور في النواحي الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية ولكنه لم يحرز نفس الدرجة من التقدم والتطور في النواحي الفكرية والمثالية والقيمية ،ولذلك فالتوازن الاجتماعـــي يصبح غير متكافيء . الاانا نستطيع القول هنا بأن المجتمع العراقي يستطيع احراز التقدم في شتى المجالات الحضارية والمادية والتكنولوجية[١٤] فيما اذا نجح بتحقيق التوازن الاجتماعي عن طريق احداث تغيرات في تركيب المجتمع .

وقد بدأ القطر العراقي يسير قدما نحو تحقيق التوازن الاجتماعي بفضل الخطط الحكيمة التي وضعتها القيادة السياسية في القطر فنلاحظ انهفيالوقت الذي تقوم فيه (السلطة) بأنشاء وتوسيع المصانع ، تركز اهتمامها ايضا على الجوانب الاخرى ، حيث انها بدأت تهتم بنشر الثقافة عن طريق دور الثقافـــة الجماهيرية ، كما انها اهتمت بالفنون وأولتها رعاية خاصة . اضف الى اهتمامها بالناحية التعلمية ، حيث انا نلاحظ محاولتها القضاء على الأمية في جميع انحاء القطر ، كما انها جعلت التعليم الزاميا ومجانيا لجميع المواطنين .

اثر القسم المادي من الحضارة على القسم المعنوي

لاشك ان الانسان اذا ما اهتدى الى اختراعات حديثة ومتطـــورة في المجال المادي ـ التكنولوجي ـ من حضارته فأن هذا ولاريب يعمل على تغيير عاداته وأساليبه ووجهة نظره في الحياة ، وقد زعزع اعتقاده بالقيم القديمة .

---

(١٤) بحث المشكلات الاجتماعية لعملية نقل التكنولوجيا ـ للدكتور احسان محمد الحسن من جريدة الثورة عدد ٢٩ والصـــادر بتاريخ ١٩٧٩/٥/٢٤ بغداد بحث القي في مؤتمر التنمية الاقتصادية (الكتاب) في ٢٦ شباط عام ١٩٧٩ !

ان اثر القسم المادي للحضارة كبير في القسم المعنوي منها ، فأن كان التبدل سريعا وجذريا اضطربت بنية المجتمع واختلفت مقاييسه .

لهذا يبدأ الناس في المقاومة الاجتماعية خوفا من حدوث تبدل فيما لديهم من قيم ومن تراث ، فيسود القلق ويعم الاضطراب[١٥] .

وسرعة التقدم المادي على التقدم المثالي والروحي والقيمي التي تحدث في الدول النامية وتسبب مشاكل وتحديات خطيرة يمكن ان تعالج معالجة ايجابية وذلك من خلال تسريع تغيير الجانب الروحي والقيمي للمجتمع كتغير عاداته وتقاليده وأفكاره التي يحملها ازاء المرأة مثلا او العمل الحر او الانتماء الديني او التعصب او الانتماء او الانحدار الطبقي ... الخ .

واذا ماتعادل التقدم المادي مع التقدم المثالي والروحي للمجتمع فأن المجتمع سيتخلص من معظم مشاكله وهمومه ، وهنا سيستطيع الفرد من تحقيق اهدافه وطموحاته التي هي أهداف وطموحات المجتمع الكبير . واذا ما استطاع المجتمع من تحقيق طموحاته القريبة والبعيدة الان فأنه سينتقل الى مرحلة حضارية متطورة تختلف عن المرحلة التي كان فيها سابقا .

---

(١٥) W. F. Ogburn, Social Change, University of Chicago, Chicago, p. 234. 1926.

المصادر العربية

(١) معجم العلوم الاجتماعية للدكتور ابراهيم مدكور سنة ١٩٧٥

(٢) علم الاجتماع للدكتور احسان محمد الحسن مطبعة اوفسيت بغداد ١٩٧٦

(٣) سلطان ناجي « مظاهر الحضارة القديمة في محاولة تطبيق التفسير التوينبي عليها » من مجلة افاق عربية العدد الثاني ، السنة الرابعة تشرين الاول سنة١٩٧٨

(٤) بحث المشكلات الاجتماعية لعملية نقل التكنولوجية للدكتور احسان محمد الحسن من جريدة الثورةعدد ٢٩ والصادر بتاريخ ٢٤/٥/١٩٧٩ بغداد .

(٥) د. عبدالجليل الطاهر . المشكلات الاجتماعية ـ مطبعة دار المعرفة ـ بغداد ١٩٥٣ .

المصادر الانكليزية/ـ

1. A. L. Beals Khoiser, The Macmillan Co., New York 1959. An Introduction to Anthropology, Third Edition.

2. W. F. Ogburn, Social Change, University of Chicago, Chicago, 1926. p. 234.

3. Community and Association (Gemeinschaft and Gesellschaft) By Ferdinand Tonnies, Translated and supplemented by Chal-res P. Lodmis, London, E. C. A. 1955.

4. Edited By Harry L. Shapiro, Man Culture and Society (London: Oxford Univ. Press 1971). p. 208.

5. Edited By Richard Kluckhohn Culture and Behaviour (New York the Free Press 1962) p. 25.

6. Mischa Titiev, Introduction to Cultural Anthropology (New York Henry Holt and Company 1959). p. 11.

من روائع العمـــارة الاســـلامية فى اليمن

القبة البكيرية فى صنعـــــاء

د . غازي رجب

كلية الآداب ـ جامعة بغـــداد

قسم الآثــار

لقد اتجه العثمانيون ـ بعد قيام دولتهم وتثبيت أركانها ـ شرقا وغربا لفتح البلاد وبسط سلطانهم عليها . وقد افلحوا في اخضاع مصر والشام وبلاد الجزيرة العربية بما فيها بلاد اليمن . الا انهم عجزوا عن تثبيت سيطرتهم على اليمن وبقيت سلطتهم مهزوزة بسبب المقاومة العنيفة التي ابداها اهلها . لكن لهذا لم يمنع العثمانيين من تشجيع الفنون والعمارة في البلاد التـي شكسوها حتى يضمنوا بقاء بصماتهم عليها ويصبغوا بطابعهم فنونها ويؤطروا عمارتها باسلوبهم المميز في هذا المضمار . لهذا فقد ازدهر على ايديهم طـراز فني متميز في معظم اجزاء امبراطوريتهم الهرمة التي دب اليها الضعف منـذ نهاية القرن الثاني عشر الهجري (١٨ م) .

وقد انشيء في اليمن خلال فترة السيطرة العثمانية عليها عدد من القلاع والاسوار التي استخدمت للدفاع ، كما بنيت القصور والمساجد ومنها القبة البكرية موضوع بحثنا هذا .

بنيت هذه القبة أصلا لتكون مدرسة ومسجدا وسميت بالبكرية نسبة الى بكير اغا احد مماليك الباشا حسن واحبهم اليـه[1] ، والذي شاءت له

---

١ ـ الحجري : مساجد صنعاء ص١٧ ، زبارة : ائمة اليمن بالقرن الرابع عشر ق١ ص١٤ .

الاقدار ان يسقط من فوق فرسه ويموت لحينه في ميدان قصر صنعاء ـ كما يروى ـ فرغب الباشا حسن بدفنه في المدرسة الا ان بعض خاصته اشار عليه ان يتركها مسجدا ويدفن بكير في مكان آخر خارجها فبني له قبة صغيرة الى جانبها لعلها الغرفة التي يؤدي اليها باب صغير من داخل المصلى[2] .

وقد أقيمت القبة على مقبرة دارسه رفعت منها عظام الموتى قبل بنائها[3] باشراف بكير نفسه[4] سنة ١٠٠٥ هـ (١٥٩٦ م ، كما هو مدون في حنية محراب القبة .

« وفي الفتح تأريخه   يلوح نورا ساطعا »

وسجله ايضا محمد بن عبدالله بن الامام شرف الدين بالشعر الآتي[5] :

شاد الوزير جامعا   يلوح نورا ساطعا

وقد اتى تاريخه   لكل خير جامعا

وبنى بكير الى الجوار القبة حماما[6] وبعض البيوت[7] جعلها وقفا عليها .. فكانت القبة وملحقاتها من أعجب المباني التي شيدت في اليمن أثناء حكم الاتراك العثمانيين فقد توجهت اليها الانظار وكتب في جمالها ومحاسنها في القرن الرابع عشر الهجري مفاخرات ومناظرات ومفاكهات منها « رسالة الطراز المذهب فيما بين البكيريه وجوامع صنعاء ومسجد المذهب » للقاضي علي صالح بن ابي الرجال (ت ١٣٣٥هـ / ١٧٢٢م)[8] . ويعكس بناء هذه

---

٢ ـ زبارة : ائمة اليمن ق١ ص١٤ ؛ يحيى غاية الاماني ق٢ ص٧٨٤

٣ ـ زبارة ائمة ق١ ص١٤

٤ ـ الجرافي : المقتطف من تاريخ اليمن ص٩١ ، يحيى : غاية ق٢ ص٧٦٩ .

٥ ـ الجرافي ص٩١ ، الحجري ص١٧ .

٦ ـ الجرافي : ص٩١ ، زبارة : ائمة اليمن ق١ ص١٤ .

٧ ـ زبارة : ائمة اليمن ق١ ص١٤

٨ ـ زبارة : نشر العرف م١ ص٦٨٣ ؛ م٢ ص٢٢٥

القبة ضآلة تأثير الاتراك الذين حكموا اليمن منذ القرن العاشر الهجري (١٦ م) على الفنون العمارية على الرغم من أنهم لم يألوا جهداً في سبيل تتريك هذه الفنون .

ومن أوسع الترميمات التي انجزت في هذه القبة هي التي أمر بها السلطان عبدالحميد بن عبدالمجيد خان . ففي سنة ١٢٩٨هـ / ١٨٨٠م اكمل الاتراك ترميم وتزويق المسجد[٩] وفرشه بالمفارش واضافة منبر رخامي جميل اليه وترخيم جميع صحن القبة[١٠] . وقد دون تاريخ الانتهاء على الباب الغربي للقبة هو ١٢٩٨هـ / ١٨٨٠م . وفي سنة ١٣٠١هـ / ١٨٨٣م توفي الوالي محمد عزت باشا ودفن الى جوار القبة البكيرية وعمر على قبره وكيله ـ المتصرف أحمد رشدي باشا ـ قبة شمالي الداخل الى صحن الجامع من الميدان[١١] .

وقد جرت على هذا المسجد ترميمات لم تخرجه عن طابعه الاصلي واخرها كانت في السبعينات من القرن العشرين .

المدخل

يتوسط جدار المسجد الغربي مدخل ضخم ذو قوس منبطح يؤدي الى صحن مستطيل طوله من الشمال الى الجنوب ٥ ر ٢٤ م وعرضه ٥ ر ٢٠ وعلى واجهة المدخل الخارجية مستطيل غائر واربعة اطباق زخرفية .

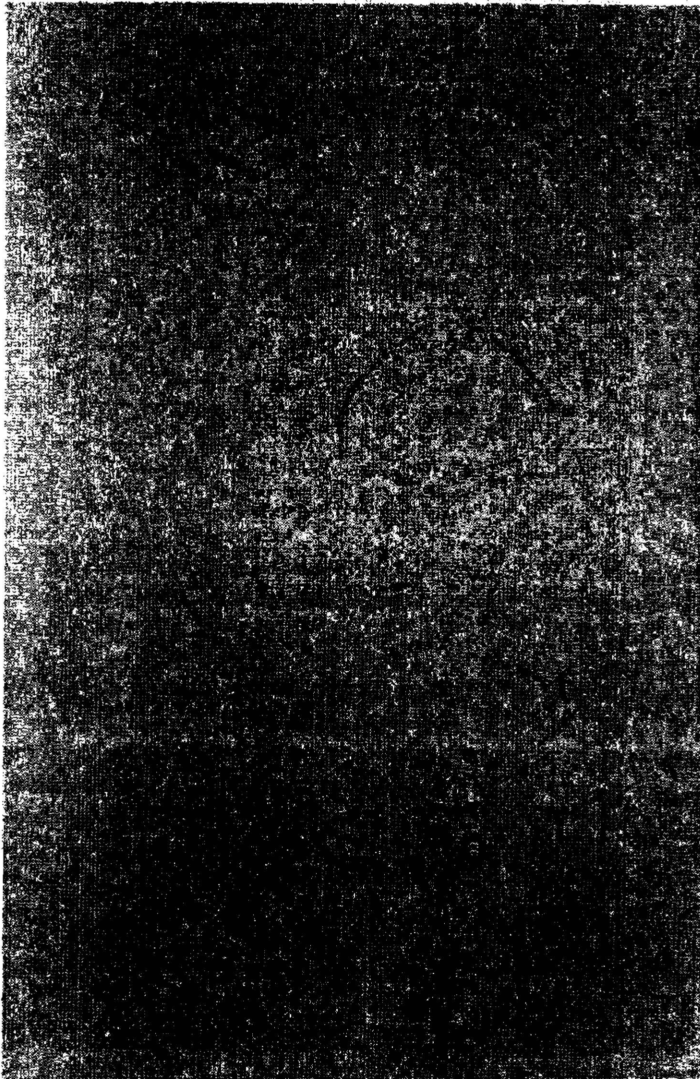
ويعلوا المدخل من جهة الصحن ومن الخارج قبة نصف كروية ترتكز في كل جهة على ثلاثة عقود : الشمالي والجنوبي فيها صغير مدبب مطول والشرقي والغربي منها أكبر وجميعها تبدأ ببروز جميل ومبنية بصنج زوجية

٩ ـ زبارة : ائمة اليمن ق١ ص ١٤ Scott, In the High Yemen, p. 125.

١٠ ـ الحجري ص١٧

١١ ـ زبارة : ائمة اليمن ق١ ص ٢٠ ؛ الجرافي ٩٧

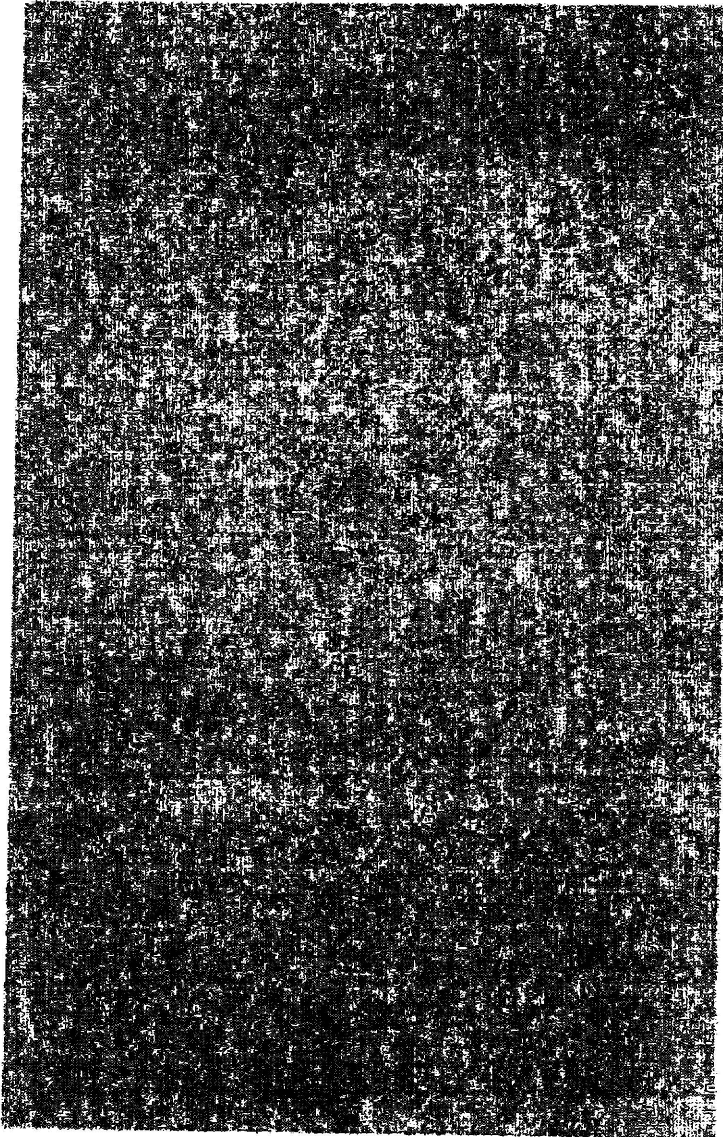
بالونين الاسود والابيض بالتناوب وتؤلف هذه العقود بمجموعها قاعدة مربعة طول ضلعها حوالي ٥ر٧ متر اعلاها الى مثمن يحمل القبة ويعلو واجهاتها شرفات مفصصة تسعة منها في كل ضلع عدا شرفات الاركان (شكل ١ وشكل ٢) •



(شكل ١) المدخل من الخارج

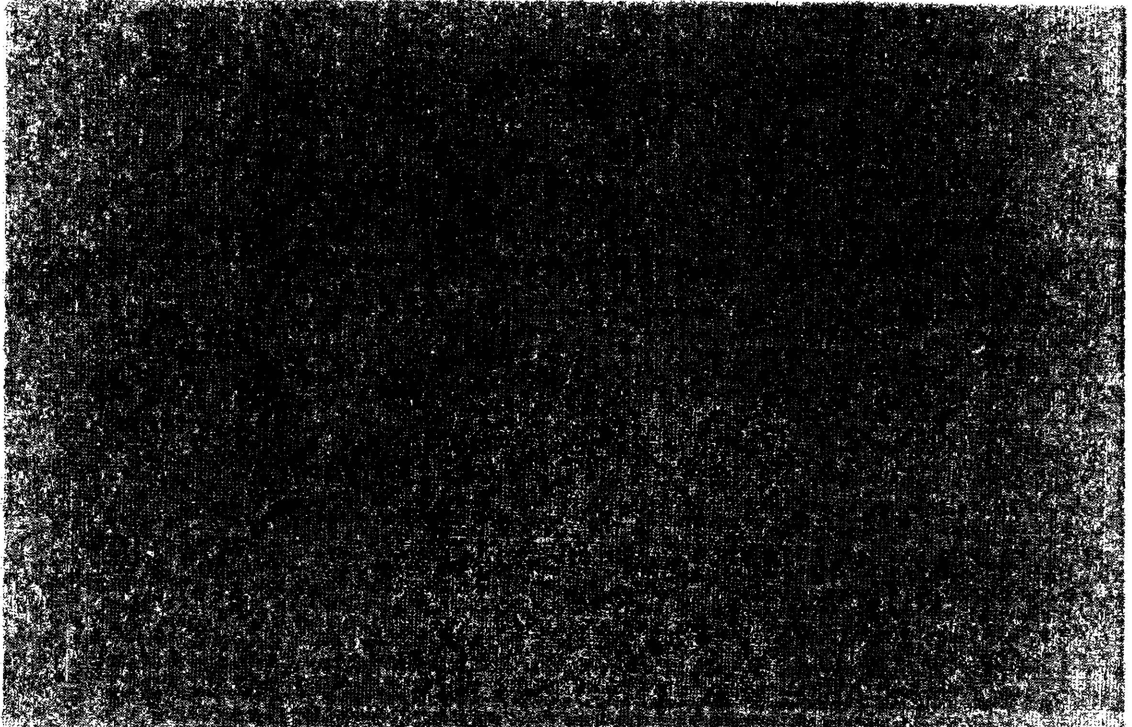
الرواق الامـامي

يتقدم بيت الصلاة رواق كبير عرضـه حوالي ٢٠ م وعمقه حوالي ٦٫٥ متر مفتوح على الصحن بثلاثة عقود قائمة على عمودين من الحجر الاسـود يعلو كل منهما تاج كأسي .



(شكل ٢) المدخل من الصحن

ويغطى سقف هذا الرواق ثلاثة قباب جميلة كسي باطنها بزخارف جصية دقيقة الحفر أجملها يغطي القبة الوسطية منها على شكل طاقات مسطحة فيهما زخارف نباتية وهندسية وكتابات (شكل ٣) •



(شكل ٣) الرواق الامامي

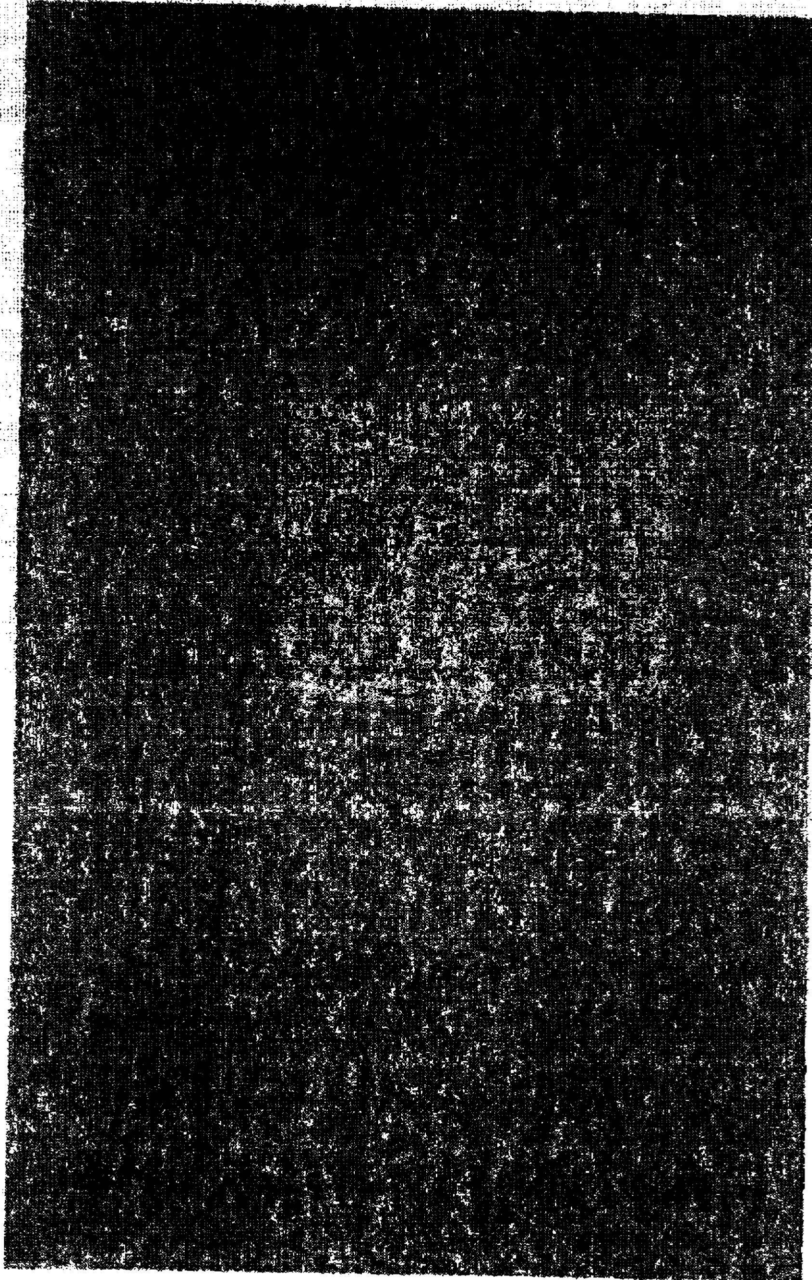
وارضية الرواق مرتفعة تغطيها الواح الرخام ويقطعها ممرين منخفضين يؤديان الى بابي المصلى عرض كل منهما من الخارج ١٫٤٨ م ومن الداخل ٣٫٠٦ م ولكل منهما قوسان العلوي منهما مفصص مغلق يتوسطه في الباب الشرقي لوح رخامي عليه طغراء بأسم السلطان عبدالحميد وكلمة « الغازي »

الى جانبه (شكل ٤) ـ ويتوسط قوس الباب العربي لوح مشابه عليه شعرا يؤرخ اتمام تعمير المسجد (شكل ٥)

ذا جامـع تعمـيره جامـع   للفتـح والنصر لـذاك النجيـب

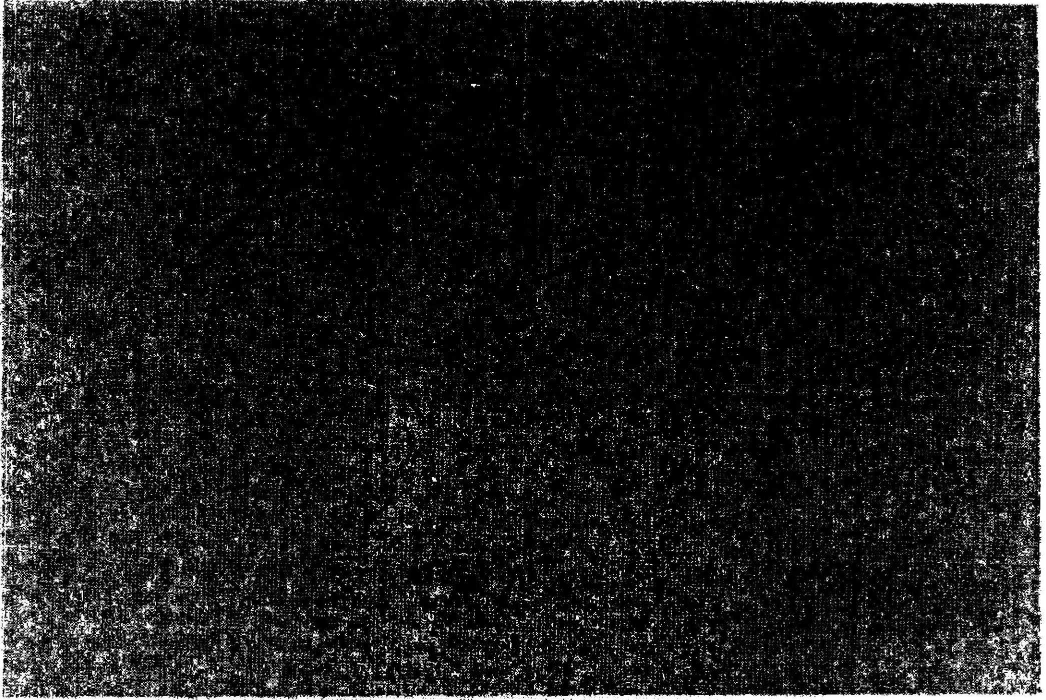
عبدالحميد الذى سلطاننـا   سيف رسول الله ذاك الحبيب

لذا أتى تاريـخ اتمامـه   نصر من الله بفتح قريـب



(شكل ٤) المصلى : المدخل الشرقي

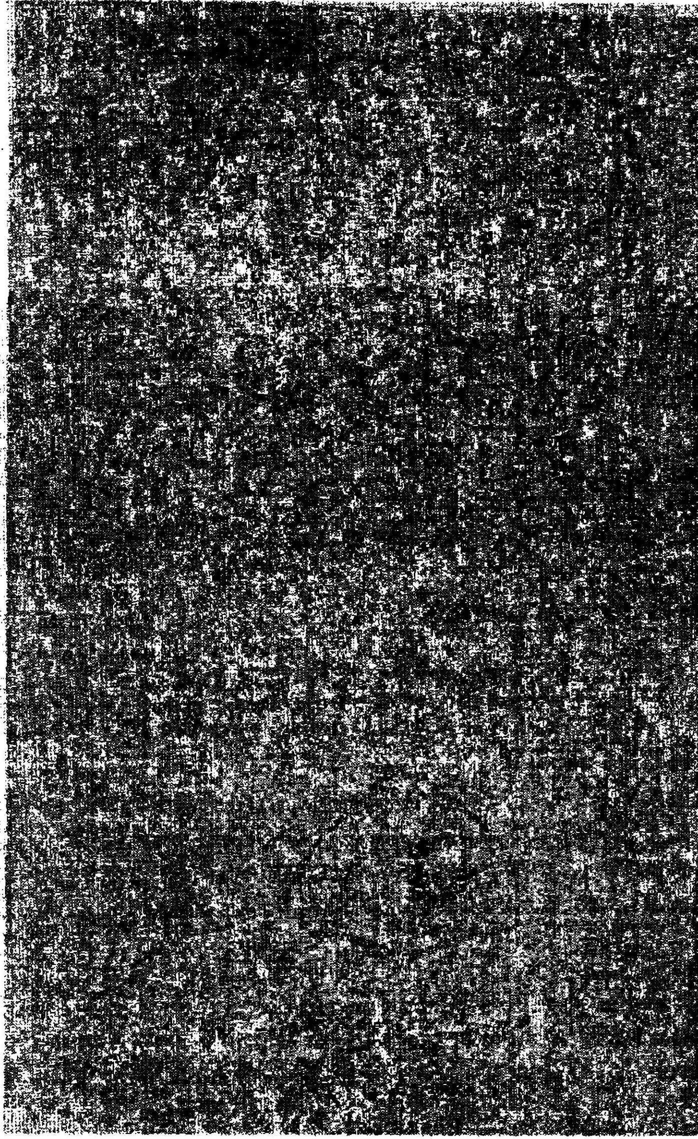
ويزين هذين المدخلين من الداخل زخارف محفورة حصيرية ولجذولة وجامات متعددة الاشكال غاية في الروعة والجمال وفي اعلاها شـــرافات (شكل ٦) •



(شكل ٥) المصلى : قوس المدخل الغربي

وفي الجدار الجنوبي للمصلى أربعة شـبابيك كبيرة تطل على الرواق احدها في أقصى الشرق والثاني في أقصى الغرب وشباكان في الوسط ويعلو هذه الشبابيك ومدخلي المصلى شريط عريض داخله البسملة وآية الكرسي •

وفي الجدار الشرقي لهذا الرواق باب صـغير كان يؤدي الى المئذنـة القريبة منه على الغالب • اما الجدار الغربي ففيه فتحة تطل الى الضريح المجاور خارج المسجد •



(شكل ٦) مدخل المصلى من الداخل

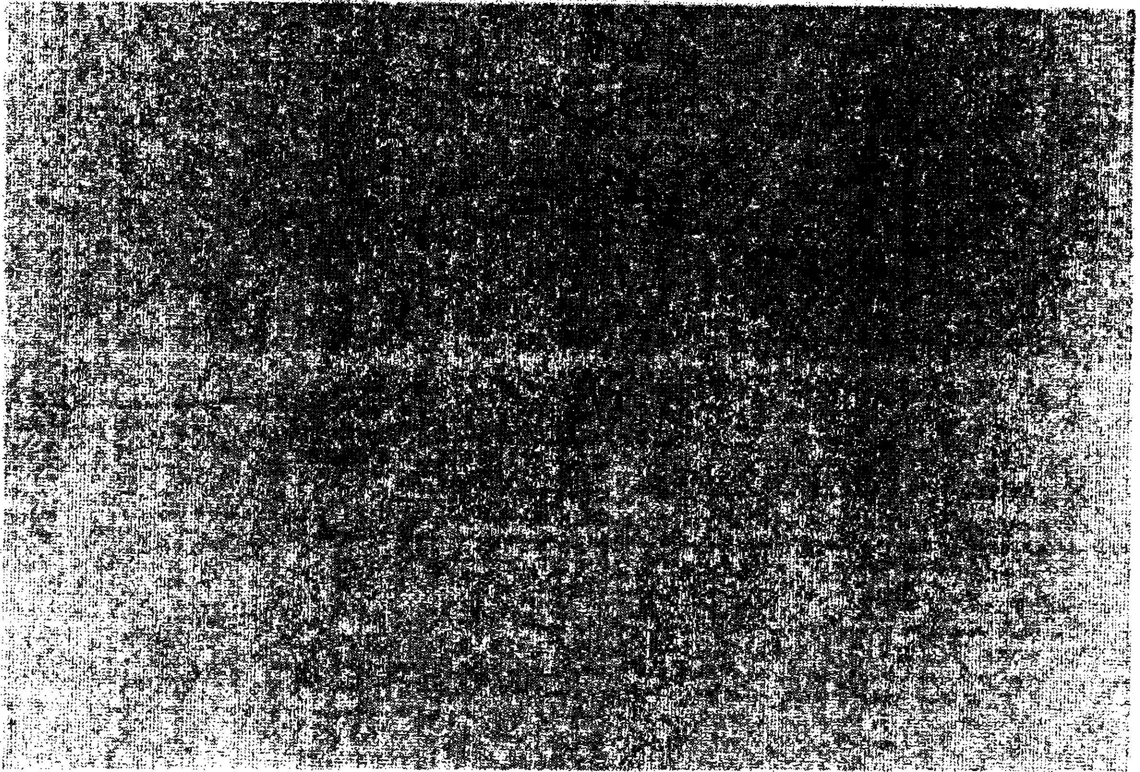
الأبواب الخشبية لبيت الصلاة

وعلى مدخلي المصلى باباذ خشبيان متشابهان يتكون كل منهما من مصراعين متشابهين وينقسم ثلاثة أقسام : العلوي منها حشوة كبيرة مستطيلة الشكل تتوسطها مطرقة معدنية ذات قاعدة مخرمة ويعلو هذه الحشوة ويدنوها شريط معدني ذو زخارف مخرمة وبارزة • أما القسم الاوسط فيتكون من حشوات صغيرة مثلثة الشكل ومعينة مجمعة الى جانب بعضها

لتكون اطباقا نجمية واخرى مثمنة جميلة .. أما القسم السفلي فشبيه بالقسم العلوي الا انه خال من الزخارف المعدنية ومن المطرقة وهذه الاقسام الثلاثة مصفحة من الداخل بلوحين خشبيين داخل اطار محفور . اما قائم الباب فهو بطول المصراع الايسر الذي يتصل به وشكله نصف اسطواني الجزء العلوي والسفلي منه مستطيل الشكل .

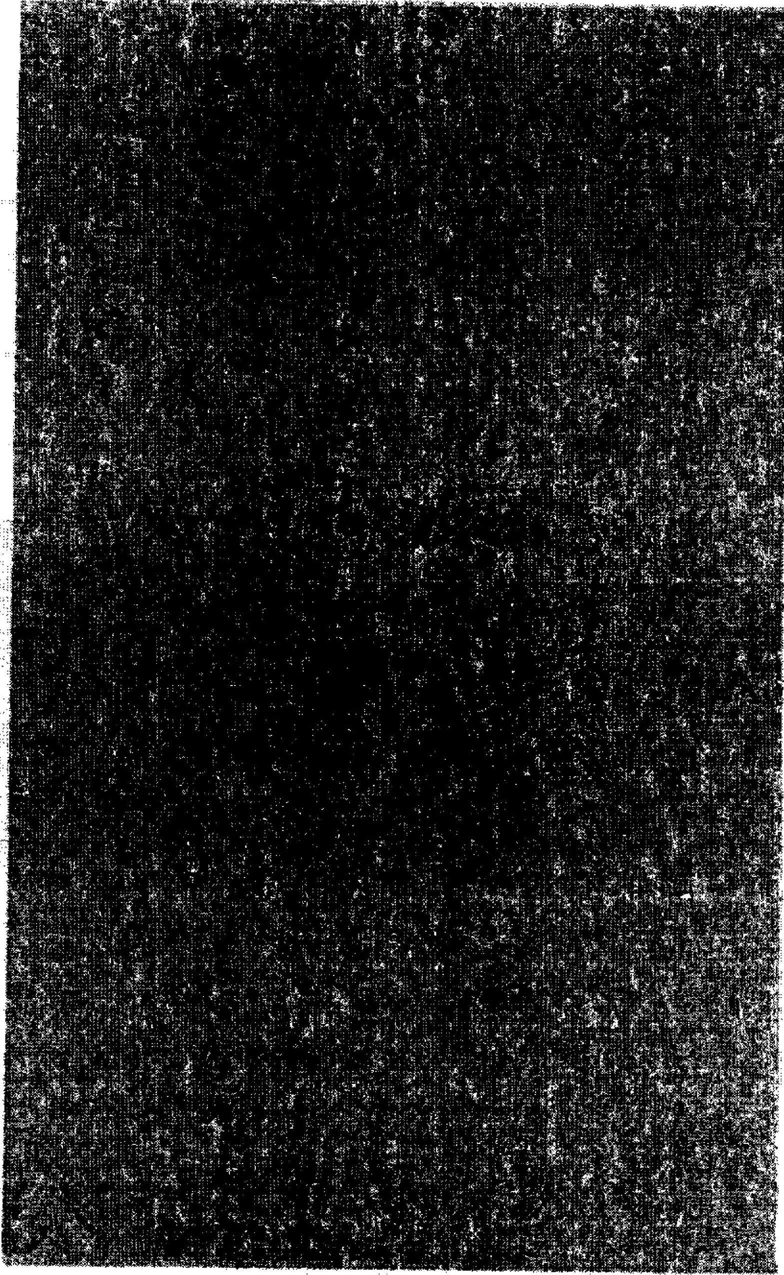
المصلى

والمصلى قاعة ضخمة مربعة الشكل طول ضلعها حوالي ١٧٫٢٥ م - وبواسطة حنايا ركنية كبيرة حول الجزء العلوي منها الى مثمن أقيم فوقه قبة ضخمة نصف كروية مغطاة بالقضاض يتوجها ثلاث كرات معدنية قائمة على قاعدة معدنية مضلعة ويعلو الجميع هلال معدني - شكل ٧ - .



(شكل ٧) الباب المصلى من الخارج

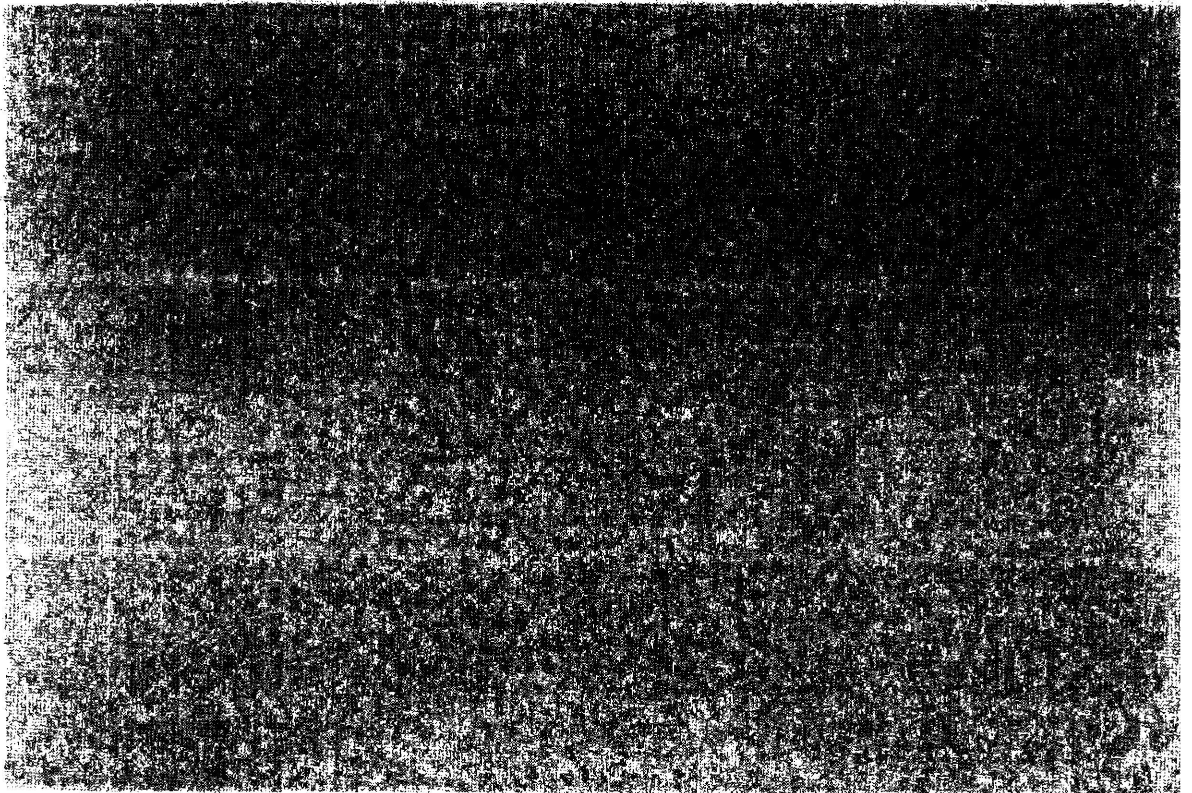
وفي الحنايا الركنية مقرنصات زخرفية من سبعة حطات بارزة على شكل نوافذ وعقود صغيرة مزخرفة بالالوان المائية يحيطها اشرطة مسننة ويتوجها زخرفية نباتية من زهرتين متناظرتين واغصان ملتفة • والشكل العام لهذه المقرنصات ستارة مدلاة ومربوطة من الاسفل (شكل — ٨) •



(شكل ٨) المقرنصات الركنية

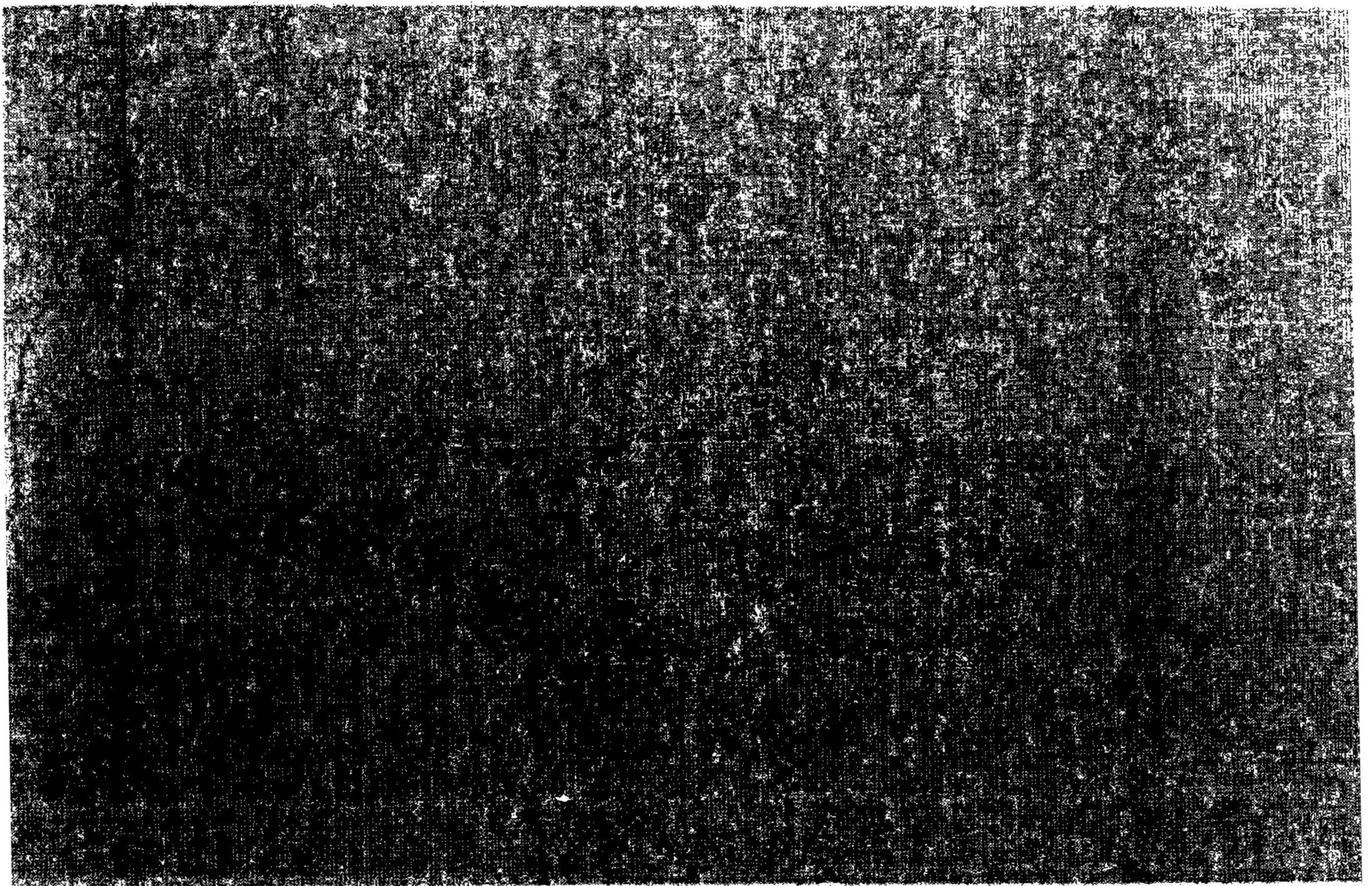
وقد رسمت أقواس الحنايا الركنية بالالوان على شكل صنج متلاصقة وكذلك اقواس متناظرة على الجدران مع اعمدتها • وفوق هذه العقود تقوم الرقبة التي تحمل القبة وهي ذات شكل دائري من الداخل ومثمنه من الخارج في كل من اضلاعها شباكان عقداهما مدببين وكل نافذة مغطاة من الخارج بستائر خشبية (مشربيات) لا زالت اثار بعضها باقية في الجدار الغربي ومن الداخل ثبت في اعلاها ستارة جصية مخرمة مطرزة بالزجاج الملون وأسفلها الواح زجاجية كبيرة داخل اطارات خشبية من الشكل الشائع في العصر التركي العثماني ويحيط بهذه الشبابيك اطار زخرفي ورسوم بالالوان والجص ويزين المسافة بين كل شباكين وكذلك كوشات العقود زخرفة بالالوان أساسها ورقة الاكانتس وطبق دائري داخل اطار مضلع •

ويعلو الشبابيك شريط زخرفي على شكل شرافات يعلوه زخرفة رائعة تتكون من آنية جميلة قائمة على قاعدة مستطيلة تلفح بانواع الفواكه (شكل ٩) •



(شكل ٩) الاقواس المرسومة والنوافذ والاشرطة الزخرفية داخل المصلى

اما قمة القبة فيزينها جامة كبيرة نجمية الشكل وفي وسطها زهرة كبيرة داخلها كتابة بخط الثلث تتضمن البسملة وآية من القرآن الكريم ويملاء الجامة كلها زخارف نباتية متشابكة غاية في الروعة تدل على مهارة الفنان وبراعته في انجازها وفي استخدام الظل واللون لابرازها مجسمة (شكل ١٠) ، وداخل العقود وفوق الباب المفتوح في الجدار الشرقي زخرفة نباتيه تتكون من غصنين متقابلين بينهما زهرة كأسية كبيرة ..



(شكل ١٠) قمة القبة من الداخل

ويتدلى من باطن القبة حلقات وسلاسل معدنية تحمل ثريا ضخمة تتكون من اطار معدني ذي اثني عشر ضلعا داخله اطار اخر ذي ثمانية أضلاع علق به قناديل زجاجية بينها بيض للنعام اربعة منها في الاطار المثمن وستة في الاطار الخارجي .

وفي جدران المصلى نوافذ كبيرة (٢ × ٢٥ر١م) على ارتفاع متر واحد تقريبا اثنان منها في جدار القبلة وشباكان في الجدار الغربي واربعة شبابيك في الجدران الجنوبي وشباكان آخران في الجدار الشرقي داخل الرواق الداخلي وهذه الشبابيك تتشابه مع بعضها في التخطيط العام فهي ذات فتحات مستطيلة يعلوها قوس أصم فوقه افريز مستطيل ويحيط بالجميع اطار يعلوه صف من الشرفات المتصلة به • اما التفصيلات الزخرفية ففيها تنوع واختلاف وتتكون عموما من عناصر نباتية وهندسية وكتابية اضافة الى زخرفة خاتم سليمان التي أقبل عليها الفنانون في اليمن اقبالا شديدا •

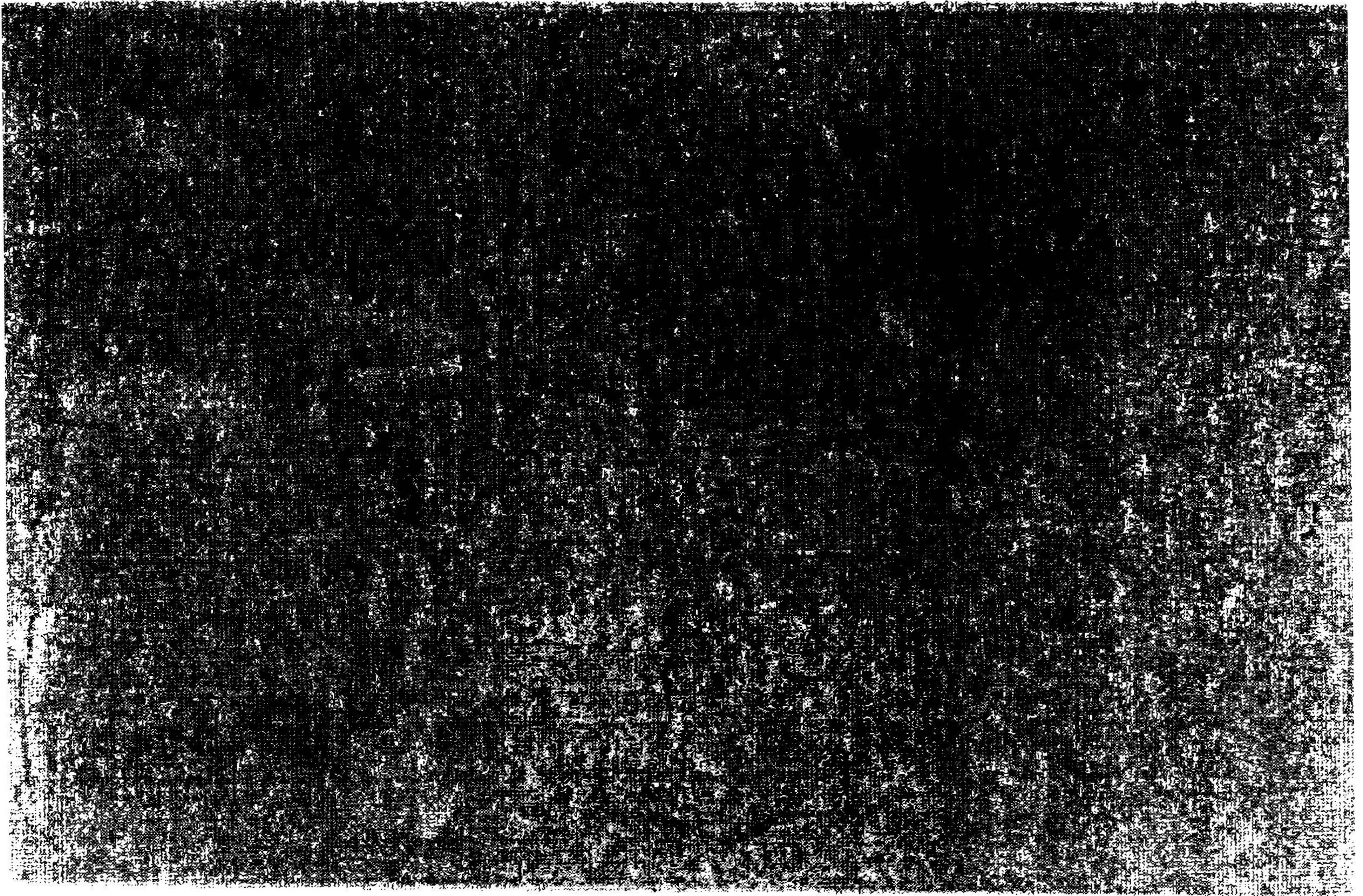
والفتحة الخارجية لهذه الشبابيك مغطاة بمشبكات معدنية ويزينها من الداخل عقود صماء متنوعة الاشكال ويغطيها بابان احدهما خشبي والاخر زجاجي والى جانب هذه الشبابيك بنيت في الجدران رفوف صغيرة تغلق بابواب خشبية صغيرة ••

الرواق الداخلي

وفي النصف الجنوبي من الجدار الشرقي للمصلى رواق عمقه ٥٨ر٥ متر ويطل على المصلى بعقدين مدببين فتحة كل منهما حوالي ٢٠ر٤ م ويرتكزان على دعامة ضخمة مثمنة الشكل يعلوها تاج مربع في كل من زواياه ثلاثة مقرنصات

وداخل هذا الرواق قوس ثالث يرتكز على الدعامة من جهة وعلى الجدار الشرقي من جهة أخرى يقسم الرواق الى قسمين اقيم فوق كل منهما قبة بعد ان حولت قاعدتها الى مثمن بواسطة مثلث كبير في كل زاوية • ويتدلى من سقف القبة الشمالية منهما فانوس غريب كبير مثمن الشكل تعلوه رمانات صغيرة وعليه زخارف محفورة ••

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الرواق كرسي خشبي جميل شكله ربع دائرة لعله استخدم في الارشاد والقاء الدروس في هذا الجزء من المسجد (شكل ١١) .



(شكل ١١) الرواق الداخلي

المحراب

ويتوسط الجدار الشمالي من المصلى محراب مجوف بديع الشكل يعتبر لوحة فنية نادرة في بنائه وزخرفته يحيط به اطار جصي قليل البروز تتوجه صورة قبة صغيرة قليلة الارتفاع على الطراز العثماني في بناء القباب رسمت بالألوان ويعلوها رسم ثلاث كرات وهلال واسفلها خط عريض داخله كتابات وصور نجمية اسفله في كل من زاويتي واجهة المحراب اشعة كبيرة اضافة الى أشعة دائرية صغيرة في الوسط .

وحنية المحراب آية في الروعة والجمال عرضها ٢ر٢٠ م على كل من جانبيها عمود ارتفاعه ١ر٣٥ م تعلوهما نصف قبة مخروطة مقرنصة بخمسة حطات وتنتهي في اعلاها بنصف قبة صغيرة مضلعة .. وتبدأ هذه الحطات على شكل أقواس صغيرة كتب داخلها بعضا من أسماء الله الحسنى ويتدلى منها رسوم ستائر مربوطة الاطراف وأسفل هذه الاقواس أفريز كتابي شعري داخل جامات مربعة نصه :

وزير كريم غــدا   حبا أفاض النــدا
فكم عابد زاهــد   به ود ان يعبــدا
وفي فتح كل الممالــ   ـك أحيى وأفني العدا
واشراق نور القبـول   لهم فيه صدقا بــدا
بنــى جامعــنا للا   لـه وطرزه عسجدا
وفي الفتح تاريخه   تراهم ركعا سجــدا

وأسفل هذه الابيات جامة نصها « تاريخ تعمير هذا الجامع اللامع سنة ١٢٩٧ غازي عبدالحميد ثاني » وعلى جانبيها وأسفلها رسوم ستائر جميلة بطياتها ذات الطبيعة البيزنطية لونها عاجي وطياتها باللون الرماني الجميل ونرى ألوانا أخرى منها الازرق والذهبي والرمادي وغيرها فوق الارضية والمقرنصات والاقواس والكتابات تجعل من هذا المحراب تحفة فنية نادرة (شكل ١٣) .

ويوجد عند جدار القبلة شمعدان ضخمان كل منهما قائمة على ضخم من البرنز الاصفر لعلهما يرجعان الى زمن السلطان عبدالحميد .



(شكل ١٢) المحراب

المنبر

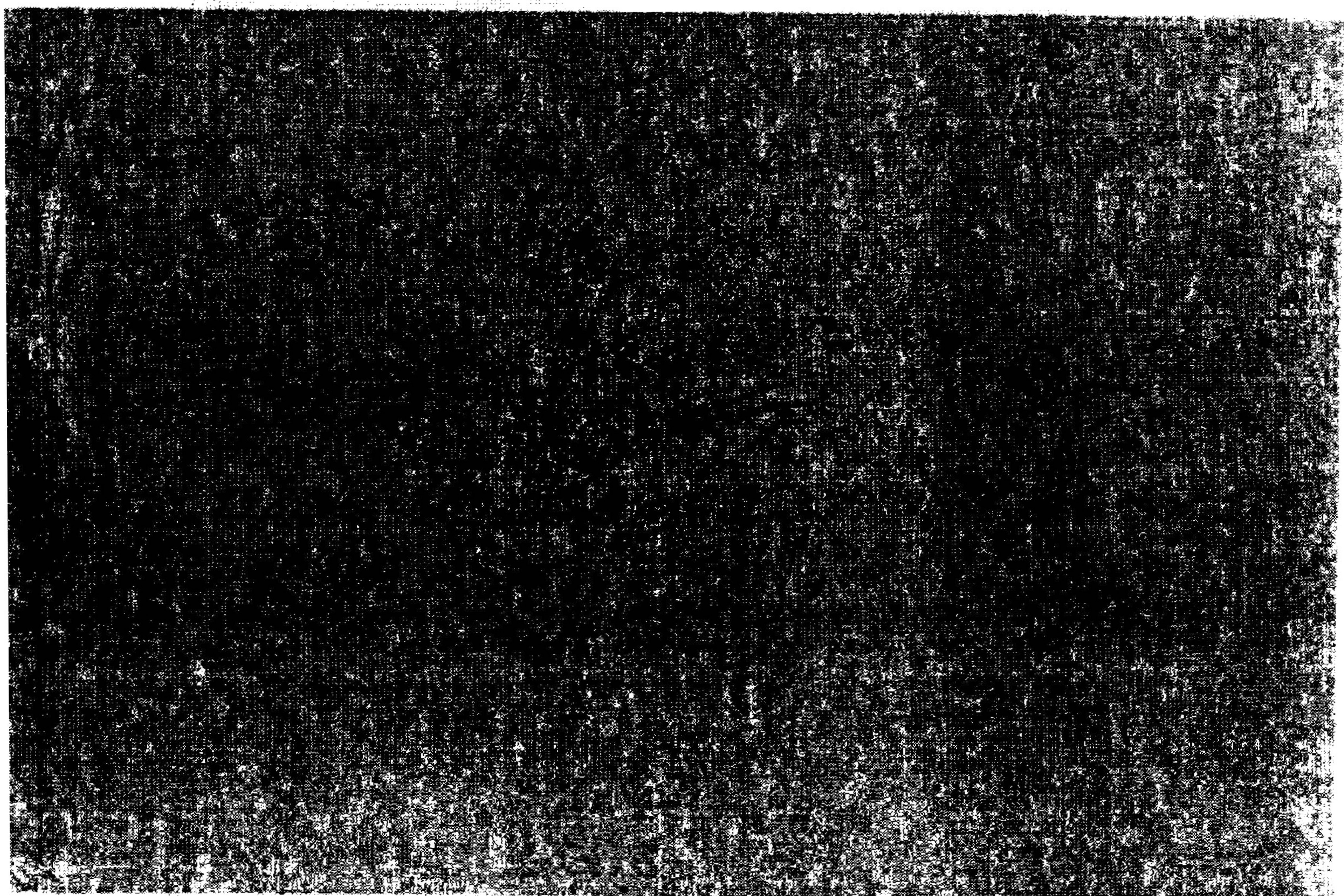
والى يمين المحراب منبر رخامي رائع طوله ٣٫٠ وعرضه ١ م وارتفاعه مع السياج المحيط بالمقعد ٥ ٣ م ويقوم على قاعدة مرمرية طولها ٣٫٤٥ م وتؤدي اليه عتبتان الاولى بعرض القاعدة التي تحمل المنبر والثانية بعرض المنبر نفسه وترتفع فوق الاولى حوالي ١٠ سم (شكل ١٣) ٠



(شكل ١٣) المنبر

وارتفاع فتحة مدخل المنبر ١ر٧٥م وعرضها ٦٨سم على كل من جانبيها قائم من الرخام نحت في زاويته الخارجية عمود مضلع صغير يعلو القائمين تويجة حجرية من قطعة واحدة منحرفة على شكل قوس مدبب ويعلو هذه التويجة حشوتين من الترنسات الجميلة تعلوها ثلاثة شرافات الوسطى منها كبيرة وفيها كتابات .

ويؤدي مدخل المنبر الى سلم من تسعة درجات ومقعد على كل من جانبيه سياج رخامي طوله ٢٫٩٥ م وعرضه ٥٩ سم مخرم باشكال سداسية تحيطها وحدات مسدسة مكونة أطباقا نجمية مكررة وعلى كل من جانبي المنبر زخرفة رئيسة تتكون من مثلث كبير قائم الزاوية يتوسطه شـــكل مربع ذو زخرفة مخرمة جميلة يتوسطها قبة بارزة مضلعة يزين قمتها زهره كبيرة (شكل ١٤) وبناء المنبر مجوف وذلك واضـح من خلال الزخارف المخرمة ومن البابين الصغيرين المفتوحين في جانبيه وارتفاع كل منهما ١٫٤٤ م وعرضه ٤٤٫٥ سم يعلوه قوس مدبب صغير يرتكز على قائم حجري في كل من جانبيه •



(شكل ١٤) جانب المنبر

ويعلو مقعد المنبر قبة رخامية مثمنة الاضلاع مخروطية مدببة شبيهة بقمم المآذن العثمانية وهي غاية في الجمال عليها كتابات نسخية بأسماء الله

الحسنى وزخارف هندسية وتتوجها كرة معدنية وهلال وهي قائمة على أربعة عقود صغيرة مدببة محمولة على اعمدة صغيرة متمنة الشكل ارتفاع كل منها متر واحد ـ عدا تاجه وقاعدته ـ ويحيط بأسفل القبة شرافات عليها زخارف محفورة رائعة .

وعلى مدخل المنبر باب خشبي رائع جدا مغطى بالزخارف ويتكون من مصراعين بينهما قائم خشبي يتصل بالمصراع الايسر وكل من المصراعين يتكون من ثلاثة حشوات الوسطية منها مستطيلة يعلوها ويدنوها حشوة مربعة ..

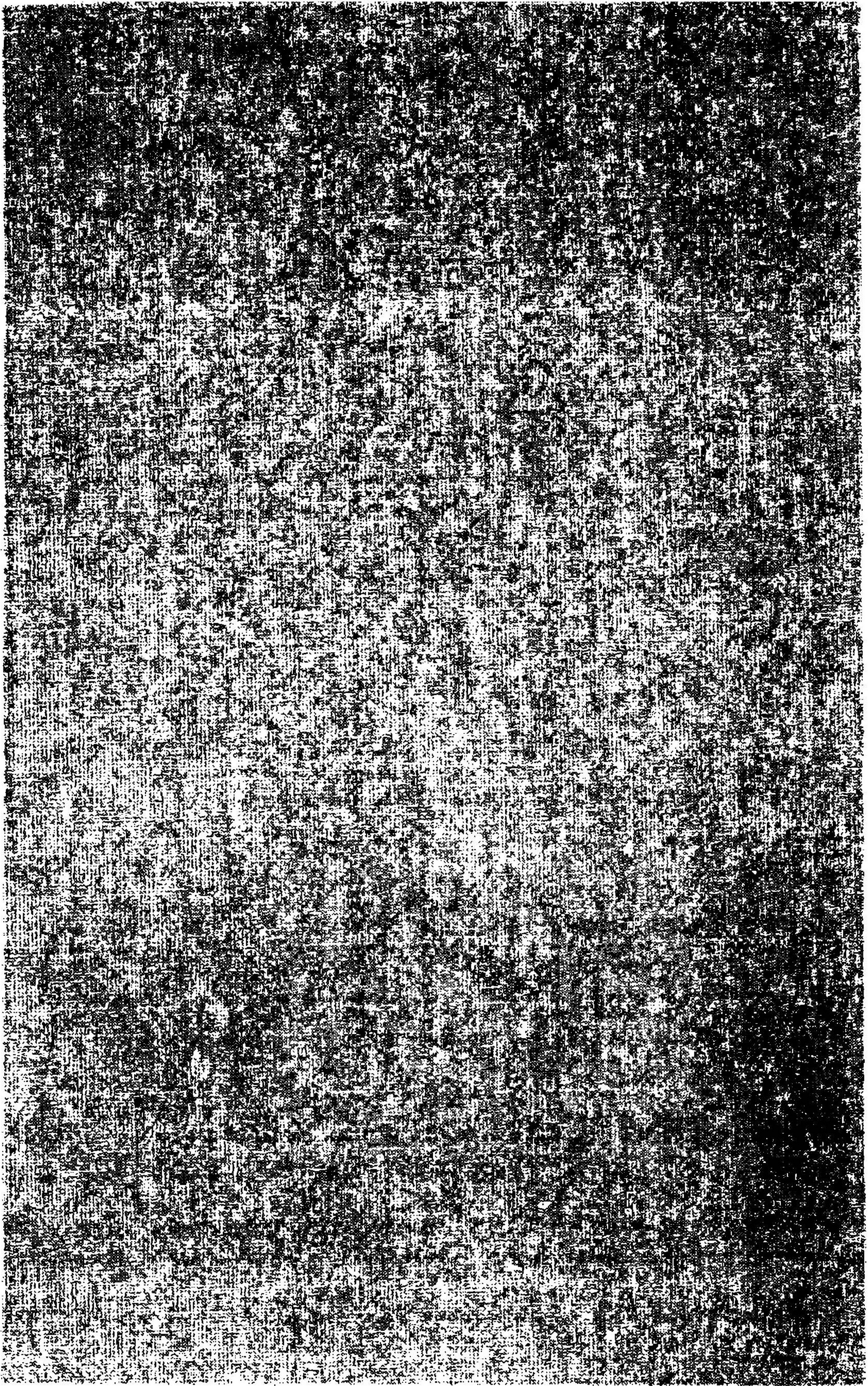
والحشوة المربعة زينت زواياها بعقد ذو ثلاثة فصوص وفي وسطها نجمة نباتية يحيطها زهرات مرسومة باللون الذهبي على أرضية يغلب عليها اللون الاخضر الفاتح ، أما الحشوات المستطيلة فيزين اعلاها واسفلها قوس مفصص تتوسطها زهرة اللوتس وتغطيها زخارف شبيهة بزخارف الحشوات المربعة . ويحيط بهذه الحشوات اطارات عليها زخارف نباتية على أرضية ذهبية داكنة ويتصل بالمصراع الايسر للباب قائم خشبي جميل مغطى بالزخارف الدقيقة .

وزخارف هذا الباب كلها مدهونة بطريقة اللاكية (اللك) التي ازدهرت في ايران بين القرنين السادس عشر والثامن عشر ونجد مثالا طيبا لهذا الاسلوب في باب قصر جهل ستون في اصفهان يرجع الى نهاية القرن السادس عشر او بداية القرن السا عشر[1] وقد يغطى الخشب بطبقة رقيقة من الجص تزخرف بالالوان المائية ثم تغطى بطبقة من هذه المادة لحمايته من التلف واكسابه لمعانا جميلا[2] شكل ـ ١٥) .

---

(١) زكي محمد حسن : اطلس الفنون الزخرفية شكل ٣٩٦ .

٢ ـ مرزوق : الفنون الزخرفة الاسلامية في العصر العثماني ص١٦٥ و ص٢١٤

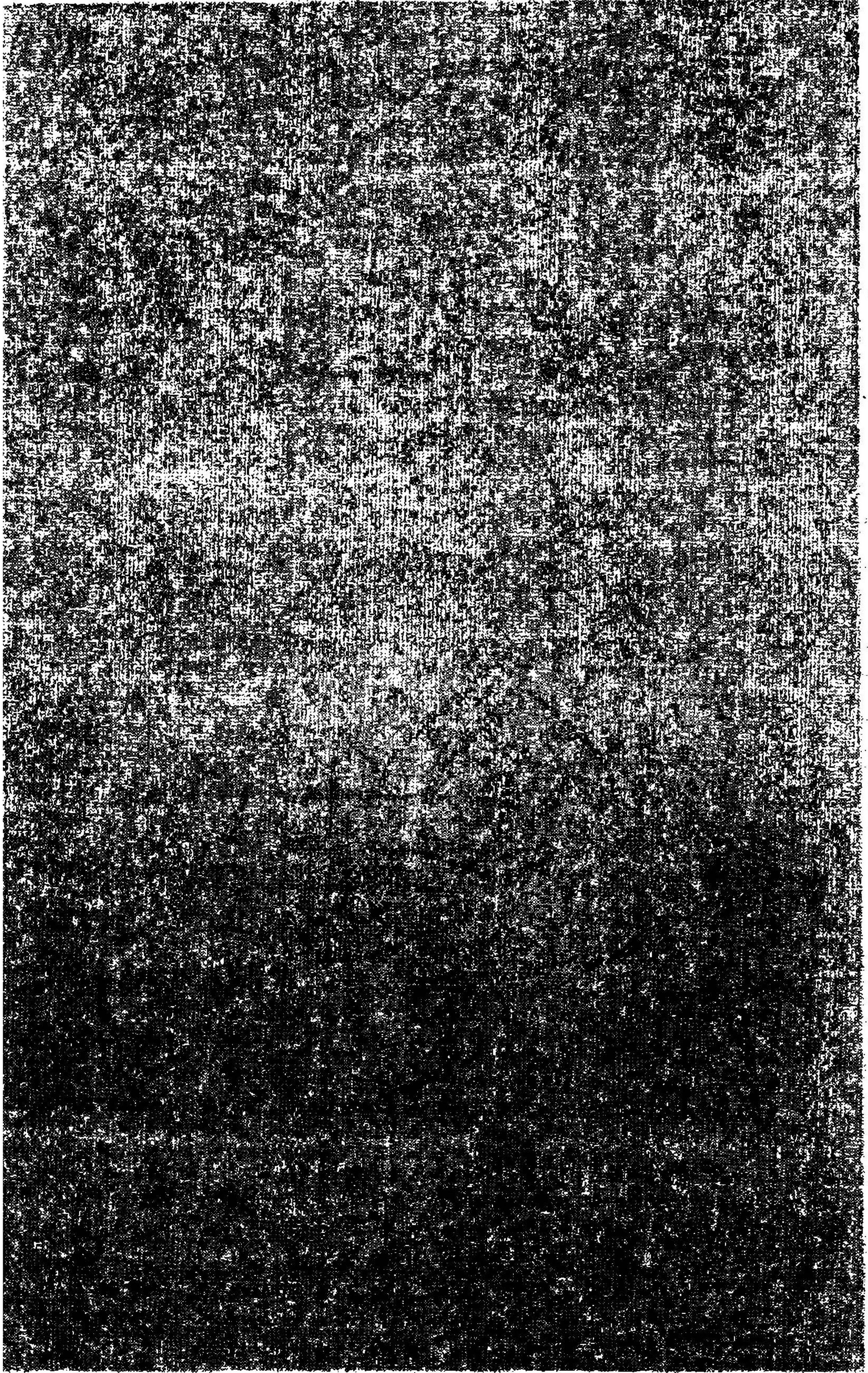


(شكل ١٥) باب المنبر

المكبرية

وبين مدخلي بيت الصلاة من الداخل تقوم المكبرية (دكة المبلغ)ملاصقة للجدار الجنوبي وتستند من الامام على ثلاثة أعمدة رخامية تحمل أربعة أقواس مقصوصة يزينها رسوم نباتية بالالوان المائية ويؤدي الى المكبرية سلم من داخل الشباك الواقع غربي المدخل الشرقي لبيت الصلاة بني في سمك الجدار الجنوبي

ونهايته على شكل حنية غائرة في الجدار اما الستارة المحيطة باعلى المكبرية فهي مخرمة شبيهة بستارة منبر المسجد (شكل ١٦) •



(شكل ١٦) المكبرية

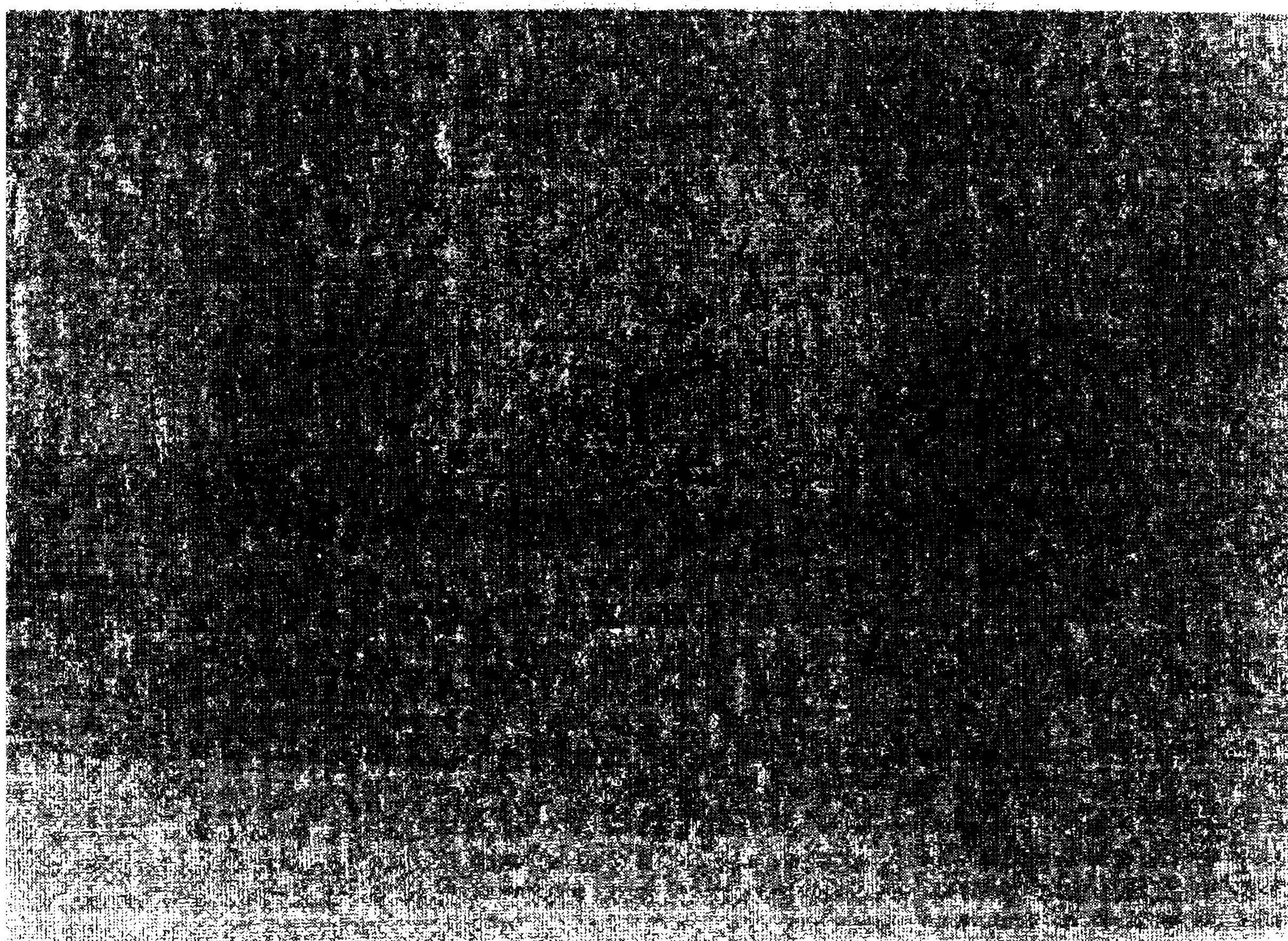
المطاهر

تقع على طول الضلع الجنوبي للصحن وترتفع أرضيتها عنه ويؤدي الى مدخلها في الجهة الغربية سلم يتكون من درجتين تؤديان الى استراحة مربعة فوقها عتبة الباب وساحة صغيرة يعلوها عقدان منبطحان ثم فسحة مستطيلة وخمسة درجات توصل الى الداخل ••

ويغطي سقف المطاهر أربعة قباب نصف كروية تقوم كل منها على قاعدة مربعة من جدران وعقود كبيرة مدببةمحمولة على دعائم قصيرة وفي أركانهما الاربعة مثلثات كبيرة تحولها الى مثمن ترتكز عليها القبة •

وفي الجدار الجنوبي أسفل كل قبة نافذتان جميلتان ممدودتان ـ بصفائح الرخام الشفاف (قماري) وثلاثة وحدات للوضوء يؤدي اليها مدخلان يسبقهما ممر عريض يمتد أسفل القباب ويؤدي الى باب اخر في الجهة الشرقية يخرج منه المتوضيء الى الصحن •

ونلاحظ في الجهة المطلة على الصحن مجرى مغطى بقبو جملوني طويل كان ينقل الماء للمتوضئين من عشرين فتحة صغيرة في الاسفل (شكل ١٧) •

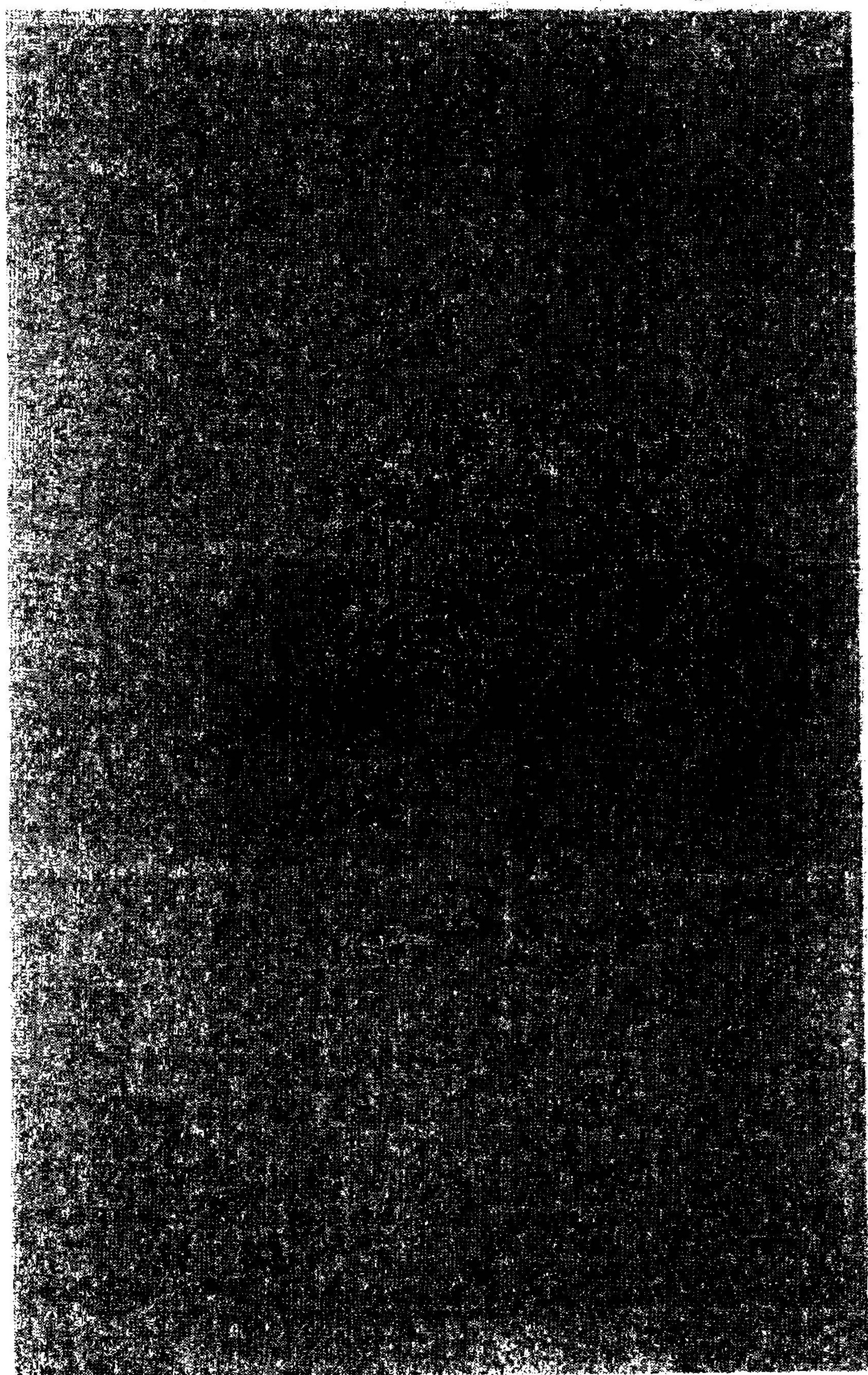


(شكل ١٧) المطاهر من الخارج

المئذنـــة

وتقوم المئذنة مستقلة عن جدران المسجد قرب الزاوية الجنوبية الشرقية من الرواق الخارجي وتتكون من قاعدة ضخمة ذات مقطع مربع بني النصف

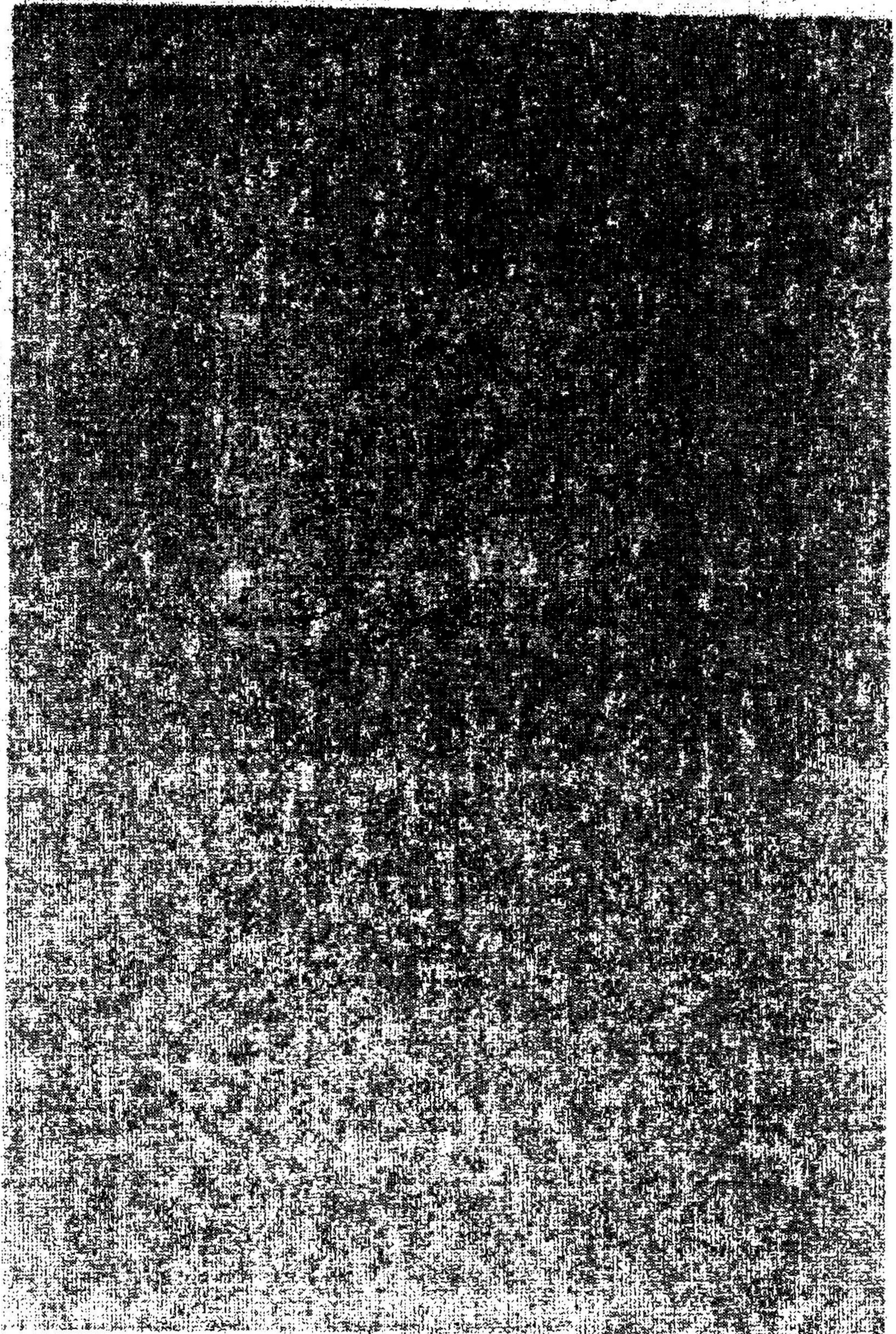
السفلي منها بالحجارة وباقيها بالآجر زين أدناها بجدليه كبيرة يعلوها في ضلعيها الجنوبي والغربي طاقات صماء داخلها كتابات قرآنية ويعلو الطاقات سلسلة من العقود الصغيرة أسفل بروز منشوري يعلوه شريط كتابي من الجهات الاربعة ونهاية القاعدة مقرنصات مثلثة مرصوصة أسفلها زخرفة آجرية تشبه عظام السمك (شكل ١٨) ويعلو القاعدة بدون آجري مزخرف بالجص ، الجزء السفلي منه مثمن فتح في الجهة الشرقية منه باب صغير وبقية البدن ذو ١٦ ضلعا



(شكل ١٨) قاعدة المئذنة

يزين الجزء العلوي منه أسفل شرفة المؤذن تجويفات صغيرة داخلها عناصر زخرفية متناوبة وشـــرفة المؤذن تستند على مقرنصـات مثلثة من خمســة حطات تزين ستارتها عقود صماء داخلها اشكال معينات هندسية •

ويعلو شرفة المؤذن بدن صغير ذو ستة عشر ضلعـا مزينة بطاقات غائـرة مزدوجة العلوية منها ذات عقود مفصصة مفتوحة تتناوب مع طاقات صماء • ويتوج المئذنة قبة صغيرة مضلعة يعلوها هلال معدني وفتح في الجهة الشرقيه منها باب يؤدي الى شرفة صغيرة تحيط بالقبة ومحاطة بشرفات تشبه شـرفات مدخل المسجد (شكل ١٩) •



(شكل ١٩) بـدن المئذنـة

ولا يخفى على الناظر ميلا الى جهة الشمال في بدن هذه المئذنة نرى مثله في مئذنة مسجد الامام صلاح الدين المجاور للبكيرية ولعل لطبيعة الارض ، وللعوامل الجغرافية أثرها في هذه الظاهرة ،

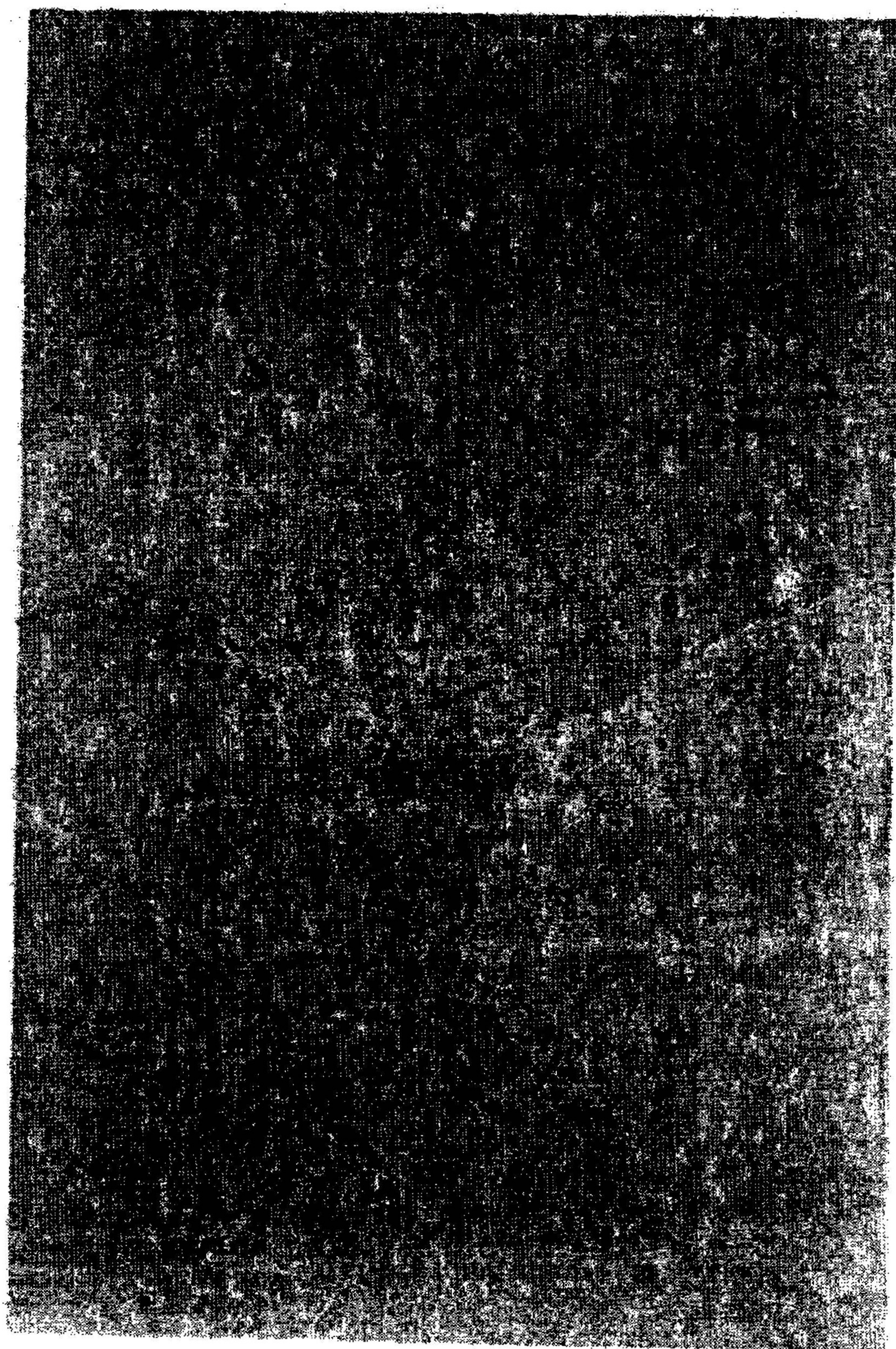
والملاحظ ان المآذن التي بنيت في اليمن قد حافظت على طرازها الاصيل ولم تتأثر بالطراز العثماني ـ ذا الشكل المدبب المشسوق ـ الذي تأثرت به معظم الاقطار ألتي خضعت للسيطرة العثمانية ..

الاضرحة

في المسجد ثلاثة غرف تمثل أضرحة لاشخاص دفنوا فيها على عادة المسلمين في الدفن قرب المساجد ، ففي الجدار الشرقي داخل المصلى باب صغير (٣٨ ر ١ × ١ م) مرتفع عن أرضيته تحيطه رسوم نباتية بالالوان المائية تعلوها كتابات وتؤدي الى غرفة كبيرة تعلوها قبة ضخمة لعلها ترجع الى زمن بناء المسجد وانها كانت مدفنا لبكير ،

وعلى جانبي المدخل الرئيس للمسجد غرفتان آخريان تتصلان بالجدار الغربي من الخارج وتتشابهان في المظهر الخارجي : الشمالية منهما مربعة الشكل يتوسط ضلعها الجنوبي باب جميل (منسد) يعلوه اطار مستطيل قد يكون مزينا بكتابة رفعت بعد بناء الغرفة وعلى كل من جانبي المدخل شباك كبير (منسد) يظهر من خلال ثغرة صغيرة في احدهما القسم العلوي من هذه الغرفة وقد حول بواسطة حنايا ركنية الى مثمن أقيم فوقه قاعدة مثمنة ترتكز عليها قبة باطنها خال من الزخرفة واقيم فوق الاركان الاربعة للغرفة حول القبة مسلة صغيرة قليلة الارتفاع مربعة الشكل فوقها قبة صغيرة نرى مثلها حول قبة المصلى وفي الجدار الغربي لهذه الغرفة نوافذ مستطيلة تعلوها زخرفة نجمية بالحجر الاسود وفي الجدار الشرقي نافذة تطل على الرواق الامامي داخل البكيرية وفي جدارها الشمالي ثلاثة محاريب مجوفة الاوسط منها جميل يغطي الجزء العلوي

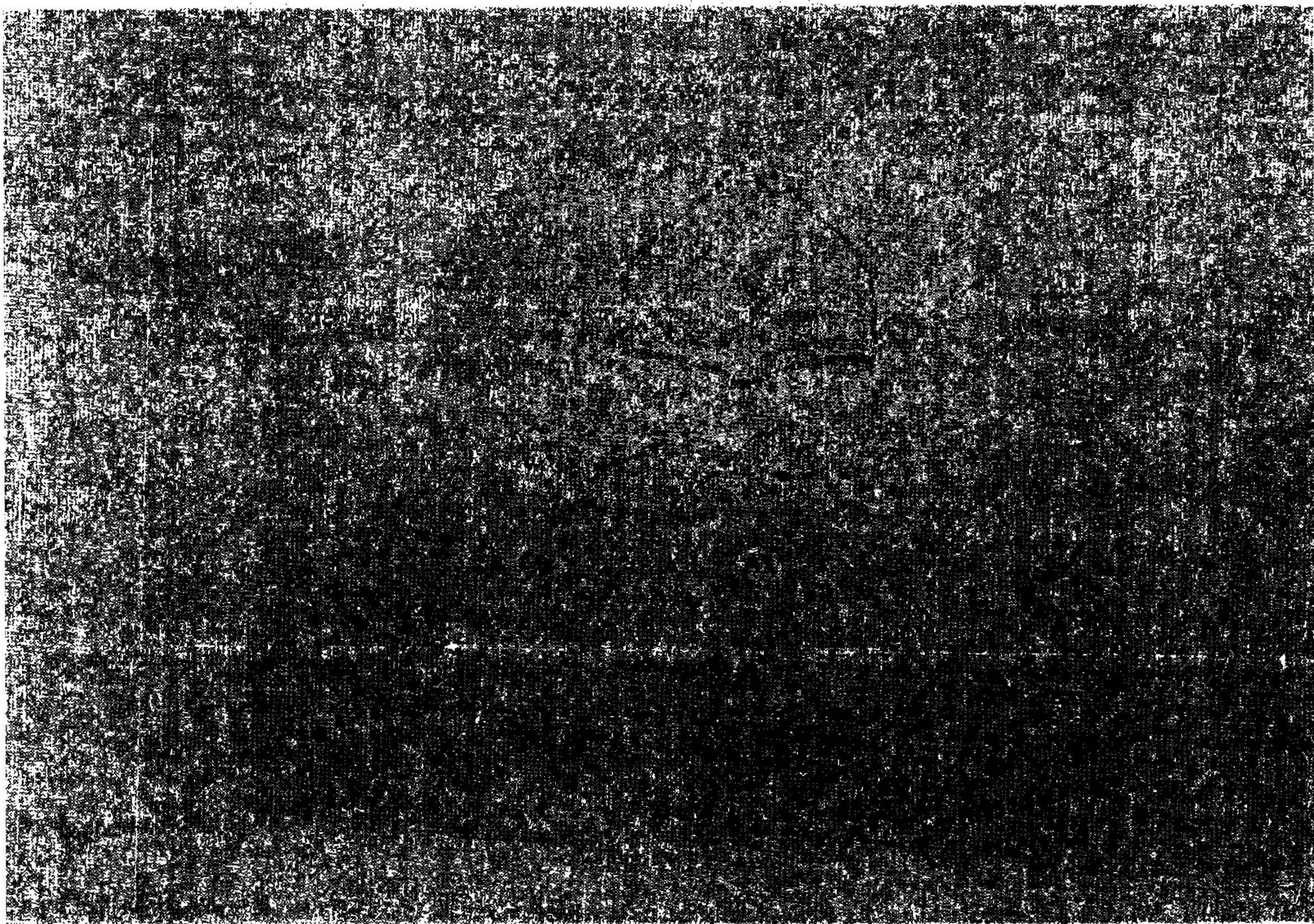
من حنيته ستارة جصية مخرمة مملوءة بالزجاج سقطت عن المحرابين الاخرين ويعلو المحاريب الثلاثة ازار كتابي جميل حفر على الجص • وعلى أرضية هذه الغرفة قبور قليلة الارتفاع ربما يعود احدها للوالي محمد عزت باشا المتوفي سنة ١٣٠١هـ والذي شيد عليه المتصرف أحمد رشدي باشا هذه القبة (شكل ٣٠)



(شكل ٢٠) الضريح الشمالي

أما الغرفة الثانية (الجنوبية) فقبتهـا أكثر ارتفاعا من الاولى تزين باطنها زخارف بالالوان المائية شبيهة بزخارف قبة المصلى ففيها زخارف نباتية وهندسية ومناظر طبيعية وآنية فيها الزهور والفواكه والخضـر بالوان طبيعية جذابة ولعل هذه الغرفة ترجع الى الترميم والبناء الذي تم في زمن السلطان عبدالحميد (سنة ١٣٩٨) .

ونلاحظ في الغرفتين الاخيرتين تشابها كبيرا في طريقة البناء والتخطيط وفي المظهر العام الا ان القبة الجنوبية اكثر ارتفاعا ويدعم اركان قبتها دعائم ترتفع قليلا عنها كما ان زخارفها أكثر شبها بزخارف الالوان المائية داخل المصلى (شكل ٢١) .



(شكل ٢١) الضريح الجنوبي

العناصر المعمارية والزخرفية

تعتبر القبة البكيرية نموذجا لتخطيط المساجد التي عني الاتراك العثمانيون ببنائها في الاقطار التي خضعت لهم .. هذا النموذج يتكون من قاعة كبيرة

تغطيها قبة ضخمة يسبقها رواق مفتوح على الصحن تلحق به تربة او ضريح يضم رفاة أسرهم وحاشيتهم •

اما قباب المسجد فهي تختلف عن الشكل المألوف للطراز العثماني الذي تمتاز به قبابه بانخفاضها وزيادة عددها واختلاف اشكال بنائها بين انصاف قباب وارباع قباب تجاور القبة الكبيرة الرئيسة • فالمصلى في هذا البناء تغطيه قبة واحدة ضخمة لا تستند الا على جدران سميكة حدا أعدت لتحمل ثقلها الهائل •

اما المآذن التركية العثمانية فتمتاز برشاقتها وطولها وتدبيها وقد ساد هذا الطراز الاقطار التي خضعت لنفوذ العثمانيين الا ان مئذنة البكيرية تختلف كليا عن هذا الطراز واحتفظت بطابعها المحلي اليمني •

وعلى عادة العثمانيين في توجيه عنايتهم الى داخل المساجد دون خارجها نجد واجهة البكيرية بسيطة وخالية من الزخارف •

ومما يستدعي الانتباه ان القبة البكيرية كانت خالية من الترخيم ــ الذي أقبل عليه العثمانيون انذاك ــ الا الصحن الذي بلط بالواح رخامية والمنبر الانيق الجميل الذي رخم باللونين الاسود والابيض المائل الى الزرقة ••

وقد عني العثمانيون بالزخارف الجصية وبالالوان المائية دون الزخرفة بالقاشاني التي كادت تكون منعدمة هنالك على الرغم من اقبالهم عليها في الاقطار الاسلامية الاخرى ••

ويبدو ان الترميمات والتجديدات التي أنجزها السلطان عبدالحميد في هذا المسجد كانت مقتصرة بالدرجة الرئيسة على ترخيم الصحن وبناء المنبر وعلى الزخارف المرسومة بالالوان المائية وتلوين المحفور منها •• وهذه الزخارف المرسومة نجدها على المحراب وفوق العقود الكبيرة والاعمدة المرسومة على الجدران والحنايا الركنية وفي باطن القبة كما نجدها أيضا حول مدخل الضريح في الجدار الشرقي من المصلى وفوق مقرنصات الحنايا الركنية وفي مواضع أخرى من هذا المصلى اضافة الى جدران الضريحين الخارجيين وباطن قبة الضريح الجنوبي منهما •

وتأثر العثمانيون بأساليب الفنون الاوربية نتيجة للاتصال الوثيق بينهما وهذا التأثير بدا واضحا جليا في الزخارف المنجزة بالالوان المائية وخاصة في رسوم الانية والفواكه وبعض النباتات وفي ظهور البعد الثالث (التجسيم) في الرسم •

وقد دأب العثمانيون شأنهم شأن كل مستعمر بغيض بالتأثير المباشر في أساليب العمارة والزخرفة ولم يألوا جهدا في سبيل نقل أسلوبهم الفني الى الاقطار التي رزحت تحت نير نفوذهم الا ان تأثيرهم في اليمن كان محدودا وما قبة البكيرية الا مثالا حيا وتجسيدا رائعا لشموخ العربي الابي واعتزازه بطابعه المميز •••